الرثاء فى شعر حافظ ابراهيم

دراسة موضوعية موازنة

الدكتور

مصطفى مصطفى البسطويسى عطا

كلية الدراسات الاسلامية والعربية

للبنات بالمنصورة

١٩٩٢ م

الناشر

دار أبو الفضل للطباعة

٥٠ ش المأمون ـ محب ـ المحلة الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم

« رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي . إني تبت إليك وإني من المسلمين »

صدق الله العظيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد النبي العربي الأمين وعلى آله وصحبه والتابعين .

وبعد

فمما لاريب فيه أن التراث العربي من الشعر يعد من أثمن ما احتفظت به الأمة العربية من آثار . وقد عرف العرب من قديم قيمة هذا التراث فعكفوا على حفظه وصيانته وتدوينه . وقد أصابوا في ذلك وجه الصواب : فالشعر سجل خالد لحوادث الأمة العربية وحمى تاريخها ومناط عزها . وهو وثاق يحمل بين طياته مجد الأمة العربية ويدون نشاط بنائها الحضاري في مجالات العلم والأدب والفكر والثقافة .

ومن منطلق الحفاظ على هذا التراث الشعري وتعريف الأجيال المقبلة بقيمة هذا التراث وما فيه من كنوز وجواهر وقيم فنية . فكرت في كتابة هذا البحث حول غرض شعري احتل مساحة كبيرة من ديوان شاعر من شعراء العرب الكبار الذين وفقوا في تسجيل أروع الحوادث في مصر والعالم العربي وتمجيد رجالها إبان العصر الحديث وعهد الاحتلال فيه . هذا الغرض هو غرض الرثاء . أما الشاعر فهو حافظ إبراهيم شاعر النيل .

وفن الرثاء من أهم الموضوعات الشعرية التي أكثر الشعراء العرب من القول فيها على مدار العصور الأدبية منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث . فقد شغلت قضية الموت قرائح الشعراء وأثارت عواطفهم فعبروا عن شعورهم تجاه من اختطفه الموت وجاءت أشعاركل منهم معبرة عن الوجدان الفردي أو الجماعي تجاه قضية الموت وقضايا الكون الكبرى .

ولم يقتصر الشعراء في قصائدهم على تصوير قضية الموت والحديث عن المرثي بل تجاوزوا دلالة الحدث الفردية إلى البحث عما وراء هذا الحدث من كل ما

يتصل بماهية الموت والإنسان وحقيقة الوجود والعدم بجانب تصوير اللوعة والأسى والحزن مؤيدين ذلك كله بضروب من الحكمة التي تلخص قضايا الكون والحياة
وفن الرثاء من أهم فنون الشعر في ديوان حافظ إبراهيم ، حتى لقد تفوق فيه على كثير من شعراء عصره .

ولقد رثى حافظ كل من اتصل به في حياته بشعر امتلأ بالإحساس وصدق العاطفة . وقد طبعه يتمه المبكر وفقره وعسره على الحزن والبكاء . ولذا فقد كان حافظ سريع التأثر شديد الانفعال وتركت له طفولته التعسة رصيداً من الحزن العميق الذي كان يتفجر بقسوة إذا خطف الموت أحداً من أصدقائه أو ممن كانت تربطهم به علاقة ود ومحبة . فكان يعبر عن حزنه العميق بشعر مؤثر معبر عن عاطفة صادقة فجاء رثاؤه تبياناً لخلال الشاعر وصفاته الطيبة ولوعة تعتصر القلب من الحزن على الأيام المواضي التي نعم فيها بصداقة أحد المرثيين أو بعلاقته بهم .

كما تأتي أهمية هذا الغرض في شعر حافظ إبراهيم من أنه - في كثير منه - يعد ترجمة صادقة عن مشاعر وطنية نبيلة امتلأ قلب قائلها بحب مصر فتغنى بمآثر أهلها وعدد مناقب عظمائها وبناة حضارتها ومجدها ، واتخذ من شعره هذا وسيلة للتغني بمجد مصر وحضارتها عن طريق بكاء أبطال مصر ورجالها العظماء .

وقد ركزت جهدي في كل فصول هذا البحث على إبراز كل هذه المعاني وتوضيحها وضرب الأمثلة على كل منها .
هذا وقد جاء البحث مكونا من تمهيد ومبحثين .

أما التمهيد فقد جعلته في حياة الشاعر والحديث عن شعره وتحدثت عن بعض ما يخص حياة حافظ من مولده حتى وفاته ، وعن بعض ما يخص شعره من موضوعات وخصائص .

والمبحث الأول جاء مكوناً من ثلاثة فصول : الفصل الأول في رثاء الأدباء والعلماء في شعر حافظ إبراهيم ، وتحدثت فيه عن قيام حافظ بواجب الوفاء لرجال

العلم والأدب فى مصر والعالم العربى .

والفصل الثانى فى رثاء الوطنيين ورجال السياسة فى شعر حافظ إبراهيم وتحدثت فيه عن رثاء حافظ لزعماء الوطنية والسياسة فى مصر فى العصر الحديث وتمجيده لما قاموا به من أعمال وبطولات من أجل رفعة شأن مصر ورفع راية الحرية والكرامة على أرضها .

والفصل الثالث فى بيان السمات والظواهر الفنية لشعر الرثاء عند حافظ إبراهيم ولخصت فيه أهم الظواهر الفنية وخصائص الشكل والموضوع فى شعر حافظ فى فن الرثاء .

أما المبحث الثانى فجعلته فى الموازنة بين ما قاله حافظ وما قاله بعض الشعراء المعاصرين له فى رثاء بعض الشخصيات الأدبية أو العلمية أو السياسية . واخترت لعقد هذه الموازنة تسعاً من الشخصيات التى اشترك حافظ فى رثائها مع بعض شعراء عصره ، وجعلت الموازنة بين شعر حافظ وشعر شوقى فى هذا المجال هو عماد هذه الموازنة باعتبار أنهما أكبر شعراء العصر الحديث بجانب اشتراكهما فى أشياء كثيرة ابتداءً بتقارب مولدهما وانتهاءً بتقارب وفاتهما .

وقد اعتمدت فى إعداد هذا البحث على مراجع كثيرة ذكرتها فى نهاية البحث مرتبة حسب الترتيب الأبجدى . كما ذيلت البحث بفهرس لموضوعات البحث وأهم النقاط التى اشتمل عليها .
وقد حاولت جهدى أن يخرج هذا البحث من بين يدىّ فى أحسن صورة وأبهاها . وتحدثت عن حافظ وشعره فى الرثاء كما رأيته ورآه غيرى من بعض الأدباء . وعملت جاهداً على أن أعطى القارىء صورة واضحة عن هذا الفن من غير ميل إليه لم يكن حقيقاً به ولاتحيف عليه لم يكن لى حق فيه .

على أنى لا أعفى كتابى هذا من التقصير غير المتعمد . وأبادر فأعتذر عما وقعت فيه من زلات وهنات . والذى يشفع لى هو أن كتابى هذا لايعدو عن كونه

محاولة لدراسة غرض شعرى عند شاعر من شعراء العربية الكبار وعسى أن يأتى من هو أفضل منى فى هذا المجال ويكشف للقارىء ما لم أتمكن أنا من كشفه وتوضيحه فى هذا الموضوع .

وإنى إذ اقدم كتابى هذا بين يدى القارىء أرجو أن ينتفع به كل من يطلع على ما ضمه بين دفتيه من موضوعات .

وأدعو الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعل هذا البحث لبنة صالحة فى صرح أدبنا العربى الشامخ . كما أسأله ـ سبحانه ـ أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يكون مقبولاً نافعاً . فهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

« وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » .

الدكتور

مصطفى مصطفى عطا

فى يوم الخميس ٢٧ من جمادى الآخرة ١٤١٢ هـ

الموافق ٢ / ١ / ١٩٩٢ م .

التمهيد

فى التعريف بالشاعر وشعره

ويشتمل على مبحثين :

الأول : التعريف بالشاعر والتعرف على حياته .

الثانى : التعريف بشعر حافظ إبراهيم .

المبحث الأول التعريف بالشاعر والتعرف على حياته .

مولده ونشأته :

هو محمد حافظ بك إبراهيم فهمي . ولد في حراقة مذهبة كانت راسية في نهر النيل بالقرب من قناطر ديروط ، كانت ملكاً لمحمود سليمان باشا من كبار سادة الصعيد . وأهدى محمود باشا هذه الحراقة إلى والد الشاعر مقابل توفير المياه لرى أراضيه الواسعة - وكان والد الشاعر يعمل مهندساً مشرفاً على القناطر . وكان محمود باشا هذا كثير الإنعام على والد الشاعر.وقد عرف حافظ للباشا هذا الفضل واعترف به فقال في القصيدة التي رثاه بها - والتي ستأتي فيما بعد - :(١)

مُسدىْ الجميلَ بلا منٍّ يكدره — ومكرمُ الضيفِ أمسَى ضيفَ رضوان

وختمها حافظ باعترافه بفضل هذا الرجل عليه وعلى والده فقال :

كم نعمةٍ لك يا محمودُ عند أبي — بشكرها لك عند الموت أوصاني

وقد ظل أبناء الباشا من بعده يغدقون من كرمهم على الشاعر ويقربونه إليهم . وكان حافظ يشعر أنه ذو مكانةٍ أثيرة لدى هذه الأسرة .

لم يعرف على وجه التحديد اليوم الذي ولد فيه حافظ إبراهيم . ولكن عندما أريد تعيينه موظفاً بدار الكتب يوم ٤ من فبراير عام ١٩١١م قدر القومسيون الطبي سنه بتسع وثلاثين سنة . وعلى هذا التقدير يكون مولد حافظ في فبراير ١٩٧٢م وإن كان بعض المقربين إليه تشككوا في هذا التاريخ وكانوا يرون حافظاً أسن من هذا . ومن هؤلاء صديقه الأستاذ أحمد محفوظ الذي قال بمولد حافظ في تاريخ سابق على التاريخ المذكور . واستدل على صحة رأيه هذا بدليلين : (٢)

الأول : أن حافظ إبراهيم ذكر تاريخ ميلاده عند التحاقه بالخدمة في دار الكتب المصرية . وهذا يدل على أنه أراد التقليل من سنه رجاء أن يطيل أيامه في

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم - تحقيق : أحمد أمين ، وأحمد الزين وإبراهيم الابياري ط ٣ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٧ م ص ٥٥٠ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم - مؤسسة نصار للتوزيع والنشر - القاهرة ص ٦

الوظيفة لينعم بالراتب المربوط عليها .

والثاني : شعره فقد نظم وهو فى سن العشرين ـ فيما زعمه ـ قصائد رصينة الأسلوب غنية بالألفاظ المنتقاة . وهذا لا يتأتى إلا لإنسان قرأ كثيراً واستوعب ما قرأه ثم أودعه منظومه . والموهبة إن سمت فهى تسمو فى الخيال والالتفات الشعرى عند صاحبها وليس للأداة التى تعبر بها عن ظهورها مكان يساويها فى الرفعة . ولا يمكن لها أن تقهر اللغة الرفيعة على المطاوعة إلا بعد الممارسة الطويلة والنظر فى كتب الأدب نظراً طويلاً يستغرق السنين الطوال . فليس من الجائز لفتى فى العشرين أن ينظم بهذه الرصانة فى الأسلوب مهما أوتى من موهبة لأن الريشة شىء والألوان التى يستعين بها المصور فى أداء الصورة شىء آخر . فهو لا يتقن مزجها إلا بعد العناء الطويل والخبرة المكتسبة من السنين والدرس » .

ولى على هذين الدليلين تعليق بسيط أثبت به جواز أن يكون التاريخ الذى ذكر تاريخاً لميلاد حافظ إبراهيم صحيحاً :

أما عن الدليل الثانى فليس من المستغرب أن ينبغ الشاعر وينطق بالشعر الرصين الجيد وهو فى سن العشرين من العمر . وفى تاريخ أدبنا العربى عديد من الشعراء الذين ظهر نبوغهم الشعرى قبل أن يبلغوا سن العشرين وبعضهم كان على جهل تام بالقراءة والكتابة ـ أى أن هذا البعض لم يكن مزوداً بشىء من الثقافة التى أشار إليها الأستاذ محفوظ ـ كطرفة ابن العبد وكعب بن زهير بن أبى سلمى . ومن هؤلاء الشعراء الذين نبغوا فى حداثة سنهم أيضاً : أبو تمام والمتنبى فى العصور القديمة . وصالح جودت والشرنوبى ومحمد عبد المعطى الهمشرى وغيرهم فى العصر الحديث . فليس فى نبوغ حافظ إبراهيم الشعرى وهو فى سن العشرين شىء غريب يدل على عدم صحة تحديد مولده بالتاريخ المذكور .

وأما عن الدليل الأول : فالمعروف أن حافظاً ـ رغم فقره ـ لم يكن حريصاً على جمع المال أو الإبقاء عليه بالدرجة التى تجعله يكذب فى تحديد تاريخ ميلاده من أجل قروش زهيدة تزاد على راتبه من هذه الوظيفة . ثم إن كان هذا هو الهدف من

تقليله لسنه فلمَ لم يقلل منه أكثر من هذا حتى ينعم بهذا الراتب لأطول فترة ممكنة بدلاً من الاقتصار على سنةٍ واحدة · إذ كل ما قاله المعترضون على تاريخ مولده المذكور أنه ولد فى عام ١٨٧١م ، ذكر ذلك كثيرون منهم الأستاذ حسين المهدى غنام (١) ، والأستاذ مصطفى صادق الرافعى · (٢)

أسرته ونشأته

كان والد حافظ إبراهيم من أسرة مصرية خالصة . أما والدته فكانت من أصل تركى وتسمى « الست هانم » كريمة أحمد البورصلى · من ذلك نعرف أن حافظاً قد اشتركت فى تكوينه مع الدماء العربية دماء تركية من جهة أمه (٣)

« وقد تفتحت عينا الشاعر (منذ ولادته) على مياه النيل الرقراقة · فكان ذلك إرهاصاً لطيفاً بأن الذى ولد على صفحة النيل لقب فيما بعد بشاعر النيل » (٤)

ونعم الشاعر فترة إرضاعه على ظهر الحراقة · ولما بلغ سن الثالثة آنس الله وحدته بأخت لم يُعرَف عن أمرها شيئاً ولا حتى اسمها · وفى سن الرابعة من عمر الشاعر توفى الوالد وترك الطفلين وأمهما من غير دخل يعيشون منه · فسافرت الأم بطفليها إلى القاهرة لتعيش فى كنف أخيها « محمد أفندى نيازى » المهندس بالتنظيم · وقد ألحق الخال الطفل بالمدرسة الخيرية بالقلعة فتعلم القراءة والكتابة وشيئاً من الحساب · ثم التحق الطفل بعد ذلك بمدرسة القربية الابتدائية وانتقل منها إلى مدرسة المبتديان · ثم تحول إلى المدرسة الخديوية ولم يمكث فيها طويلا فسرعان ما انتقل مع خاله إلى طنطا عام ١٨٨٧م . (٥)

وحين فارق حافظ عهد الصبا ودخل مرحلة الشباب ولم تكن له مهنة يرتزق منها بدأ يحس بثقله على خاله وأنه كلٌّ عليه فقرر أن يغادر المنزل وكتب إلى خاله بهذين

---

(١) فى كتابه : حافظ إبراهيم - دراسة وتحليل - طبعة عام ١٩٣٥م ص ٤٢ .

(٢) فى كتابه : وحى القلم - طبعة دار المعارف ط٢ - ٣ / ٢٧٤ .

(٣) انظر فى ذلك : شعر سوقى الغنائى والمسرحى - د / طه وادى - ط٣ ص ١٥٨ .

(٤) حافظ إبراهيم شاعر النيل - د / عبد الحميد سند الجندى - ط٣ ص ١٦ .

(٥) انظر كتاب : حافظ إبراهيم شاعر النيل - ١٥ - ١٦ .

البيتين : (١)

ثقُلَتْ عليْك مؤُنتِي	إنى أراهَا واهيَة
فافْرَحْ فإنى ذاهبٌ	متوجه فى داهيَة

وهما بيتان يدلان على ما كانت تمتلىء به نفس حافظ من ألم وضيق نتيجة عدم انتسابه إلى وظيفة . ويدلان أيضاً على ضيق خاله به وبحياته معه نتيجة هذا الشىء نفسه .

وقد طُبعت نفس حافظ بالضيق والتشاؤم فى هذه الفترة وفى كل الفترات التى كان يخلو أثناءها من عمل أو تصادفه فيها بعض الصعوبات . ولهذا نراه يشكو الزمن ويندب حظه السىء ويود كثيراً أن يفارق هذه الحياة . وردد ذلك فى كثير من أشعاره . ومنها على سبيل المثال - هذه الأبيات التى رواها عنه صديقه الأستاذ عبد الوهاب النجار : (٢)

عجبتُ لعُمْرىَ كيف مُدَّ وطالاَ	وما أثّرتْ فيه الهُمومُ زوالا
ولِلموتِ مالِى قد أراهُ مُباعِدا	وحُلَّ مراَدِىَ أنْ أوسّد حَالا
فللْمَوتُ خيرٌ من حياةٍ أرىَ بها	ذليلاً وكنت السيّدَ المفضالا (٣)

وبعد فراق حافظ لبيت خاله بدأ يبحث عن عمل يرتزق منه ولم يكن يحمل من الشهادات ما يسوق له عملاً بمرتب مضمون ثابت . وإن كان قد حصل قدراً من العلم والثقافة ففكر فى أن يعمل معلماً فى كُتاب ولكنه رأى أن هذا العمل لا يحقق له ما ينشده فانصرف عنه . ورأى أن مهنة المحاماة واسعة المجال ولا يشترط فى المحترف لها غير أن يكون قوى المحاجة فصيح اللسان يستطيع قهر خصمه والتغلب عليه وهى أشياء متوفرة فيه فرأى أن يحترف هذه المهنة . ولما لم يكن معه من المال ما يستطيع به فتح مكتب خاص به التحق بمكتب الشيخ محمد الشيمى المحامى بطنطا فاشتغل معه مدة ثم اختلف معه فتركه وترك له بيتين من شعره يقول فيهما :

---

(١) مقدمة الطبعة الأولى للديوان ٥٨ .

(٢) مقدمة الطبعة الأولى بديوان حافظ - بقلم د/ أحمد أمين ص ٥٩ .

(٣) انظر كتاب : حافظ إبراهيم شاعر النيل ١٧ - ١٨ .

جرابُ حظيَّ قد أفرغتهُ طمعاً ... بباب أستاذنا الشيمي ولا عجبا

فعادَ لي وهو مملوءٌ فقلتُ له ... مما ؟ فقال : من الحسرات ، واحربا

والتحق بعد ذلك بمكتب الأستاذ محمد أبى شادى المحامى بطنطا ووجد عنده جواً يوافق هواه إذ كان الأستاذ أبو شادى يعشق الأدب ويحب الأدباء فوجد فى حافظ ضالة منشودة له فكانا يتساجلان بالشعر والأدب . ومع ذلك فقد ملّ حافظ من العمل بمكتب الأستاذ أبى شادى فتركه إلى مكتب الأستاذ عبد الكريم فهيم المحامى ومكث به مدة ثم انتقل إلى مكتب الأستاذ إبراهيم الهلباوى المحامى . ولكن حافظ سرعان ما اختلف معه لما اتصف به الهلباوى من حدة اللسان وسلاطته مما أدى بحافظ إلى هجائه بأبيات مليئة بالبغض والكراهية .

وبعد فترة ملّ حافظ مهنة المحاماة ووجدها لا تتمشى مع ميوله وطبيعته فتركها وفكر فى السفر إلى القاهرة ليلتحق بالمدرسة الحربية عام ١٨٨٨م . وكانت المدرسة الحربية حينذاك لا تشترط فيمن يلتحق بها أن يكون حاملاً لشهادة معينة ولا أن يكون متمتعاً بثقافة محددة غير أن يكون لائقاً طبياً وقادراً على دفع خمسة عشر جنيهاً سنوياً . فالتحق بها حافظ هادفاً من وراء ذلك أن يسير سيرة البارودى مثله الأعلى فى الحياة عسى أن يكون مثله فى يوم من الأيام . بجانب أنه إن أثبت تفوقاً فى هذه المدرسة فسوف يضمن لنفسه مرتباً منتظماً يحصل عليه كل شهر . والتحق حافظ بالمدرسة الحربية وظل بها ثلاث سنوات تخرج بعدها ضابطاً عام ١٨٩١م يزهو بحلته العسكرية وعلى كتفه نجمة وفى جيبه سيف صقيل وضمن لنفسه مرتباً شهرياً .

وكان أمر المدرسة الحربية فى هذا الوقت بيد المستعمرين فعملوا على اقصاء العناصر الصالحة عنها وحرصوا على الا تكون مصنعاً لتخريج الأبطال وإنما تكون مصنعاً لتخريج شباب محطم خال من الآمال . وتخرج كثير من الضباط وهم يجهلون تماماً حق الوطن عليهم . بل كان كثير منهم لا يشغله غير التفكير فى إرضاء سادتهم من الانجليز والحرص على الوصول إلى أعلى الرتب فى أقصر وقت .

ولم يكن الجيش حينئذ بأحسن حالاً من المدرسة الحربية . فقد عمل الاستعمار على تفتيته وإضعاف قوته وأبعدوا كثيراً من الضباط الوطنيين عن صفوفه وأصبح الجيش عبارة عن فرق متعددة كل جندى فيها حرب على أخيه ويحاول أن يتخذ من الإيقاع به وسيلة لإرضاء القادة الانجليز . ويحكى لنا حافظ عما كان عليه الجيش والمدرسة الحربية حينذاك من حالة مزرية ومظهر سيء فيقول : (١)

« لقد استفرغوا جهدهم لصيرورة الجيش إلى الحال التى تراها فتمكنوا فيه من النفوس وحكموا على الضمائر فلم تخطئهم وساوس الصدور ولم تفتهم خطرات الأفكار . دخلوا مصر وفى جيشها منهم أولى سابقةٍ فى الفضل وخصيص فى العلم . ومن حنكته السن وغذته التجربة وضبطته الحروب . فكنت ترى فيهم المهندس الماهر والكيماوى الباهر والمحيط بفن الحرب وعلم التكتيك ممن تذاوقوا معهم سجال الحرب يوم طرقونا فأشفقوا أن يكون هؤلاء أمام سياستهم صفاً صلداً فزحزحوهم عن أماكنهم حتى أصبح الجيش عطلاً من كل رجل ركين .

ثم نظروا فإذا المدراس تغذوا أشبال تلك الأسود لبان العلوم والمعارف فهالهم أمرها وأسرعوا فى سلبها كنز علومها وتجريدها من حلى فضائلها حتى اصبحت كالأخيذة السليبة ثم يتموها أساتذتها . وأراد ربك فأمست وهى أشبه شيء بمصانع الدجاج ...... فأصبحت بفضل القوم كما ترى وقد جمدت روح العلوم ونضبت سيول المعارف وأقفرت غرفها من نجباء التلامذة وقام ينعق فيها ذلك القائم بالأمر والنهى هناك وبات يطلبها كل فدم وجاهل كما تطلب البوم الضيعة الخربة » .

وقد أدت هذه الحالة بالإنسان المصرى إلى أسوأ حالة كما يقول حافظ إبراهيم فى وصفه : « لذلك تكسرت فى المصرى الأظافر وبات مهضوم الجانب غير مرعى الجناب يعتوره الذل والخور وتأخذه سوء القالة وهو كأنه العمر كلما مرّ به يوم لحق به

---

(١) ليالى سطيح - حافظ إبراهيم - مطبعة الاصلاح بمصر ط أولى ١٩٠٦م ح١ ص ٩٧ .

النقص » (١)

وفى هذه الحالة السيئة التى كان عليها الجيش والمدرسة الحربية تخرج حافظ إبراهيم من المدرسة الحربية ولم يضف إلى معارفه وثقافته غير تعليمات الجندية ومظاهر العسكرية الخالية من الفنون الحربية .

أخلاقه وصفاته :

كان حافظ ملولاً لا يصبر على درس أو مزاولة عمل . ولذا أخفق فى دراسته كما اخفق فى كل عمل تولاه . وأطول فترة مكثها فى أحد الأعمال هى فترة عمله فى دار الكتب الذى تولاه لمدة تزيد على عشرين عاماً وكان اثناءها لا يقوم بأى عمل يتعلق بوظيفته . ولولا أن المسئولين كانوا يقدرون موهبته الشعرية لما بقى فى هذه الوظيفة طوال تلك المدة .

وكان حافظ سليم الصدر لا يحمل لأحدٍ حقداً . وكان يتسم بشيءٍ من سذاجة العباقرة ولكنه كان يثور لكرامته إذا مسّها أحد بسوء .

وكان حافظ على درجة كبيرة من الوفاء . فكان وفياً لأصدقائه لا يكاد يفارق أحد منهم الحياة حتى يبكيه بدموع لا تجف .

وكان حافظ متلافاً للمال إلى درجة قد تصل إلى السفه . فلم يكن يبقى من المال شيئاً فى يده حتى فى الأيام التى لم يكن له فيها مورد معين . وكان مشهوراً بكرمه الزائد عن الحد فكان يجود بماله على من يسأله ومن لا يسأله . ولو أنه حافظ على ما فى يده من نقود لأصبح من أهل الثراء والغنى . ولكنه كان متلافاً للمال لايعرف له قيمة ولا يحسب للدنيا حساباً . كان يفرغ ما فى جيبه من نقود على من يقصده من ذوى المتربة والمحتاجين . ثم يبيت ليلته وليس معه ما يتناول به طعام الفطور فى الصباح.وكان واسع الرزق يأتيه المال من حيث لا يحتسب ولكنه لم يكن يبقى عليه إذ سرعان ما كان يجود به على كل من حوله من المحتاجين.وكان ينظر

---

(١) ليالى سطيح / ١٠٠ .

إلى المال على أنه وسيلة من وسائل الحياة أو شيء معين على العيش فقط وليس غاية من غايات الحياة ٠» ولعل كرمه هذا راجع إلى أنه تجرع كؤوس البؤس مترعة فأحس وقعه في النفوس فسخت يده ونديت راحته » (١)

ولم يعرف حافظ السعادة الحقيقية طول حياته ٠ فقد تجمعت عليه المشاكل والهموم منذ طفولته حتى مماته ٠ فمات والده وهو طفل وذاق بذلك بؤس اليتم والفقر ٠ وحينما لجأ إلى بيت خاله ضاق به الخال فتركه حافظ ليبحث عن وظيفة يرتزق منها واشتغل بالمحاماة ولكنه سرعان ما ملها والتحق بالمدرسة الحربية ٠ وما أن تخرج فيها وعمل ضابطاً بالجيش حتى أقيل من منصبه بعد أن قاسى الكثير من العنف والإرهاق في السودان ٠ وعاد يبحث عن عمل آخر فالتحق بإحدى الوظائف بجريدة الأهرام ولكنه سرعان ما ملها هي الأخرى ليعود إلى حياة الفراغ إلى أن منّ الله عليه بوظيفة في دار الكتب المصرية ٠ وكانت الفترة التي تولى فيها هذه الوظيفة هي الفترة الوحيدة في حياة حافظ التي أحس فيها بشيء من الاستقرار ٠

وقد عز على حافظ أن يصاب بكل هذه المتاعب والأرزاء وهو الشخص المسالم الوديع ـ وكان ذا نفس شاعرة حساسة ـ فضاق بالحياة والناس وتمنى أن يفارق الدنيا ، ونقم على قومه الذين لم يعرفوا قدره ولم ينزلوه منزلته ٠ وعبر عن ذلك بشعر كثير يدل على نفس حطمها اليأس وأوهن من قوتها خداع الناس وظلمهم له ٠ ومن هذه الأشعار قوله : (٢)

عقّني الدهرُ ولولا أنني	أوثر الحسنى عققتُ الأدَبَا
أنا لولا أنّ لي من أمتي	خاذلا ما بتّ أشكو النُّوَبَا
أمة قد فتّ في ساعدها	بغضُها الأهل وحب الغُرَبَا
تعشق الألقاب في غير العلا	وتفدى بالنفوس الرُّتَبَا

---

(١) حافظ إبراهيم شاعر النيل ـ عبد الحميد سند الجندي / ٥٩ ٠

(٢) ديوان حافظ ٣٢١ ٠

ويقول أيضاً فى حسرة مؤلمة : (١)

لكننى غير مجدود وما فتئت … يد المقادير تقصينى عن الإرب

وقد غدوتُ وآمالى مطرّحة … وفى أمورى ما لشّببّ فى الذنب

وحياته البائسة هى التى جعلته ينطق بمثل قوله : (٢)

فما انتِ يا مصر دار الأديب … ولا أنتِ بالبلد الطيّب

وكان حافظ سىء الظن بأبناء أمته قليل الثقة بهم يرى أنهم لا يستحقون الكرم . ولذا فهو ينعى على النيل وفاءه لهذه الأمة فيقول فى كتابه « ليالى سطيح » مخاطباً النيل(٣)

« ويحك . إلى متى يسع حلمك جهل هذه الأمة المكسال ، وكم تحسن إليها وتسىء إليك ؟! علمتْ أن سيكون منك الوفاء فلم تحرص على ودك واتكلت على حلمك وبالغت بعد ذلك فى عقوقك ..... وأمعنت فى العقوق فجعلتك مصرفاً لفضلات البطون . ثم أمعنت فى العقوق فصيرتك مقبرة للجيف لتصبح بذلك مجرى للبلاء ومستودعاً للوباء » .

كما تحدث حافظ فى كتابه هذا عن انعدام الوفاء بين أبناء أمته وانكارهم فضل النابغين بينهم بل ومحاربتهم فيقول : (٤) « ينبغ فيها النابغة فينبعث أشقاها للطعن عليه فلا يزال يكيد له حتى يبلغ منه . ويكتب فيها الكاتب فينبرى له سفيهها فلا يفتأ ينبح عليه حتى ينشب فيه نابه ويفسد عليه كتابه . ويشعر فيها الشاعر فيحمل عليه جاهلها فلا ينفك عنه حتى يغلبه على أمره ويقهره على شعره » .

ولكن حديثه هذا عن عدم تحقق الوفاء بين أبناء أمته لم يمنع حافظاً من أن يتصف هو بصفة الوفاء لكل من صادقه أو اتصل به ، وليس من الضرورة أن يتصف حافظ بكل ما

---

(١) الديوان ٤٣١ .

(٢) الديوان ٢٥٦ .

(٣) ليالى سطيح ١ /٤ - ٥ .

(٤)

اتصف به أبناء أمته .

« وكان حافظ رجلاً حلو الشمائل ، نقي السريرة موطأ الأكناف يألف ويؤلف ..... وكانت شخصيته واضحة لا التواء فيها ولا تعقيد . يستطيع المرء أن يصل إلى أعمق أعماقها في غير عسر أو مشقة . لهذا ألفه الناس وأحبته الأفئدة » (١)

ويذكر عنه صديقه الأستاذ أحمد محفوظ أنه كان طيب القلب ، مسامحاً لا يعرف الحقد ولا يحمل ضغينة لأحد مهما عاني من أذاه له . (٢) وكان لسذاجته وطيبة قلبه معروفاً بالخوف حتى من توافه الأمور مع أن مظهره كان يوحي بعكس ذلك . فمن يره لأول وهلة يعتقد أنه رجل غليظ ثقيل ولكن ما إن يجالسه مجالسٌ حتى يتعرف على شخص مخالفٍ لذلك تماماً . وكان حافظ إبراهيم مضيافاً في بيته ، كما كان نهماً بالطعام الدسم محباً للضيافات التي تقدم فيها ألوان الأطعمة والذبائح ، ولكنه مع هذا كان قليل الأكل منها . فكان فقط يحب أن يمتع نفسه بالنظر إلى مثل هذه الأطعمة على الموائد وخاصة بعد ان تقدمت به السن .

وكان حافظ سريع الغضب كما كان سريع الرضا سرعان ما ينقلب من حال إلى حال . كما كان صريحاً شديد الصراحة لا يقدر على المداراة أو السكوت على أمر . وكان إذا استفزه أمر انطلق لسانه يعبر عن استيائه منه بأقذع الألفاظ .

وكان حافظ كثير التردد لا يدلي برأي قاطع في أمر من الأمور بل يقف في كل أمر موقفاً وسطاً هو موقف الرجل الحذر أو موقف المتفرج الذي يرى ويسمع ثم يسجل ما يراه أو يسمعه فقط . وكان متصفاً بضيق صدره كثير الغشاء لسره لا يحتفظ بسر من أسراره هو أو من أسرار أصدقائه . كما كان معروفاً بهجائه الفاحش وكلامه القارص لكل من يغضبه .

---

(١) حافظ إبراهيم شاعر النيل / ٤٩ .
(٢) حياة حافظ إبراهيم / ١٥٨ .

وكان حافظ رجلاً اجتماعياً لا يعرف العزلة ويكره الوحدة ويحب الاختلاط بالناس على اختلاف طبقاتهم . وكان يتصل بأناس كثيرين ولا يهمه ما إذا كانوا مختلفي النزعات والمشارب والثقافة أم لا .

وكان حافظ وطنياً يعتز بعروبته ويعشق كل ما هو عربي من الفنون والآداب والأعراف والتقاليد العربية . وكان إذا ما أراد أن يرفع من قدر أحد الغربيين قرنه بأحد عباقرة العرب . أنظر إلى قوله في بدء قصيدته التي نظمها في «فيكتور هوجو» : (١)

أعجميٌ كاد يعلو نجمه   في سماء الشعر نجم العرب
صافح العلياء فيها والتقى   «بالمعري» فوق هام الشهب

كما كان حافظ متديناً يعتز بدينه الإسلامي وكان في نفس الوقت متسامحاً مع أهل الأديان الأخرى . فلم يعرف عنه أنه حمل يوماً على المسيحية أو اليهودية في مجلس من مجالسه . بل لقد مدح بعض الشخصيات اليهودية في شعره . مثل مدحه للمولدة (لونا) (٢) ، وللمغني (جاك رومانو) (٣) وهما من أهالي الإسكندرية.كما عرف عنه عداؤه الشديد للاستعمار الذي حاول بث التفرقة بين عنصري الأمة المصرية - المسلمين والأقباط - وطالما تغنى حافظ بوحدة الأمة المصرية وتماسك عنصريها المسلمين والمسيحيين .

وهذه بعض أقوال أصدقاء حافظ ومعاصريه ومخالطيه عنه وعن بعض صفاته وأخلاقه :
- يقول عنه أستاذه الشاعر محمود سامي البارودي من قصيدة له يقرظ بها ديوانه حينما طبع لأول مرة : (٤)

قد كان جيدُ القولِ عطلاً قبله   فحباه أحسن حلية وطراز

---

(١) الديوان ٣٨ .
(٢) الديوان ٧١ .
(٣) الديوان ٢٢١ .
(٤) ديوان البارودي - مطبعة الجريدة - ضبط وشرح محمود المنصوري ١ / ٢١١ .

ملكت مودته القلوب فأصبحت تلقاه بالتوقير والإعزاز

ـ ومن طريف ما حكاه الدكتور أحمد أمين عنه وعن جوده بل وإسرافه وعدم احتفاظه بالمال : « أنه كان يقترح على الحكومة أن تعطى موظفها أكبر مرتب اول استخدامه ثم تنقصه شيئاً فشيئاً كلما تقدمت به السن لا أن تعطيه مرتباً يزيد مع القدم . وكان يعلل ذلك بأنه يبدأ وظيفته وهو يبدأ شبابه . وهذا هو زمن الإنفاق . فإذا هو هرم ثم شاخ فإنه يكفيه القليل . وحسبه من غنى شبع ورىّ » . (١)

ـ ويقول عنه الشيخ عبد العزيز البشرى واصفاً صراحته : (٢)

« يحب الجمال ويجتمع له ويكره القبح وينعى على أهله . يجابه بذلك مجابهة لا يتقى فى القول ولا ينحرف » .

ـ ويقول عنه صديقه الأستاذ أحمد محفوظ متحدثاً عما كان يتصف به حافظ إبراهيم من خوف حتى من توافه الأشياء : (٣)

« كان رعديداً يرعبه الخوف من التوافه كأنه طفل صغير ملأت رأسه صوت الغيلان والعفاريت من قصص العجائز فى ليالى الشتاء المقرورة » .

ـ ويقول الأستاذ داود بركات عن بعض صفات حافظ وأخلاقه: (٤)

« أما إذا ذكر صفاء الذهن ورقة الخلق وبسطة الكف والسماحة وصدق الود والوفاء وسذاجة الحلم والقناعة والوفاء وكل ما عدّ العرب فى شعرهم وحكمهم وبلاغتهم من الفضائل فإن حافظاً ـ رحمه الله ـ كان الأول والأخير أو بعد الأخير فى ما يذم ويستنكر » .

ـ ويقول أيضاً الأستاذ داود بركات عن تدين حافظ ووطنيته : (٥)

---

(١) مقدمة الطبعة الأولى لديوان حافظ ٦٨ .
(٢) ذكرى الشاعرين ـ أحمد عبيد ص ٥٠ .
(٣) حياة حافظ إبراهيم ١٦١ .
(٤) مجلة أبولو ـ العدد الخاص بذكرى حافظ إبراهيم ـ العدد الحادى عشر ـ المجلد الأول ـ عدد يوليو ١٩٣٣م ص ١٣٣٥ .
(٥) المرجع السابق ١٣٣٥ .

« أما وطنيته الصادقة فلا يعادله إلا دينه المحمدى المتين . فلك من حافظ ما شئت إلا أن تنال من هاتين الخلتين : دينه ووطنيته . ولك أن تحيله عما شئت لما طبع عليه من سماحة الخلق وحسن الطوية إلا عن هاتين العقيدتين اللتين تقيد بهما » .

- وقرأت للدكتور كامل حتة فى وصف حافظ إبراهيم قوله : (١)« ومن بين ما قرأت عن حافظ إبراهيم لم أجد وصفا أقرب إلى طبيعة هذا الشاعر وصدق التعبير عنه من قول الدكتور أحمد زكى أبى شادى :-

من طين مصر نما ومن أنفاسها ... والأرض لا تنمى الشعور نميما
كالأنبياء يفيض عن إيمانه ... باللفظ شهداً والبيان شميما
صافى الفؤاد فليس ينبض مرةً ... إلا صفيًا للنفوس حميما

ثقافته :

تكونت ثقافة حافظ من دراسته اليسيرة التى تلقاها بالمدارس التى التحق بها ، ومن قراءاته فى كتب الأدب واللغة . ومن أهم الكتب التى اطلع عليها حافظ وأفاد منها كتاب « الأغانى » للأصفهانى وكتاب « الوسيلة الأدبية » للمرصفى وكتب الجاحظ وغيرها من أمهات كتب الأدب واللغة . كما أطلع حافظ على كثير من دواوين الشعر العربى فى عصوره المختلفة مع حفظ كثير مما يروقه منها .

ويذكر الأستاذ مصطفى صادق الرافعى أن الكتاب الأول الذى هدى حافظ إبراهيم إلى سر الأدب العربى وأرهف ذوقه واحكم طبيعته هو كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين المرصفى وأنه فتن بما قرأ فى « الوسيلة » من خلال خلاصة ممتازة محققة من فنون الأدب العربى فى عصوره المختلفة ودرس ذوق البلاغة فى أسمى ما يبلغ بها الذوق ووقف على أسرار تركيبها . كما فتن بما قرأه فى « الوسيلة » من شعر البارودى . فأصبح من يومئذ تلميذه وسار على نهجه فى قوة اللفظ وجزالة

---

(١) مجلة الثقافة - العدد ١٠٩ - السنة العاشرة - أكتوبر ١٩٨٢م ص ٥٥ .

السبك ومتانة الصنعة وجودة التأليف على نغم الألفاظ وأجراس الحروف . ولكنه لم يدرك شأو البارودى فى ذلك . (١)

وكان حافظ يتمتع بذاكرة قوية وحافظة واعية مما مكنه من استيعاب الكثير من النماذج الشعرية لكبار الشعراء العرب بجانب حفظه للكثير من النماذج النثرية التى كان يعجب بها . وقد أعجب بعض أصدقاء حافظ بذكائه وقدرته الكبيرة على حفظ الكثير من نماذج الشعر والنثر فقال أحدهم يصف حافظ : « لم أر قط من اجتمع له من متخير القول ومصطفى الكلام مرسلاً ومقفى مثل ما اجتمع لحافظ . فكان حقاً له من اسمه أوفر نصيب . وإذا كنت ممن يجرى فى صناعة الكلام على عرف وهيئ لك أن يحاضرك حافظ فى الأدب لصب على سمعك عصارة الشعر العربى وأبدع ما انتضحت به القرائح من عهد امرئ القيس إلى الآن . ويمكنك أن تعد بحق حافظاً أجمع وأكفى كتاب لمتخير الشعر العربى عرف إلى اليوم » . (٢)

وكان حافظ لقوة ذاكرته ـ كما يخبرنا صديقه الأستاذ أحمد محفوظ ـ ينشد قصائده فى المحافل من الذاكرة ولا يقرؤها من ورقة كما كان يفعل غيره . (٣)

« وقد نضحت هذه الثقافة العربية الرصينة على شعره . فما تقرأ له قصيدة إلا وتلقى فيها اشارة إلى حادث تاريخى أو شخصية مشهورة أو مثل عربى أو حكمة مأثورة أو غير ذلك مما تفيض به كتب الأدب العربى » . (٤)

على أن قراءات حافظ وأطلاعاته على كتب الأدب واللغة لم تكن تسير حسب منهج منظم وإنما كان يقرأ ما يعن له ويطلع على ما تقع عليه عينه من الكتب وقت رغبته فى القراءة . كما لم تكن قراءته من النوع الذى يهدف من ورائها استيعاب المقروء والتعمق فيه وإنما هى اقباس فى موضوعات مختلفة فإذا أعجب بشئ منها

---

(١) وحى القلم ٣ / ٢٧٥ .
(٢) ذكرى الشاعرين ٥١ .
(٣) حياة حافظ إبراهيم ١٩٤ .
(٤) حافظ إبراهيم شاعر النيل ٧٠ .

احتزنه فى نفسه .

« وسر هذه الفوضى القرائية - إن جاز هذا التعبير - فى حياة حافظ أنه كان ملولاً قليل الصبر لا يستقر على حال كما يدل عليه تاريخ حياته ... وقد لازمته هذه الفوضى طول حياته فلم يكن يعنى بهندام أو نظام ولم تكن له مكتبة منظمة كغيره من الأدباء بل كانت كتبه مبعثرة هنا وهناك . فكنت ترى جزءًا من الأغانى على المنضدة فى حجرة النوم وجزءًا آخر على مائدة الطعام وهكذا . وكان يضيق بالنظام أشد ضيق . وهو يفصح عن ضيقه هذا فى قصيدته التى نظمها بمناسبة زيارته لإيطاليا . وفيها يأخذ على الإيطاليين إفراطهم فى حب النظام فيقول : (١)

أفرط القوم فى النظام وعندى أن فرط النظام أسر ونير

ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيها مسيطر أو أمير

وقد تبع هذه الفوضى إهمال شديد فى حياته الفنية . فقلما كان يعنى بكتابة شعره فى دفاتر منظمة كما يصنع غيره بل كان يدونه فى قصاصات من الورق عرضة للضياع . ولولا أن الصحف قامت بنشر الكثير منه لفقدنا معظمه ولوقفت معرفتنا عن حافظ عند حد الشخصية المتميزة بخفة الروح التى تملأ المجالس بالمرح والإيناس حتى اذا انفرط عقد الحاضرين ضاع الكلام مع الرياح » (٢)

ومما يتصل بمصادر ثقافة حافظ تلك المجالس الكثيرة التى كان يحضرها مع كبار أعلام الأدب واللغة والسياسة فى عصره . ومن أهم من جمعته وإياهم هذه المجالس الإمام محمد عبده ، وحمزة فتح الله ، وإبراهيم اليازجى ، ومحمود سامى البارودى ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، واسماعيل صبرى ، وحفنى ناصف ، وأحمد حشمت ، وإبراهيم المويلحى وابنه محمد المويلحى ، وعلى يوسف وغيرهم.

---

(١) الديوان ٢٣٢ .

(٢) حافظ إبراهيم شاعر النيل - عبد الحميد سند الجندى ٧١ - ٧٢ .

وكانت تطرح فى هذه المجالس مسائل كثيرة فى مجالات مختلفة وكل يدلى فيها بدلوه . فأصاب حافظ من صحبته لأولئك الأعلام ومما دار بينهم من مناقشات فى هذه المجالس ثروة كبيرة فى علوم مختلفة ظهرت آثارها واضحة فى شعره .
ولاننسى مجالس حافظ الخاصة التى كان يعقدها مع رفاقه فى المقاهى والمشارب وأماكن اللهو . وكانت تضم كثيراً من أعلام الفكاهة والتسلية وأئمة الأدب فى عصره . مما يمثل رافداً من روافد ثقافة حافظ . وكان لها كذلك تأثيرها البالغ فى شعره . (١)

وكان حافظ محباً للغة العربية معتزاً بها كثير الاطلاع على مصادرها . وظل طوال عمره محافظاً عليها داعياً للاهتمام بها . وتمثل قصيدته على لسان اللغة العربية أعلى صيحاته فى الدعوة إلى الحفاظ عليها قوية وسليمة . فقد ملأ هذه القصيدة بالشكوى من اهمال العرب للغتهم وتقصيرهم فى حقها وابتعادهم عنها وعدم البحث فى أسرارها . وقد بدأ القصيدة بقوله على لسان اللغة العربية : (٢)

رجعتُ لنفسى فاتهمت حصاتى ... وناديت قومى فاحتسبت حياتى

وقد عرف شوقى هذه الميزة فى حافظ واعترف له بها فى رثائه له فقال : (٣)

يا حافظَ الفُصحَى وحارسَ مجدها ... وإمام من نجلت من البلغاء
جددت أسلوب «الوليد» ولفظه ... وأتيت للدنيا بسحر «الطائى» (٤)

أساتذته :

اتصل حافظ بأعلام الفكر واللغة والأدب فى عصره ونهل من ينابيعهم . فتأثرت أفكاره بأفكارهم وبثمرات عقولهم . وكانوا له كالأساتذة الذين يمدونه بأسباب العلم والمعرفة . كما كان حافظ يغشى كثيراً من مجالس هؤلاء العلماء والأدباء فيلتقى فيها بكثير من أعلام الشعر والأدب . ومن أشهر هؤلاء الأعلام السيد

---

(١) انظر فى ذلك كتاب: حافظ إبراهيم شاعر النيل ٧٣ وما بعدها .
(٢) الديوان ٢٥٣ .
(٣) الشوقيات ٣ / ٢٠ .
(٤) الوليد : يعنى به البحترى . والطائى : هو أبو تمام.

توفيق البكرى الذى كان كثيراً ما يجالسه حافظ فى داره فيلتقى هناك بنفر من أفاضل العلماء أمثال الشيخ الشنقيطى والشيخ محمد الخضرى والشيخ اللغوى حفنى ناصف.وكان حافظ كثير التردد على منزل الشاعر اسماعيل صبرى وكان يلتقى هناك بكثير من أعلام الشعر والأدب من أمثال شوقى ومطران وأحمد نسيم ومحمد عبد المطلب وعبد الحليم المصرى وغيرهم من شباب الشعراء الذين يعتبرون اسماعيل صبرى استاذاً لهم يعرضون عليه أشعارهم ويستهدون برأيه فيها . وقد أشار حافظ الى ذلك فى رثائه له فقال :

لقد كنت اغشاه فى داره	وناديه فيها زها وازدهر
واعرض شعرى على مسمع	لطيف يحس نبوّ الوتر
على سمع باقعةٍ حاضر	يميز القديم من المبتكرْ
فيصقل لفظى صقل الجمان	ويكسوه رقة أهل الحضَرْ
كذلك كان ـ عليه السلام ـ	إماماً لكل أديب شَعَرْ (١)

على أن أكبر أعلام هذا العصر أثراً فى حافظ وتأثيره فيه وفى شعره شخصيتان بارزتان فى هذا العصر وهما الشاعر محمود سامى البارودى والأستاذ الإمام محمد عبده . (٢) فقد تأثر بكل منهما كثيراً واتخذ منهما المثل الأعلى له فى الحياة يقتدى به ويسير سيرته . فكان الأستاذ الإمام محمد عبده مثل حافظ الأعلى فى حياته الفكرية والخلقية ، وكان الشاعر محمود سامى البارودى مثله الأعلى فى حياته الأدبية والفنية .

كتبه :

كتب حافظ عدداً من الكتب النثرية بالإضافة إلى ما تركه من ديوان شعره الضخم . وأهم كتب حافظ عدا ديوانه الشعرى هى :

---

(١) الديوان ٢٥ه .

(٢) انظر كتاب : حافظ إبراهيم شاعر النيل ٨٢ ، ٨٣ .

١ - البؤساء : وهى رواية ألفها الشاعر الفرنسى الكبير « فيكتور هوجو » وأعجب بها حافظ لما رآه فيها من تصوير جانب من جوانب نفسه بما ألم فيها كاتبها من أشياء تمس حياة البؤس والبائسين . فترجمها حافظ إلى اللغة العربية عام ١٩٠٣م .

٢ - ليالى سطيح : وهو كتابه القيم الذى كتبه فيما بين عامى ١٩٠٧م ، ١٩٠٨م . وهو عبارة عن كتاب فى نقد المجتمع المصرى ووصف حاله وهو يرزح تحت نير الاستعمار . كما ملأه حافظ بسرد خواطره وآرائه فى الأدب والسياسة والمجتمع وبالتنديد بالانجليز وأعمالهم العدوانية فى الوطن العربى . وقد سار حافظ فى كتابه هذا سيرة الأستاذ محمد المويلحى فى كتابه : « حديث عيسى بن هشام ».

٣ - الموجز فى علم الاقتصاد : وهو كتاب كتبه أحد الفرنسيين باللغة الفرنسية واشترك حافظ إبراهيم مع الشاعر خليل مطران فى تعريبه ونقله إلى اللغة العربية بتكليف من المرحوم « أحمد حشمت باشا » وزير المعارف حينذاك . وطبعته مطبعة المعارف عام ١٩١٣م .

٤ - كتيب فى التربية الأولية : وهو كتاب مكتوب باللغة الفرنسية ونقله حافظ إلى اللغة العربية بتكليف من وزارة المعارف وقامت بطبعه مطبعة المعارف عام ١٩١٢م.

هذه هى كتب حافظ إبراهيم . ومنها نعرف أنه لم يقم بتأليف كتاب من عنده سوى كتاب « ليالى سطيح » . وبقية كتبه ليس له فيها غير فضل الترجمة والنقل إلى العربية . ولكنه على كل حال جهد مشكور له .

المرأة فى حياته:

لم يكن للمرأة مكان كبير فى حياة حافظ . ولم يكن لها - إذا استثنينا والدته - من أثر يذكر فى حياته الأدبية أو الاجتماعية . ولم نقرأ عنه أنه اعترف بفضل

المرأة عليه فى يوم من الأيام . وفى عام ١٩٠٦م رأى حافظ أن يؤنس حياته بزوجة تقاسمه حلو العيش ومره وتخفف عنه شيئاً من قسوة الحياة وبؤسها . ويقال إن أمه هى التى زينت له أمر الزواج وخطبت له ابنة رجل من أثرياء حى عابدين يدعى « اسماعيل صبرى » ودخل بهاحافظ ولكنه سرعان ما ملّ حياته معها فطلقها بعد أشهر قليلة . وافترق الزوجان دون إنجاب ولم يفكر حافظ فى الزواج بعدها . كما لم نجد لهذه المرأة أثراً فى حياته .

وفى سنة ١٩٠٨م توفيت أمه . وبعد فترة قصيرة من وفاتها لحق بها خاله « محمد نيازى » . ونظر حافظ فلم يجد أمامه من ذوى رحمه غير أرملة خاله « الست عائشة هانم » التى لم ترزق بولد فعاش معها حافظ . وكان يحنو عليها وهى تعطف عليه وتدبر له شئونه حتى توفيت قبل وفاته هو بثلاث سنين .

ومن الأدباء من يرى أن كرم حافظ وعدم إبقائه على ما فى جيبه من نقود وإنفاق كل ما معه من أموال على الفقراء والمعوزين هو السبب الذى جعله يحجم عن الزواج بعد زواجه بابنة اسماعيل صبرى الذى لم يدم أكثر من بضعة أشهر « وإن كانت هناك رواية تقول إنه تزوج فى الخفاء ولكنه لم يمكث مع زوجته أكثر من أربعين يوماً . ولعله كان يعلم أنه سيفشل فى زواجه فكتم خبره !! وترجع هذه الحكاية عدم ميله إلى معاشرة النساء ! ولعل الرجل كان نفوراً عزوفاً بطبعه غير ميال إلى ثرثرتهن ! فليس لديه من الوقت ما يبذل لهن ! بيد أنه كان متشائماً طيلة حياته فخاف إن هو تزوج ـ أو أقام مع زوجة إلى النهاية ـ جنى على نسله ! كما كان يعتقد أبو العلاء . وكان يتعجل الفناء كذلك ويحبذ عدم النسل كمذهب مانى » . (١)

وعلى العموم فإن من يتتبع حياة حافظ يجد أن المرأة لم يكن لها مكان فى نفسه كما لم يكن لها أثر كبير فى شعره ـ كما ذكرت من قبل ـ وذلك يرجع إلى انشغاله بتحصيل رزقه وضيقه وتبرمه من الحياة . وبهذا نفسر ندرة شعر الغزل فى ديوانه وخلو هذا الغزل ـ على قلته ـ من العاطفة . كما سيأتى بعد ذلك .

---

(١) حافظ إبراهيم ـ دراسة وتحليل ونقد ـ حسين المهدى غنام ٢٤ .

صلته بالقصر :

كان حافظ شاعراً اجتماعياً بالدرجة الأولى . واتجه بشعره وذاته نحو الشعب يتغنى بأفراحه ويداوى جراحه فى مآسيه . وكان لحافظ فى كل مناسبة سياسية قصيدة وطنية كما كان له فى كل مناسبة إسلامية قصيدة دينية .

وفى شعر حافظ بعض ما يدل على أنه كان يتمنى أن يكون من شعراء القصر الخديوى وأن يحتل تلك المنزلة التى يحتلها شوقى بل وأن يأخذ مكانه من قلب الخديوى وقصره . وخاصة بعد أن عاد من السودان مطروداً من الخدمة بالجيش وأحيل إلى الاستيداع وأحس بقسوة الحياة نتيجة عدم حصوله على عمل يتعايش منه . فى حين كان شوقى ـ زميله الفنى ـ يرفل فى نعيم القصر ونعمة الخديوى فتمنى أن يظفر هو الآخر ولو بقليل من هذا النعيم . وقد صرح حافظ بتلك الأمنية فقال فى إحدى قصائده للخديوى عباس الثانى : (١)

ياعيدُ ليت الذى أولاك نعمته	بقرب (صاحب مصر) كان أولانى
ضَنّتْ القريض فما غادرت لؤلؤة	فى تاج كسرى ولا فى عقد بوران

وفى القصيدة نفسها يقول :

واليوم انشدهم شعراً يعيد لهمْ	عهد النواسىّ أو أيام حسان
أزف فيه إلى العباس غانيةً	عفيفة الخدر من آيات عدنان
من الأوانس حلاها يراع فتىً	صافى القريحة صاح غير نشوان
ما ضاق أصغره عن مدح سيده	ولا استعان بمدح الراح والبان

وصرح بها مرة أخرى حينما ذهب إليه ليمدحه ويهنئه بالعام الهجرى فيقول : (٢)

عسى ذلك العام الجديد يسرنى	ببشرى وهل للبائسين بشير
وينظر لى رب الأريكة نظرةً	بها ينجلى ليل الأسى وينير

وانتهز حافظ كل الفرص الممكنة لمدح الخديوى وتحقيق تلك الأمنية : ففى عيد الفطر يذهب حافظ إلى الخديوى يزف إليه التهنئة الممزوجة بالرجاء أن ينال شيئاً

---

(١) الديوان ٢٨ .
(٢) الديوان ٣٢ .

من العطف والتقريب . يقول فى بعض أبياتها : (١)

إلى سدة العباس وجهت مدحتى بتهنئة شوقية النسج معطار
مليك أباح العيد لثم يمينه وياليت ذاك العيد يبسط أعذارى
ويحمل عنى للعزيز تحيةً ويذكر شيئاً من حديثى وأخبارى

وفى عيد جلوس الخديو على العرش ينظم حافظ تهنئة أخرى يظهر فيها تطامنه وتضاؤله أمام الخديو وشاعره شوقى . وفيها اعتراف منه بأن شوقى لم يبق له معنى جديداً يقوله فى مدح خديويه . ولهذا فهو يعتذر عن تقصيره فى مديحه له . يقول : (٢)

لم يبق «أحمد» من قول أحاوله فى مدح ذاتك فاعذرنى ولا تعب
فلستُ ممن سمت بالشعر همتهم إلى الملوك ولا ذاك الفتى العربى
لكن عيدك يا عباس أنطقنى كالبدر أنطق صوت البلبل الطرب

ولما لم يظفر حافظ بما كان يتمناه من خديوى مصر توجه بشعره إلى من هو أرقى درجة بل درجات من الخديوى . وتوجه إلى السلطان عبد الحميد فمدحه بعدة قصائد منها قصيدته البائية التى يقول فى بعض أبياتها : (٣)

لقد مكن الرحمن فى الأرض دولةً لعثمان لاتغفو ولا تتشعبُ
وقام رجال بالإمامة بعده فزادوا على ذاك البناء وطنَّبوا
وردوا على الإسلام عهد شبابه ومدوا له جاهاً يهاب ويرهب
أسود على البسفور تحمى عرينها وترعى نيام الشرق والغرب يرقب

ولكن حافظاً فشل فى سلوك هذا الطريق أيضاً ولم يستطع مجاراة شوقى فى التقرب نحو القصر فاتجه بشعره نحو الشعب وارتضى لنفسه أن يكون شاعر الشعب بينما ظل شوقى شاعر القصر .

---

(١) الديوان ١١ .
(٢) الديوان ١٤.
(٣) الديوان ٣٣١ .

موقف حافظ من الاستعمار :

لا يحق لأحد أن يقول بأن حافظاً كان فى يوم من الأيام ممالئاً للانجليز أو مداهناً لهم فقد كان حافظ - كما قلت - شاعر الشعب يتغنى بأفراحه ويداوى جراحه . وقد ظل حافظ يتغنى بشعره الوطنى بجانب شكواه من الزمان وما فيه من ضيق وبؤس إلى أن عينه الوزير « أحمد حشمت باشا » فى إحدى الوظائف بدار الكتب المصرية . فتوقف حافظ عن التغنى بوطنياته الشعرية حفاظاً على وظيفته وعندئذ كثرت فيه الأقاويل وتكررت فى غمزه .

وبذلك نعرف أن حافظاً كان وطنياً يحب وطنه ويقف بجانب أبناء هذا الوطن ضد أعدائه ممن استلبوا حقوقه ونهبوا خيرات أرضه.وإن كان قد سكت عن الإفصاح ببغض هذا المستعمر فى يوم من الأيام فذلك يرجع إما إلى خوفه على وظيفته - التى هى كل حياته - من الضياع كما ذكرت . أو إلى غضبه من الشعب الذى لم يشاركه الوقوف فى وجه هذا المستعمر . كما يذكر الدكتور شوقى ضيف حينما يقول مبرراً فتور حافظ فى ثورته على الانجليز : (١)

« على أن الذنب ليس ذنب حافظ وحده بل هو ذنب الشعب وقادته ممن كانوا يلاينون الانجليز . وإننا لنعتقد لو أن الشعب حاول أن يثور ثورة حقيقية وأن يرد بغى المعتدى فى نحره لوجد شاعرنا أمامه ولما تخلف عنه . بل لبذل روحه مع الباذلين . ولطالما نعى حافظ على الشعب خموده وركوده . ولقد حاول بكل ما يستطيع أن ينفخ فى شعوره إزاء مأساة دنشواى وأن يذكى لهيب الوطنية فيه . واسمعه يقول فى وداع اللورد كرومر حين استجابت انجلترا لمشاعر المصريين ونقلته من ديارهم : (٢)

قتيل الشمس أورثنا حياة	وايقظ هاجع القوم الرقود
فليت كرومراً قد دام فينا	يطوق بالسلاسل كل جيد
ويتحف مصر آناً بعد آن	بمجلود ومقتول شهيد

---

(١) دراسات فى الشعر العربى المعاصر - دار المعارف بمصر ط٦ ص ١٢ .
(٢) الديوان ٣٤٨ .

لننزع هذه الأكفان عنا ونبعث في العوالم من جديد

ويقول في قصيدته التي أنشدها بعد صدور قانون المطبوعات : (١)

إن البلية أن تباع وتشترى مصر وما فيها وأن لا تنطقا

حافظ في حياته العسكرية :

«تخرج حافظ من المدرسة الحربية وأصبح ضابطاً برتبة الملازم الثاني يختال في بزته العسكرية . ومن كان يرى هذا الرجل في قامته المديدة وعضلاته المفتولة وهيكله الضخم وشاربيه الطويلين يؤمن بأنه بطل مغوار يقتحم الأهوال ويركب المخاطر - أو على حد قول المتنبي « شروب للجيوش أكول » ولكنه على نقيض ذلك » . (٢) فقد كان كما يقول عنه الدكتور أحمد أمين : « على أنه يخيل لي أن حافظاً لم يخلق رجل قتال . نعم كان منظره رجل حرب . فهو مستحكم الخلقة وثيق التركيب مفتول الساعدين عريض المنكبين . ولكن لا أظن أن قلبه يشاكل جسمه » . (٣) وبعد تخرجه عين حافظ في نظارة الحربية لمدة ثلاث سنوات ثم نقل إلى وزارة الداخلية وعيّن ملاحظ بوليس في مدينة بني سويف . ولبث فيها بضعة أشهر ثم نقل منها ليعمل معاوناً لبوليس الإبراهيمية ومكث فيها سبعة أشهر أخرى ثم ردته الداخلية إلى الحربية بسبب اهماله وتراخيه وأحيل إلى الاستيداع . ولما عزم « لوركتشنر » على فتح السودان أحس بحاجة الجيش المصرى إلى ضباط فاستُدعِي حافظ إلى الخدمة وأرسِلَ إلى شرقي السودان سنة ١٨٩٦م وألحِق بسلاح المدفعية ثم عيِّن بين القائمين على مهمة تعيينات الجيش . وكان الضابط المصرى يعامل معاملة سيئة في الجيش المصرى الخاضع تحت سيطرة الاستعمار . فكان الانجليز يعاملون الجيش أسوأ معاملة في مصر والسودان . ويصف حافظ هذه الحالة في الجيش

---

(١) الديوان ٣٧٣ .

(٢) حافظ إبراهيم شاعر النيل ٢٢ .

(٣) مقدمة الديوان ٧٤ .

المصرى فيقول : (١)

« ينظر المصرى إلى الانجليزى وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة فيكبره رهبةً وإجلالاً ويتضعضع لرؤيته . وينظر إليه الانجليزى بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافاً بشأنه . ويطيل عتاب الخالق الذى فطره على شكله وصورته ومنحه نعمة التنفس فى جو يتنفس الانجليز فيه . وهو إن خاطبه خاطبه بلسان لا تجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق أو بإشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر » .

ويواصل حافظ وصفه لحالة ضباط الجيش المصرى من المصريين والانجليز فيقول مبيناً عظم شأن الضباط الانجليز وضآلة الضباط المصريين : (٢)

« هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط الانجليز . أما الكبار منهم كبار الرتب والأجسام لا كبار النفوس والأحلام . فحالهم إلى الرحمة أدعى منها إلى اللوم . فلقد سقاهم ساقى السياسة الانجليزية كؤوساً من منقوع الرعب . فإذا نظر إلى أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث . حتى إذا أصدر له أمره بشىء كاد يخرج من خلقه سرعة لإمضاء ذلك الأمر . فهو إلى إجابة داعيه أسرع إلى الصدى ، وهو على حفظ أمره أحرص من الفوتوغراف على حفظ الصوت » .

هذا بعض ما كان عليه الجيش المصرى فى مصر والسودان من سوء الحال وما وصفه حافظ إبراهيم وصفاً مطولاً فى كتابه « ليالى سطيح » . وقد ذهب حافظ - كضابط مصرى - إلى السودان والحالة هذه فذابت نفسه حزناً . ولكنه وقف موقفاً سلبياً ولم يجرؤ حتى على التنديد بسياسة الانجليز إلا بعد أن أكره على ترك الخدمة بسنوات حينما ألف كتابه « ليالى سطيح » فى سنتى ١٩٠٧م ، ١٩٠٨م . وكل ما كان يحزنه ويغضبه - كما يستبين من أشعاره التى أنشأها فى هذه الفترة - هو بعده عن القاهرة ومجالسها وسهراته فى مقاهيها واكتواؤه بشمس السودان المحرقة . وقد أكثر من

---

(١) ليالى سطيح ١/١٠٠ .
(٢) ليالى سطيح ١ / ١٠١ .

الرسائل التى بعث بها من السودان إلى أصدقائه بالقاهرة راجياً كل منهم أن يخلصه من السودان وشمسها المحرقة ورمالها اللافحة . ومن هؤلاء الذين كتب لهم حافظ الأستاذ الإمام محمد عبده . وكتب إليه مرة يصف له حاله وما يعانيه فى بلاد السودان فيقول :

« وها أنذا متماسك حتى تنحسر هذه الغمرة وينطوى أجل تلك الفترة وينظر إلى سيدى نظرة ترفعنى من ذات الصدع إلى ذات الرجع وتردنى إلى وكرى الذى فيه درجت رد الشمس قطرة المزن إلى أصلها ورد الوفى الأمانات إلى أهلها :

فإن شاء فالقرب الذى قد رجوته ... وإن شاء فالعز الذى أنا آمل

وإلا فإنى قاف رؤبة لم أزل ... بقيد النوى حتى تفول العوامل (١)

فقد حللت السودان حلول الكليم فى التابوت والمغاضب فى جوف الحوت بين الضيق والشدة والوحشة والوحدة . لا بل حلول الوزير فى تنور العذاب والكافر فى موقف الحساب بين نارين نار القيظ ونار الغيظ » . (٢)

ولما وقع حادث فاشودة بالسودان تمرد جماعة من الجنود المصريين وجاهروا بالعصيان وانحاز إليهم بعض السودانيين - وكان ذلك عام ١٨٩٩م - فقبض الانجليز على من ظنوا فيهم واتهموهم بزعامة هذه الثورة والتحريض عليها . وكان حافظ من بين المتهمين . وبعد تحقيق صورى حكم على ثمانية عشر ضابطاً - وكان حافظ من بينهم - بعقوبات مختلفة كان أهونها الإحالة إلى الاستيداع . وقد عاد حافظ إلى مصر بعد طرده من الجيش حزيناً نتيجة ما أصابه دون جرم ارتكبه .

وكانت إحالته إلى الاستيداع فى ٣ من مايو عام ١٩٠٠م . وفى أول نوفمبر عام ١٩٠٣م

---

(١) يقصد بقاف رؤبة : القاف الساكنة التى كان رؤبة يختارها روياً للكثير من أراجيزه . وقد ضرب بقافه المثل فى السكون وعدم الحركة . وتحدث أبو العلاء المعرى عن قاف رؤبة الساكنة فقال :

مالى غدوت كقاف رؤبة قيدت ... فى الدهر لم يقدر له إجراؤها

(٢) ديوان حافظ إبراهيم - ٤٢١ .

أحيل إلى المعاش بناء على طلبه . (١) بعد أن امتلأ باليأس الشديد نتيجة فقده لوظيفته وتملكه ذعر قوى منعه أن يبوح بأى شىء عن الثورة وعن أسبابها والتحقيق فيها أو عن أى شىء يتصل بها . وقد عبر عن هذا الذعر بقوله : (٢)

إذا نطقت فقاع السجن متكأ   وإن سكتُ فإن النفس لم تطب

وبلغ به اليأس حداً جعله يكره الدنيا ويطلب الموت لأن فيه راحته من هذه الآلام . فيقول : (٣)

سلام على الدنيا سلام مودّع   رأى فى ظلام القبر أنساً ومغنماً
فهبّى رياح الموتِ نكباً وأطفئى   سراج حياتى قبل أن يتحطّما
فيا قلب لا تجزع إذا عضك الأسى   فإنك بعد اليوم لن تتألّما
ويا عين قد آن الجمود لمدمعى   فلا سيل دمع تسكبين ولا دما
ويا قدمى ما سرتِ بى لمذلّةٍ   ولم ترتقى إلا إلى العز سلّمَا
فلا تبطئى سيراً إلى الموت واعلمى   بأن كريم القوم من بات مكرما

ويرى أن المصريين أو المسلمين فى هذا البلد لا يجدون خيراً ولا يطيب لهم عيش فيه و لا سعادة بين أهله :

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم   فلا تك مصرياً ولاتك مسلماً

هكذا لقى حافظ بعد خروجه من الجيش ألواناً من قسوة الحياة . فحاول التقرب إلى الخديوى وقصره ولكن محاولاته باءت هى الأخرى بالفشل فعاش معدماً مدةً تزيد على عشر سنوات بعد عودته من السودان عام ١٩٠٠م إلى أن منّ الله عليه بوظيفة فى دار الكتب المصرية .

وفى عام ١٩١٢م أنعم عليه برتبة « البكوية » ولكنه لم يكن فرحاً بهذه الرتبة بقدر ما كان حزيناً على خيبة أمله فى التقرب إلى الخديو وقصره . غير أن فراغ حافظ وإقصاءه عن وظيفته كان له فائدة عليه وعلى أدبه من ناحية أخرى : فقد أتاحت له

---

(١) عن كتاب : حافظ إبراهيم شاعر النيل ٢٣ : ٣٣ بتصرف .
(٢) الديوان ٤٣٢ .
(٣) الديوان ٤٢٨ .

هذه الحالة توثيق صلته بالأستاذ الأمام محمد عبده وأصبح حافظ تلميذه الوفى المخلص · وكان معه طوال الوقت وقلما كان يفارقه · مما أدى به إلى غزارة ثقافته وصقل موهبته · (١)

حافظ الموظف

التحق حافظ بالعمل فى دار الكتب المصرية فى فبراير عام ١٩١١ كموظف تحت الاختبار · وفى أول إبريل من عام ١٩١٢م صدر قرار تثبيته فى وظيفته · وتوسط له فى هذه الوظيفة ناظر المعارف حينذاك أحمد حشمت باشا وكان مقدراً للأدب والأدباء ·

وفى هذا العام نفسه منح حافظ رتبة « البكوية » ثم منح نيشان النيل من الدرجة الرابعة فى السنة نفسها ·

وفى سنة ١٩٢٧م طلب حافظ إحالته إلى المعاش على أن يحصل على مرتب شهرى قدره خمسون جنيهاً جزاء ما قدم للدولة من خدمات جليلة فى مجال الأدب واللغة · ولكنه لم يجب إلى طلبه فظل فى وظيفته حتى أحيل إلى المعاش قبل وفاته بأشهر قليلة وبالتحديد فى يوم ٤ من فبراير عام ١٩٣٢م ·

وكان حافظ الموظف ـ كعادته ـ غير منتظم فى وظيفته كثير التخلف عن عمله · وفى ذلك يقول زميله فى العمل بدار الكتب الأستاذ أحمد محفوظ : (٢)

« وكان قدوة للموظفين غير حسنة لأنا كنا نترك أعمالنا ونتحلق حوله ونحادثه ويضاحكنا ويتنادر علينا وينشدنا شعره · كان يأبى العمل ويأبى الاحتجاز ويأبى القيود · لذلك كان يخاف المجهول الخبىء فى صدور رؤسائه الجدد · فهو جزع دائماً خائف دائماً » ·

وتعد فترة الوظيفة التى شغلها حافظ بدار الكتب فترة نضوب فى شعره وجمود فى قريحته الأدبية · فلقد قل ما أنشد حافظ أثناءها من شعر · وقد لاحظ ذلك الدكتور

---

(١) عن كتاب : حافظ إبراهيم شاعر النيل ٣٤ : ٣٨ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ١٦٠ .

أحمد أمين فقال عن الفترة التى قضاها حافظ موظفاً بدار الكتب :
« كانت فترة نضوب فى شعره وجمود فى قريحته إلا نادراً فكان منصبه نعمة عليه ونقمة على فنه . ومنفعة له ومضرة على الناس . ولعل أيام بؤسه الأولى روعته وأفزعته حتى قامت شبحاً دائماً أمام عينه تنذره بالويل والثبور وعظائم الأمور إن هو أصيب فى منصبه أو مُسّ فى مرتبه » . (١)

وفاته :

أصيب حافظ إبراهيم قبل وفاته بسنوات بمرض السكر . وحاول كثير من أصدقائه أن يقنعوه بالتداوى منه ولكنه لم يكن يدوام على العلاج . فكان يتعاطى الدواء أياماً ثم يمل منه فينقطع عنه . فوهنت صحته واشتد مرضه وأصابته علل أخرى مع تقدم السن . فانتابه القلق وتملكته الأوهام . وكان كلما توفى أحد أصحابه أصابه الذعر واشتد به القلق وأحس بشبح الموت يقترب منه . واتسمت أشعاره فى الفترة الأخيرة من حياته بالتأثر بالحالة النفسية التى كان يعانى منها . من ذلك قوله فى قصيدته التى قالها فى ذكرى الإمام محمد عبده سنة ١٩٢٢م : (٢)

قد وقفنا ستة نبكى على ... عالِم المشرق فى يوم عصيب
وقف الخمسة قبلى فمضوا ... هكذا قبلى وإنى قريب
وردوا الحوض تباعاً فقضَوْا ... باتفاق فى منايا‌هم عجيب
أنا مذ بانوا ولى عهدهم ... حاضر اللوعة موصول النحيب

وفى نفس القصيدة وفى صدد حديثه عن صديقه حفنى ناصف بعد وفاته يعبر حافظ عن هذه الحالة فيقول :

آذنت شمس حياتى بمغيب ... ودنا المنهل يانفس فطيبى
قد مضى «حفنى» وهذا يومنا ... يتدانى فاستثيبى وأنيبى

---

(١) مقدمة الطبعة الأولى لديوان حافظ ٦٩ . وانظر فيما سبق كتاب: حافظ إبراهيم شاعر النيل ٤٢ وما بعدها .

(٢) الديوان ٥١٨ .

انكرى الموت لدى النوم ولا ... تغفلى ذكرته عند الهبوب
وانكرى الوحشة فى القبر فلا ... مؤنس فيه سوى تقوى القلوب
قدمى الخير احتساباً فكفى ... بعض ما قدمت من تلك الذنوب

وحتى فى مواقف الفرح والتهانى والتكريم نرى حافظاً يعبر عن احساسه بانتهاء حياته وقرب الموت منه . ففى الحفل الذى اقيم لتكريم حافظ فى الجامعة الأمريكية ببيروت يبعث حافظ بقصيدة تنشد فى هذه المناسبة ويذكر من بين أبياتها أبياتاً يعبر بها عن إحساسه بقرب منيته فيقول : (١)

شاهدت مصرع أترابى فبشرنى ... بضجعة عندها روحى وريحانى
كم من قريب نأى عنى فأوجعنى ... وكم عزيز مضى قبلى فأبكانى
من كان يسأل عن قومى فإنهمُ ... ولّوا سراعاً وخلّوا ذلك الوانى
إنى مللت وقوفى كل آونةٍ ... أبكى وأنظم أحزاناً بأحزانى

وفى الشهور الأخيرة من حياته اشتد عليه المرض ولكنه كان يقاومه ولا يمكث فى داره إلا إذا أقعده المرض ولم يقو على مقاومته . فإذا أحس ببعض العافية نهض من فراشه وخرج للقاء أصدقائه وجلسائه . وفى صباح يوم الخميس ٢١ من يوليو من عام ١٩٣٢م اشتد عليه المرض فاستدعى خادمه صديقه عبد الحميد البنان ليحضر له الطبيب . وما أن وصل الصديق ومعه الطبيب إلى بيت حافظ حتى وجداه فى النزع الأخير وما لبث ان ودع الحياة وقد ناهز الستين من العمر . ودفن بمقابر السيدة نفيسة . ورثاه كثير من الأدباء والشعراء فى ذلك العصر . وقد رثاه على القبر الأستاذ عباس محمود العقاد والشاعر محمد الهراوى . (٢)
رحمة الله على الشاعر حافظ إبراهيم الذى طالما دوّى صوته بأعذب الألحان الشعرية فى سماء وادى النيل .

---

(١) الديوان ١٤٠ .
(٢) انظر فى ذلك كتاب : حافظ إبراهيم شاعر النيل ص ٤٤ وما بعدها . وكتاب : ذكرى الشاعرين ـ تقديم وترتيب : أحمد عبيد ـ طبع : عالم الكتب ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٥م ص ١١٠ .

المبحث الثانى : شعر حافظ إبراهيم:

تفتحت موهبة الشعر عند حافظ فى سن مبكرة ، وكان شغوفاً بقراءة الكتب الأدبية وفى مقدمتها كتاب الشيخ حسين المرصفى « الوسيلة الأدبية » ، فاستفاد كثيراً بما فيه من نحو وصرف وبلاغة وأشعار فحول العرب وحكمهم وأمثالهم فى مختلف العصور الأدبية مما ساعد كثيراً على صقل موهبته الشعرية وإظهار نبوغها ، وقد تألق حافظ إبراهيم وظهر نبوغه فى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى حينما وقف بجانب الشعب وشاركه بؤسه وآلامه ، ويعد شعره فى هذه الفترة من خير ما جادت به قريحته ، إذ كان شعره آنذاك مما يصور نفسه ويفصح عن آلام شعبه وآماله ويظهر طابعه الفنى على حقيقته ، وشاركه هذا النبوغ من شعراء تلك الفترة أحمد شوقى وخليل مطران ، وقد أعطى الشعراء الثلاثة العصر الحديث قيمة أدبية عظيمة ووصلوا الأدب العربى الحديث بالأدب العربى القديم ، وكان شعرهم صدى الوعى القومى والتجاوب الروحى بين البلاد العربية والثورة على الاستعمار .

« وكان شعره (حافظ) من أسباب التمهيد للوحدة بين الشعوب العربية ، إذ كان يبشر بهذه الوحدة بكثير من قصائده ، وقد امتاز شعره بالرصانة وحسن السبك ، فمن يعر بياته التى أثرت عنه قصيدته فى التغنى بما بين مصر والشام التى منها هذه الأبيات : (١)

لمصر أم لربوع الشام تنتسب	هنا العُلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما	قلب الهلال عليها خافق يجب
أمُّ اللغات غداة الفخر أمهما	وإن سألت عن الآباء فالعرب
إذا ألمّت بوادى النيل نازلةٌ	باتت لها راسيات الشام تضطرب

---

(١) الديوان ٢٦٨ .

وإن دعا في ثرى الأهرام ذو ألم   أجابه في ذرى لبنان منتحب (١)

ومنها قصيدته النونية الكبرى التي يقول فيها : (٢)

حيا بكور الحيا أرباع لبنان   وطالَعَ اليُمْنُ مَن بالشام حيّاني

أهل الشام لو طوقتمْ عنقي   بمنةٍ خرجت عن طوق تبياني

وفيها يقول داعياً إلى الوحدة العربية الكبرى :

النيل وهو إلى الأردن في شغف   يهدى إلى بردى أشواق ولهان

« وكانت عاطفة حافظ إبراهيم جياشة تسكب على شعره كالسحر . وكان يلقي شعره بنفسه فيقف بقده القائم حافلاً شعره فيلقيه من غير رقعة مكتوبة . وتجاوبت هذه العاطفة السخية مع روح الشعب العربي بمصر حتى وجد الشعب فيه شاعره الأول الذي عبر عن خواطره في الألم والفرحة . وكانت مواقف حافظ إبراهيم في الحياة الاجتماعية والسياسية مقرونة بالحوادث . فما تمس كيان الوطن بضفاف النيل وواديه نازلة حتى يهب حافظ لها يذكرها في شعره منددا بالاحتلال الانكليزي الغاشم والاستبداد . وقد حلّ حافظ في شعره بقلوب مواطنيه جميعاً فأسهم إلى حد بعيد في إحداث الوعي الوطني في مصر والديار العربية » . (٣)

ومن يتصفح شعر حافظ يجده كثير التأرجح بين القوة والضعف . فقد جمع فيه حافظ بين المتناقضات . فتراه شاعراً عبقريا فذاً في كثير من شعره وتراه أيضاً ضعيفاً متهاوناً في قصائد كثيرة من شعره . ولعل السر وراء ذلك يرجع إلى سببين رئيسيين : أولهما : تلمذته على يد الإمام محمد عبده وكثرة مجالسته معه وتأثره بتعاليمه وبأسلوبه العلمي . مما جعل فطرة الشاعر تصبح ـ إلى حد ما ـ أسيرة لتقاليد الصناعة واللغة . فإذا استطاع أن يفلت من قيود هذه الصناعة جاء بالشعر الرائع . أما إذا ركن إليها ولم يستطع منها فكاكاً جاء شعره جافاً مبتذلا خالياً من

---

(١) نظرات في أدبنا المعاصر ـ د/ زكي المحاسني ـ المكتبة الثقافية ـ ١٩٦٢م ص ٥١ .

(٢) الديوان ١٣٣ .

(٣) نظرات في أدبنا المعاصر ـ د/ زكي المحاسني ـ ٥٣ .

روح الشعر الجيد .

وثانيهما : هو اتصاله الجيد الوثيق بالشعب وحرصه الدائم على إرضائه واستماع التصفيق منه على ما يقول من شعر .« والواقع أن بؤس حافظ قد اتاح له أن يختلط بسواد الشعب وأن يتعرف أهواءهم فكان يحتفى باستحسانهم لشعره لا يأتى من القول إلا بما يصادف هوى فى نفوسهم » . (١) فإذا نجح حافظ فى التعبير عن مشاعره هو فى صدق وحرارة أتى بالشعر الجيد الرائع . أما إذا خضع لعقله الواعى وشعر بمنزلته من الشعب وحرص على إرضاء الجماهير فقط جاء شعره ضئيلاً متهافتاً خالياً من الإحساس الصادق والعاطفة الجياشة . وكان هدفه الأول هو إرضاء الجماهير واستمتاعه بسماع صوت تصفيقهم له . ولهذا نرى فى هذا اللون من شعر حافظ كثيراً من الألفاظ التى يحسن وقعها فى الاسماع والتى تصادف هوى فى عواطف السامعين وقلوبهم . (٢)

وكان حافظ يتوخى التعبير باللفظ المناسب لموضوع القصيدة التى ينشئها ويؤائم بين موسيقى الطول والقصر وبين الأغراض والمعانى . وكان حريصاً على النظر الدائم فى شعره فيقدم لفظة ويؤخر أخرى حتى يخرج شعرهُ أعلى درجة من القوة والاتقان .« وكان يسمى هذه العملية « بالتذوق » ويمدح بعض الشعراء بأنه « ذواق » يريد بذلك أن له فناً طيباً يعينه على المواءمة بين موسيقى اللفظ والموضوع من ناحية الفخامة والرقة والشدة واللين ...... وكان حافظ يعنى أشد عناية بتوفير عناصر الجمال اللفظى لشعره وكان احتفاله بالمعنى لا يساوى شيئاً بجانب احتفاله باللفظ » . (٣)

وتميز شعر حافظ ـ كذلك ـ ببعده عن الألفاظ الغريبة المستغلقة . وهذا يرجع إلى طبيعة حافظ الواضحة بجانب حرصه على إرضاء جماهير الشعب الذين كان ينشدهم

---

(١) حافظ إبراهيم شاعر النيل ٩٩ .
(٢) حافظ إبراهيم شاعر النيل ٩٨ ـ ٩٩ .
(٣) المرجع السابق ١٠٠ .

حافظ شعره ويستمع الى تصفيقهم له . مما جعله يتوخى الوضوح والسهولة فى ألفاظه حتى يكون قريباً من أفهامهم وعقولهم . وهذا أيضاً ما جعله فى كثير من شعره يؤثر اللفظ القوى الجذاب ذا الوقع الجميل فى آذان هذه الجماهير .

شعره بين التقليد والتجديد :

يمثل شعر حافظ إبراهيم خطوة من خطوات التطور والرقى بالشعر العربى وإحياء مجده القديم . فهو فى كثير منه يحاكى شعراء العرب القدامى ويسير فى هذا على نهج أستاذه البارودى الذى قلد كثيراً من القدماء فى أشعارهم . وجاء شعره فى هذه الناحية متسماً بالمسحة العربية فى ديباجته وصوره وفى طريقة أدائه . حتى لقد جاءت أبيات كثيرة فى شعر حافظ متضمنة كثيراً من المبالغات والسرف فى وصف الأشياء على طريقة القدماء . وظهرت هذه المبالغات بشكل واضح فى رثائه ومديحه .

ولكن إن كان حافظ نجح فى تقليد القدماء فى كثير من أغراض شعره فقد أخفق فى تقليدهم فى بعض الأغراض الأخرى . ومن الأغراض التى جاء سير حافظ فيها على نهج القدماء ضعيفاً ضئيلاً فن الغزل . فقد حاول فيه تقليد الشاعر عمر بن أبى ربيعه الأموى فى غزله القصصى فى بعض قصائده فأتت قصته الغزلية هزيلة ضعيفة مفككة . وظهر هذا واضحاً فى قصيدته التى مدح بها أستاذه الشاعر محمود سامى البارودى فقد بدأها بقصة غزلية استغرقت أكثر من ثلثى القصيدة . وقد بدأها بقوله :

تعمدت قتلى فى الهوى وتعمّدا   فما أثمت عينى ولا لحظه اعتدى (١)

كما حاول حافظ أن يقلد القدماء فى بدء القصيدة بالغزل فلم يوفق . وجاءت مطالع قصائده ضعيفة واهية واستغرق الغزل فى بعضها أكثر من النصف كما فى قصيدته فى

---

(١) الديوان ص ٧ .

مدح الخديو عباس عند عودته من الآستانة . تلك التي بدأها بقوله : (١)

كم تحت أذيال الظلام متيّم ... دامي الفؤاد وليله لا يعلم

ويحصر حافظ المثل الأعلى للشعر في محاكاة الشعراء المتقدمين من رجال العصر الأموي والعصر العباسي. وقد ذكر ذلك أحمد أمين في مقدمه ديوانه القديم . وعرف عنه ذلك كل من اتصل به . وأشار إلى ذلك شوقي في رثائه له فقال : (٢)

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها ... وإمام من نجلت من البلغاء

مازلت تهتف بالقديم وفضله ... حتى حميت أمانة القدماء

ومن ناحية أخرى تجد حافظاً يتطلع إلى كثير من الصور الإنسانية في بعض الآداب الغربية الذائعة فيحاول تقليدها والاتيان بمثلها ويدعو دعوة صريحة إلى الكف عن ضياع معنى الشعر بالسير على منوال القدماء . فيدعو إلى التجديد في أسلوب الشعر ويعيب على الشاعر العصري سيره على نهج القدماء وتقليده لهم . بل ويسخر من هذا النهج . وهذا مما يثير العجب والدهشة حقاً . أقرأ معي قوله متحدثاً عن فن الشعر العربي : (٣)

ضعت بين النهى وبين الخيال ... يا حكيم النفوس يا ابن المعالي

ضعت في الشرق بين قوم هجود ... لم يفيقوا وأمة مكسال

قد أزالوك بين أنس وكأس ... وغرام بظبية أو غزال

وحماس أراه في غير شيء ... وصفار يجر نيل احتيال

عشت ما بينهم مذالاً مضاعاً ... وكذا كنت في العصور الخوالي

حملوك العناء من حب ليلى ... وسليمى ووقفة الأطلال

وبكاء على عزيز تولى ... ورسوم راحت بهن الليالي

وإذا ما سموا بقدرك يوماً ... أسكنوك الرحال فوق الجمال

---

(١) الديوان ٢٨٨ .

(٢) الشوقيات ٣ / ٢٠ .

(٣) الديوان ٢٣٧ .

هذا في الشرق العربي أما في الغرب فالشعر عندهم هو لب الشعر . وشعرنا العربي بجانبه هو القشر :

ولديهم من الفنون لباب ولدينا من الفنون قشورُ
قد وقفنا عند القديم وساروا حيث تسرى إلى الكمال البدورُ (١)

وبعد المقارنة يتمنى حافظ أن يتقدم العرب بشعرهم ويحرروه من هذه القيود ليساير الحياة الحديثة في الفكر والثقافة والتطور فيقول : (٢)

آن ياشعر أن نفك قيوداً قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

ويقول داعياً إلى التجديد في مضمون الشعر ومحتواه : (٣)

ملأنا طباق الأرض وجداً ولوعةً بهندٍ ودَعْدٍ والرباب وبوزع
ملأنا بنات الشعر منا مواقفاً بسقط اللوى والرقمتين ولعلع

وفي محاولة من حافظ لمسايرة روح عصره تحدث في بداية بعض قصائده عن بعض المخترعات الحديثة كوصف القطار في قصيدته التي ألقاها بدار الأوبرا في الحفل الذي أقامته رعاية الأطفال فيها فقال : (٤)

صفحة البرق أومضت في الغمام أم شهاب يشق جوف الظلام
أم سليل البخار طار إلى القصد فأعيا سوابق الأوهام
مرّ كاللمح لم تكد تقف العيـ ـن على ظل جرمه المترامي

كما كان من تجديدات حافظ في شعره تناوله للأحداث السياسية والاجتماعية في عصره وإن كان هذا لا يعد تجديداً في حقيقة الأمر . لأن الشعراء في كل عصر يعبرون عن أحداث عصرهم السياسية والاجتماعية كما فعل حافظ ، ولا يعد هذا تجديداً في الشعر وإنما هو تعبير عن واقع العصر الذي يعيش فيه الشاعر .

ويمكن لنا القول - رغم هذا كله ورغم دعوة حافظ المتكررة إلى التجديد في الشعر -

---

(١) الديوان ٢٣٠ .
(٢) الديوان ٢٣٨ .
(٣) الديوان ١٢٩ .
(٤) الديوان ٢٨٣ .

بأن حافظاً كان فى كثير من شعره أسيراً لتقليد ومحاكاة القدماء . وقلت محاولات التجديد التى قام بها فى شعره فكان تجديده محدود الأفق ضيق الحدود ولذلك لم تجد لها أنصاراً يقفون بجانبها ويحاولون تحقيق أسسها فى شعرهم . ويذكر الأستاذ حسن الصيرفى أن دعوة حافظ إلى التجديد فى الشعر لم تنجح حتى فى شعره هو لأنها لم تلق من عزيمته ما يقويها ويجعلها قادرة على الظهور والبقاء . فرغبة حافظ « لم تكد تظهر فى نفس حافظ حتى خبت لأنها لم تجد لها من عزيمته ما يدفعه إلى تغيير أساليب كتابته وموضوعات شعره ومحاولة تجديدها . بل ظل يتناول ما كان يتناوله ويتناوله غيره من الشعراء . وكان فى استطاعته أن يجعل لهذه الثورة فى نفسه أثراً فى شعره ولكنه لم يفعل . ولعله حاول ولم تسعفه مواهبه فوقف دون تقدم » . (١)

ويمكن لنا أن نؤول أبيات حافظ التى يدعو فيها إلى التجديد على أنها دعوة إلى اختيار الصالح من القديم ومن الجديد ، أو أنها دعوة إلى التجديد فى المعنى أو فى الموضوعات التى تتطلبها حياة الشعراء فى العصر الحديث لا على أنها دعوة إلى التجديد فى الشكل أو الخروج على شكل بناء القصيدة فقد كان من المعروف عنه تمسكه الشديد بطريقته التقليدية فى نظم الشعر وعدم استعداده للتحول عنها . وإن كان لم يهاجم أو يعارض أى مذهب من المذاهب الأدبية الحديثة كما يقول عنه الشاعر والأديب عبد القادر المازنى : « ولعل حافظاً كان الشاعر الوحيد من شعراء عصره الذى لم يحقد على المذهب الجديد فى الأدب ولم يحاول قط أن يتناوله بالزراية أو النقص أو يكيد أو يدس له . بل لقد كان يعالج أن يفهم هذا المذهب لينصفه » . (٢)

أبرز أغراض شعر حافظ :

نظم حافظ فى موضوعات الشعر المختلفة من مدح ورثاء وغزل ووصف

---

(١) حافظ وشوقى - طبعة عام ١٩٤٩م ص ٨ .

(٢) ذكرى الشاعرين - جمع وترتيب : أحمد عبيد ص ١٦.

ومداعبة للإخوان وفي الشكوى والعتاب وما يتصل بأحوال عصره من أمور السياسة والمجتمع . وهذه كلمة قصيرة عن أبرز الأغراض في شعر حافظ إبراهيم :

الرثاء :

ويعد من أهم أغراض شعر حافظ وأكثرها نتاجاً. وقد أكد هو هذا المعنى فقال: (١)

إذا تصفحتَ ديواني لتقرأني وجدت شعر المراثي نصف ديواني

ويرجع الأستاذ أحمد أمين كثرة قصائد الرثاء في شعر حافظ إلى الحزن الذي غلب على طبيعة حافظ .(٢) وقد يكون هذا هو أحد الأسباب فعلا في إكثار حافظ من الرثاء . ولكن هناك أسباب أخرى منها ما نكره الدكتور زكي مبارك من « أن الرثاء كان يفرض على حافظ في كثير من الأحايين . ومن هنا تقل اللوعة في أكثر مراثيه فيستر الموقف باجترار حوادث التاريخ » . (٣) على أني أعارض الدكتور زكي مبارك في اتهام حافظ بقلة اللوعة في أكثر مراثيه أو فرض الرثاء عليه في كثير من الأحايين . فقد كان حافظ في الأعم الأغلب من الأحوال يقول الرثاء نتيجة إحساس صادق بأثر المرثي وأهميته واحقيته بالرثاء والبكاء . ومن هنا وضحت لوعته والتهاب عاطفته في أكثر مراثيه وجاء رثاؤه في الأعم الأغلب متسماً بالصدق في الأحاسيس والعواطف مترجماً عما يجيش في نفس حافظ من حزن وألم بفقد المرثي .

الشعر الاجتماعي :

جاء الشعر الاجتماعي في ديوان حافظ غزيراً وفيراً . وقد أجاد حافظ في التعبير عن وجدان الشعب المصري وقضاياه الاجتماعية وشارك بشعره في كثير مما كان يصطرع به المجتمع المصري في عصره من تموجات وأحداث .

---

(١) الديوان ١٤٠ .

(٢) انظر مقدمة الطبعة الأولى للديوان ٨٢ .

(٣) حافظ إبراهيم ـ تقديم : كريمة زكي مبارك . سلسلة المكتبة الثقافية ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٧٨م ص ٥٣ .

ويبين الأستاذ مصطفى صادق الرافعى سبباً من أسباب اهتمام حافظ بالجانب الاجتماعى فى شعره فيذكر أن لزوميات المعرى طبعت فى مصر فى عهد حافظ فتناولها واستظهر أكثرها فكانت باعث ميله ونزعته إلى الشعر الاجتماعى والإكثار منه : (١)

أما الدكتور حسن الكبير فيذكر سبباً آخر قد يكون أقرب من هذا السبب الذى ذكره الرافعى وهو قرب حافظ من أبناء مجتمعه واختلاطه بهم واهتمامه بما يهمهم . يقول الدكتور حسن أحمد الكبير فى ذلك : (٢)

« وقد ضرب حافظ بسهم وافر فى الشعر الاجتماعى الذى شارك به فى أحداث مجتمعه ومشاكله وعيوبه حتى وصل إلى مكانة عالية فى هذا الاتجاه لم يبلغها شاعر سابق أو لا حق له . فقد كان ابن الشعب العانى ولسانه المترجم فشارك فى حركات الإصلاح وتشخيص المشاكل التى يعانى منها مجتمعه فى الميادين الأخلاقية والاجتماعية والثقافية معبراً تعبيراً صادقاً بإحساس مرهف وروح مصرية صادقة سكب عليها من خوالج نفسه ما جعلها صورة حية تتدفق بالقوة والابداع الفنى فكانت تصويراً صادقاً عن آلام الشعب وآماله وما يتصل بالمجتمع من أحداث » .

ويذكر الدكتور عمر الدسوقى أن موقف حافظ من أحداث مجتمعه انقسم إلى شقين : فهو فى فترة ما قبل الوظيفة كان شاعراً اجتماعياً بكل كيانه . وحين انشغل بالوظيفة وخاف عليها من الضياع انصرف عن مجتمعه وعن الاهتمام بما يهمه إلا فى القليل. (٣) على أن انشغال حافظ بوظيفته وخوفه عليها من الضياع لم يشغله عن شعره الاجتماعى فقط . بل لقد انشغل عن القول الكثير فى كل أغراض شعره تقريباً . فانشغاله بالوظيفة هو سبب إقلال حافظ من الشعر الاجتماعى ومن شعر

---

(١) وحى القلم ٣ / ٢٧٥ .
(٢) تطور القصيدة الغنائية فى الشعر العربى الحديث ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٨م ص ٨٣ .
(٣) انظر كتاب فى الأدب الحديث ٢/ ١٨٨ وما بعدها .

الطبيعة ومن شعر السياسة ومن شعره بصفة عامة · وليس السبب فى ذلك انعدام إحساسه بالمجتمع والناس كما يقول الدكتور عمر الدسوقى · وقد ذكرت قبل ذلك أن الفترة التى تولى حافظ أثناءها وظيفته بدار الكتب المصرية تعتبر فترة نضوب فى فنه الشعرى بصفة عامة · فقد كانت الوظيفة نعمة عليه ونقمة على فنه ومنفعة له ومضرة لشعره ·

المديح :

لم يكثر حافظ من شعر المديح وإن جاء فى هذا الباب بقصائد جياد احتلت مكانة عظيمة بين شعر المديح فى العصرالحديث إن لم يكن فى الأدب العربى كله · ومن أمثلتها فى ذلك قصائده فى مدح الخديوى عباس الثانى أو فى مدح السلطان عبد الحميد أو فى مدح بعض الشخصيات المصرية كالإمام محمد عبده والشاعر محمود سامى البارودى وغير هؤلاء · ولكنه على العموم لم يبلغ فى مديحه ما بلغه كبار الشعراء فى عصره كشوقى وخليل مطران ·

الشكوى والعتاب :

كان حافظ كثير الشكوى فى شعره بل فى حياته كلها · فكثرة ما لاقاه حافظ من آلام وكثرة ما عاناه من بؤس وشقاء منذ صغره جعله ينطق بالشعر الملىء بالشكوى والعتاب ·

وقد اتشحت نفس حافظ ـ فى معظم فترات حياته ـ بثوب من الحزن والحرمان ورانت عليها مسحة من الكرب والكآبة · مما جعله يكثر من الشكوى ويندب حظه التعس فى كل فرصة · حتى لقد اتسم شعره كله بهذا الشعور القاتم وشاعت فيه نغمة الحزن والبكاء · ولا شك أن نفس حافظ الحزينة المتشائمة الساخطة قد ساعدته على تصوير البؤس ومشاركة البائسين · كما ساعدته على أن يكون فى مقدمة شعراء العصر الحديث الذين أحسنوا وصف المآسى وتصوير الكوارث · لأنه يصف ما يحسه فى حرارة وصدق ويعبر عما يشعر به فى قوة وبراعة ·

شعر الطبيعة :

شعر الطبيعة ووصفها من الأغراض الشعرية القليلة فى ديوان حافظ . وهذا ما يعجب له الدارس لشعره . فقد كان الأولى به - وهو الملقب بشاعر النيل-أن يهتم بالطبيعة المصرية ووصف معالمها ورسم مظاهر الجمال فيها . ولكنك لو أمسكت ديوانه وأخذت تفتش فيه علك تعثر على أبيات فى وصف الطبيعة فلن تجد إلا القليل . ومنه ما جاء عرضاً فى ثنايا قصيدته فى الكلام عن نادى الألعاب الرياضية بالجزيرة فى الحفلة التى أقيمت لذلك بدار الأوبرا سنة ١٩١٦م ومنها قوله : (١)

بنادى الجزيرة قف ساعة	وشاهد بربك ما قد حوى
ترى جنةً من جنان الربيع	تبدت مع الخلد فى مستوى
جمال الطبيعة فى أفقها	تجلى على عرشه واستوى
فقل للحزين وقل للعليل	وقل للملول : هناك الدوا

ومنها ما جاء فى ثنايا قصيدته الميميمة التى بعث بها إلى صديق له فى انجلترا سنة ١٩٠٨م حيث توجه الى النيل فتحدث عنه وعن بعض مظاهر الجمال فيه وجمال الطبيعة حوله فى عدة أبيات يقول فى بعضها : (٢)

والنيل مرآة تنفس فى	صحيفتها النسيم
سلب السماءَ نجومها	فهوت بلجته تعومُ
نشرت عليه غلالةً	بيضاء حاكتها الغيومُ

على أن شعر حافظ فى وصف الطبيعة - على قلته - قد جاء آية فى البراعة وبلغ فى كثير منه حداً عظيماً من الجودة والإتقان . وخير دليل على ذلك قصيدته التى وصف فيها رحلته إلى إيطاليا . فهى - بحق - تعد لوحة رائعة صادقة التعبير زاخرة بالصور الفاتنة والإحساس القوى بمظاهر الطبيعة . ومن أبياته فى هذه القصيدة قوله يصور البحر وثورته وارتطام أمواجه بالسفينة التى ركبها خلال

---

(١) الديوان ٢٢٢ .
(٢) الديوان ١٧٤ .

الرحلة:(١)

عاصف يرتمي وبحر يغير — أنا بالله منهما مستجير
وكأن الأمواج وهي توالي — محنقات أشجانُ نفس تثور
أزبدت ثم جرجرت ثم ثارت — ثم فارت كما تفور القدور
ثم أوفت مثل الجبال على الفلك وللفلك عزمة لا تخور

إلى آخر ما قال ......

الغزل :

قل الغزل إلى حد كبير في شعر حافظ فلم يكن للمرأة أثر كبير في حياة حافظ وبالتالي لم يكن لها نصيب كبير من شعره . ويذكر الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أن سبب قلة الغزل في شعر حافظ هو ميله إلى التعبير عن وجدان الشعب وانشغاله بالجانب الاجتماعي عن التأمل في معالم الجمال من حوله . يقول الرافعي في ذلك : (٢)

« إن التاريخ حصره في (الشاعر الاجتماعي) الذي اختار أن يمتاز به فهو في أكثر شعره كأن ليس فيه شخص بل فيه شعب مأسور غفل عن الجمال وعن الطبيعة وعن النشوة بهما . إذ يعيش في معاناة الحرية لا في التأمل الجميل وفي أسباب القوة لا في أسباب الرقة ، ويريد أن يعمل ليوجد حقيقة قبل أن يعمل ليبدع خياله » .

ويذكر الدكتور زكي مبارك السبب في ابتعاد حافظ عن الغزل والتعبير عما في نفسه تجاه المرأة . فيذكر أن قلة الغزل وضعفه وعدم اتسامه بالصدق في شعر حافظ يرجع إلى انشغال حافظ بضجيج المجتمع وهمومه عن سحر الجمال والتغني به أو الضعف في حاسة حافظ الذوقية من هذه الناحية ، أو إلى أن حافظاً كان في سريرة نفسه من عبيد المجتمع . فهو يغني على ليلى المجتمع قبل أن يغني على

---

(١) القصيدة بديوان حافظ ص ٢٢٧ .
(٢) وحي القلم ٣ / ٢٨٣ .

ليلاه . والمجتمع كان ينتظر منه البكاء على المصائب اليومية قبل أن ينتظر منه التغريد فوق أفنان الجمال . (١)

وهذه كلها أسباب تؤدى بعضها إلى بعض وتسهم فى بيان حقيقة نظرة حافظ إلى المرأة وعدم هيامه بها وانشغاله عن القول فيها .

هذا ولحافظ أشعار كثيرة فى أغراض شعرية أخرى غير ما ذكرت مثل القول فى الإخوانيات والخمريات والهجاء والفخر وغيرها .

---

(١) حافظ إبراهيم ـ تقديم كريمة زكى مبارك ٥٣ .

الفصـــل الأول

رثاء الأدباء والعلماء فى شعر حافظ .



تمهيد :

ينقسم الرثاء فى أدبنا العربى - كما تحدث عند الدكتور شوقى ضيف - إلى ثلاثة أنواع هى الندب والتأبين والعزاء . (١)

فالندب : هو بكاء الأهل والأصدقاء والأقارب حين يعصف بهم الموت فيبكيهم الشاعر بدموع غزار لا تجف . إذ يشعر الشاعر أنه أصيب بحادث مروّع أصاب قلبه بالهلع . إذ أصيب فى ابنه أو أبيه أو فى أخيه أو فى صديق عزيز فيلجأ إلى شعره يعبر به عما تمتلىء به نفسه من حزن وهلع .

« والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب . بل يندب أيضاً من ينزلون منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم ويؤثرهم » . (٢)

أما التأبين فهو الثناء على الميت وتعداد صفاته الطيبة وخلاله الكريمة التى كان يتحلى بها فى حياته . ويتوجه به الشاعر فى الغالب إلى من يتخطفه الموت من الشخصيات السياسية أو الأدبية أو الاجتماعية. وهنا يشيد الشاعر بمنزلة المرثى التى كان يتمتع بها فى المجتمع ويصور خسارة المجتمع والناس فيه .

« ومن هنا كان التأبين ضرباً من التعاطف والتعاون الاجتماعى . فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو و إنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته فى هذا الفرد المهم من أفرادها . ولذلك يسجل فضائله ويلح فى هذا التسجيل وكأنه يريد أن يحفرها فى ذاكرة التاريخ حفراً حتى لا تنسى على مر الزمن » . (٣)

والعزاء : هو الرثاء الذى يميل فيه الشاعر نحو الجانب العقلى ويتخذ من حادثة الموت التى نزلت بإنسان ما موضوعاً للتفكير والتدبر فى حقيقة الموت والحياة مستخلصاً من ذلك العبر والعظات .

---

(١) أقرأ فى هذه لأنواع كتاب الدكتور شوقى ضيف : الرثاء . سلسلة فنون الأدب العربى - ط٣ - دار المعارف بمصر .
(٢) المرجع السابق ص ٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٦ .

هذا - وسوف يكون حديثنا من ألوان الرثاء فى شعر حافظ إبراهيم فى الفصول التالية شاملاً لكل هذه الأنواع مجتمعة من غير فصل بينها ولكن مع تقسيم الرثاء فى ديوان حافظ إبراهيم من حيث نوع الشخصية التى قيلت فى رثائها كل قصيدة . فرثاء حافظ إما رثاء للشخصيات الأدبية أو العلمية وإما رثاء للوطنيين ورجال السياسة . وهو ما سوف ينصب عليه الحديث فى الفصلين التاليين بجانب بيان الظواهر والسمات الفنية التى اتسم بها شعر الرثاء عند حافظ إبراهيم . وهو ما يختص به الفصل الثالث إن شاء الله .

المبحث الأول

موضوعات الرثاء وخصائصه فى شعر حافظ إبراهيم

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : رثاء الأدباء والعلماء فى شعر حافظ .

الفصل الثانى:رثاء الوطنيين ورجال السياسة فى شعر حافظ

الفصل الثالث : الظواهر الفنية للرثاء فى شعر حافظ .

الفصـــل الأول
رثاء الأدباء والعلماء فى شعر حافظ

يحتل الرثاء نصف الجزء الثانى من ديوان حافظ ويضم إحدى وخمسين قصيدة ومقطوعة فى رثاء زعماء مصر وادبائها وعلمائها وفنانيها . كما رثى بعض الأجانب مثل الملكة فيكتوريا ملكة انجلترا وتولستوى الفيلسوف الروسى الشهير . كما رثى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بعدة أبيات فى بداية مطولته العمرية التى عرض فيها لحياته وخلافته وأخلاقه .(١)

وفى رثاء حافظ نراه يمثل لنا ابن الشعب الوفى الذى يحزن لما أصابه ويأسى لما نزل به ويبكى رجاله الشرفاء . ولا يترك أحداً من رجاله ينزل به الموت إلا ويقول فى بكائه شعراً يحمل مشاعره ومشاعر الأمة تجاه المرثى ويعبر عن آلامها .

« وإذا كان الرثاء غرضاً قديماً من أغراض الشعر العربى فإن حافظاً حوّله من رثاء شخصىّ إلى رثاء شعبى وخاصة بعد أن صقل موهبته واجتاز مرحلة التقليد فى بداية حياته الأدبية . وأصبح مدفوعاً إلى الرثاء-لا مقلداً أو مجاملاً-بعاطفته الصادقة معبراً عن لوعة الشعب وحزنه فيمن افتقد من المصلحين والقادة من أمثال الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين ...... فكان فى رثائه لا يصور حزن نفسه ولوعته فقط وإنما كان يصور لوعة أمته وحزنها على أبنائها البررة حزناً يفيض أسىً وحسرة » .(٢)

وإذا كان هذا الرثاء قد ساده الحزن والألم فإن روح التسليم والرضا بقضاء

الله والامتثال لقدره ومشيئته واضحة فيه . كما وضحت فيه نغمة الحديث عما أعده الله لهؤلاء الشهداء الذين ضحوا بأنفسهم فى سبيل وطنهم وأبنائه . ومن يقرأ مراثى حافظ يحس بما فيها من جودة وصدق لأنها صدرت عن نفس صادقة تحس ما تقول وتنفعل به .

وفى هذا الفصل محاولة لرسم صورة واضحة لقصائد حافظ التى رثى بها الأدباء والعلماء وأهم الظواهر والمعانى التى تناولها فى هذه القصائد ليعكس لنا شعوره وشعور أبناء عصره تجاه من رحلوا من أدباء وعلماء الوطن والذين كان لهم أثرهم البارز وبصماتهم الواضحة على العصر الذى عاشوا فيه .

المعانى البارزة فى رثاء الأدباء والعلماء فى شعر حافظ:

تعرض حافظ إبراهيم فى رثائه لأدباء وعلماء عصره لإبراز كثير من المعانى التى تعكس أحاسيسه وشعور أبناء عصره تجاه من يرثيهم بشعره . ومن تتبع هذه المعانى تتكون لنا الصورة الواضحة لشعر الرثاء الذى أنشده حافظ إبراهيم فى بكاء هؤلاء الأدباء والعلماء . وهذه أهم المعانى البارزة فى رثاء حافظ للأدباء والعلماء فى عصره :

١

كثيراً ما تعرض حافظ فى رثائه للأدباء والعلماء لتعداد الصفات الطيبة والخلال الكريمة للمرثى . وهذه الظاهرة واضحة فى فن الرثاء فى الشعر العربى فى مختلف العصور الأدبية . أى أن حافظ إبراهيم فى تعرضه لهذا المعنى يعد مقلداً للشعراء العرب السابقين حتى لقد ردد كثيراً من الصفات التى كان يرددها الشعراء السابقون من مثل الوصف بالجود والكرم والورع والتقوى والتحلى بجميل الشمائل والتخلق بفضائل الأخلاق وغير ذلك من جميل الصفات .

- ففي رثاء حافظ لأستاذه الشاعر محمود سامي البارودي يقول حافظ إبراهيم في الحديث عن شجاعته وجرأته وبعض ما تحلى به من أخلاق : (١)

كم وقفةٍ لك والأبطال طائرة ... والحرب تضرب صنديداً بصنديدِ
تقول للنفس إن جاشت إليك بها ... هذا مجالكِ سودي فيه أو بيدي
نسخت (يوم كريد) كل ما نقلوا ... في يوم (ذي قار) عن (هاني بن مسعود)
نظمت أعداك في سلك الفناء به ... على رويّ ولكن غير معهودِ
كأنهم كلم والموت قافية ... يرمي به عربي غير رعديدِ

فبهذه الأبيات صور لنا حافظ مدى شجاعة البارودي وقت شدة الحروب . وقد وفق حافظ في تجسيم شجاعة البارودي حينما وصفه بالثبات والجرأة في ميدان القتال الذي يفر منه بل ويطير عنه الأبطال خوفاً وفزعاً . ولكنه بكل ثقةٍ وقوة يُخضع نفسه ويكرهها على القتال حتى النصر أو الشهادة . وهذا أيضاً دليل على حب البارودي للحرب وتعوده على خوضها حتى إنه ليهين نفسه في سبيل تحقيق النصر ولا يطيع هوى نفسه إذا أوحت له بالفرار . وإن كان حافظ قد تأثر في بيته هذا تأثراً واضحاً بقول الشاعر عمرو بن الإطنابة :

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانكِ تحمدي أو تستريحي

كما كان من توفيق حافظ في تصوير شجاعة البارودي أن ربط بين كثرة قتله للأعداء على وتيرة واحدة وبين نظمه للأشعار وتشبيهه القتلى بالكلمات المتناثرة ، والموت بالسلك الذي يجمع بينهم كما تجمع القافية بين جميع الأبيات في القصيدة الواحدة .

- ومن تعداد الصفات الطيبة للبارودي أيضاً في رثاء حافظ قوله في نفس القصيدة التي منها الأبيات السابقة :

لو أنصفوه أودعوه جوف لؤلؤةٍ ... من كنز حكمته لا جوف أخدود
وكفنوه بدرج من صحائفه ... أو واضح من قميص الصبح مقدودِ
وأنزلوه بأفق من مطالعه ... فوق الكواكب لا تحت الجلاميد

---

(١) ديوان حافظ ٤٥٣ .

وناشدوا الشمس أن تنعى محاسنه ... للشرق والغرب والأمصار والبيد

يا ويح للقبر قد أخفى سنا قمر ... مقسّم الوجه محسود التجاليد

فيفهم من هذه الأبيات وصف البارودى بالسمو والتعالى فوق منازل البشر حتى فى مماته . كما يصفه بجمعه بين المحاسن التى وجدت بين أفراد البشر فى كل مكان . هذه المحاسن التى ماتت بموته وفقدت بفقده . كما يصفه بحس الطلعة وجمال الصورة .

وقد قارن الأستاذ مصطفى صادق الرافعى بين البيتين الأول والثانى من أبيات حافظ المذكورة وبين بيتين لأبى العلاء المعرى أحدهما فى رثاء أبيه وهو :(١)

ولو حفروا فى درة مارضيتها ... لجسمك إبقاءً عليك من الدفن

والآخر فى رثاء أحد الأشخاص وهو : (٢)

واحْبُواهُ الأكفان من ورق المصحف كبراً عن أنفس الأبراد

ورأى أن بيتى المعرى كالصعاليك على بيتى حافظ . مع أن حافظاً قد ألم بقول المعرى فى بيتيه . (٣)

- وفى قصيدة حافظ فى رثاء الأستاذ الإمام محمد عبده يعدد ما اتصف به الإمام من صفات دينية وخلقية فيقول : (٤)

وكمْ لك فى إغفاءة الفجر يقظةٍ ... نفضت عليها لذة الهَجَعَات

ووليت شطر البيت وجهك خالياً ... تناجى إله البيت فى الخلواتِ

وكم ليلةٍ عاندتَ فى جوفها الكرى ... ونبهت فيها صادق العزماتِ

وأرصدت للباغى على دين أحمد ... شباة يراع ساحر النفثاتِ

إذا مسّ خد الطرس فاض جبينه ... بأسطار نور باهر اللمعاتِ

كأن قرار الكهرباء بشقه ... يريك سناه أيسر اللمساتِ

---

(١) ديوان سقط الزند للمعرى ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق ١١٣ .

(٣) ذكرى الشاعرين ١٣٦ .

(٤) ديوان حافظ ٤٥٨ .

ففي هذه الأبيات وسم حافظ أستاذه الإمام بعدد من الصفات الدينية القويمة فذكر قيامه متعبداً بالليل والناس نيام ، وكثرة دعائه لله ومناجاته إياه في الخلوات ، وقضاء الليالي في الدعوة إلى الله وتذكير الناس بأمور دينهم حتى تستقيم أمورهم ، وإفحام المعاندين الباغين على الدين الإسلامي بالحجج الدامغة ، وتسطير الكتب التي توضح للناس أمور الدين . وهذه كلها صفات سردها حافظ باسلوب سهل بسيط لا غموض فيه ولا تعقيد .

- وفي رثاء حافظ لقاسم أمين يعدد بعض صفاته الطيبة فيقول : (١)

لله درك كنت من رجل	لو أمهلتك غوائل الأجل
خلق كأنفاس الرياض إذا	أسحرن غب العارض الهطل
وشمائل لو أنها مزجت	بطبائع الأيام لم تَحُل
جم المحامد غير متهم	جم التواضع غير مبتذل

ويعجبني في هذه الأبيات تشبيه حافظ لأخلاق المرثي الطيبة بأنفاس الرياض في اعتدالها وطيب شمائلها . كما وفق حافظ في تصوير ثبات شمائل المرثي على الخير حتى أنها لو مزجت بطبائع الأيام المتقلبة لأكسبتها ثباتاً على الخير .

- وكان حافظ - لما اتسم به من وفاء - يمتدح بعض من يرثيهم حتى وإن خالفه الناس الرأي في المرثي أو كانوا غير راضين عما وصفه به من صفات . ووضح هذا في رثاء حافظ للدكتور « شبلي شميل » حيث سرد في رثائه له كثيراً من شمائل الدكتور وصفاته الطيبة رغم إنكار كثير من الناس ذلك منه لأنهم كانوا ينظرون إلى المرثي على أنه كان رجلا معوج العقيدة رقيق الدين . ولكن حافظاً رثاه وعدد شمائله بصفته صديقاً له جمعه وإياه كثير من الود الخالص . وقد أشار حافظ إلى

---

(١) ديوان حافظ ٤٧٠.

ذلك في رثائه له فقال : (١)

إيه شبلي قد أكثر الناس فيك الـقــول حتى تفننوا في عتابي

قيل : ترثي ذاك الذي ينكر النو ... ر ولا يهتدي بهدى الكتاب ؟

قلت : كفوا فإنما قمت أرثي ... منه خلاً أمسى طويل الغياب

أنا والله لا أحابيه في القو ... ل فقد كان صاحبي لا يحابي

إنما أرثي شمائلاً منه عندي ... كنّ أحلى من الشهاد العذاب

كان حرّ الآراء لا يعرف الختـ ... ـل ولا يستبيح غيب الصحاب

مفضلاً محسناً على العسر واليسـ ... ـر جميع الفؤاد رحب الجناب

عاش ما عاش لا يليق على الأيام مالاً ولا يلن للصعاب

كان في الود موضع الثقة الكبرى وفي العلم موضع الإعجاب

وهكذا يعدد حافظ إبراهيم الصفات الطيبة التي يراها ويحسها فيمن يرثيه فتأخذ مكانها من قلوب سامعيه ومن نفوس قارئي شعره .

وقد وضحت هذه الظاهرة أيضاً في رثائه لتولستوى الفيلسوف الروسي الشهير حينما قال (٢)

ولستُ أبالي حين أبكيك للورى ... حوتك جنان أم حواك سعير

فإني أحب النابغين لعلمهم ... وأعشق روض الفكر وهو نضير

دعوت إلى عيسى فضجت كنائس ... وهُزّ لها عرش وماد سرير

وقال أناس إنه قول ملحدٍ ... وقال أناس إنه لبشير

ولولا حطام ردّ عنك كيادهم ... لضقت به ذرعاً وساء مصير

ولكن حماك العلمُ والرأيُ والحجا ... ومال - إذا جدّ النزال - وفير

وقد جعل الأستاذ أحمد محفوظ البيت الأول دليلاً على عدم صدق حافظ في رثائه لتوستوى أو لغيره من الشخصيات الأجنبية . فالبيت الأول في رأيه أدخل في باب الهجاء منه في باب الرثاء . يقول الأستاذ محفوظ معلقاً على رثاء حافظ

---

(١) الديوان ٤٩٥ .

(٢) ديوان حافظ ٤٧٨ .

لتولستوى : (١)

« وإنا نحار في السبب الذى جعله يرثى تولستوى . فهو لم يقرأ له شيئاً ولم يعرفه ولم يسمع به إلا عرضاً . ولكن شوقى رثاه فلابد من أن يرثيه والسلام » .

ولكنى أرى أن البيت الذى اتخذه الأستاذ محفوظ دليلا على عدم صدق حافظ فى رثاء تولستوى ليس أدخل فى باب الهجاء كما يدعى . فحافظ يريد أن يقول للمرثى : إنى أرثيك لإيمانى بنبوغك وعلمك وفكرك . أما الدين فهو لله يحاسبك عليه فيدخلك - إن شاء - الجنة أو تحويك السعير .

ومثل هذه الأشعار التى يذكر فيها حافظ صفات المرثى ويعدد اخلاقه كثيرة فى رثاء حافظ نكتفى منها بما ذكرناه .

٣

وكثيراً ما يتحدث حافظ إبراهيم فى رثائه للأدباء والعلماء عن الميدان الأدبى أو العلمى الذى نبغ فيه المرثى . بحيث لا يقتصر فى رثائه له على تعداد صفاته وعلاقاته بالآخرين ولكن يوضح لنا مظاهر نبوغ المرثى فى الميدان الذى كان يعمل فيه .

- ومن القصائد التى برزت فيها هذه الظاهرة قصيدة حافظ فى رثاء الأديب الكبير جورجى زيدان . حيث يشير حافظ فيها إلى نبوغ هذا الأديب فى ميدان الفكر والأدب والتاريخ . ويتحدث عن ولوع المرثى بكنوز الفكر واستخراجها لإمتاع الناس بها وتعريفهم بمحتواها . يقول حافظ فى رثاء جورجى زيدان : (٢)

---

(١) حياة حافظ إبراهيم ١٩٥ .
(٢) الديوان ٤٩٩ .

(أزيدان) لا تبعد وتلك غلالة ... ينادى بها الناعون كلّ حُسان (١)
لك الأثر الباقى وإن كنت نائياً ... فأنت على رغم المنية دانى
ويا قبر (زيدان) طويت مؤرخاً ... تجلى له ما أضمر الفتيان (٢)
وعقلاً ولوعاً بالكنوز فإنه ... على الدر غواص ببحر (عُمان)
وعزماً شآمياً له أينما مضى ... شباً هندوانىّ وحديمانى
وكفّا إذا جالت على الطرس جولة ... تمايل إعجاباً بها البلدان
أشادت بذكر الراشدين كأنما ... فتى القدس مما ينبت الحرمان
سألت حماة النثر عدّ خلاله ... فمالى بما أعيا القريضَ يدان

ويعجبنى من هذه الأبيات البيت قبل الأخير وما فيه من تصوير جميل . فقد أثنى الفقيد على الخلفاء الراشدين ورفع من ذكرهم فى مؤلفاته حتى لكأنه من نبت البيئة الحجازية مع أنه شامى فلسطينى .

وبرز معنى حديث حافظ عن الميدان الذى نبغ فيه المرثى أيضا فى قصيدة حافظ فى رثاء الطبيبين إبراهيم حسن باشا ومحمد شكرى باشا حيث يقول عن نبوغهما فى ميدان الطب والجراحة : (٣)

قد أقسموا للطب أن يسموا به ... فوق السماك فبرت الأقسام
وغدت ربوع الطب تحكى جنة ... فيها (لبقراط) الحكيم مقامُ
ورأى عليلُ النيل أن أساته ... بذوا الأساة فلم يرعه سقام
يا مصر حسبك ما بلغتِ من المنى ... صدق الرجاءُ وصحت الأحلام
كم فيك جراح كأن يمينه ... عند الجراحة بلسَمٌ وسلامُ
قد صيغ مبضعُهُ وإن أجرى دماً ... من رحمةٍ فجريحه بسّامُ
وموفق جم الصواب إذا التوى ... داءُ العليل وحارت الأفهام
يلقى بسمع لا يخون إذا هفت ... أنن وخان المسمعين صمام

---

(١) الحُسّان : الحسن من الرجال .
(٢) الفتيان : الليل والنهار .
(٣) ديوان حافظ ٥٠١ .

وإذا عضال الداء أبهم أمره | عرفت خفي دبيبه الإبهام
يستنطق آلام وهي دفينة | خرساء حتى تنطق الآلام
كم سلَّ من أيدي المنايا أنفساً | وثنى عنان الموت وهو زؤامُ
ومطبب للعين يحمل ميله | نوراً إذا غشي العيون قتام
وكأن إثمده ضياء نزّه | (عيسى بن مريم) فانجلى الإظلام
ومطبب للطفل لم تثبت له | سِنٌ ولم يدرج إليه فطام
يشكو السقام بناظريه وماله | غير التفزز والأنين كلامُ

وهكذا رسم حافظ صورة واضحة لنبوغ أطباء مصر - ومنهم الطبيبان المرثيان - في مختلف فروع الطب في هذه الأبيات المليئة بالصور الناطقة والمشاهد البارعة لتجسيم نبوغ أطباء مصر وجراحيها . فقد صور لنا حافظ في هذه الأبيات خفة يد الجراح عند الجراحة حتى ليشعر بها المريض بلسماً وسلاماً . كما صور لنا حافظ كيفية اكتشاف الطبيب الداءَ بسمعه إذا لم يستطع المريض الإفصاح عنه ، أو بإبهامه إذا أبهم أمره . وما أحسن تعبير حافظ عن اكتشاف الطبيب للأدواء باستنطاقه الآلام وهي دفينة خرساء . كما وفق في التعبير عن مداواة الطبيب للآلام وإبراء العليل منها بانتزاع نفس المريض من بين براثن الموت . كما أحسن حافظ في تصويره لمهمة طبيب الأطفال وبراعته في تعرفه على داء الطفل الصغير الذى لا يستطيع الإفصاح عن دائه إلا عن طريق التفزز والأنين .

- وبرز هذا المعنى أيضاً في قول حافظ في رثاء الأستاذ الإمام محمد عبده : (١)

لقد كنت فيهم كوكباً في غياهبٍ | ومعرفةً في أنفس نكراتِ
أبنت لنا التنزيل حكماً وحكمةً | وفرقت بين النور والظلماتِ
ووفقت بين الدين والعلم والحجا | فأطلعت نوراً من ثلاث جهاتِ
وقفت (لها نوتو) و(رينان) وقفةً | أمدك فيها الروح بالنفحاتِ
وخفت مقام الله في كل موقف | فخافك أهل الشرك والنزعات

---

(١) الديوان ٤٥٩ .

ففي هذه الأبيات شرح لما كان يشتغل به الإمام من توضيح الأمور في عصر التبست فيه الحقائق ، ومن تبيان للحقائق عند من ينكرونها ، ومن تفسير للقرآن الكريم وتبيان لما فيه من حِكَمٍ وأحكامٍ وتفرقةٍ بين النور والظلمات ، ومن إزالة أى تناقض واختلاف بين الدين والعلم والحجا ، ومن التصدى لكل من يريد النيْل من الدين الإسلامى أو الطعن فيه . وكل هذا فعله الإمام خوفاً من الله - سبحانه-وتقرباً إليه واحتساب الأجر عنده . ولذا فقد أيده الله بالقوة التى أخافت منه أهل الشرك والنزعات .

ويعجبنى فى هذه الأبيات تصوير حافظ للإمام فى البيت الأول بالكوكب الذى يهدى السالكين فى حلك الظلمات ومجيئه بهذه الصورة فى عصر سادت فيه الجهالات ، وتصويره إياه بعلم الهداية والنور بين أنفس نكرات . فبهذا التصوير أبان لنا الشاعر عن عظمة هذا المرثى وعلو شأنه بين أهل عصره . وبذلك يعظم الخطب وتكبر المصيبة عند فقده .

- وفى رثاء حافظ لأحمد حشمت باشا بيّن حافظ أثر رعاية المرثى للغة العربية أيام توليه وزارة المعارف حيث قويت اللغة العربية وأخصبت دورها . يقول حافظ : (١)

سلنى فإنى من صنائعه	وسل «المعارف» كم جنت نفعاً
قد أخصبت أم اللغات به	خصباً أدر لأهلها الضرعا

وهكذا تحدث حافظ فى رثائه عن نبوغ أكثر من رثاهم من الأدباء والعلماء وكشف عن جهودهم فى خدمة الأدب والعلم ، وقدر هذه الجهود حق قدرها حين يثبت لنا استحقاق هؤلاء النابغين للرثاء والبكاء عليهم .

وفى رأيى أن تناول مثل هذا المعنى فى شعر الرثاء قد يحول بين الشاعر وبين التعبير القوى عن إحساسه الحزين وعاطفته الأليمة تجاه المرثى . مما قد يكون سبباً فى اتهامه بعدم الصدق فيما يقول لأنه فى هذا الموقف قد ينشغل بسرد مظاهر التفوق والنبوغ عند المرثى عن إبداء مشاعر الحزن والألم التى خيمت عليه وعلى

---

(١) الديوان ٨١ه .

أبناء مجتمعه نتيجة فقد هذا العالم أو الأديب .

ولنقرأ معاً تلك الأبيات التى ذكرتها فى رثاء حافظ للطبيبين إبراهيم حسن باشا ومحمد شكرى باشا . فقد تحول فيها حافظ من شاعر يعبر بشعره عن ألمه الدفين وحزنه العميق على هذين الطبيبين إلى متحدث يشرح كيف يتعامل الأطباء مع المرضى وكيفية اكتشافهم للأدواء المختلفة بمهارة واقتدار . حتى ليحس القارئ لهذه الأبيات بخلوها من العاطفة الحزينة والمشاعر الأليمة .

٣

وكثيراً ما يشير حافظ فى رثائه للأدباء والعلماء إلى أهم آثار المرثى فى الميدان الذى نبغ فيه . وهذا معنى مترتب على المعنى السابق . فإذا تحدث الشاعر عن نبوغ المرثى فى الميدان الذى كان يعمل فيه فمن الطبيعى أن يذكر لقراء شعره أهم الآثار التى تدل على هذا التفوق والنبوغ .

- ومن قصائد الرثاء فى شعر حافظ التى برز فيها مثل هذا المعنى قصيدته فى رثاء الكاتب محمد المويلحى . فقد أشار فى بعض أبياتها إلى كتاب المرثى : « حديث عيسى بن هشام » وما يحتويه من معارف وما يدل عليه من نبوغ مؤلفه . يقول حافظ : (١)

لو شهدتم (محمداً) وهو يملى	آى (عيسى) ومعجزات الكتاب
وقفت حوله صفوف المعانى	وصفوف الألفاظ من كل باب
لعلمتم بأن عهد (ابن بحر)	عاود الشرق بعد طول احتجاب
أدب مستو وقلب جميع	وذكاء يريك ضوء الشهاب
عند رأى موفق عند حزم	عند علم يفيض فيض السحاب
جلّ أسلوبه النقىّ المصفّى	عن غموض ونفرة واضطراب
وسما نقده النزيه عن الهجـــــر	فما شيب مرة بالسباب

---

(١) ديوان حافظ ٤٥٥ .

فالشاعر فى هذه الأبيات يبدئ إعجابه بكتاب عيسى بن هشام وكاتبه محمد المويلحى . فأما الكتاب فقد حوى معجزات من المعانى والألفاظ واشتمل على معارف متنوعة كتبت كلها بأسلوب نقى بليغ مصفّى بعيد عن الغموض والاضطراب وعن كل ما يخل بفصاحته وبلاغته . أما الكاتب فهو فى علمه وأدبه ونكائه وآرائه الموفقة وتنوع معارفه ونقده النزيه يذكرنا ، بل يعيد إلينا عهد الكاتب العربى البليغ عمرو بن بحر الجاحظ .

وقد لجأ حافظ إلى تصوير طريف ليبرز لنا نوع المعارف والعلوم التى ضمها كتاب « حديث عيسى بن هشام » وهو أن المعارف والألفاظ من كل باب تقف صفوفاً حول الكاتب وهو يملى كتابه حتى خرج وقد امتلأ بشتى المعارف والعلوم .

كما وفق حافظ فى رسم الصورة الواضحة للمعارف والعلوم التى نبغ فيها المرثى وأثبت تفوقه فيها : فهو صاحب أدب مستو وقلب مجتمع ونكاء متوقد ورأى موفق مبنى على علم فياض وثقة بالرأى واسلوب نقى فصيح بعيد عن الغموض والاضطراب ونقد نزيه عن الفحش ومرذول الكلام . وهذا كله إذا توفر فى شخص كان حقيقاً برثاء الشاعر له وبكاء أبناء المجتمع له .

- وفى رثاء حافظ لقاسم أمين أشار إلى دعوته لتحرير المرأة وآثار هذه الدعوة فى المجتمع العربى فقال : (١)

لله آراء شأوت بها	فى الخالدين نوابغ الأوَل
قد كنت أشقانا بنا وكذا	يشقى الأبى بصحبة الوَكِل (٢)
شغلتك عن دنياك أربعة	والمرء من دنياه فى شغل
حق تناصره ومفخرة	تمشى إليها غير منتحل
وحقائق للعلم تنشدها	ما للحكيم بهن من قِبَل
وفضيلة أعيت سواك فلم	تمدد إليه يداً ولم يصل

(١) الديوان ٤٧١ .

(٢) الوكل : الضعيف العاجز الذى يكل أمره لغيره .

فقد أشار حافظ فى هذه الأبيات إلى انشغال قاسم بقضية تحرير المرأة وبآرائه فى ترسيخ هذه المبادىء فى أذهان أبناء المجتمع ، وإلى ما لقيه الفقيد من عنت وعناد حين أخرج كتابيه فى قضية تحرير المرأة : (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) .

ومن الملاحظ أن حافظاً هنا لم يبد رأياً يعبر عن موقفه هو تجاه دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة . فقد عرض حافظ لدعوة قاسم أمين ولكنه لم يقطع بإصابة قاسم أو خطئه ولم يفعل سوى تسجيل آراء المعارضين لدعوة قاسم أو المؤيدين لها . اقرأ معى قوله :

إن ريت رأياً فى الحجاب ولم	تُعْصَم فتلك مراتب الرسل
الحكم للأيام مرجعه	فيما رأيت فنم ولا تَسَل
وكذا طهاة الرأى تتركه	للدهر ينضجه على مهل
فإذا أصبت فأنت خير فتىً	وضع الدواء مواضع العِلَل
أولا فحسبك ما شرفت به	وتركت فى دنياك من عمل

ولكن إذا كان حافظ لم يبد رأياً فى دعوة قاسم فى هذه القصيدة فإنه قد قال فى موضع آخر ما يشير إلى موافقته على ما نادى به قاسم وتأييده فى دعوته بشرط عدم الإسراف فى ذلك لأن التوسط بين الحالتين ـ الحجاب التام والسفور المرزى ـ هو خير الأمور فى هذه القضية . يقول حافظ فى قصيدته التى ألقاها بمدرسة البنات ببورسعيد عام ١٩١٠م ـ أى بعد وفاة قاسم أمين بعامين : (١)

أنا لاأقول دعوا النساء سوافراً	بين الرجال يجلن فى الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازع	يحذرن رقبته ولا من واقى
يفعلن أفعال الرجال لواهياً	عن واجبات نواعس الأحداق
فى دورهن شؤونهن كثيرة	كشؤون رب البيت والمزراق
كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا	فى الحجب والتضييق والإرهاق
ليست نساؤكم حلىً وجواهراً	خوف الضياع تصان فى الأحقاق

---

(١) ديوان حافظ ٢٨٢ .

ليست نساؤكم أثاثاً يقتنى ... فى الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الأزمان فى أدوارها ... دولاً ومن على الجمود بواقى
فتوسطوا فى الحالتين وأنصفوا ... فالشر فى التقييد والإطلاق
ربوا البنات على الفضيلة إنها ... فى الموقفين لهن خير وثاق
وعليكمُ أن تستبين بناتكم ... نور الهدى وعلى الحياء الباقى

- ومن قصائد الرثاء التى أشار فيها حافظ إلى آثار المرثى الدالة على تفوقه ونبوغه قصيدته فى رثاء الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد فقد تحدث فيها عن جريدة المؤيد كأثر من آثار المرثى وما جرى على صفحاتها من تأييد الحق وإبطال الباطل وما كتب على صفحاتها من شعر يسمو بالذوق ومن نثر يوضح الأمور ويجلى الحقائق . يقول حافظ إبراهيم فى ذلك : (١)

كم أرجفوا بعد موت الشيخ وارتقبوا ... موت (المؤيد) فينا شر مرتقب
وإن يمت تمت الآمال فى بلدٍ ... لولا المؤيد لم ينشط الى طلب
صبابة من رجاءٍ بين أضلعنا ... قد بات يرشف منها كل مغتصب
ألم يكن لبنى (مصر) وقد دهموا ... من ساسة الغرب مثل المعقل الأشب
كم انبرت فيه أقلام وكم رفعت ... فيه منائر من نظم ومن خُطب
وكان ميدانَ سبق للألى غضبوا ... للدين والحق من داع ومحتسب
فكم يراع حكيم فى مشارعه ... قد التقى بيراع الكاتب الأرب
أى الصحائف فى القطرين قد وسعت ... ردَّ الأمام مزيل الشك والريب
أيام يحسب (هانوتو) بفريته ... وجه الحقيقة والإسلام فى نصب
لولا المؤيد ظل المسلمون على ... تناكر بينهم فى ظلمة الحجب
تعارفوا فيه أرواحاً وضمهم ... رغم التنائى زمام غير منقضب
فى مصر فى تونس فى الهند فى عدن ... فى الروس فى الفرس فى البحرين فى حلب
هذا يحن إلى هذا وقد عقدت ... مودة بينهم موصولة السبب

---

(١) الديوان ٤٨٨ .

أرأيت كيف بين حافظ بإفاضة واقتدار فضل جريدة المؤيد التي أسسها المرثي على المسلمين وأثرها في توحيد كلمتهم واجتماعهم على كلمة سواء . ولذلك كان موت المرثي موتاً للآمال في مصر التي كان للمؤيد فيها أكبر الأثر في دفع أهلها إلى المطالبة بحقوقهم في الحرية والحياة الكريمة .

- وفي رثاء حافظ لباحثة البادية السيدة ملك حفني ناصف أشار إلى أهم آثار هذه السيدة في ميدان الفكر والأدب . ونكر من هذه الآثار جهودها المخلصة اثناء انعقاد المؤتمر الإسلامي في سنة ١٩١١م . كما كان من آثارها تلك المحاضرات والمقالات الغرر على صفحات الجريدة وما كانت تكتبه على صفحات المجلات الأخرى بهدف الدعاية إلى نهضة المرأة المصرية والرقي بشأنها يقول حافظ في رثاء باحثة البادية : (١)

بالعلم حلّت صدرها	لا باللآلئ والدررْ
فانظر شمائل فكرها	بالله يوم (المؤتمرْ)
واقرأ محاضرة الجريـ	ـدة والمقالات الغررْ
وارجع إلى ما أودعتْ	عند المجلات الكُبَرْ
تعلم بأنا قد فقد	نا خير ربات الفِكَرْ

ويعجبني في هذه الأبيات تصوير الشاعر لما قامت به باحثة البادية من اتخاذ العلم حلياً لصدرها بدلاً من التحلي باللآلئ والدرر . ولقد أصاب حافظ في اتخاذ مثل هذا البيت دليلاً على حب هذه السيدة للعلم وتفانيها في تحصيله لدرجة استغنائها به عما يغرم به الغالبية العظمى من النساء وهو الجري وراء الزينة والتحلي بالذهب وغيره من اللآلئ والدرر .

---

(١) ديوان حافظ ٥٠٨ .

٤

وهناك ظاهرة أخرى بارزة فى شعر الرثاء فى ديوان حافظ وهى الإشارة إلى المناصب التى تولاها المرثى سواء كان أديباً أم عالماً . وسواء كان منصبه الذى تولاه منصباً أدبياً أو علمياً أو حتى سياسياً . فهو كثيراً ما يذكر المناصب والمهام التى تولاها المرثى وقيامه بمهام منصبه على خير وجه .

- ومن ذلك قول حافظ فى رثائه للشاعر الفارس محمود سامى البارودى : (١)

لبيك يا خير من هزّ اليراع ومن	هزّ الحسام ومن لبّى ومن نودى
إن هدّ ركنك منكوباً فقد رفعت	لك الفضيلة ركناً غير مهدود
إن المناصب فى عزل وتولية	غير المواهب فى ذكر وتخليد
أكرم بها زلةً فى العمر واحدةً	إن صحّ أنك فيها غير محمود
كنت الوزير وكنت المستعان به	وكان همك هم القادة الصيد

ففى البيت الأول من هذه الأبيات أجمل حافظ بعض الوظائف التى تولاها البارودى : فهو خير من هزّ اليراع . وهذا كناية عن سرعة تلبيته لداعى الجهاد ،أو توليه بعض المناصب الإدارية . وقد يكون المراد منه أنه خير من لبى نداء ربه وخير من نودى أو هو خير من نودى بمعنى « ملك » .

أما الأبيات التالية فتشير إلى عزله من منصبه الحكومى بعد اشتراكه فى الثورة العرابية وإنه وإن كان قد حدث له ذلك فإن أخلاقه الرفيعة قد هيأت له من الفضيلة منصباً ثابتاً لا يزول لأنها شئ نابع من نفس صاحبها لا يصح لأحد أن يفرق بينهما . وليس كذلك المناصب الأخرى التى يتولاها الإنسان فيجوز أن يعزل عنها فى أى وقت . وإن كان اشتراكه فى الثورة العرابية هو السبب فى عزله من مناصبه فأكرم به سبباً يزداد به البارودى تشريفاً . وإن صح أن اشتراكه فى الثورة العرابية شيئاً غير محمود فهو لا يعدو عن كونه زلة واحدة فى العمر لم يعرف عنه أنه اقترف غيرها من المنكرات .

---

(١) ديوان حافظ ٤٥٤ .

وفى البيت الأخير يبين حافظ بعضاً من الوظائف التى تولاها البارودى فهو الوزير الذى يستعان به فى إبرام أمجد الأعمال والذى يسهر على راحة أبناء وطنه ويعمل من أجل ماينفعهم فى الحياة .

ويعجبنى فى هذه الأبيات حديث حافظ عن الفضيلة وأنها تمثل لصاحبها ركناً غير مهدود تعصم الإنسان من الزلل وترفع من شأنه بين الآخرين إذا تخلت عنه مناصبه فى هذه الدنيا . والبيت الثالث من هذه الأبيات يحمل معنى الحكمة الطريفة . فالمناصب الدنيوية غير مستديمة بل شاغلها متقلب بين عزل وتولية . أما الطبائع والمواهب فهى ثابتة لدى صاحبها خالدة حتى بعد رحيله .

- ومن هذه الأشعار التى برز فيها هذا المعنى أيضاً قول حافظ فى رثاء على أبى الفتوح باشا : (١)

قد مات نابغة القضا	وغاب بدر المحفل
وعدا القضاء على القضا	فصابه فى المقتل
حلّال عقد المعضلا	ت قضى بداءٍ معضل

فقد أشار حافظ فى البيت الأول إلى مهنة القضاء التى نبغ فيها المرثى وقد عدا قضاء الله على القضاء فى مصر حين قضى على رجل القضاء فيها فقد كان علىّ أبو الفتوح باشا حلالاً لأعقد المعضلات فى القانون والقضاء . ولكنه للأسف قضى أمره بداء معضل لم ينفع معه دواء .

ولا شىء يزين هذه الأبيات غير الجناس التام فى البيت الثانى والمقابلة المعنوية بين شطرى البيت الثالث .

وهكذا كان حافظ فى رثائه يشير إلى المناصب التى تولاها ونبغ فيها المرثى لتكون ضمن الآثار التى يستحق من أجل نبوغه فيها للرثاء والبكاء . كما كان هدف حافظ من وراء حديثه عن مثل هذا المعنى أن يبين خلو مثل هذه المناصب بعد وفاة المرثى لعدم وجود من يسد مسده ويحل محله فيها . مما يصور فداحة الخطب وجلل المصيبة .

---

(١) ديوان حافظ ٤٩٠ .

ه

ولما كان حافظ يشير في مراثيه للأدباء والعلماء إلى الميدان الذى نبغ فيه المرثي وإلى أهم آثاره الأدبية أو العلمية كان من المناسب أن يدعو حافظ أبناء وطنه بل وأبناء الوطن الإسلامى الكبير وجميع أبناء الأقطار العربية إلى أن يهتموا بآثار المرثي وأن يسيروا على منواله فيها ·

ووجود مثل هذه الظاهرة في رثاء حافظ يدل بكل صراحة على مدى حبه للعلم ورجاله وللأدب وأعلامه · كما يدل على دعوة حافظ بكل صراحة ووضوح إلى الاهتمام بالعلم والأدب والأخذ بأسباب العلم في جميع المجالات للنهوض بالمجتمع العربي والإسلامي الذي يحبه حافظ ويتمنى له الرفعة والرقي والتقدم · وكثيراً ما أبان لنا حافظ في شعره بصفة عامة عن هذه الدعوة طالباً من أبناء مصر ومن العرب والمسلمين بعامة أن يستمعوا إليها ويعملوا على التمسك بالعلم والأدب والحفاظ على ما يمهد سبل الأخذ بأسبابهما · فحافظ هو القائل في الحث على تعضيد مشروع الجامعة المصرية : (١)

فأنشأوا ألف كتّاب وقد علموا   أن المصابيح لا تغنى عن الشهب
هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا   حد القراءة في صحف وفي كتب
من المداوى إذا ما علة عرضت   مَن المدافع عن عرض وعن نشب
ومَن يروض مياه النيل إن جمحت   وأنذرت مصر بالويلات والحرب
ومَن يوكّل بالقسطاس بينكمُ   حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب
ومن يُطلّ على الأفلاك يرصدها   بين المناطق عن بعد وعن كثب
ومن يبز أديمَ الأرض ما ركزت   فيها الطبيعة من بدع ومن عجب
ومن يميط ستار الجهل إن طمست   معالم القصد بين الشك والريب
فما لكم أيها الأقوام جامعة   إلا بجامعة موصولة السبب
قد قام (سعد) بها حيناً فأسلمها   إلى (أمين) فلم يحجم ولم يهب

---

(١)

فعاونوه يعاونكم على عمل ... فيه الفخار وما ترجون من إرب

وبينوا لرجال الغرب أنكم ... إذا طلبتم بلغتم غاية الطلب

وفي قصيدة أخرى قالها حافظ في نفس هذا الغرض استهلها بقوله : (١)

حياكم الله أحيوا العلم والأدبا ... إن تنشروا العلمَ ينشر فيكم العربا

ولا حياة لكم إلا بجامعة ... تكون أماً لطلاب العلا وأبا

تبنى الرجال وتبنى كل شاهقة ... من المعالي وتبنى العز والغلبا

ضعوا القلوب أساساً لا أقول لكم ... ضعوا النضار فإني أصغر الذهبا

وابنوا بأكبادكم سوراً لها ودعوا ... قيلَ العدوّ فإني أعرف السببا

ومن منطلق إيمانه بالعلم والأدب وأهميتها في تقدم الشعوب ورقي المجتمعات أنشد حافظ قصيدته الشهيرة التي يدعو فيها العرب إلى الحفاظ على اللغة العربية والنهوض بها والعمل على إعادتها لمجدها القديم . فهي الوسيلة الأولى لتفهم العلوم والاستفادة بكنوزه مبدياً اللوم على العرب لإهمالهم لغتهم وعدم وقائهم لها . يقول حافظ في بعض أبيات هذه القصيدة على لسان اللغة العربية : (٢)

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ... ومنكم وإن عز الدواء أساتي

فلا تكلوني للزمان فإنني ... أخاف عليكم أن تحين وفاتي

أرى لرجال الغرب عزاً ومنعةً ... وكم عزّ أقوام بعز لغات

أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات

إلى معشر الكتاب والجمع حافل ... بسطت رجائي بعد بسط شكاتي

فإما حياة تبعث الميت في البلى ... وتنبت في تلك الرموس رفاتي

وإما ممات لا قيامة بعده ... ممات لعمرى لم يقس بممات

ولم يقتصر حافظ في دعوته هذه على الرجال بل تعداهم إلى مخاطبة الفتيات وإلى

---

(١) الديوان ٢٧٢ .

(٢) ديوان حافظ ٢٥٣ .

كل أبناء الشعب . ولعل هذا هو السبب الذى جعله يؤيد قاسم أمين فى دعوته ويتبنى آراءه فى قضية تحرير المرأة داعياً الفتاة بأن تأخذ حقها من العلم والتعليم وداعياً الرجال أن يمكنوها من هذا الحق وألا يحولوا بينها وبينه . اقرأ معى قوله فى قضية تحرير المرأة : (١)

من لى بتربية النساء فإنها	فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها	أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا	بالرى أورق أيما إيراق
ربوا البنات على الفضيلة إنها	فى الموقفين لهن خير وثاق
وعليكمُ أن تستبين بناتكم	نور الهدى وعلى الحياء الباقى

هذا عن دعوة حافظ إلى الاهتمام بالعلم والأدب فى غير الرثاء . أما فى شعر الرثاء فيبرز هذا المعنى فى عدة قصائد :

- ففى رثائه للشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد يناشد حافظ سامعى شعره أن يصونوا يراع هذا الشيخ فى المتاحف ويهتموا به اهتمامهم بآثار المصريين القدماء . فقد كان هذا القلم أداة لبيان الحق وتبصير الشعب بحقوقه فى الحياة . ولهذا فيجب الرجوع إليه إذا ما التبس الأمر على أهله . ولا غرو فقد كان الشيخ وقلمه سلوة لمصر وأهلها وقت الشدائد والمكاره . أما فى ساعة الغضب فقد كانا جمرة تحرق كل من يحاول اغتصاب حق من حقوق أبناء هذا الوطن . ولقد اتخذ الشيخ من مداد هذا القلم وما يخطه من ألفاظ أسطولاً جراراً فى قوة بطشه وإهلاكه لكل من يعترض طريقه . فلذا يدعو حافظ إلى الاهتمام بهذا القلم بل ويطالب بأن يحمله بعد الفقيد إنسان يرفع من شأن الأدب والعلم ويوضح به الحق الذى يحاول الساسة من

---

(١) ديوان حافظ ٢٨٢

الانجليز ومن مالأمم أن يخفوه . يقول حافظ : (١)

صونوا يراع عليّ فى متاحفكم	وشاوروه لدى الأرزاء والنُّوَب
واستلهموه إذا ما الرأى أخطأكم	يوم النضال عن الأوطان والنشب
قد كان سلوة مصر فى مكارهها	وكان جمرة (مصر) ساعة الغضب
فى شقه ومراميه وريقته	ما فى الأساطيل من بطش ومن عطب (٢)
ألا فتى عربى يستقل به	بعد الفقيد ويحمى حوزة الأدب
ويمنع الحق أن يغشى تبلجه	ما فى السياسة من زور ومن كذب

وتتجلى براعة حافظ فى هذه الأبيات فى تشخيصه لهذا القلم والإخبار عنه بكل هذه الأعمال . ولاشك أن حافظاً يقصد بالحديث عن القلم الحديث عن صاحب القلم . وقد أعجبت كثيراً بقول حافظ عن هذا القلم بأنه كان سلوة لمصر فى مكارهها وكان جمرة ضد أعدائها ساعة الغضب .

- وفى رثاء حافظ لشهداء العلم أعضاء البعثة الدراسية الذين راحوا ضحية حادث وقع للقطار الذى كان يقلهم عبر ايطاليا . يخاطب حافظ شباب مصر منادياً إياهم أن يهتموا بالعلم وأن لا يؤثر فيهم هذا الخطب الفادح فيقعدبهم عن طلب العلم . يقول حافظ : (٣)

أى شباب النيل لا تقعد بكم	عن خطير المجد أخطار السفر
إن من يعشق أسباب العلا	يطرح الأحجام عنه والحذر
فاطلبوا العلم ولو جشمكم	فوق ما تحمل أطواق البشر
نحن فى عهد جهادٍ قائمٍ	بين موتٍ وحياةٍ لم تقر

وقد أعجبنى ما فى البيت الثانى من هذه الأبيات من حكمة طريفة تحث قارئها على طلب العلم بل وطلب كل أمر من شأنه أن يرفع من شأن صاحبه وأن يتحمل الإنسان

---

(١) ديوان حافظ ٤٨٦ .
(٢) ريقته : مداده . العطب : الهلاك .
(٣) الديوان ٥٧٥ .

كل صعب فى الوصول إلى ما تصبو إليه همته وأن لا يلقى بالاً لما قد يعترض طريقه من صعاب .

- وفى رثاء حافظ لمحمد بركات باشا وكيل وزارة المعارف العمومية فى عصره يدعو حافظ أبناء وطنه أن يتركوا اللهو وأن يجدوا فى الحياة ويسيروا فيها سير المرثى فى جده وحبه للعلم والعمل على النهوض به وتطبيق مبادىء العلم فى كل أمور الحياة . يقول حافظ فى ذلك : (١)

فاتركوا اللهو فى الحياة وجدوا ... إن فى اسم الرئيس أيمن فال
فاصنعوا صنع عاطف واذكروه ... آية المجد ذكرة الأبطال

وهكذا يوالى حافظ دعوته لأبناء وطنه - كلما سنحت الفرصة لذلك - أن يقتفوا آثار المرثى ويتبعوا نهجه وأن يتخذوا من اهتمامه بالعلم والأدب وسيلة للرقى بوطنهم ورفعة شأنه . وتنبع هذه الدعوة من إيمان حافظ القوى بأثر العلم والأدب فى حياة الشعوب وفى النهوض بالأمم . ولهذا تكررت دعوته فى الكثير من المناسبات للنهوض بالعلم والحث على كل ما يؤدى إلى ذلك من بناء المدارس وإنشاء الجامعات ورثاء أهل العلم والأدب من أبناء الشعب .

٦

وكثيراً ما يتحدث حافظ فى رثائه للعالم أو الأديب عن حالة العلم والأدب بعد وفاة المرثى . وكان يصور وفاة كل واحد من هؤلاء العلماء والأدباء على أنها مصيبة كبرى وخطب عظيم يصاب به العلم والأدب بعد رحيل راعيه والقائم على النهوض به .

- فقد يذكر فى رثائه لأحد هؤلاء الأدباء والعلماء غياب فضائل العلم والفكر بغياب المرثى على الرغم من تأثيره الكبير فى تلاميذ له خلفهم لينيروا طريق العلم

---

(١) الديوان ٥٧٨

والهداية من بعده . ولكن وجود هؤلاء التلاميذ لم يملأ ذلك الفراغ الهائل الذى حدث فى ميدان العلم والفكر والأدب بموت المرثى .

اقرأ معى قول حافظ فى رثاء الإمام محمد عبده فى القصيدة التى ألقاها بمناسبة ذكراه السابعة عشرة : (١)

وفجعنا بإمام مصلح	عامر القلب وأواب منيب
قد مضى عشر وسبع والنهى	فى ذبول والأمانى فى نضوب
نرقب الأفق فلا يبدو به	لامع من نور هادٍ مستثيب
ونادى كل مأمول وما	غير أصداء المنادى من مجيب
دَوِىَ الجرح ولم يُقدر له	بعد ثاوى (عين شمس) من طبيب
أجدب العلم وأمسى بعده	رائد العرفان فى وادٍ جديب

فالنهى فى ذبول والأمانى فى جدب ونضوب منذ رحل الإمام المصلح . والشاعر يرقب الأفق عله يجد من يخلف الإمام فى هديه وعلمه فلا يجد وينادى على من يرى فيه الأمل فى إنقاذ العلم والفكر من كبوته فلا يسمع غير أصداء نداءاته . وكلما مر الوقت كلما اتسع الجرح وتعذر العلاج حتى أجدب حقل العلم بعد رحيل الإمام .

ولا أحد ينكر براعة حافظ فى تصويره لنضوب حقل العلم والمعرفة بعد وفاة الإمام : فالنهى فى ذبول ، والأمانى فى نضوب . والشاعر ينادى كل مأمول فلا يسمع غير صدى ندائه وجرح العلم يتسع مع مرور الأيام ، وحقل العلم قد أجدب ، وطالب العلم بعد فقد الإمام يسير فى وادٍ جديب . وهذه كلها جمل مليئة بألوان الحس والحركة وتمثل الشىء المعنوى فى صورة المحسوس الملموس وبها صور حافظ فجيعة العلم والهدى والفكر والأمة الإسلامية فى أعز شموس المعرفة الدينية والفكر الإسلامى .

- وفى رثاء حافظ لأستاذه البارودى ذكر أن موته كان كارثة للشعر والأدب والفن بجانب أنه كان كارثة أصيب بها الوطن المصرى والعالم العربى . ولذا فقد رثى حافظ - فى رثاء البارودى البلاغة العربية والبيان الرفيع والشعر الرصين وتحسر على

---

(١) الديوان ٥١٩ .

حال اللغة العربية التي فقدت علماً من أعلامها الناهضين بها والمدافعين عن ذوقها وبلاغتها . يقول حافظ في ذلك : (١)

ردوا عليّ بياني بعد محمود ... إني عييت واعيا الشعر مجهودي

ما للبلاغة غضبى لاتطاوعني ... وما لحبل القوافي غير ممدود؟

ظنت سكوتي صفحاً عن مودته ... فأسلمتني إلى هم وتسهيد

ولو درت أن هذا الخطب أفحمني ... لأطلقت من لساني كل معقود

أودى (المعرى) تقي الشعر مؤمنه ... فكاد صرح المعالي بعده يودي

وأوحش الشرق من فضل ومن أدب ... واقفر الروض من شدو وتغريد

وأصبح الشعر والأسماع تنبذه ... كأنه دسم في جوف ممعود

ألوى به الضعف واسترخت أعنته ... فراح يعثر في حشو وتعقيد

وأنكرت نسمات الشرق مربعه ... تثيرها خطرات الخرد الخود

وهكذا رثى حافظ أستاذه البارودي ورثى معه الشعر والبلاغة فأبان عما أصابهما من ضعف ووهن وما حل عليهما من قصور بعد موت المرثي . وقد جاء في رثائه باللفظ الرصين والعبارة المليئة بالحزن والآهات . ولكنه - رغم هذا - لم يستطع أن يثير الحزن في نفوس الناس في عصره - كما يذكر الدكتور عبد الحميد سند . ولعل ذلك راجع - في رأيه - إلى « أن موت البارودي لم يكن كارثة شعبية أو لعل الناس - على أصح تعبير - لم يروه في ذلك الحين كذلك . وإنما كان موته رزءاً للأدباء بنوع خاص . وليس من شك في أن حافظاً قد حزن لفقد أستاذه إمام الشعراء حزناً شديداً بسبب ما كان عليه من وفاء منقطع النظير » (٢)

أما الدكتور طه حسين فقد ذكر سبب تقصير حافظ في قصيدته هذه في رأيه

---

(١) الديوان ٤٥٣ .

(٢) حافظ إبراهيم شاعر النيل ١٣٤ .

هو فقال : (١) « ومصدر ذلك فيما يظهر أن حافظاً تهيب إمام الشعراء ميتاً كما كان يتهيبه حياً (٢) ..... واعتقد أنه مهما يقل في البارودى فلن يبلغ من رثائه ما يريد ففل ذلك من حده وفت في عضده وقصر به عن غايته . ومصدر ذلك أيضاً فيما يظهر أن موت البارودى لم يكن رزءاً شعبياً أو لم يره الناس كذلك في وقته وإنما كان رزءاً للأدباء . وأبرع ما يكون حافظ في الرثاء حين يصور حزن الشعب وألمه . لذلك أجاد كل الإجادة في رثاء الأستاذ الإمام وفي رثاء مصطفى كامل لأن الأول كان فقده رزءاً في عظيم من عظماء الدين ومن عظماء النهضة الفكرية ، ولأن الثاني كان فقده رزءاً في عظيم من عظماء السياسة . فكان حافظ في رثائه ناطقاً بلسان الجماهير » .

على أن حافظاً قد خانه التعبير وجانبه التوفيق حينما تحدث عن حالة الشعر في قلوب مدعى الشاعرية فقال :

وأصبح الشعر والأسماع تنبذه ... كأنه دسم في جوف ممعود

فتشبيهه في هذا البيت تشبيه مقزز تشمئز منه النفس .

ومما يجدر ذكره هنا أن الدكتور طه حسين قد أعجب بصياغة قصيدة حافظ في رثاء البارودى وحكم عليها بجودة اللفظ ورصانته ولكنه حكم عليها بالخلو من العاطفة والروح . ولذلك رأى الدكتور طه أن حافظاً لم يمس القلوب بهذا الحزن اللاذع . كما حكم على مقدمة القصيدة بعدم الصدق الحسي فقال : (٣) « ومع أنه لم يكن يريد الصدق في أول هذه القصيدة حين يقول :

ردوا على بيانى بعد محمود ... إنى عييت وأعيا الشعر مجهودى

ما للبلاغة غضبى لاتطاوعنى ... وما لحبل القوافى غير ممدود؟

فليس من شك أنه قد صدق وقال الحق فعيى وأعيا الشعر مجهوده وامتنعت عليه البلاغة وقصر عليه حبل القوافى » كما أن القصيدة جاءت تقليداً لمسلم بن الوليد في

---

(١) ذكرى الشاعرين ٤٣ .

(٢) وذكر حافظ ذلك فعلا في هذه القصيدة فقال :

محمود إنى لأستحييك في كلمى ... حيًّا وميتاً وإن ابدعت تقصيدى

(٣) ذكرى الشاعرين ٤٣ .

داليته المشهورة : (١)

لا تدع بي الشوق إني غير معمود (٢)

على أن لي تحفظاً على حكم الدكتور طه حسين على حافظ بأنه لم يكن يريد الصدق في البيتين المذكورين . فالمعروف أن حافظاً كان يجل البارودي ويعظمه وينظر إليه كأستاذ له مهد أمامه الطريق إلى الرقي والنهوض بالشعر . ثم على أي أساس بنى الدكتور طه هذا الحكم على الشاعر ولم يعطه الله - كما لم يعط أحداً من خلقه - خاصية الاطلاع على النوايا وما تضمره القلوب ؟! .

- وفي رثاء حافظ للأديب الكبير مصطفى لطفي المنفلوطي تحدث حافظ عن الخسارة الكبيرة التي حلت بالنثر الفني بعد فقد المرثي . فقد خلت الأساليب بعده من كل حسن وجمال واسترخى عنان الرسائل الممتعات ، وجمحت المعاني وأصبحت صعبة القياد ، وتعذر وجود المعنى الجيد الذي كان يمتع به المرثي قراء كتبه وحزن البيان على ما فقد من معان بدائع رائعات كان المرثي بارعاً في استخراجها من مكامنها . وليس هذا فقط . فقد بكت روايات الأديب المرثي وأصبحت خالية من رقة الشعور التي كانت تمثل متعة للقارئين وتسلية لهم . وهكذا تبدل حال النثر وتغير شكله بعد فقد راعيه . وقد أصبح صعب القياد لمن بعده وقد كان طوع أمر المرثي ورهن قلمه . يقول حافظ في رثاء المنفلوطي : (٣)

رحم الله صاحب النظرات	غاب عنا في أحرج الأوقات
يا أمير البيان والأدب النضـ	ـر لقد كنت فخر أم اللغات
أقفرت بعدك الأسـاليب واسـ	ـترخى عنان الرسائل الممتعات
جمحت بعدك المعاني وكانت	سلسات القياد مبتدرات
وأقام البيان في كل ناد	مأتماً للبدائع الرائعات

---

(١) القصيدة بديوان مسلم بن الوليد - طبع مدينة ليدن - مطبعة بريل عام ١٨٧٥م ص ١٢١ . والقصيدة في مدح داود بن يزيد بن حاتم بن خالد بن المهلب .

(٢) ذكرى الشاعرين ٤٣ .

(٣) الديوان ٥٧٩ .

لطمت «مجدلين» بعدك خديـ ـها وقامت قيامة «العبرات»
وانطوت رقة الشعور وكانت سلوة البائسين والبائسات

وقد لجأ حافظ إلى عدة وسائل لتصوير معانيه تصويراً حسناً فى هذه الأبيات مثل المقابلة بين المعنى فى شطرى البيت وذلك واضح فى كل من البيتين الرابع والأخير ، ومثل الاستعارة التى تصور المعنى فى صورة حسية ملموسة مثل ما هو ملاحظ فى معظم الأبيات المذكورة .

ويعجبنى فى هذه الأبيات تصوير حافظ لروايتى : « مجدولين والعبرات » فى البيت الأخير بصورة بنتين من بنات الفقيد يبكيان عليه - إحداهما تلطم خديها والأخرى قامت قيامتها فهى تتصاعد كما يتصاعد الخلق عند قيامهم لرب العالمين .
وهكذا رسم لنا حافظ فى رثائه للأدباء والعلماء صورة الأدب والعلم بعد موت من يرثيهم من نوابغ عصره فى مجال العلم والأدب ، وأبان لنا عن مدى الضعف والوهن الذى أصيب به الأدب والعلم بفقدهما لأحد رجالهما فى عصر الشاعر .

٧

ولم يكتف حافظ فى رثائه للأدباء والعلماء ببيان حالة العلم والأدب بعد فقد المرثى وإنما كان كثيراً ما يبين أثر فقد المرثى على العالميْن العربى والإسلامى . وكان حافظ يرى فى موت كل واحد من هؤلاء العلماء أو الأدباء مصيبة كبرى وخطب فادح يصاب به الوطن العربى كله أو العالم الإسلامى بأجمعه وليس قاصراً على طائفة دون أخرى أو على بلد دون آخر .
- اعتبر حافظ موت الإمام محمد عبده خطباً عظيماً ورزءاً أليماً أصيبت به مصر

والعالم الإسلامي فقال : (١)

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجةً ... وضاقت عيون الكون بالعبرات
ففي الهند محزون وفي الصين جازع ... وفي مصر باكٍ دائم الحسرات
وفي الشام مفجوع وفي الفرس نادب ... وفي تونس ما شئت من زفرات
بكى عالم الإسلام عالِم عصره ... سراج الدياجي هادم الشبهات

وقد صورت هذه الأبيات بكاء الشرق كله حزناً على وفاة الإمام . ولا غرو فقد كان الإمام عالِم عصره الذي يضيء ما فيه من ظلمات ويهدم ما فيه من شبهات . ولذا فيحق لعالم الإسلام أن يبكي والأرض الإسلام أن ترتجف نتيجة هذا الحادث الجلل .
وقد جاءت هذه الأبيات - بل جاءت القصيدة كلها - مصورة على أتم ما يكون التصوير - فجيعة الشاعر ومصيبته في فقد الإمام . « فهي شعور دافق واحساس صادق شدهه المصاب . وإن إنصاتاً قليلاً إلى النغم الذي يحاول أن يلاحق بعضه بعضاً ليصور لنا انحدار الدمع كل عبرة منه تريد أن تدرك أختها في حرقة أو تزيد عليها » . (٢)

- وفي رثاء حافظ للدكتور يعقوب صروف بدأ قصيدته بالحديث عن بكائه وبكاء أهل الشرق عامة على فقد الأديب الكاتب الألمعي الذي فقده الشرق فتغير حاله من كمال إلى نقص ومن زهو إلى انتكاس . ولا غرابه في هذا فقد فقد الشرق يراعه المعبر عما يريده بإعجاز وبراعة . يقول حافظ : (٣)

أبكي وعين الشرق تبكي معي ... على الأريب الكاتب الألمعي
جرى عصيّ الدمع من أجله ... فزاد في الجود على الطيّع
نقصّ من الشرق ومن زَهْوِهِ ... فَقْدُ اليراع المعجز المبدع
ليس لمصر في رجالاتها ... حظ من ولا للشام في أروع
مصاب (صروف) مصاب النهى ... فليبكه كل فؤاد يعي

---

(١) الديوان ٤٦١ .
(٢) حافظ وشوقي - حسن كامل الصيرفي ص ١٦ .
(٣) ديوان حافظ ٥٤٢ .

لقد كان موت يعقوب صروف سبباً أجرىٰ دموع الشاعر وكانت عيناه جموداً ودمعه عصياً ، ولكن موت الأديب الكاتب قد حول حالة دمعه من الجمود إلىٰ الفيضان ومن العصيان إلىٰ الانسكاب . وهذا يصور مدىٰ تأثر الشاعر بموت الأديب وحق له أن يطلب من كل صاحب قلب يعنى الأمور ويهمه أن يرتفع شأن الفكر والأدب والعلم أن يبكى معه على فقيد العقل والعلم . وقد أخبرنا الشاعر عن حزن الشرق العربى كله علىٰ فقد الأديب الكاتب ببكاء عين الشرق واحساس أهله بأن شيئاً غالياً قد فقدوه بفقدهم لصاحب القلم المبدع المعجز .

وهكذا يأتى حافظ فى رثائه للأدباء والعلماء بما يبين موقف العالم العربى والإسلامى من فقد أحد رجاله النابغين وبما يثبت تقدير العرب والمسلمين لهؤلاء الرجال واعزازهم لهم .

ولكن من أىٰ مصدر كان حافظ يستمد هذا المعنى ؟ وما مدىٰ صدق إخباره بحزن بلدان العالم العربى والإسلامى علىٰ فقد المرثى ؟

يخيل لى أن حافظاً كان يتطلع قبل أن يقول رثاءه فى أحد هؤلاء الرجال إلىٰ عيون أبناء مجتمعه ليعرف انطباعهم تجاه الحادث الذىٰ تعرضت له بلادهم ثم يخبرنا فى شعره بنتيجة هذا الانطباع . أو أنه كان يحس بمقدار حب أبناء المجتمعات العربية والإسلامية لمن مات من الأدباء والعلماء ومدىٰ خسارة هذه المجتمعات بموت أحد هؤلاء الرجال ثم يترجم هذا الإحساس فى شعر يفيض حزناً ولوعة . ومن هنا يأتى شعره فى هذا المعنى متسماً بالصدق والواقعية .

٨

ومن تتمة الحديث عن أثر فقد المرثى على العالمين العربى والإسلامى أن يتحدث الشاعر عن أثر فقد المرثى علىٰ الدين الاسلامى . ومن هنا كثر حديث حافظ عن تحسر الإسلام علىٰ فقد المرثى ومدىٰ ما أصابه من ضعف وهوان نتيجة تعرضه لأهواء أصحاب الشبه والأغراض الهدامة وفقده لمن كان يقف لهؤلاء المغرضين

بالمرصاد يرد كيدهم ويدحض شبههم ويعمل جاهداً على أن يظل الدين الإسلامى قوياً متماسكاً . وكان حافظ فى أثناء ذلك يبين لقارئه شعره كيف اهتز الإسلام وحل به وبأهله الوهن والضعف بعد موت المرثى .

- ومن أمثلة هذا قوله فى رثاء سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه : (١)

فأصبحتْ دولة الإسلام حائرة	تشكو الوجيعة لما مات آسيها
مضى وخلفها كالطود راسخةً	وزان بالعدل والتقوى مغانيها
واهاً على دولة بالأمس قد ملأتْ	جوانب الشرق رغداً من أياديها
كم ظللتها وحاطتها بأجنحةٍ	عن أعين الدهر قد كانت تواريها
والله ماغالها قدماً وكاد لها	واجتثَّ دوحتها إلا مواليها

وفى هذه الأبيات يبدو تحسر حافظ على دولة الإسلام وتهدم ركنها الأشم باعتداء أحد مواليها على أعظم قادتها وأول القائمين على ازدهارها ونهضتها . ولذلك كانت النصيحة التى أسداها حافظ ليوقظ بها الأمة وينهض بها من كبوتها هو عدم اكثار المسلين من اتخاذ الموالى غير المسلمين فقال :

لا تكثروا من مواليكم فإن لهم	مطامعاً بسمات الضعف تخفيها

فلأن قاتل عمر - رضى الله عنه - مجوسى - وهو أبو لؤلؤة - فينبغى على المسلمين الا يكثروا من مواليهم - كما يقول حافظ لأنهم وإن أخلصوا لأسيادهم فى القيام بخدمتهم فهم لا يخلصون فى الود لهم .

- وقد تحسّر حافظ على الإسلام وأهله وأبان ما أصابه من ضعف وهوان بعد موت الإمام محمد عبده فقال فى رثائه له : (٢)

سلام على الإسلام بعد محمدٍ	سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجا	على البر والتقوى على الحسنات
تباركت هذا الدين دين محمدٍ	أيترك فى الدنيا بغير حماة

---

(١) ديوان حافظ ٧٧ .

(٢) الديوان ٤٥٨ .

تباركت هذا عالم الشرق قد قضىٰ ولانت قناة الدين للغمزاتِ
زرعت لنا زرعاً فاخرج شطأه وبنت ولمّا نجتن الثمراتِ
فواهاً له ألا يصيب موفقاً يشارفه والأرض غير مواتِ
مددنا إلىٰ الأعلام بعدك راحنا فردت إلىٰ أعطافنا صفراتِ
وجالت بنا تبغىٰ سواك عيوننا فعدن وآثرن العمىٰ شرقاتِ

وقد صور حافظ فىٰ هذه الأبيات مدىٰ الخسارة التىٰ لحقت بالإسلام وأهله بموت الإمام ، وأن الدين قد أصيب فىٰ صميمه بثغرة قد ينفذ منها أعداؤه المحاربون له لأن حاميه ومنصفه قد مات وتركه بلا مدافع عنه . ولقد أجال المسلمون نظرهم ليجدوا من ينقذ الإسلام من أعدائه ويقيله من عثراته ولكنهم لم يعثروا عليه وارتدت عيونهم حسرىٰ كما ارتدت أيديهم صفرات .
وقد بين حافظ فىٰ قصيدته هذه فجيعة العلوم الدينية بموت الإمام وصور فيها روائع الإمام فىٰ مواقفه وآثاره فىٰ مختلف المواقع والأوقات . كما نكر ثار حافظ فىٰ رثائه للإمام من أولئك الذين آذوه وكدروا عليه حياته وعكروا عليه صفوها بالاتهامات الباطلة والدسائس الكاذبة .

وقد اثنىٰ الدكتور طه حسين علىٰ هذه القصيدة وأبدىٰ اعجابه بها فقال :
«فانظر إليه حين رثىٰ الإمام الشيخ محمد عبده كيف غلبت صنعته ؟ وكيف تحدث قلبه وإيمانه إلىٰ قلوب الناس . فعلمهم كيف يجددون لذع الحزن وكيف يستعذبون لذة الوفاء وهو متين رصين بديع الأسلوب لايعرف الضعف ولا الوهن إلىٰ شعره سبيلاً» .
(١) وفىٰ مكان آخر يبدىٰ الدكتور طه حسين اعجابه بالأبيات المذكورة فيقول : (٢)
« فىٰ لفظ هذه الأبيات من الروعة والرصانة ما عرفناه فىٰ شعر حافظ كله أو أكثره . ومعانىٰ هذه الأبيات مألوفة شائعة ليس فيها غرابة ولا ابتكار . ولكن فىٰ هذه الأبيات مع ذلك شيئاً لا أدرىٰ ما هو ؟ يملأ النفوس لوعة ويملأ القلوب أسىٰ . بل أنا أدرىٰ ما

---

(١) حافظ وشوقىٰ ١٥٩ .
(٢) ذكرى الشاعرين ٤١ .

هو - هو قبس من هذه النار التى كانت تضطرم فى نفس حافظ حزناً صادقاً على صديقه ووليه وأستاذه نفذ هذا القبس الصادق فى هذا الشعر العادى فجعله حزناً كله » . ثم انظر إلى هذا الجزء العظيم كيف تصور كأنه طوفان مهلك يغمر كل شئ ويأتى على كل نفس حتى فزع الشاعر منه وقد ملكه الذهول واستأثر به اليأس فقال :

تباركت هذا الدين دين محمد　　　أيترك فى الدنيا بغير حماة

تباركت هذا عالم الشرق قد مضى　　　ولاثت قناة الدين للغمزات

- ومن الأبيات التى برز فيها معنى التحسر على الإسلام فى هذه القصيدة أيضاً قوله متحدثاً عن تعطيل بعض المبادىء والتعاليم الإسلامية مثل تعطيل مبدأ الشورى والفتيا والصدقات وفعل الخيرات . ولم يعد فى المجتمع من يحمى الفقراء والمحتاجين من ظلم الدّهر وقسوة الحياة :

فيا ويح للشورى إذا جدّ جدّها　　　وطاشت بها الآراء مشتجرات

ويا ويح للفتيا إذا قيل من لها ؟　　　ويا ويح للخيرات والصدقات

بكينا كل فرد وإن بكاءنا　　　على أنفس لله منقطعات

تعهدها فضل الإمام وحاطها　　　بإحسانه والدهر غير مواتى

وواضح ما فى البيتين الثالث والرابع من هذه الأبيات من تصوير جميل لعطف الإمام محمد عبده على الفقراء والمساكين فى عصره فقد تعهدهم بفضله وحاطهم بإحسانه حتى أعانهم على ظلمات الدهر وعثراته . ولذا فقد استحقوا من يبكى على ضياعهم بعد موت الإمام لعدم وجود من يعطف عليهم ويقف بجانبهم بعد رحيله .

وهكذا أبان حافظ عن مدى ما أصيب به الدين الإسلامى من ضعف ووهن بعد موت من كانوا يرعونه ويقومون على خدمته ويعملون على تحقيق كل ما يرفع من شأنه ويجعله قوياً تسود تعاليمه بين أبناء البلدان الإسلامية .

ويخيل إلى أن الدافع لتناول حافظ لمثل هذا المعنى فى رثائه للأدباء والعلماء قد يكون إحساسه بمدى ما كان يقوم به المرثى فى حياته من الدفاع عن الإسلام وإحساسه بمدى تأثير المرثى فى حياة المسلمين والعمل على كل ما ينهض بحياتهم ويهذب طباعهم ويسمو بأخلاقهم . وبذلك يقدم حافظ للقراء شعره نموذجاً لعلماء

الإسلام في عصره · وكأنه يدعوهم للاحتذاء به والسير على طريقه والعمل على تحقيق كل ما كان يصبو إليه المرثي من آمال لصالح رفعة الدين وعلو شأنه · وفي نفس الوقت يحث حافظ بمثل هذا المعنى أبناء مجتمعه على اتباع تعاليم الدين الإسلامي التي وضحها لهم المرثي وأمضى حياته في سبيل رفعتها وسيادتها بين أبناء مجتمعه ·

٩

ولم يكتف حافظ في رثائه للأدباء والعلماء بالحديث عما سبق من معاني · وإنما كان كثيراً ما يتحدث عن المكان الذي كان يسكنه المرثي ووصفه بكل الصفات التي تدل على إقفاره وخرابه وتبدل حاله بعد أن خلا من ساكنه الحبيب الذي كان يؤنس وحشته ويملأ جوه بالعلم والفكر والمعرفة ·

ـ وقد تحدث عن ذلك كله في رثائه للأمام محمد عبده فقال :(١)

فيا منزلاً في عين شمس أظلني	وأرغم حسادي وغم عداتي
دعائمه التقوى وأساسه الهدى	وفيه الأيادي موضع اللبنات
عليك سلام الله مالك موحشاً	عبوس المغاني مقفر العرصات
لقد كنت مقصود الجوانب آملاً	تطوف به الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة	ومطلع أنوار وكنز عظات

فمنزل الإمام الآن موحش عبوس المغاني مقفر العرصات ليس به أنيس ولا جليس · وقد كان هذا المنزل مليئاً بكل ما يضفي عليه الرونق والبهاء فقد بنى على التقوى وأسس على الهدى ورصص بالكرم وفعل الخيرات ، وكان يقصده طلاب العلم والمعرفة من كل مكان · وكان صاحبه يغدق على هؤلاء الطلاب من كرمه وحكمته وعلمه وعظاته ما يأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى والفلاح · وقد انقضى كل ذلك بموت صاحب الذكرى ورب المنزل ·

---

(١) ديوان حافظ ٤٦٢ .

- وفى رثاء حافظ لقاسم أمين يقف على دار المرثى يتحسر على اقفارها وخرابها بعد أن كانت آهلة بساكنيها وروادها - ويسائلها حافظ عما أصابها وأصاب ساكنها من تبدل الحال وتغير الأزمان - ولما لم تجبه لم يجد إلا دموعه الغالية يذرفها على الفقيد وهو يترنح من الوهن وسوء الحال - يقول حافظ فى رثاء قاسم أمين : (١)

واهاً على دار مررت بها	قفراً وكانت منتقى السبل
أرخصت فيها كل غالية	ونكرت فيها وقفة الطلل
سائلتها عن (قاسم) فأبت	رد الجواب فرحت فى خبل
متعثراً ينتابنى ومن	مترنحاً كالشارب الثمل
متذكراً يوم (الإمام) به	يوم انثويت بذلك البطل
يوم احتسبت وكنت ذا أمل	تحت التراب بقية الأمل

وحين نقرأ هذه الأبيات نتذكر الشاعر العربى القديم وهو يقف على الأطلال يسائلها عن ساكنيها الراحلين وعما حلّ بها وبأهلها من تبدل الحال وتغير الأزمان - وهذا شىء تميز به شعر حافظ ونتج عن تقليده للقدماء والسير على منوالهم فى تشكيل القصيدة الشعرية -

وكان حافظ إبراهيم فى حديثه عن ديار المرثى ووصفها ووصف ما حدث لها يتطرق إلى الحديث عن جلساته مع المرثى فى هذه الديار وما كان يعود عليه وعلى شعره من عظيم النعم واستماعه إلى آرائهم النيرة فيه وفى شعره -

- انظر إلى رثائه للشاعر اسماعيل صبرى باشا وما ذكره فى القصيدة من تذكره لتلك المجالس التى كان يلتقى خلالها بالفقيد حيث كان يعرض عليه أشعاره مثلما كان يفعل غيره من شباب الشعراء فى عصره - وكان اسماعيل صبرى يبدى آراءه فيما يسمع من شعر حافظ وغيره فيهتدون بها ويظهر أثرها الحسن على أشعارهم -

---

(١) الديوان ٤٧٣ .

يقول حافظ في ذلك في رثائه للشاعر اسماعيل صبري : (١)

لقد كنت أغشاه في داره	وناديه فيها زها وازدهر
واعرض شعرى على مسمع	لطيف يحس نبو الوتر
على سمع باقعةٍ حاضر	يميز القديم من المبتكر
فيصقل لفظى صقل الجمان	ويكسوه رقة اهل الحضر
يرقرق فيه عبير الجنان	فتستاف منه النهى والفكر

وقد لخص حافظ في هذه الأبيات أثر زوارته للمرثي في داره التي كانت ملتقى الفقيد به فيعود بالخير عليه وعلى شعره .

وهكذا أثارت ذكريات حافظ مع من يرثيهم من بعض العلماء والأدباء عاطفته نحو المكان الذي كان يجمعه بمن يحب واختطفهم الموت فرحلوا وتركوا ديارهم مقفرة خالية من كل ما كانت تزدهي به وتزهو باحتوائهم .

ولا شك أن هذه الظاهرة في رثاء حافظ ـ كما قلت قبل ذلك ـ نبعت من تأثره بالشعر القديم وتقليده لكبار الشعراء العرب في مختلف العصور الأدبية . ولكن حافظاً كان يضيف إلى صوره الشعرية في هذا المجال بعض الصور العصرية التي تميز شعره عن الشعر العربي القديم في وصف الأطلال والوقوف على الديار .

ففي أبياته في رثاء الإمام محمد عبده تحدث حافظ عن مجلس الإمام مع طلاب العلم والمعرفة التي كان يتحفهم فيها بألوان من العلم والحكمة وكنوز من العظات والأمثال بجانب ما كان يغدقه عليهم من عطائه وكرمه . ومثل هذا المعنى جعل شعره في هذا المجال يختلف بعض الشيء عن الشعر العربي في الوقوف على الديار .

وفي أبياته في رثاء اسماعيل صبري ذكر حافظ جلساته مع أستاذه الشاعر ومع جماعة من شعراء عصره وهم يعرضون على المرثي أشعارهم ويستمعون إلى آرائه وحكمه على هذه الأشعار مع استماعهم إلى نصائحه حتى تستقيم أشعارهم . وهذا شيء يميز شعر حافظ في وصف الديار عن الشعر العربي القديم في الوقوف على الأطلال .

---

(١) الديوان ٥٢٥ .

ومن الطبيعى أن يتحدث حافظ فى رثائه للأدباء والعلماء عن حالته هو بعد موت المرثى وأثر موت الفقيد عليه وعلى حياته وأدبه . وفى هذا المجال يعدد حافظ فضائل المرثى عليه وعلى حياته والتى افتقدها بفقد المرثى . والمعروف أن حافظاً كان كثير الوفاء فى شعره يعترف بالفضل لكل من أسدى إليه معروفاً ولو ضئيلاً وحتى بعد تقادم العهد بينه وبين مسدى هذا الفضل إليه .

انظر إلى اعترافه بفضل الأستاذ أحمد حشمت باشا عليه وعلى أدبه قائلاً : (١)

لك منّةٌ قد طوقت عنقى	ما إن أريد لطوقها نزعا
مات الإمام وكان لى كنفاً	وقضيْتَ أنت وكنت لى درعا
فليشمت الحساد فى رجل	أمست مناه وأصبحت صرعى
ولتحمل الأيام حملتها	غاض المعين وأجدب المرعى

وتتجلى براعة حافظ فى التعبير عن وفائه ويتضح صدق لوعته فى قوله «أمست مناه وأصبحت صرعى» . فهو يبكى نفسه بهذا التعبير ويجمع بين «أمست وأصبحت» ليبين أنه أصبح بعد موت المرثى موصول اليأس دائم القنوط . ثم يؤكد هذا المعنى ويبين أثر رحيل المرثى على نفسه بقوله : « غاض المعين وأجدب المرعى » .

- ويواصل حافظ بيان حالته بعد وفاة أحمد حشمت ويتحدث عن تبدل حاله من رغد إلى فقر ومن سرور إلى كدر ومن فرح إلى ضيق وحزن ويأس ومن أجل هذا كله يعرب حافظ أنه قد ضاق بالحياة ويتمنى لو لحق بالفقيد . يقول حافظ :

قد ضقت ذرعاً بالحياة ومن	يفقد أحبته يضق ذرعاً
وغدوت فى بلدٍ تكنفنى	فيه الشرور ولا أرى دفعاً
كم من صديق لى يحاسننى	وكأن تحت ثيابه أفعى

---

(١) الديوان ٤٨١ .

يسعى فيخفى لين ملمسه	عنى مسارب حيَّةٍ تسعى
من ذا يواسينى ويكلؤنى	فى هذه الدنيا ومن يرعى
لا جاه يحمينى ولا صدد	عنى يرد الكيد والقذعا
بك كنت أدفع كل عادية	وأجيب فى الجلّى إذا أدْعى
واقيل عثرة كل مبتئس	وأفى الحقوق وأنجح المسعى
حتى نعى الناعى أبا حسن	فوددت لو كنت الذى يُنْعى

« وفى هذه الأبيات يذكر الشاعر أنه كان يدفع كل عادية ويجيب فى كل شدة ويقيل كل عثرة ويفى كل حق بفضل ما كان لذلك الفقيد من وافر المعروف » . (١)

- وفى رثائه للأستاذ الإمام محمد عبده يبدى حافظ لهفته وحسرته على فقد الإمام . فقد فقد حافظ حياته كلها بفقد الإمام وأصبحت دنياه بعد رحيله لا طعم لها ولا رائحة حتى لقد كان يخشى الموت قبل وفاة الإمام وأصبح الآن يخشى أن تطول به الحياة . ولا غرو فقد كانت هناك صلة وثيقة تربط بين حافظ إبراهيم والإمام محمد عبده . فقد كان الإمام أستاذاً لحافظ ذا أثر كبير فى حياته وأدبه . « وقد ساعد الإمام حافظاً فى حياته كثيراً . بل لولا عناية الإمام بحافظ لقبرت تلك الع... الخارقة والشاعرية الفذة . فالإمام بعطفه ورعايته أعان حافظاً على أيامه فناضلها وطالما حدب عليه وعلى غيره » . (٢) ولذا عد حافظ وفاة الإمام كارثة كبرى وخطباً فادحاً ألم به فأصابه باليأس من الحياة . يقول حافظ فى رثاء الإمام : (٣)

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله	فأصبحت أخشى أن تطول حياتى
فوالهفى - والقبر بينى وبينه -	على نظرةٍ من تلكم النظرات
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً	كأنى حيال القبر فى عرفاتِ

---

(١) حافظ إبراهيم - زكى مبارك - بقلم كريمة زكى مبارك ص ٩٢ .
(٢) حافظ إبراهيم - حسين المهدى غنام ٤٥ .
(٣) الديوان ٤٥٨ .

ولم يكتف حافظ بما سبق بل لقد عد السنة التي مات فيها الإمام أشأم السنوات عليه وعلى المسلمين جميعاً . فقد تحطم فيها سيف الإسلام وتعطلت فيها المنابر من إبداء النصح والعظات للمحتاجين وانطفأ فيها ذلك النبراس الذي كان يضيء للناس ظلام حياتهم ويهدي الضالين إلى الصراط المستقيم مما أشعل جمرات الحزن في نفسه وفي نفوس المسلمين في كل مكان :

فيا سنةً مرت بأعواد نعشه	لأنتِ علينا أشأم السنوات
حطمت لنا سيفاً وعطلت منبراً	وأذويت روضاً ناضر الزهراتِ
وأطفأت نبراساً وأشعلت أنفساً	على جمرات الحزن منطوياتِ

ولم يشأ حافظ أن يقصر الحزن على الإمام عليه وحده وإنما أشرك معه المسلمين جميعاً حتى يبين لنا مدى الأسى والحزن الذي حل بالمجتمعات الإسلامية بموت الإمام .

- وفي رثاء حافظ لحفني ناصف يتوقع أن يوم اللحاق به سيكون قريباً . ولذا فهو يتوجه إلى نفسه بالعظة والرجوع إلى الله طالباً منها الاستعداد للرحيل وتذكر الموت والوحشة في القبر التي لا يؤنس حياة الإنسان فيها إلا تقوى الله والعمل الصالح . ويخبرنا حافظ أنه بعد فراق الأحبة ثم فراق شبابه أصبح وقد زهد في الدنيا وحنّ إلى نومةٍ في القبر حيث ينساه أعداؤه وأحبابه معاً .

يقول حافظ في رثاء حفني ناصف في القصيدة التي قالها في الذكرى السابعة عشرة لوفاة الإمام محمد عبده : (١)

آذنت شمس حياتي بمغيب	ودنا المنهل يانفس فطيبي
إن من سار إليه سيرنا	ورد الراحة من بعد اللغوب
قد مضى (حفني) وهذا يومنا	يتدانى فاستثيبي وأنيبي
وارقبيه كل يوم إنما	نحن في قبضة علام الغيوب
اذكري الموت لدى النوم ولا	تغفلي ذكرته عند الهبوب

---

(١) الديوان ٥١٧ .

وانكرى الوحشة فى القبر فلا   مؤنس فيه سوى تقوى القلوب
قدمى الخير احتساباً فكفى   بعض ما قدمتِ من تلك الذنوب
راعنى فقد شبابى وأنا   لا أراع اليوم من فقد مشيبى
حن جنباى إلى برد الثرى   حيث أنسى من عدو وحبيب

وهكذا كان موت حفنى سبباً فى فهم حافظ للحياة الدنيا فهماً حقيقياً ومعرفته بحقيقتها الواهية فتحول إلى واعظ يعظ نفسه ويطلب منها الرجوع إلى الله وفعل الخيرات وترقب الموت وتوقعه فى كل لحظة لأن النفوس - كما يقول-فى قبضة الله علام الغيوب .

ثم يقدم لنا حافظ دليلاً على قرب أجله ودنو يومه الذى ينام فيه فى قبره من خلال هذه القصة العجيبة « وهى أنه لما توفى المرحوم الشيخ محمد عبده رثاه على القبر ستة من الخطباء الشعراء : أولهم الشيخ أحمد أبو خطوة ثم حسن عاصم باشا ثم حسن عبد الرازق باشا الكبير ثم قاسم أمين ثم حفنى ناصف ثم حافظ إبراهيم بك . واتفق أن مات الأربعة الأولون على ترتيب وقوفهم فى الرثاء فلاحظ ذلك المرحوم حفنى بك ناصف فبعث إلى حافظ بهذه الأبيات :

أتذكر إذ كنا على القبر ستةً   نعدّد آثار الإمام ونندبُ
وقفنا بترتيبٍ قد دبّ بيننا   ممات على وفق الرثاء مرتبُ
أبو خطوةٍ ولّى وقفاه عاصمٌ   وجاء لعبد الرازق الموت يطلبُ
فلبى وغابت بعده شمس قاسمٍ   وعما قليل نجم محياى يغربُ
فلا تخش هلكاً ما حييتُ وإن أمت   فما أنت إلا خائفٌ تترقبُ
فخاطرْ وقعْ تحت القطار ولاتخف   ونم تحت بيت الوقف وهو مخربُ
وخض لجج الهيجاء أعزل آمناً   فإن المنايا منك تنأى وتهربُ

فلما توفى حفنى بعد ذلك نظم حافظ مرثيته تلك .. (١) وقال فيها الأبيات التالية كدليل على قرب وفاته ودنو أجله :

قد وقفنا ستة نبكى على	عالم المشرق فى يوم عصيب
وقف الخمسة قبلى فَمَضَوْا	هكذا قبلى وإنى عن قريب
وردوا الحوض تباعاً فقضوا	باتفاق فى مناياهم عجيب
أنا مذ بانوا ووَلَّى عهدهم	حاضر اللوعة موصول النحيب
صدأت نيران حزنى صدأةً	وانطوى (حفنى) فعادت للشبوب
فتذكرت به يوم انطوى	صادق العزمة كشاف الكروب
يوم كفناه فى آمالنا	ونكرنا عنده قول حبيب
عرفوا من غيبوه وكذا	تعرف الأقمار من بعد المغيب

ولاشك أن موت هؤلاء الستة على ترتيب وقوفهم فى رثاء الإمام هو من ترتيب علام الغيوب . وكان موت الخمسة قبل حافظ إبراهيم مؤذناً بأن يومه هو الذى سيأتى بعد حفنى لا محالة إذ لم يعد فى الحياة منهم إلا هو . وعلى العموم فإننا نفهم من هذا الدليل أن حالة حافظ بعد وفاة حفنى هى حالة من ينتظر الموت ويترقبه فى كل لحظة . ولذا فإننا نقرأ عنه أنه كان خلال الفترة التى أعقبت وفاة حفنى حتى مماته دائم الهم فريسة للهواجس والأوهام . إذا أحس بأى وهن أو مرض ولو بسيط يتوقع أن هذا هو مرض الموت .

وهكذا أعطانا حافظ فى أكثر من موقف صورة لحالته النفسية وما أصبحت عليه حياته بعد وفاة المرثى . وهى حياة تتسم بالحزن الدائم والبؤس الملازم له وبالشقاء وبغض الحياة بغضاً يجعله زاهداً فيها متمنياً الموت وحياة القبر بعد أن رحل عنها أحبابه ورفقاؤه وتركوه وحده يقاسى آلام الأيام وعذاب السنوات .

---

(١) ديوان حافظ ـ هامش رقم (٣) من صفحة ٥١٨ . وانظر كتاب : حياة حافظ إبراهيم للأستاذ أحمد محفوظ ١٤٦ .

١١

وحديث حافظ عن حالته وما أصبحت عليه حياته بعد وفاة المرثي يجعله يتذكر أحبابه الراحلين الذين سبقوا المرثي إلى الموت - فكثيراً ما كان رثاء حافظ لأحد الأدباء أو العلماء يثير في نفسه الشوق والحنين والذكريات لكل من ودعهم حافظ قبل ذلك من الأصدقاء والأحباب . وهذا نابع من وفاء حافظ لكل من عرفه أو اتصل به .

- ففي رثائه لقاسم أمين يتذكر حافظ أصدقاءه الذين رحلوا من علماء مصر وأدبائها ومن الذين كانت تربطهم بحافظ صلة عطف ومودة وقد عبر عن حنينه إلى هؤلاء الأصدقاء وإلى بعض ذكرياته معهم بأبيات تفيض حزناً وأسىً وتملأ نفوس قارئها حسرة ولوعة لما فيها من صدق تصوير لما تمتلىء به نفس حافظ من حزن ولوعة على فراق هؤلاء الأصدقاء ولما فيها من تصوير معبر عن حالة مصر وحالة العرب والمسلمين بعد رحيل هؤلاء الأعلام - يقول حافظ مخاطباً قاسم أمين : (١)

جاور أحبتك الألى ذهبوا	بالعزم والإقدام والعمل
واذكر لهم حاج البلاد إلى	تلك النهى في الحادث الجلل
قل للإمام إذا التقيت به	في الجنتين بأكرم النزل
إن الحقيقة أصبحت هدفاً	للراكبين مراكب الزلل
لله آثار لكم خلدت	صاح الزوال بها فلم تزل
لله أيام لكم درجت	طالت عوارفها ولم تطل
نعم الظلال لو أنها بقيت	أو أن ظلاً غير منتقل

فحافظ في هذا الموقف يتذكر أستاذه الإمام محمد عبده وتعاليمه القويمة التي كان يسديها إلى أبناء عصره والتي تركت آثارها فيهم وظلت باقية بينهم رغم تباعد العهد بينهم وبين الإمام . ومن هنا يوصي حافظ الفقيد أن يبلغ الإمام - إذا التقى به في الجنة - دعواته ودعوات أهل عصره الذين انتفعوا بحياته بينهم وبتعاليمه بعد فراقه لهم .

---

(١) الديوان ٤٧٣ .

على أنه لا يعجبني تعبير حافظ في البيت الثالث من الأبيات المذكورة : إذا ألتقيت به في الجنتين ، لجعله دخول الفقيد ومعه الإمام الجنتين فعلاً للشرط ، وكان الأجدر به أن يجعل الكلام مجرداً عن الشرط حتى يكون دخول الإمام والفقيد الجنة على سبيل التأكيد ، بأن يكون الكلام مثلاً هكذا :

قل للإمام عند اللقاء به   في الجنتين ......

إلا إذا كان للوزن الشعرى دور في هذا .

- وفي رثاء حافظ للفيلسوف الروسي « تولستوى » يتذكر حافظ الفيلسوف والشاعر العربي « أبا العلاء المعرى » وما كان له من آثار فلسفية في الحياة وبيان حقيقتها ، فيوصي المرثى أن يسأل المعرى عما غاب عنه من حقائق الحياة وأسرارها ، فمعرفة المعرى للدنيا تفوق ما هو مدون ومسطور مما اطلع عليه الفقيد ، يقول حافظ في ذلك : (١)

إذا زرت رهن المحبسين بحفرة	بها الزهد ثاو والذكاء ستير
وأبصرت أنس الزهد في وحشة البلى	وشاهدت وجه الشيخ وهو منير
وأيقنت أن الدين لله وحده	وأن قبور الزاهدين قصور
فقف ثم سلّمْ واحتشم إن شيخنا	مهيب على رغم الفناء وقور
وسائله عما غاب عنك فإنه	عليم بأسرار الحياة بصير
يخبرك الأعمى وإن كنت مبصراً	بما لم تخبر أحرف وسطور

وقد وفق حافظ حين جعل مكان الزيارة بين الفقيدين هو القبر وليس الجنة ، إذ لا يصح - شرعاً - أن يشم تولستوى رائحة الجنة وإن كان ذلك ممكناً مع المعرى ، ومن هنا يكون المكان الطبيعي للقاء الفقيدين هو القبر بعكس ما قرأنا في الأبيات السابقة في رثاء قاسم أمين وحديثه عن الإمام محمد عبده لأن كلا الفقيدين مسلم له آثاره الخالدة وجهوده المخلصة في إصلاح المجتمع واستقامة حياة المسلمين فكان

---

(١) الديوان ٤٧٩ .

... الطبيعي أن تكون ... ة هي موضع اللقاء بينهما في الآخرة .

وفي تعبير حافظ في البيت الأخير من هذه الأبيات اعتزاز بالشاعر العربي ورفع مكانته في ميدان الحكمة والفلسفة فهو وإن كان أعمى فسوف يخبر تولستوي (المبصر) بما لم تخبره به أحرف وسطور الكتب الكثيرة .

- وفي رثاء حافظ للكاتب « محمد المويلحي » يتذكر صديقه الأستاذ محمد البابلي الذي كان وجوده نعمة من نعم المبدع - سبحانه وتعالى - وحينئذ تذكر أهم ما كان يتصف به . فقد كان فارساً في الندى وفارساً في فروع العلم والمعرفة ومع ذلك كان ظريفاً لا يمل جالس منه بما يشيع في جلساته من نكتة طريفة وفكاهة مسلية . ولقد افتقد الشاعر هذا الصديق ولا يملك غير إهداء السلام يحمله المرثي إليه معطراً بعبير من الرياض وألوان الطيب . ويقول حافظ في ذلك مخاطباً المرثي : (١)

بلّغ (البابليّ) عني سلاماً ... كعبير الرياض أو كالملاب
كان تربي وكان من نعم المبـــدع - سبحانه - على الأتراب
فارس في الندى إذا قصّر الفر ... سان عنه وفارس في الجواب
يرسل النكتة الطريفة تمشي ... في رقيق الشعور مشي الشراب

ويعجبني تعبير حافظ في البيت الثالث بأن البابليّ كان فارساً في الندى . فقد علم حافظ أن نفس الإنسان أمّارة له بالشح وعدم البذل كما تأمره بالتقاعس عن بذل الروح وإيرادها موارد التهلكة ولا يقدر على مخالفتها في الكرم وبذل المال إلا إنسان قوى العزيمة صادق الإحساس بحاجة الآخرين إلى فضل ماله ومثل هذا الإنسان شبيه بالفارس الذي يخوض أهوال المعركة باذلاً نفسه وروحه فداءً لما يحارب من أجله .

وهكذا عبر لنا حافظ في العديد من مواقف رثائه للعلماء والأدباء عن وفائه لمن عرفهم ولأيامهم التي خلت وتحسره على ما كان له معهم من ذكريات وجلسات كانت تمتلىء بألوان من العلم والظرف والرقة .

---

(١) الديوان ••• .

وكان حافظ في رثائه لبعض الأدباء والعلماء يبين لنا كيف قضى المرثي ويدعو على من كان سبباً في موت المرثي أو قتله إن كان مقتولاً . ويشرح رحلة العذاب التي عاشها الفقيد وهو يصارع المرض حتى وافاه أجله .

- من ذلك قوله يشير إلى المرض الذي مات به الأستاذ الإمام محمد عبده : (١)

رمى السرطان الليث والليث خادر ... ورب ضعيف نافذ الرميات

فأودى به ختلاً فمال إلى الثرى ... ومالت له الأجرام منحرفات

فهو هنا يشير إلى مرض السرطان الذي مات به الإمام . ويذكر أن الإمام الذي يشبه الأسد في قوته وفتوته . وإن كان قد مات بهذا المرض الذي هو أقل منه قوة وفتكاً فلا عجب في هذا فرب ضعيف أصابت رميته فقتلت من هو أقوى وأشجع .

وقد وفق حافظ في التصوير الذي أتى به في البيت الأول : حيث صور قضاء السرطان على الإمام - وهو الليث القوى - بعدو أخذه على غرة فنجحت رميته ولولا ذلك لتغلب عليه الإمام وشفي منه .

- ومن ذلك أيضاً قول حافظ في مستهل قصيدته في رثاء اسماعيل صبري مشيراً إلى المرض الذي قضى به المرثي : (٢)

نعاك النُعاةُ وحم القدر ... ولم يغن عنا وعنك الحذر

طوت نبحة الصدر صدرَ الندى ... فلم تطو إلا سجلّ العبر

فأمسيت تذكر في الغابرين ... وإن قل مثلك فيمن غبر

وفي هذه الأبيات إشارة إلى أن الفقيد توفي بالذبحة الصدرية التي عانى منها أعواماً طويلة حتى طوته فيمن طُوى من الرجال النابهين . وإن قلّ أمثاله فيمن رحل .

ويعجبني تصوير حافظ في البيت الثاني لقضاء الذبحة الصدرية على المرثي بأنها قضت على من كان يتصدر مجالس القوم ومنتدياتهم . وبذلك طوى سجل العبر وخلت مجالس القوم ممن كان يتصدرها ويديرها .

---

(١) الديوان ٤٦١ .

(٢) الديوان ٥٢٢ .

- وقد شرح لنا حافظ في قصيدة أخرى مصارعة محمد عاطف بركات باشا للمرض الذي أصابه وهو يواصل جهوده في خدمة وطنه بل لقد شُغل بهذه الجهود عن معالجة دائه حتى لبى نداء ربه . يقول حافظ في ذلك : (١)

كنت فوق الفراش والسقم بادٍ   لهف نفسي عليك والجسم بال

لم يزحزحك عن نهوضك بالأعبا   ء داء يهد أسد الرّحال

شغلتك الجهود والداء يمشي   فيك مشي المحاذر المغتال

لم يدع منك غير قوة نفس   تتجلى في هيكل من خيال

عجز السقيم عن بلوغ مداها   فمضت في سبيلها لاتبالي

- وقد يدعو حافظ - كما قلت - على من كان سبباً في موت المرثي أو قاتله إن كان مقتولا كما فعل في رثاء عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين قال في بداية رثائه له : (٢)

مولى المغيرة لاجادتك غادية   من رحمة الله ما جادت غواديها

فرقت منه أديماً حشوه همم   في ذمة الله عاليها وماضيها

طعنت حاضرة الفاروق منتقماً   من الحنيفة في أعلى مجاليها

فأصبحت دولة الإسلام حائرةً   تشكو الوجيعة لما مات آسيها

وهكذا أحاط حافظ في بعض قصائده بما كان سبباً في فقد المجتمع العربي والإسلامي علماً من أعلامه النابهين وما كان يقوم به من هؤلاء الأعلام من مجاهدة المرض ومصارعته لتحقيق أمل مجتمعاتهم فيهم .

ويقصد حافظ من وراء حديثه عن هذا المعنى في رثائه للأدباء والعلماء إثارة مشاعر الحزن والأسى لدى أبناء المجتمع . وهذا أدعى لطول تذكرهم لهم واهتمامهم بآثارهم التي تركها هؤلاء الراحلون وعدم نسيان أبناء المجتمع لهم أو إهمالهم لتلك الآثار .

---

(١) الديوان ٥٧٧ .

(٢) الديوان ٧٧ .

ولإحساس حافظ بالأهمية العظمى التي كان يمثلها الفقيد بالنسبة لمجتمعه ولإحساسه بالخسارة الكبيرة التي نزلت بالمجتمع بفقد المرثي - أديباً كان أم عالماً - كان حافظ في بعض قصائده يتوجه بعزائه إلى أبناء القطر الذي ينتسب الفقيد إليه حتى يكون هذا أدعى إلى التسلية لأبناء المجتمع المصاب بفقد أحد أبنائه النجباء

وتحدث حافظ عن هذا المعنى في رثائه حوالي أربع مرات إحداها يتوجه بها إلى القطر الشامي وأبنائه يعزيهم في أحد أبناء الشام النابغين ويصور المصيبة الكبرى التي حلت بهذا القطر نتيجة وفاة المرثي .

وفي الأخريات يتوجه فيها إلى مصر مصوراً فداحة المصيبة التي حلت بها بفقد بعض أبنائها النجباء .

- ففي قصيدته التي يرثي بها الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد يصور حافظ جزع مصر على فقيدها ويبين أنها وإن تظاهرت بعدم الجزع الشديد على مصابها الأليم فلا يدل ذلك على عدم تقديرها لمنزلة الفقيد وإنما يرجع ذلك لتعودها على فقد الرجال وموت السادة النجباء من أبنائها . وهذا عودها على الصبر والتسلي وعدم الجزع وقت الشدائد . يقول حافظ في ذلك : (١)

قالوا عجبنا لمصر يوم مصرعه	وقد عجبت لهم من ذلك العجب
إن الألى حسبوها غير جازعة	لا ينظرون الى الأشياء من كثب
تالله ما جهلت فيه مصيبتها	ولا الذي فقدت من كاتب العرب
لكنها ألفت والأمر يحز بها	فقد الرجال وموت السادة النجب
وعلمتها الليالي أن تصابرها	في الحادثات وإن أمعنّ في الحَرَب

وقد أرجع الشاعر هذا الفتور البادي على وجه أهل مصر إزاء موت المرثي إلى سبب شريف وعلة جليلة وهي ألفتها على فقد العظماء من الرجال وموت السادة

---

(١) الديوان ٤٨٧ .

النجباء .

- وفي قصيدته في رثاء الدكتور اللبناني « شبلي شميل » يصور حافظ جزع بلاد الشام على ذلك الفذ من أعلامها العظماء ويتذكر من سبق المرثي إلى الموت من عظماء بلاد الشام بعد أن انهد ثلاثة من أركانها بموت عظمائها الثلاثة : الشاعر إبراهيم اليازجي والأديب المؤرخ جورجي زيدان والدكتور شبلي شميل . يقول حافظ في رثاء شلبي شميل : (١)

وبكت فقده الشآم وناءت	فوق مانابها بهذا المصاب
كل يوم يُهَدُّ ركن من الشآ	م لقد آذنت إذاً بالخراب
فهي (باليازجي) و(جورجي) و(شبلي)	فجعت بالثلاثة الأقطاب

وقد وفق حافظ في تصويره لكل واحد من الأقطاب الثلاثة بأنه ركن من أركان بلاد الشام وبموته ينهد ركن فيها . وهذا يبين القيمة الكبرى التي يحتلها كل واحد منهم في حياة هذه البلدان .

- وفي قصيدة حافظ في رثاء الطبيبين المصريين إبراهيم حسن باشا ومحمد شكري باشا يبين أن مصر فقدت بفقدهما علمين من أعلام نهضتها العظماء في مجال الطب والجراحة . فقد طالما عملا على خدمة أبناء وادي النيل وعلى نهضة الطب في ربوع مصر وتخرج من تحت أيديهما الكثير من أطباء مصر المشهورين . ولذا فيحق لمصر أن تفخر بمثل هذين الفقيدين وأن ترفع رأسها عالية بين الممالك والبلدان . يقول حافظ في ذلك : (٢)

لا مرحباً بك أيهذا العام	لم يُرْعَ عندك للأساة ذمام
في مستهلّك رعتنا بمآتم	للنافعين من الرجال تقام
علمان من أعلام مصر طواهما	فيك الردى فبكتهما الأهرام
غيبت شكرى وهو نابه عصره	وأصبت إبراهيم وهو إمام
خدما ربوع النيل في عهديهما	والطب نبت لم يجده غمام

---

(١) الديوان ٤٩٧ .
(٢) الديوان ٥٠٠ .

والناس بالغربى فى تطبيبه ولهوا على بعد المزار وهاموا
حتى انبرى شكرى فأثبت سبقه أن ابن مصر مجرب مقدام
وأقام إبراهيم أبلغ حجةٍ أن العرين يحله ضرغام
وترسم المتعلمون خطاهما فانشق من علميهما أعلام
يامصر حسبك ما بلغتِ من المنى صدق الرجاء وصحت الأحلام
ومشى بنوكِ كما اشتهيتِ إلى العلا وعلى الولاء - كما علمتِ - أقاموا
ورفعتِ رأسك عند مفتخر النُهى بين الممالك حيث تُحنَى الهامُ
فبهؤلاء الغرّ يا مصر امتنى فبمثلهم تتفاخر الأيامُ

- وفى رثاء حافظ لشهداء العلم الذين راحوا ضحية حادث القطار الذى كان يقلهم عبر ايطاليا يتوجه الشاعر إلى مصر يعزيها فى أبنائها الشهداء ويعلن أنه غير راض عن نقل جثث هؤلاء الشهداء من بلاد أوروبا لتدفن فى أرض مصر . ويذكر أن الأولى أن تدفن هذه الجثث فى أرض أوروبا لتكون أثراً من آثار مصر فى بلاد أوروبا شاهدة على جهاد أبناء مصر فى سبيل العلم ودليلاً لأبناء مصر يفتخرون به على مر الدهور كلما نزل أحدهم بلاد أوروبا . ويعلن حافظ أن آثار مصر فى بلاد الغرب لا ينبغى أن تقتصر على المسلات والآثار الفرعونية وإنما يجب أن يكون بجانب هذه الآثار الحجرية آثاراً أخرى بشرية . وجثث هؤلاء الشهداء خير أثر يدل على عظمة مصر وحضارتها فى بلاد الغرب .

يقول حافظ فى ذلك بعد أن شرح الآثار المترتبة على وقوع هذا الحادث على أبناء مصر : (١)

ويح مصر كلّ يوم حادثٌ وبلاء ما لها منه مفر
هان ما تلقاه إلا خطبها فى ثراث من بنيها مدخر
قد ظلمتم مجدهم فى نقلهم إنما نقلتهمُ إحدى الكبر
فسواء فى تراب الشرق أم فى تراب الغرب كان المستقر

---

(١) الديوان ٥٧٤ .

أأبيتم أن نرى يوماً لنا	في ربوع العلم شبراً فَنُسَرّ
أضننتم أن تقيموا بينهم	شاهداً منا لكتاب السِّيَر
ومزاراً كلما يمّمَهُ	ناشيء حيّا ثراه وادّكر
ودليلا لابن مصر كلما	قام في الغرب بمصر فافتخر
كم مسلّاتٍ لنا في أرضهم	صورت معجزة بين الصور
قمن رمزاً لعصور قد خلت	أشرف العلم عليها وازدهر
فاجعلوا أمواتنا اليوم بها	خير رمز لرجاءٍ منتظر

ولا يملك القارئ لهذه الأبيات وما تحمله من معان رائعة وصور بديعة إلا أن يحكم لقائلها بالتفوق والنبوغ ، ويعلن أن مثل هذه الأبيات لهي خير دليل على حب حافظ لمصر وإخلاصه في وطنيته وافتخاره بتاريخ مصر وبأبنائها الكرام البررة وحرصه المخلص على رقيها والارتفاع بشأنها . وبهذه الأشعار وغيرها وقف حافظ بشعره بجانب الأقطار العربية التي تصاب في أحد أبنائها الأمجاد يشرح مصابها ويعزي أهلها ويجعل فقيدها خير ذخر لبلده يحتذي به أبناؤها ويقتدون به في العمل على ما ترقى به بلادهم وتنهض به .

١٤

ومن المعاني البارزة في رثاء حافظ للأدباء والعلماء بجانب ما سبق من معان إهداء التحية والسلام إلى المرثي والدعاء له بأفضل الدعوات .

وغالباً ما يأتي حافظ بالأبيات التي تحمل هذا المعنى في نهاية قصائده بعد أن يكون قد وفّى الفقيد حقه من التعظيم والتبجيل والتكريم فيكون إهداء السلام إليه بمثابة وداع يودعه به راجياً من الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكرم نزله ويدخله أعلى منازل الجنة بسلام .

وهذا المعنى موجود بكثرة في قصائد الرثاء في الشعر العربي على مر العصور الأدبية . ويقصد الشاعر من ورائه غالباً ما قلته من وداع المرثي والدعاء له بأن يكرم

الله نزله في جنات النعيم . ومما جاء من ذلك قول ابن الرومي في ختام قصيدته التي رثى بها ولده محمداً : (١)

عليك سلام الله مني تحيةً ومن كل غيث صادق البرق والرعد

وقول ابن باجة فيلسوف الأندلس في رثاء أبي بكر بن تيفلويت صاحب مدينة سرقسطة الأندلسية : (٢)

سلام وإلمام ووسمي مزنةٍ على الجدث النائي الذي لا أزوره

وقول العماد الأصفهاني في رثاء صلاح الدين الأيوبي : (٣)

فعلى صلاح الدين يوسف دائماً رضوان رب العرش بل صلواته

وقول الفارعة الشيبانية في ختام رثائها لأخيها طريف : (٤)

عليه سلام الله وقفاً فإنني أرى الموت وقاعاً بكل شريف

ـ ومما جاء من ذلك في رثاء حافظ قوله في ختام قصيدته في رثاء الدكتور شبلي شميل :

فعلى الراحل الكريم سلام كلما غيب الثرى ليث غاب

ويبدو تأثر حافظ في هذا المعنى واضحاً في هذا البيت حين جعل المرثي وأمثاله ليث غاب غيبه الثرى فطواه فيمن طوى .

ـ ومن ذلك أيضاً قول حافظ يهدي طبيبيْ مصر إبراهيم حسن باشا ومحمد شكري باشا التحية والسلام جزاء ما قدماه لمصر من خدمات جليلة في ميدان الطب والجراحة :

فبهولاء الغر يا مصر اهنئي فبمثلهم تتفاخر الأيام

وعلى طبيبيْك اللذين رماهما رامي المنون تحية وسلام

ـ ويقول حافظ في ختام قصيدته في رثاء الشيخ سليم البشري يهديه تحية الإسلام

---

(١) ديوان ابن الرومي ٢ / ٦٢٤ .

(٢) نفح الطيب ٧ / ٢٣ .

(٣) النجوم الزاهرة ـ ابن تغري ـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ٦١/٦

(٤) العصمة في مرآة الجنان لليافعي . تحقيق عبدالله الجبوري ٣٨٥/١ .

وأهله وقفاً عليه إلى يوم القيامة : (١)

عليك تحية الإسلام وقفاً وأهليه إلى يوم المآب

ويقول في ختام رثائه للشاعر عبد الحليم المصري : (٢)

عليك سلام ما ترنم منشدٌ وقام خطيب فوق هام المنابر

- ومما جاء من ذلك في منتصف القصيدة قوله في رثاء الشاعر اسماعيل صبري يدعو له بالرحمة من عند الله - سبحانه وتعالى - فقد كان صبري حلو اللسان جليّ البيان بعيداً عن الكذب قليل التعجب شديد التأني يحسن تناول الأمور . وهذه كلها أعمال صالحة تؤهله لرحمة الله له وجزائه خير الجزاء . فقد قال الله - تعالى - في جزاء من اتصف بمثل هذه الصفات من الشعراء : « إلاَّ الذينَ آمَنُوا وعمِلُوا الصَّالحَاتِ وذكَرُوا اللَّهَ كثِيراً وانتصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أيَّ منقلبٍ ينقلبُون » . (٣)

يقول حافظ مخاطباً اسماعيل صبري باشا : (٤)

رُحِمتَ فقد كنت حلو اللسان جليَّ البيان صدوق الخبر

قليل التعجب جم الأناةِ حكيم الورود حكيم الصدر

- ومن دعاء حافظ للمرثي قوله في ختام قصيدته في رثاء الشيخ علي يوسف داعياً الله - سبحانه - أن يجازي الشيخ خير الجزاء وأن يعطيه أفضل الأجر جزاء جهاده في سبيل الله والوطن وأن تكون صحيفته التي أنشأها لنشر الحق ودحض الباطل مدونة في صحيفة أعماله فتكون خير شفيع له عند الله - سبحانه - وسبباً في فوزه بالجنة في الدار الآخرة :

جاهدت في الله والأوطان محتسباً فارجع إلى الله مأجوراً وفز وطب

واحملْ بيمناك يوم النشر مانشرت تلك الصحيفة في دنياك وأنتسب

---

(١) ديوان حافظ ٥٠٤ .
(٢) الديوان ٥١٦ .
(٣) الآية رقم ٢٢٧ من سورة الشعراء .
(٤) الديوان ٥٢٣ .

- ومن ذلك أيضاً قوله في رثاء الإمام محمد عبده في القصيدة التي ألقاها في الذكرى السابعة عشر لرحيله : (١)

رحمة الله عليه كلما خرج التفسير عن طوق الأريب
رحمة الرأي عليه كلما طاش سهم الرأي في كف المصيب
رحمة الفهم عليه كلما دقت الأشياء عن ذهن اللبيب
رحمة الحلم عليه كلما ضاق بالحدثان ذو الصدر الرحيب

وفي هذه الأبيات تتجلى براعة حافظ في الدعاء للإمام وتكرار هذا الدعاء له بتكرار المواقف التي كان المرثي يظهر فيها نبوغه وتفوقه والتي أحس الشاعر بالخلل فيها بعد رحيل الإمام . ولذا فهو يدعو له بالرحمة كلما أحس المسلمون بحاجتهم إلى الإمام وتعاليمه في كل موقف من هذه المواقف التي كان وجود الإمام بينهم فيها يسد عليهم باباً عظيماً من أبواب الشر .

وهكذا برزت في رثاء حافظ للأدباء والعلماء عدة معان أبانت لقارىء شعره في هذا الباب عن نظرة حافظ لمن يرثيهم من علماء عصره وأدبائه ، كما أبانت عن نظرة الناس والمجتمع لهؤلاء لهؤلاء الأعلام . ومما قرأنا من شعر حافظ في الصفحات السابقة نعرف أن هذه النظرة كانت نظرة إجلال وإعظام لهؤلاء النوابغ الذين لم يدخر كل منهم جهداً في خدمة دينهم وأبناء مجتمعاتهم . بل سخروا علمهم وأدبهم في كل ما ينفع الناس والوطن ويرقى بحياتهم ويرفع من شأنهم بين مجتمعات الأرض .

رثاء أبناء الأدباء والعلماء :

ومما يتصل برثاء الأدباء والعلماء رثاء من يتوفى من أبناء الأدباء والعلماء في حياة والدهم . لأن هذا يعد من باب تعزية هؤلاء الآباء في فلذات أكبادهم . وقد

---

(١) الديوان ٢٠٥ .

وجدت فى رثاء حافظ قصيدتين فى هذا الباب : إحداهما قصيدته فى رثاء ابنة البارودى وتعزية أبيها . (١) والأخرى فى رثاء عبد الحميد رمزى بن إبراهيم رمزى بك . (٢)

أما عن قصيدة حافظ فى رثاء ابنة البارودى ـ التى توفيت فى صغرها ـ فقد شارك بها حافظ الأب الملتاع أحزانه وآلامه ورثى الفتاة بأبياتها المؤثرة . صحيح أنها جاءت قصيرة مختصرة . (٣) ولكن رثاءه فيها جاء قوياً معبراً عن إحساس الشاعر الحزين ومشاعره الأليمة تجاه الابنة الفقيدة ووالدها المصاب .

ثم إن قصر الرثاء هنا ليس شاذاً ولا دالاً على قصر نفس الشاعر أو مقللاً من إحساسه ومشاعره . فالاختصار والإيجاز شيء طبيعى فى مثل هذا اللون من الرثاء . فقد عد النقاد أنه « من أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثى طفلاً أو إمرأة لضيق الكلام فيهما وقلة الصفات . وربما كان سبباً فى إخفاق الشاعر » . (٤) والذى يهمنا فى هذا المجال ما ضمنه الشاعر قصيدته من معان مؤثرة وأحاسيس صادقة ومدى توفيقه فى القيام بواجب العزاء . ومن الحق القول بأن قصيدة حافظ فى رثاء ابنة البارودى جاءت محققة لهذا الواجب فقد ملأها حافظ بالحياة والحركة واختار لها الألفاظ المعبرة عن الآلام التى يحسها فجاءت تصويراته فيها مفعمة بالحزن والألم . ولم يعبها إلا أنه قسم فيها الحديث بين الفقيدة وأبيها وخص كلاً منهما بستة أبيات . وكان الأولى به أن يعطى الفقيدة النصيب الأوفى من حديثه ورثائه . ولكننا قد نلتمس له العذر فيما فعل حين نعلم أنه قال هذه القصيدة بغرض تعزية هذا الوالد فى فقد ابنته . ومثل هذا الغرض يدعوه إلى أن يتوجه بحديثه إلى الوالد الملتاع بقصد تسليته والتخفيف من آلامه .

---

(١) الديوان ٥٦٠ .

(٢) الديوان ٥١٤ .

(٣) هناك من قال بأن القصيدة أطول من ذلك ولكنا لم نعثر منها إلا على ما هو موجود بالديوان .

(٤) أسس النقد الأدبى عند العرب ـ د/ أحمد بدوى ـ دار نهضة مصر ص ٢٣٥ . وانظر العمدة لابن [illegible] ٢ [illegible]

وقد خاطب حافظ الفقيدة فى القسم الأول من القصيدة فقال :

بين السرائر ضنة دفنوك	أم فى المحاجر غلسة خبئوك
ما أنتِ ممن يرتضى هذا الثرى	نزلاً فهل أرضوك أم غبنوك
يا بنت محمود يعز على الورى	لمس التراب لجسمك المنهوك
تركوا شبابك فيه نهباً للبلى	واهاً لغض شبابك المتروك
وحثوه فوق سناك يا شمس الضحى	فبكى له بدر السماء أخوك
داس الحمام عرين آساد الشرى	يا ليت شعرى أين كان أبوك

ومن يقرأ هذه الأبيات يحس بجو الحزن الصادق وكأن الوالد هو الذى يتلفظ بها وليس غيره . فهو لا يصدق أنهم ألقوا بالفتاة وبجسمها الغض الطيب فى باطن الأرض بل إن إعزازهم لها وحرصهم على بقائها بينهم جعلهم يدفنونها بين ضمائرهم أو فى عيونهم .

والاستفهام الذى أتى به الشاعر مع وجود (أم) فى هذا البيت نفى أن تكون الفتاة قد دفنت فى باطن الأرض وجعل دفنها فى مكان من اثنين إما فى السرائر والقلوب وإما فى المحاجر والعيون . وكلاهما يدل على مكانة الفقيدة بينهم مما جعلهم يضنون بها على تراب الأرض ويرفضون أن تكون لجسمانها رمساً .

ويرجع الشاعر إلى صوابه فيذكر أنها دفنت فى باطن الأرض على الرغم منها . وعلى ذلك فإما أن يكونوا قد أرضوها وإما أن يكونوا قد غبنوها حقها . والاستفهام مع وجود أم فى هذا البيت أيضاً يدل على أن دفنها فى باطن الأرض قد تم بناء على أحد الاحتمالين المذكورين ولا يمكن أن يكون قد تم ذلك بناءً عن طيب خاطر منها .

ويتحسر حافظ على شباب هذه الفتاة الذى سيبلى بين تراب الأرض وتتحول فيه هذه الفتاة الغضة الناعمة إلى جسم بال ترك نهباً للبلى .

وأتى الشاعر بلفظ (واهاً) ليدلل على شدة تحسره وحزنه على ضياع شباب هذه الفتاة وترك جسمها الغض الزاهر نهباً ليد البلى .

وفى البيت الخامس تصوير جميل يدل على تقدير الشاعر لهذه الفتاة حيث صورها

فى صورة الشمس المضيئة وقد وضعوها تحت التراب فأطفأوا نورها . ومن هنا لم يجد القمر ما يستمد منه الضوء فانخسف هو الآخر وذهب نوره وبهاؤه .
ويتعجب الشاعر فى البيت الأخير كيف استطاع الموت أن يخترق عرين آساد الشرى وينفذ إلى قلب الفتاة ؟! فأين كان أبوها - أسد العرين - وكيف ترك ابنته يختطفها الموت وهو الذى تعود على لقاء الموت بمهنده الصارم البتار . وهكذا عبر حافظ عن حزنه على الفقيدة وتقديره لها ووصفها بصفات تدل على منزلتها لديه .

أما عن الأبيات التى تحدث فيها حافظ عن البارودى والد الفقيدة فقد ذكر فيها عدة صفات يحث فيها الوالد من خلال وصفه بها على التماسك والثبات أمام هذه المصيبة الأليمة فقال :

عهدى به يلقى الردى بمهند	يعلوه غمد من دم مسفوك
يا نفس محمود - وأنت عليمة* -	بطريق هذا العالم المسلوك
عهدوك لا تتصدعين لحادث	أو أنت باقية كما عهدوك ؟
هذا التراب - وأنت أعلم - ملتقى	هذا الورى من سوقة وملوك
هل أنت إلا بين جنبى ماجد	صعب الشكيمة للخطوب ضحوك
يغضى بحضرته الزمان فيلتقى	عز المليك وذلة المملوك

وهى أبيات - كما قلت - مليئة بأوصاف البطولة والشجاعة والثبات أمام الأهوال . وصف بها حافظ أستاذه البارودى يدعوه من خلالها إلى التماسك والثبات والتصبر وعدم الجزع واحتساب الأجر عند الله - تعالى - والتيقن بلقائه يوم القيامة . فهذا التراب الذى يدفن فيه الموتى هو ملتقى الناس جميعاً . وفتاة الشاعر لا تعدو عن كونها وديعة ردت إلى ربها الذى خلقها . وقد عبر عن هذا المعنى فى بيتين

آخرين يخاطب بهما البارودي يقول فيهما عن هذه الفتاة : (١)

وديعة ردت إلى ربها	ومالك الأرواح أولى بها
ألم يكن صبرك في بعدها	يربو على شكرك في قربها

أما القصيدة الثانية التي رثى بها حافظ عبد الحميد رمزي . فقد قالها على لسان إبراهيم رمزي بك والد الفقيد في حفل تأبينه «وكان المرثي طالباً في المدارس الثانوية ولم يقو أبوه على الكلام في هذا الحفل فناب عنه حافظ وقال هذه القصيدة» . (٢) ولذلك يظن من يقرؤها أنها قصيدة من والد إلى ولده المتوفي . وقد ملأ حافظ قصيدته بكل ما يثيراللوعة في القلوب والدمعة في العيون والحسرة في النفوس حتى تكون لائقة بخطاب الأب مع ابنه المفقود . أقرأ معي قوله في بداية القصيدة على لسان الوالد :

ولدي قد طال سهدي ونحيبي	جئت أدعوك فهل أنت مجيبي ؟
جئت أروى بدموعي مضجعاً	فيه أودعت من الدنيا نصيبي
لا تخف وحشة القبر ولا	تبتئسْ إني موافٍ عن قريب
أنا لا أترك شبلي وحده	في جديبٍ موحش غير رحيب

وقد بدأ الوالد حديثه مع ولده بندائه حتى يوهمنا - أو يوهم نفسه - أن ابنه مازال معه يرد عليه ويجيبه ليخفف عنه ما هو فيه من سهدٍ ونحيب . على أنني أرى أن الشطر الثاني خال من الحس واللوعة فهو مجرد سؤال توجه به الوالد إلى ولده بعد أن أخبره بمجيئه لدعوته إليه . فهو غير متناسب مع جو الأسى والنحيب الموجود بالشطر الأول ، وغير متناسب مع البيت الثاني الذي يكمل فيه حديثه عن سبب مجيئه وهو إرواء مضجع ولده - الذي هو نصيبه من الدنيا - بدموعه .
وفي البيتين الأخيرين يبدي الشاعر لوعته وحسرته بل وبغضه للحياة بعد فقد ولده

(١) الديوان ٦٠ه .
(٢) ديوان حافظ ٩٤ه .

فيتوجه إليه بالخطاب طالباً منه عدم الخوف من وحشة القبر لأنه عما قريب سيكون أنيسه فيه لأنه لا يليق به أن يترك ولده وحده في هذا المكان الجدب الموحش الضيق .

وأنا أرى أن هناك صلة قوية بين البيت الأخير من هذين البيتين وبين بيت ابن الرومي في رثاء ولده : (١)

أود إذا ما الموت أوفد معشراً إلى عسكر الأموات أني من الوفدِ

ثم ينتقل الشاعر - أو ينتقل الأب إلى الحديث عن خيبة أمله في هذا الولد . فقد كان رجاؤه فيه أن يكون عوناً له عند عجزه وشيبه وخاصة بعد ان قوى الولد واشتد عوده ونهبت قوة الوالد ونوى عوده ، ولكن الموت لم يحقق لهذا الوالد أمنيته واختطف ابنه في شرخ صباه وغض شبابه :

أوحين ابتز دهري قوتي	ونوى عودي ووافاني مشيبي
واكتسى غصنك من أوراقه	تحت شمس العز والجاه الخصيب
ورجونا فيك ما لم يرجه	منجب الأشبال في الشبل النجيب
ينتويك الموت في شرخ الصبا	والشباب الغض في البرد القشيب

وقد وفق الشاعر في عقد مقارنة بين عجز الوالد ونبول عوده بعد أن طرقه الشيب وبين قوة الولد وفتوته واشتداد عوده حتى يبين مدى حاجة الوالد الضعيف إلى مساندة ولده القوى له ، وبالتالي تكون خيبة أمله في هذا الولد بعد أن حرمه منه الدهر قوية شديدة ومصيبته في فقده عظيمة .

ثم يذكر الوالد أنه لم يقصر في مداوة ولده وإنما جاء له بالطبيب الذي قام بكل ما وسعه علمه في معالجة الفقيد ولكن قضاء الله وقدره قد نفذ فيه :

لم يدع آسيك جهداً إنما غاب علم الله عن علم الطبيب

ويعود الشاعر - أو يعود الأب - إلى اظهار لوعته وتحسره على فقد ولده من وصفه لحاله وما أصبح عليه بعد فقد ولده فحينما يرى واحداً من أتراب ولده يتذكر ولده فيهزه الشوق إلى رؤيته وحينما ينظر إلى الأغصان يتذكر ولده ذلك الغصن الرطيب

---

(١) ديوان ابن الرومي ٦٢٤ / ٢

الذى افتقده فيسألها عنه . كما يسأل الأقمار كلما رآها مشرقة عن تلك القمر الذى أخذ منه من قبل المغيب . وهكذا يعيش الأب فى حزن دائم كلما رأى شيئاً يذكره بولده حتى صار ميتاً بين الأحياء لايهنأ بعيش ولا يستمتع بحياة . وكيف يهنأ بعيش وقد أصبح جسداً بلا قلب بعد أن ودع قلبه وأودعه جوف الثرى :

أيه (يا عبد الحميد) انظر إلى	والد جم الأسى بادى الشحوب
ذاهل من فرط ما حلّ به	بين أترابك يمشى كالغريب
كلما أبصر منهم واحداً	هزه الشوق إلى وجه الحبيب
يسأل الأغصان فى إزهارها	عن أخيها تلك الغصن الرطيب
يسأل الأقمار فى إشراقها	عن محياً غاب من قبل المغيب
غمر الحزن نواحى نفسه	وأذابت لبه سود الخطوب
فهو لا ينفعه العيش وهل	تصلح الأبدان من غير القلوب

وقد استوحى حافظ هذه الفكرة - فكرة تحسر الوالد على ولده المفقود كلما رأى شيئاً يذكره به - من قراءته لقصيدة ابن الرومى فى رثاء ولده . فقد كان يتحسر هو الآخر على ولده المرثى كلما نظر إلى مهده خاوياً أو إلى أشياء كان يلعب بها أو حتى إلى أخويه وهما يلعبان بدونه . اقرأ معى قول ابن الرومى :

ثكلت سرورى بعده إذ ثكلته	وأصبحت فى لذات عيشى أخا زهد
محمد ما شىء توهم سلوة	لقلبى إلا زاد قلبى من الوجد
أرى أخويك الباقيين فإنما	يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا فى ملعب لك لذعا	فؤادى بمثل النار عن غير ما قصد

ويختم حافظ قصيدته - كعادته فى كثير من قصائده فى الرثاء - بإهداء التحية إلى الفقيد فى كل الأوقات والدعاء له بالرحمة والرضوان من عند الله - سبحانه وتعالى - سائلاً الله - سبحانه - أن يسكن رحمته قبر هذا الولد فتكون له كالغيث المدرار . يقول حافظ على لسان الوالد :

طالعى يا شمس قبراً ضمه	بالتحايا فى شروق وغروب

واسكنى يا رحمة الله به   واجعلى فيضك منهل السكوب

وهكذا استطاع حافظ أن يعبر عما يكنه هذا الأب الملتاع تجاه ولده الفقيد من حزن وأسى وما أصيب به هذا الوالد من تعاسة وشقاء بعد رحيل نصيبه فى الحياة . وجاء رثاء حافظ لأولاد الأدباء والعلماء متسماً بكثير من السمات التى اتسم بها شعره فى رثاء الأدباء والشعراء .

وبعــــــد :

فلقد عبرت فى الصفحات السابقة عن نظرتى إلى قصائد حافظ إبراهيم فى رثاء الأدباء والعلماء وأبنائهما وأعطيت للقارىء الكريم صورة صادقة لما فهمته من هذه القصائد راجياً أن أكون قد وضحت فيها شيئاً من الأشياء التى يريد القارىء أن يتعرف عليها فى هذا اللون من شعر حافظ . كما أرجو أن أكون قد قدمت فى هذه الصفحات شيئاً نافعاً يسهم فى توضيح ما قد تحتويه بعض قصائد حافظ فى الرثاء من قيم فنية وأدبية .

الفصل الثاني

رثاء الوطنيين ورجال السياسة في شعر حافظ إبراهيم

الفصل الثانى
رثاء الوطنيين ورجال السياسة فى شعر حافظ إبراهيم

كان للشعر فى النصف الثانى من القرن الماضى والنصف الأول من هذا القرن صولته المدوية . وكان هناك الكثير من حفلات التأبين والتكريم التى تقام عقب موت أحد زعماء الأمة أو فقد أحد كبار قادتها . وكان للشعر فى ذلك دوره الذى لا ينكر . فكان الشاعر فى تلك الآونة ترجماناً صادقاً لأحاسيس أبناء الشعب ومشاعرهم تجاه ما يحل بهم من أحداث .

وكان حافظ إبراهيم من أولئك الشعراء الذين أسهموا بنصيب وافر فى بكاء زعماء الأمة ورجال الوطنية والسياسة إذا حلت بأحدهم مصيبة الموت . وقد أتيح لحافظ أن يتصل بكثير من الزعماء ورجال السياسة فى المجتمع المصرى فى عصره . وكانت صلته بهم صلة مودة خالية من قيود التكلف والتصنع بريئة من النفاق والتزلف . ولذلك كانت مراثيه فيهم تتميز بأنها شعر صادق اللوعة والبكاء .

ولم يترك حافظ زعيماً من زعماء الشعب فى عصره أو قائداً من قواده يرحل إلا وفاه حقه من الرثاء وشيعه بغزير دمعه وعميق حزنه يدفعه إلى ذلك ما اتصف به حافظ من وفاء نادر وما انطوت عليه نفسه من حزن بالغ وشقاء مستكن يظهر بظهور دواعيه ومحركاته .

وفى الصفحات التالية محاولة لبيان ما احتوت عليه قصائد حافظ فى رثاء الوطنيين ورجال السياسة من معان وما ضمنها حافظ من صور عبر بها عما يكنه لهؤلاء القادة من تقدير وحب واحترام وما انصب فى نفسه ونفوس أبناء مجتمعه من حزن ولوعة نتيجة موت أحد هؤلاء الزعماء .

أهم المعانى البارزة فى رثاء حافظ للوطنيين ورجال السياسة :

ظهر فى شعر حافظ فى رثائه للوطنيين ورجال السياسة كثير من المعانى التى تدل على نظرة حافظ لهؤلاء الزعماء والقادة وتعبر عن أثر موتهم على أبناء

المجتمع كما تصور موقف رجال الأمة تجاه ما تصاب به من كارثة موت زعيم من زعمائها أو قائد من قادتها أو أحد الرجال الذين كان لهم تأثيرهم فى الحياة العامة فى المجتمع المصرى .

وهذه هى أهم هذه المعانى .

١

كان حافظ فى رثائه لأحد القادة الوطنيين أو لرجل من رجال السياسة كثيراً ما يعدد الأخلاق الحميدة والصفات الطيبة التى كان المرثى يتصف بها فى حياته .

ووجود مثل هذه الظاهرة فى شعر الرثاء شىء طبيعى . فمن المعروف أن الرثاء مدح للأموات ولابد فى المديح من ذكر الشمائل الطيبة والخلال الكريمة والأخلاق الحميدة التى كان الممدوح يحرص على أن يتصف بها . ولذا نرى أن معظم قصائد الرثاء فى شعر حافظ ابراهيم قد اشتملت على عديد من الأبيات التى يتحدث فيها عن الصفات الطيبة والأخلاق الحميدة التى توافرت فى شخص المرثى .

ـ ومن ذلك تعداده لأخلاق سعد زغلول وصفاته الطيبة حين قال مخاطباً إياه : (١)

كنت فى ميعة الشباب حساماً ... زاد صقلا فرنده حين شابا
لم ينازلك قارح القوم إلا ... كنت أقوى يداً وأعلى جنابا
عظْمٌ لو حواه (كسرى أنوشر ... وان) يوماً لضاق عنه إهابا
ومضاء يريك حد قضاء الله ... يفرى متناً ويحطم نابا
تقتل الدس بالصراحة قتلاً ... وتُسَقّى منافق القوم صابا
وترى الصدق والصراحة ديناً ... لا يراه المخالفون صوابا
تعشق الجو صافى اللون صحواً ... والمضلون يعشقون الضبابا

فقد سرد حافظ فى هذه الأبيات بعض ما كان يتصف به سعد زغلول من صفات طيبة وخلال عظيمة . فقد وصفه بالشجاعة وبالقوة وبالعظمة وبالشدة فى إمضاء الأمور

---

(١) الديوان ٥٣٥ .

وبالصراحة فى القول وبالبعد عن المداهنة والنفاق .
وقد وفق الشاعر فى وصف سعد زغلول بالشجاعة فى البيت الأول حيث جعله حساماً قاطعاً فى شبابه وبمرور الأيام وكثرة النزال ازداد حد هذا الحسام صقلاً فكان فى شيبه أشد قوة ومضاءً عما كان فى شبابه .
كما وفق حافظ حين قدم-فى البيت الأخير - دليلاً على حب سعد للصراحة وقول الحق وبغضه للنفاق والمداهنة . فهو يعشق الجو صافى اللون صحواً وهذا شأن المخلصين الصادقين . أما المنافقون المضلون فيعشقون جو الضباب والغيوم . على أنه لا يروقنى مبالغة حافظ فى وصف مضاء سعد وشدة بأسه حيث جعل مضاءه وبأسه مساوياً قضاء الله . ونفاذ أموره على كل المخلوقات .

- ويبرز هذه المعنى واضحا فى رثاء حافظ للزعيم مصطفى كامل حين يقول معدداً صفاته :(١)

إنى أرى - وفؤادى ليس يكذبنى -	روحاً يحف بها الإكبار والعظم
أرى جلالاً أرى نوراً أرى ملكاً	أرى محيّاً يحيينا ويبتسم
الله أكبر هذا الوجه أعرفه	هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيوه تحيته	من القلوب إذا لم تسعد الكلم
لبيك نحن الألى حركت أنفسهم	لما سكنت ولمّا غالك العدم

وواضح ما وصف به حافظ الزعيم الوطنى من صفات العظمة والإجلال والإكبار التى يعرفه بها حافظ والتى عرف بها بين الناس فهو ابن النيل المفرد العلم .
وقد أجاد حافظ التعبير عن بعض صفات الزعيم المرثى فى هذه الأبيات بما أتى به من تكرار الفعل (أرى) فى البيت الثانى وما يفيده هذا التكرار من تعدد الرؤية بتعدد الصفات المرئية.وبما صدر به بيته الثالث من عبارة تدل على العظمة والإكبار واضفت على جو الأبيات شيئاً من المهابة والجلال . وقد أبدى الدكتور طه حسين

---

(١) الديوان ٤٧٥ .

إعجابه بهذه الأبيات فقال مبيناً ما فيها من محاسن : (١)

« الا ترى إلى هذه الأبيات كيف استحضر الشاعر فيها شخص الزعيم يحف به الجلال والعظمة وكيف مهد لهذا الاستحضار بهذا البيت الأول الذى خرج فيه عن طوره العادى وأخرج الناس معه عن أطوارهم وهيأهم لموقف غير مألوف ثم أخذ يدفعهم إلى هذا الموقف دفعاً ويملأ قلوبهم هيبة وإجلالاً بهذا البيت الذى ألفه من جمل متقطعة قصيرة وختمه بصورة خلابة رائعة :

أرى جلالاً أرى نوراً أرى ملكاً　　　أرى محيّاً يحيينا ويبتسم

ثم انظر إليه كيف استأثر به الذهول وغلبه على نفسه وملك عليه كل أمره فصاح :

الله أكبر هذا الوجه أعرفه　　　هذا فتى النيل هذا المفرد العلم

ثم انظر إليه بعد ذلك وقد كدّ الجمهور وأنساه نفسه وملك عليه شعوره وحسه وأقنعه بأنه أمام الزعيم كيف يتحدث إلى هذا الجمهور بهذا الحديث الذى تملؤه المهابة والروعة والحب معاً فيقول :

غضوا العيون وحيوه تحيته　　　من القلوب إذا لم تسعد الكلم

ثم يتجه بعد ذلك إلى الزعيم نفسه فيصيح صيحة كلها إيمان وطاعة ويقين وإعجاب :

لبيك نحن الألى حركت أنفسهم　　　لما سكنت ولما غالك العدم

هذه أبيات لو قرأها أرسطاطاليس صاحب الخطابة ومنشىء علم البيان لما تردد فى أن يتخذها مثلاً لما يسميه فى الكتاب الثالث من الخطابة وضع الشىء تحت العين » .

- ومن شعر حافظ فى تعداد صفات المرثى والحديث عن أخلاقه الحميدة وشمائله الطيبة قوله فى رثاء سليمان أباظة باشا :(٢)

أودى (سليمانّ) فأودى بعده　　　حسن الوفاء وبهجة العلياء

خلق كضوء البدر أو كالروض أو　　　كالزهر أو كالخمر أو كـ[illegible]ـاء

وشمائل لو مازجت طبع الدجى　　　ما بات يشكوه المحب النائى

---

(١) ذكرى الشاعرين ٤٤ .
(٢) الديوان ٤٤٩ .

ومحامد نسجت له أكفانه ... من عفةٍ وسماحةٍ وإباء
ومناقب لولا المهابة والتقى ... قلنا مناقب صاحب الإسراء
وعزائم كانت تفل عزائم الـ ... أحداث والأيام والأعداء

وقد أجاد حافظ سرد ما يتصف به المرثى من صفات وشمائل فى هذه الأبيات وأعطانا صورة واضحة لما تتصف به أخلاق المرثى حينما كرر المشبه به فى البيت الثانى . كما وفق فى تحسين مبالغته وجعلها مقبولة حينما ذكر أنه لولا المهابة والتقى لجعل مناقب المرثى فى درجة مناقب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أى لولا مهابة رسول الله وتقوى الله-عز وجل - لجعل مناقب المرثى فى منزلة مناقب الرسول - صاحب الإسراء . وباستعماله لأداة الشرط تجنب حافظ ما وقع فيه من خطأ فى رثائه لسعد زغلول فى الأبيات السابقة حينما ساوى بين مضاء سعد وشدة بأسه وقضاء الله - عز وجل - على الأمور .

- ومن تعداد الصفات الطيبة للمرثى قول حافظ فى رثاء محمود سليمان باشا معدداً نعمه على الناس ومنهم والد الشاعر الذى طالما أنعم عليه المرثى بماله وكرمه : (١)

مسدى الجميل بلا منّ يكدره ... ومكرم الضيف أمسى ضيف (رضوان)
قضيتها منّةً فى كل واحدةٍ ... تعد زادك من بر وإحسان
فكم صفحت عن الجانى ولم تره ... وكم غرست وكان المعوز الجانى
وكم أقلت كريماً عند عثرته ... وكم مشيت بصلح بين إخوان
قسّمت ما جمعت كفاك من نشب ... على بنيك فكنت الوالد الحانى
مال حلال مزكّى ما خلطت به ... مليم سحت ولا حقّا لإنسان
زهدت فيها وهام العابدون لها ... بجمع فان يعانى جمعه فانى
بكسرةٍ وكساءٍ عشت مغتبطاً ... تسبح الله فى سر وإعلان
كم نعمةٍ لك يلحود عند أبى ... بشكرها لك عند الموت أوصانى

---

(١) الديوان ٥٥٠ .

وواضح أن حافظاً قد اختار عدداً من الصفات الطيبة التى ترجع إلى أصل واحد تقريباً وصف بها المرثى فى هذه الأبيات وهى الكرم والجود ، والزهد فى الحياة ، والاكتفاء بقليلها رغم وفرة المال لديه والذى تحرى فى جمعه الحلال ، ولم يتكالب على الدنيا وجمع حطامها الفانى . كما وصفه بالعفو عن الجانى والإخلاص فى عبادة الله - سبحانه وتعالى - فى السر والعلن . وأخيراً أهداه شكره على نعمه الكثيرة التى أسداها إلى والده .

ولهذه الصفات كلها وجده الشاعر حقيقاً بأن يكون - بعد موته - ضيفاً لرضوان فى الجنة يتنعم بنعيمها جزاء ما قدم فى دنياه من أعمال صالحة .
وهكذا قدم لنا حافظ فى رثائه للوطنيين ورجال السياسة كثيراً من الأبيات - والتى قدمنا قليلا منها فيما سبق - أبانت لنا عن الصفات النبيلة والأخلاق الفاضلة التى كان يتحلى بها المرثى من هؤلاء الرجال . وكما ذكرت آنفا أن الحديث عن مثل هذا المعنى وجد فى الرثاء العربى منذ العصور الأدبية الأولى ، ووجوده فى شعر حافظ وغيره يمثل ظاهرة طبيعية فى غرض مثل هذا الغرض الذى يهدف الشاعر من إنشاده أساساً إلى إيضاح المكانة العالية والمنزلة الكريمة التى كان يحتلها المرثى بين أبناء عصره .

٢

وكثيراً ما كان حافظ إبراهيم يسرد لنا فى رثائه للزعماء ورجال السياسة الأعمال البطولية التى حققها المرثى وجاهد فى سبيل إسعاد وطنه ومجتمعه بها ، وذلك من خلال المناصب التى تولاها . فإذا كان المرثى وزيراً عرض للشئون السياسية والوطنية التى كان يقوم بها خدمة لوطنه ، وإذا كان صحفياً عرض لموقفه من السياسة وبين كيف كان المرثى يسخّر قلمه فى خدمة قضية بلاده وتخليصها من قيود الاحتلال . وإذا كان زعيماً وطنياً عرض لجهاده ضد الاحتلال وريادته لأبناء وطنه فى محاولة تخليصها من براثن الاحتلال ورفع راية الحرية فيها عالية خفاقة . وإذا كان

سلطاناً أو حاكماً بيّن كيف كان يقيم العدل والأمن فى أنحاء البلاد ويعمل على الارتقاء ببلاده وتخليصها من ظلم الاستعمار ومساوئه . وهكذا كان يصور حافظ الأعمال البطولية للمرثى كل فى مجال عمله وما كان يقوم به كل منهم من جهاد فى خدمة وطنه .

- ومن ذلك قوله فى رثاء الزعيم سعد زغلول مصوراً جهاده المستمر ضد الاحتلال :(١)

جزع الشرق كله لعظيم ملأ الشرق كله إعجابا
علّم الشام والعراق ونجداً كيف يُحْمَى الحمى إذا الخطب نابا
جمع الحق كله فى كتاب واستثار الأسود غاباً فغابا
ومشى يحمل اللواء إلى الحـــــــق ويتلو فى الناس ذاك الكتابا
كلما أسدلوا عليه حجاباً من ظلام أزال ذاك الحجابا
واقف فى سبيلهم أين ساروا عالم باحتيالهم أين جابا

فسعد زغلول - ذلك الزعيم العظيم - علّم أبناء الممالك الشرقية كلها كيف يستردون حقوقهم وكيف يطهرون بلادهم من رجس الاستعمار وآثامه . فقد مضى يجوب هذه الممالك يبين الحقوق المهضومة ويحمل لواء الحق ويحث أبناء الشعب على استرداده ويدفعهم إلى الذود عن أوطانهم والدفاع عن حرماته وأرضه . وكلما حاول المستعمرون أن يثنوه عن طريق الكفاح كان ينتصر عليهم بعزمه وصلابته فيعود أقوى وأشد مما كان . فقد كان خبيراً بأساليب الاستعمار الملتوية فى تضييع الحقوق وعالماً بحيلهم وخداعهم للشعوب .

ويعجبنى فى هذه الأبيات تصوير حافظ لخبرة سعد بحيل الاستعمار ومعرفته بكيفية بيان الحقوق المهضومة واستثارة الشعوب ضد الاستعمار بجمعه لهذه الحقوق وضمها فى كتاب يتلو صفحاته على الناس فى كل أقطار الشرق وهو يحمل لواء الحق ليذل به لواء الباطل والظلم والقهر .

(١) الديوان ٣٧ء .

- ومن أشعار حافظ التى برز فيها هذا المعنى قوله فى رثاء الزعيم مصطفى كامل : (١)

قد كنت تغضب للكنانة كلما	همت وهم رجاؤها بعثار
غضب التقى لربه وكتابه	أو غضبة الفاروق للمختار
قد ضاق جسمك عن مداك فلم يطق	صبراً عليك وأنت شعلة نار
أودى به ذاك الجهاد وهدّه	عزمٌ يهد جلائل الأخطار
لعبت يمينك باليراع فأعجزت	لعب الفوارس بالقنا الخطار
وجريت للعلياء تبغى شأوها	فجرى القضاء وأنت فى المضمار

ويشير حافظ فى هذه الأبيات إلى جهاد مصطفى كامل المستمر ضد الاستعمار ووقوفه بجانب مصر وأبنائها كلما لاح فى الأفق ما يهدد كيانها أو يهين كرامة أبنائها حتى لقى ربه وكله حماس وقوة . كما يشير إلى ما كان يخطه قلم الزعيم فى جريدة « اللواء » التى أنشأها لتكون سيفاً ضد أعداء الأمة من المستعمرين . وكانت كلماته على صفحات هذه الجريدة بمثابة الصاعقة التى تحرق أعداء الأمة وتفعل بهم أكثر مما يفعله الفوارس بسيوفهم فى ميادين القتال .

ونجح حافظ فى بيان شدة الغضب الذى كان يتملك الزعيم إذا انتهكت حرمة من حرمات بلاده وتصوير غضبه فى ذلك بغضب المؤمن التقى لربه وكتابه الكريم إذا مسّ أحد السفهاء شيئاً من المعتقدات الدينية بسوء أو بغضب الفاروق عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - للمختار إذا حاول أحد أن يمسّه بضر . وكل من المشبه به فى الحالتين معروف بشدة الغضب والقوة فى الانتقام من عدو الدين وعدوه .

كما نجح فى تصوير الأثر الكبير الذى كان يحدثه يراع الزعيم وما يخطه من كلمات ملتهبة فى نفوس الاستعمار وأن أثر هذه الكلمات على المستعمرين يفوق

---

(١) الديوان ص ٤٦٦ .

الأثر الناتج عن لعب الفرسان بسيوفهم في رقاب الأعداء . وبذلك كان حمل يمين الزعيم لهذا القلم أقوى وأشد أثراً من لعب الفرسان بسيوفهم الخطارة
- ومن ذلك أيضاً حديث حافظ عن جهاد مصطفى كامل ضد الاستعمار بنفسه وقلمه حينما قال عنه في قصيدته التي ألقاها في الذكرى الأولى لوفاة الزعيم : (١)

طوفوا بأركان هذا البيت واستلموا واقضوا هنالك ما تقضي به الذمم
هنا جنان تعالى الله بارئه ضاقت بآماله الأقدار والهمم
هنا فم وبنان لاح بينهما في الشرق فجر تحيي ضوءه الأمم
هنا فم وبنان طالما نثرا نثراً تسير به الأمثال والحكم
هنا الكمي الذي شادت عزائمه لطالب الحق ركنا ليس ينهدم
هنا الشهيد هنا رب اللواء هنا حامي الذمار هنا الشهم الذي علموا

وفي هذه الأبيات تمجيد لما كان يقوم به الزعيم المرثي من خطابة وكتابة يستثير بهما الهمم ويوضح بهما الحقوق المهضومة لأبناء وطنه حتى يهبوا لاستردادها.
ولم ينس حافظ أن يمدح ذلك النثر الذي كان يخرج من بين فم وبنان المرثي وأنهما طالما أنشآ نثراً خلدته الأيام وتناقلته الألسنة . وحقاً ما قال حافظ فمن بين خطب ومقالات مصطفى كامل كلمات خالدة مازالت تتردد بيننا في المناسبات الثورية المختلفة . فمصطفى كامل هو القائل : « لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس » . وهو أيضاً القائل : « لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً » . ولم يستخدم الزعيم مصطفى كامل قلمه ولسانه فقط في جهاده ضد الاستعمار وإنما وظف شجاعته وعزائمه القوية في استرداد حقوق وطنه وتخليصها من بين براثن الاستعمار .

وقد وفق حافظ في تكريره لاسم الإشارة (هنا) في كل بيت من هذه الأبيات حتى يستحضر المخاطبون هذا الزعيم وعظمته وكفاحه الدائم في سبيل الله والوطن فيعطوه حقه من الوفاء والإجلال .

---

(١) الديوان ٤٧٦ .

- ومن الأشعار التي برز فيها هذا المعنى كذلك قوله في رثاء الزعيم الوطني محمد فريد : (١)

فلقد ولى (فريد) وانطوى ... ركن مصر وفتاها والسند
خالدَ الآثار لا تخشى البلى ... ليس يبلى من له ذكر خلد
زرت (برلين) فنادى سمتها ... نزلت شَمس الضحى برج الأسد
واختفت شمسك فيها وكذا ... تختفي في الغرب أقمار الأبد
ياغريب الدار والقبر ويا ... سلوة النيل إذا ما الخطب جد
وحساماً فلّ حديه الردى ... وشهاباً ضاء وهناً وخمد

وهنا رسم حافظ صورة لبعض مراحل نضال الزعيم محمد فريد ضد الاستعمار وذهابه إلى العديد من البلدان ليشرح لزعمائها قضية بلاده ويبين لهم حقوقها المغتصبة حتى توفي وهو يجاهد من أجل هذه القضية وبيان شرعيتها وحق بلاده في الحرية والاستقلال .

وهكذا رسم حافظ في رثائه للوطنيين ورجال السياسة في مصر صورة لما قاموا به من جهد وما ضحوا به في سبيل استقلال بلادهم وعزتها وكرامتها ، وما بذلوه من دماء وأرواح من أجل استرداد بلادهم لحقوقها التي اغتصبها المستعمرون . ولكني ألاحظ أنه - مع كثرة ما أنشد حافظ في هذا المعنى - لم يعطه حقه من الشرح والإيضاح ولم يتحدث عن كل ما قام به هؤلاء الرجال المجاهدون في سبيل خدمة بلادهم واسترداد حريتها وكرامتها وما قدموه من خدمات جليلة وأعمال عظيمة كان لها أكبر الأثر في قلق المستعمرين وعدم إنعامهم بالراحة والهدوء .

٣

ومن المعاني البارزة في رثاء حافظ للوطنيين ورجال السياسة حديثه عن

---

(١) الديوان ٥١٢ .

الحنكة السياسية للمرثي واضطلاعه في أمور الحكم والسياسة . هذه الحنكة التي تمكنه من القيام بالأعمال العظيمة لمجتمعه وبلاده وتحقق له ما يهدف إليه من رفعة بلاده ونهضتها وتقدمها .

- ومن ذلك حديثه عن خبرة المرحوم عبد الخالق ثروت باشا بأمور السياسة وبراعته في مفاوضة الانجليز حول تصريح ٢٨ فبراير فيقول : (١)

وأتى بأقصى ما ينال مفاوض يسعى بغير كتائب وحراب

واستل من أشداق آساد الشرى علماً عضضن عليه بالأنياب

خلِقاً خبا ضوء الهلال لطيه جمّ التوجع دامي الأهداب

فاخضر فوق ربوع مصر عوده في منبتٍ خصبٍ ورحب جناب

إن فاته بعض الأماني فانكروا أنا أمام محنكين صلاب

قد جاز تيهاء الأمور ولم يكن في وعرها وكؤودها بالكابي

رجل يفاوض وحده عن أمةٍ إن لم يفز فوزاً فليس يعاب

رفع الحماية بعدما بُسطت على أبناء مصر وأيدت بكتاب

وأتى لمصر وأهلها بسيادةٍ ... ه نوعة الأعلام والأطناب

وفي هذه الأبيات يرسم حافظ صورة واضحة لبراعة المرثي في مفاوضة الانجليز والسعي لنيل أقصى ما يمكن من حقوق . وأبان أن المرثي - لحنكته وخبرته بأمور المفاوضات - قد أتى لمصر بأقصى ما ينال مفاوض . وكان سلاحه متمثلاً في الكلمة والحوار دون استخدام أدنى الأسلحة الحديدية في استرداد هذه الحقوق حتى استل من بين أنياب الانجليز ما لم تنجح أقوى الأسلحة في الإتيان به وهو تصريح ٢٨ فبراير الذى ينص على رفع الحماية عن مصر واعتراف الانجليز باستقلالها . وبذا يكون قد استرد لمصر علمها الذى يدل على استقلالها وحريتها وإن كان قد بلي وخبا ضوء هلاله من طول طيه بأيدى الغاصبين فلقد عاد جديداً مخضراً بعد أن رفرف فوق ربوع مصر .

---

(١) الديوان ٤٨ه .

ويذكر حافظ أن المفاوض المرثى إن كان قد فاتته بعض الأمور فإن له ما يوجب له العذر : فهو يفاوض قوما محنكين صلاب لهم دراية بالأمور ولديهم القدرة على المداراة والتواء الأساليب والتلاعب بالألفاظ وقد ذهب إليهم يفاوض وحده عن أمته كلها . فإن فاته بعض الفوز فليس بعيب عليه ويكفى أنه نجح فى رفع الحماية الانجليزية عن مصر واسترد لمصر ولأهلها السيادة .

وقد وصف حافظ الانجليز فى هذه الأبيات « بالمحنكين الصلاب » وبأنهم « آساد الشرى » حتى يبين خبرتهم فى المحاورة والمفاوضة ويبين مدى صعوبة من يتحاور معهم ويفاوضهم فى أمر من الأمور وبالتالى يعظم من شأن النجاح الذى حققه المرثى فى مفاوضاته معهم ويصغر من شأن الأمور التى لم يوفق فيها .

ويعجبنى تصوير حافظ لحالتى العلم المصرى قبل وبعد تصريح ٢٨ فبراير حتى يبين لنا حالة البلاد قبل وبعد هذا التصريح . فقبل هذا التصريح كان العلم المصرى مطوياً بيد الانجليز بل معضوضاً عليه بالأنياب حتى خبا ضوء هلاله الأخضر وأصبح خلقاً بالياً جم التوجع ممزق الأهداب داميها . وهذا كناية عن ضياع هيبة البلاد وذهاب حريتها وكرامتها . أما بعد تصريح ٢٨ من فبراير فنرى هذا العلم وقد اخضر عوده فوق ربوع مصر التى أصبحت أرضها بمثابة المنبت الخصب وأصبحت سماؤها مكاناً رحب الجناب وهذا كناية عن عودة مصر إلى عزتها وكرامتها وعودة الحرية والكرامة إليها .

- ومن الأشعار التى برز فيها هذا المعنى أيضاً قول حافظ فى رثاء الزعيم مصطفى كامل والحديث عن حنكته السياسية : (١)

إن الثلاثين التى بك فاخرت باتت تقاس بأطول الأعمار (٢)

---

(١) الديوان ٤٦٩ .

(٢) يريد بالثلاثين : الثلاثين سنة التى أشار إليها حافظ فى مرثيته البائية التى أنشدها على قبر الزعيم حيث يقول :

ثلاثون عاماً بل ثلاثون دره تجدد الليالى ساطعات رواهيا

ستشهد فى التاريخ أنك لم تكن فتى مفرداً بل كنت جيشاً مغاربا

والمعروف أن مصطفى كامل عاش اثنتين وثلاثين سنة فقط . فالثلاثون فى شعر حافظ عدد تقريبى .

ضمت إلى التاريخ بضع صحائف بيضاء مثل صحائف الأبرار
شبهتهن بنقطة عطرية وسعدت محصل روضة معطار
خلفتها كالمشق يحذو حذوها راجى الوصول ومقتفى الآثار
ماذا على السارى - وهن منائر - لو سار بين مجاهل وقفار
مازلت تختار المواقف وعرة حتى وقفت لذلك الجبار
وهدمت سوراً قد أجاد بناءه فرعون ذو الأوتاد والأنهار
ووصلت بين شكاتنا ومشايخ فى البرلمان أعزة أخيار
كشفوا الغطاء عن العيون فأبصروا ما فى الكنانة من أذى وضرار
نبذوا كلام (اللورد) حين تبينوا حنق المغيظ ولهجة الثرثار
ورماهم بمجلدين رموها فى رتبة الأصفار لا الأسفار
واهاً على تلك المواقف إنها كانت مواقف ليث غاب ضارى
لم يلوه عنها الوعيد ولا ثنى من عزمة قول المريب : حذار

وفى هذه الأبيات شرح لما كان يقوم به الزعيم مصطفى كامل من جهاد ضد الانجليز خلال فترة حياته القصيرة والتى خلدته مع الأبرار والشهداء . وقد أشار حافظ فى هذه الأبيات إلى بعض الأعمال المجيدة التى تدل على الحنكة السياسية للزعيم المرثى وتثبت قدرته على مواجهة الصعاب وبذل كل ما يمكنه فى سبيل تحرير بلاده . فأشار إلى موقفه مع اللورد كرومر والحد من طغيانه وتجبره فى حادثة دنشواى وغيرها . كما أشار إلى جهاد مصطفى كامل فى شرح القضية المصرية وإيصال شكوى الشعب المصرى إلى البرلمان الانجليزى حتى عرفوا وجه الصواب وتبينوا كل ما يدور على أرض مصر من ظلم وطغيان . واكتشفوا ما فى مزاعم اللورد كرومر من كذب وتضليل ملأ بهما ما كتبه من مجلدين حاول بهما تضليل العالم وغياب الحقائق عن زعمائه ، وغير ذلك من مواقف مشرقة أثبتت حنكة الزعيم السياسية وخبرته فى كشف حيل الاستعمار والإفصاح عن خبث مخططاته . مما يستحق من كل مصرى أن يتحسر على موت هذا الزعيم الذى قدم حياته فداءً لوطنه ولم يثنه عن جهاده وعيد ولا تحذير . فكانت هذه الحياة القصيرة التى عاشها ذاك الزعيم معدودة

فى التاريخ بأطول الأعمار بما امتلأت به من أعمال مجيدة وبطولات خالدة .
ويعجبنى هنا حديث حافظ عن جهاد مصطفى كامل وقدرته على كشف حيل اللورد كرومر وخداعه لزعماء أوربا وتضليلهم مما كان له أثره فى دحض مزاعمه وافتراءاته ونبذ كلامه وكسب ثقة كثير من دول أوربا وتضامنهم مع قضية مصر واستقلالها واسترداد حريتها .
- ومن حديث حافظ عن الحنكة السياسية للمرثى وبيان خبرته ودرايته فى إدارة أمور الدولة والإصلاح من شأنها قوله فى رثاء رياض باشا : (١)

وأرهبت حكام الأقاليم فارعووا	وكانوا أناساً فى الجهالة أوضعوا
فخافوك حتى لو تناجوا بنجوة	لخالوا رياضاً فوقهم يتسمّع
أقمت عليهم زاجراً من نفوسهم	إذا سولت أمراً لهم قام يردع
سل الناس أيام الرشا مستفيضةً	وأيام لا تجنى الذى أنت تزرع
أكان (رياض) عنهم غير غافل	يرد الأذى عن أهل مصر ويدفع

وفى هذه الأبيات يتحدث حافظ عن الحنكة السياسية لرياض باشا ودرايته بأمور الإصلاح فى أنحاء القطر المصرى . فلقد أرهب حكام الأقاليم - بعدله وحسن سياسته فارعووا عن جهالتهم وضلالهم بأن سلط عليهم رقباء من أنفسهم يزجرهم إذا سولت لأحد منهم نفسه . فانصلح حالهم وخافوا من عقاب رياض حتى لو تناجوابنجوة تخيلوه بينهم يتسمع مايتناجون به . وبحسن سياسته وخبرته بأمور الإصلاح استطاع القضاء على الرشوة التى كانت قد استفاضت واستفحل أمرها.كذلك نجح رياض باشا فى القضاء على المظالم وأخذ كل عامل حقه الذى يستحقه وكان كثير من أصحاب المصالح يحرمون العمال حقوقهم ويسلبون كل فلاح ما يزرعه . وفى البيت الثانى من هذه الأبيات برع حافظ فى تصويره لشدة خوف حكام الأقاليم من رياض باشا وعقابه . فقد خافوه حتى لو تناجوا بكلام خفى لخالوا رياضاً بينهم يتسمع ما يقولون ويعلم ما يتناجون به .

---

(١) الديو . ٤٨٥ .

وهكذا قدم لنا حافظ في رثائه لبعض الوطنيين ورجال السياسة ما يدل على حنكتهم السياسية وخبرتهم بأمور الحياة ودرايتهم بأساليب الخداع والتمويه التي يلجأ إليها أعداء الأمة لاغتصاب حقوقها ونهب ثرواتها . وكان لذلك أثره في نجاح دعوتهم ومقاومتهم الاستعمار والقضاء على ظلمه وآثامه .

٤

وكثيراً ما كان حافظ في رثائه للوطنيين ورجال السياسة يبين فضل الزعيم المرثي على أبناء وطنه في بث الروح الوطنية بينهم ويرسم لهم الطريق لمقاومة الاستعمار . وكيف كان يعمل على إيقاظ الأمة من سباتها وتبصيرها بحقوقها .

ويهدف حافظ من وراء تكرار هذا المعنى في رثائه دعوة أبناء الأمة للوقوف ضد الاستعمار والسير على الطريق الذي بدأه الزعيم المرثي لتخليص البلاد من الاحتلال وعودة الحرية والكرامة إلى أبنائها .

- من ذلك قول حافظ في رثاء الزعيم مصطفى كامل : (١)

هنيئاً لهم فليأمنوا كل صائح	فقد أسْكِتَ الصوتُ الذي كان عاليا
ومات الذي أحيا الشعور وساقه	إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا
مدحتك لما كنت حيّا فلم أُجِدْ	وإني أجيد اليوم فيك المراثيا
عليك وإلا ما لذا الحزن شاملاً	وفيك وإلا ما لذا الشعب باكيا
يموت المداوي للنفوس ولا يرى	لما فيه من داء النفوس مداويا
وكنا نياماً حينما كنت ساهدا	فأسهدتنا حزناً وأمسيت غافيا

فمصطفى كامل ذلك الزعيم الذي نادى بأعلى صوته مطالباً بالاستقلال والحرية قد سكت صوته ، وشخص مصطفى كامل الذي طالما جاهد في سبيل وطنه

---

(١) الديوان ٤٦٣ .

وأحيا الشعور الوطنى فى نفوس أبناء الأمة فساقهم إلى المجد وبصرهم بطريق الحق قد مات . ولذا فالانجليز اليوم يستحقون التهنئة على ما نال الأمة العربية من خطب فادح وحادث جلل . ويحق للشعب العربى أن يبكى ويعمه الحزن والغضب . فقد رحل من كان يداوى جراحه ويعبر عن آماله وطموحه . ومات الذى طالما بات الليالى حزيناً ساهداً على ما أصاب البلاد مفكراً فى العمل الذى يخلصها مما هى فيه من ظلم وعدوان على يد المستعمر الغاصب .

ويعجبنى فى هذه الأبيات مقارنة حافظ بين حالتى الأمة وحالتى الزعيم المرثى قبل الموت وبعده : ففى حياته كان الزعيم دائم الحزن والسهاد وكانت الأمة فى سبات ونوم . وبعد موته أمسى وهو غافٍ مستريح واستيقظت الأمة وانتابها السهد والألم حزناً على ذلك الزعيم العظيم . هذا كله لخصه لنا حافظ فى بيت واحد امتلأ بالصدق والقوة فى التعبير فقال :

وكنا نياماً حينما كنت ساهداً ... فأسهدتنا حزناً وأمسيت غافيا

- وقد تحدث حافظ عن فضل الزعيم مصطفى كامل على أبناء وطنه والأمة العربية مرة أخرى فى قصيدته الميمية التى قالها فى الذكرى الأولى لوفاته فقال مخاطباً رفاته : (١)

لبيك إنا على ما كنت تعهده ... حتى نسود وحتى تشهد الأمم
فيعلم النيل أنا خير من وردوا ... ويستطيل اختيالاً ذلك الهرم
هذا الفراس الذى واليت منبته ... بخير ما والت الأضواء والنسم
أمسى وأضحى وعين الله تحرسه ... حتى نما وحلاه المجد والشمم
فانظر إليه وقد طالت بواسقه ... تهنا به ولأنف الحاسد الرغم
نمْ أنت يكفيك ما عانيت من تعبٍ ... فنحن فى يقظةٍ والشمل ملتئم
هذا لواؤك خفاق يظللنا ... وذاك شخصك فى الأكباد مرتسمْ

---

(١) الديوان ٤٧٦ .

وهنا يقر حافظ بأن آثار جهاد تلك الزعيم واضحة على أبناء الأمة فقد أيقظ فيهم الشعور نحو الحرية والاستقلال فساروا على الدرب وتعاهدوا على تحقيق ما كان يتمناه الزعيم الراحل من سيادة الوطن وعزته . فغرسه فيهم قد نبت وأينع وطالت بواسقه . ولذلك يحق له أن ينام ويستريح فيكفيه ما لاقاه في حياته من تعب ومشقة وما تركه من آثار تجعله شاخصاً بينهم مرتسماً في أكبادهم وقلوبهم .

وتدل جملة (إنا على ما كنت تعهده) في البيت الأول على أن جهود مصطفى كامل في بث الروح الوطنية في أبناء وطنه وتبصيرهم بطريق الكفاح والحرية قد آتت ثمارها فيهم قبل وفاة الزعيم وقد عهد فيهم هذه الروح قبل أن يتخطفه الموت .

وتبدو في البيتين الأخيرين خفة روح حافظ في حديثه مع رفات الزعيم . فهو يطلب منه أن يستريح في قبره وألا يفكر في حال الأمة . فحالها على ما يرام : أبناؤها في يقظة ، وشملهم ملتئم ، وما تركه فيهم الزعيم من آثار تؤدي دورها كاملاً بينهم .

- ومن حديث حافظ عن بيان فضل المرثي على أبناء وطنه قوله في رثاء سعد زغلول : (١)

أنت أوردتنا من الماء عذباً وأراهم قد أوردونا السرابا
قد جمعت الأحزاب حولك صفاً ونظمت الشيوخ والنوابا
وملكت الزمام واحتطت للغيب وأدركت بالأناة الطلابا
ثم خلّفت بالكنانة أبطا لاً كهولاً أعزةً وشبابا
قد مشى جمعهم إلى المقصد الأسمى يغذّون للوصول الركابا
يبتنون العلا يشيدون مجداً يصعدون البنين والأعقابا

وفي هذه الأبيات يصف حافظ أهم ما قام به سعد زغلول من أعمال لخدمة أبناء وطنه وتبصيرهم بطريق الكفاح ومقاومة الاستعمار فأورد شعبه موارد النجاة

---

(١) الديوان ٣٨ﻫ .

والفلاح فوحد بين الأحزاب المختلفة وجمع بين الشيوخ والنواب فوحد بذلك كلمة الشعب وجمع بين مختلف طوائفه على كلمة سواء فامتلأت أرض مصر بالأبطال المجاهدين من شيوخ وشباب جمع بينهم المقصد ووحدة الهدف وهو تخليص البلاد من الاستعمار وتطهيرها من رجسه وآثامه ·

وقد جاء حافظ في البيت الأول بدعوى مؤداها أن سعد زغلول قد أورد شعبه موارد النجاة ودلهم على طريق العزة والكرامة · وأما الانجليز فقد أوردوا الشعب العربي موارد التهلكة والضياع · وأتى حافظ في الأبيات التالية للبيت الأول بما يثبت صدق هذه الدعوى · وبذلك نزلت هذه الأبيات من البيت الأول منزلة التفصيل بعد الإجمال والتوضيح بعد الإبهام والأدلة بعد الدعوى ·

- ومن الأشعار التي برز فيها معنى الاعتراف بأفضال الزعيم المرثي على أبناء الأمة قول حافظ في رثاء عبد الخالق ثروت باشا : (١)

كم موقف لك في الجهاد مسجل	بشهادة الأعداء والأصحاب
في خطب مصر لبطرس أخمدتها	مشبوبة كانت على الأبواب
ألفت بين العنصرين فأصبحا	رتقاً وكنت موفق الأسباب

وفي هذه الأبيات إشارة إلى فضل المرثي في إخماد الفتنة التي قامت في البلاد بين المسيحيين والمسلمين في أعقاب مقتل بطرس غالي باشا بعد أن كادت نار الفتنة تقضي على كل ما في البلاد من أمن واستقرار · ولكن المرثي بحنكته وخبرته استطاع أن يقضي عليها وأن يقنع الطائفتين بالتحلي بالحكمة والعمل على مصلحة الوطن فانجلت الغمة وسكنت الفتنة وتآلف العنصران · وهذا كله بفضل جهود المرثي وحنكته السياسية ·

وهكذا أبان حافظ في رثائه للوطنيين ورجال السياسة فضل كل منهم على أبناء وطنه وما قدمه كل منهم من أعمال جليلة في خدمة الوطن والوصول به إلى طريق العزة والحرية والكرامة ·

---

(١) الديوان ٥٤٩ .

٥

وكان حافظ إبراهيم فى رثائه للوطنيين ورجال السياسة عادة ما يصور حزن الشعب على المرثى وتأثر كل أفراده بهذه الفجيعة التى أصيب بها الوطن ومدى الحزن والألم اللذين خيما على كل بيت . فكان يصور موت كل واحد من هؤلاء العظماء بصورة المصيبة الكبرى التى تصيب أبناء الوطن أجمعين وليست مقصورة على طائفة منهم دون أخرى . فموت مصطفى كامل خطب فادح وكارثة عظيمة أصيبت بها مصر والوطنية العربية ، وموت سعد زغلول مصيبة كبرى أصيبت بها المقاومة الوطنية والشعب المصرى ، وموت محمد فريد كارثة كبرى أصيبت بها البلاد وأبناؤها فى كفاحهم ضد الاستعمار ... وهكذا .

وقد نجح حافظ إبراهيم فى تصوير ما حل بالشعب بموت كل واحد من هؤلاء الرجال بعد أن عدد صفات كل منهم وما كان يتحلى به من شمائل . فتحس وأنت تقرأ رثاء حافظ لكل واحد منهم بما يملأ قلب الشاعر من اللوعة والألم كما تحس بنار الحزن وحرقة الفراق تأكل قلب الشعب نتيجة ما ألم به من خطب فادح وكارثة عظيمة . - ومن ذلك قول حافظ فى رثاء الزعيم مصطفى كامل وتصوير ما خيم على الشعب من حزن وما تذرفه عيونهم من دمع وهم يودعون زعيمهم الوطنى : (١)

عز القرار علىَّ ليلة نعيه ... وشهدت موكبه فقر قرارى
وتسابقت فيه النعاة فطائر ... بالكهرباء وطائر ببخار
شاهدت يوم الحشر يوم وفاته ... وعلمت منه مراتب الأقدار
ورأيت كيف تفى الشعوب رجالها ... حق الولاء وواجب الإكبار
تسعون ألفاً حول نعشك خشع ... يمشون تحت لوائك السيّار
خطوا بأدمعهم على وجه الثرى ... للحزن أسطاراً على أسطار
آناً يوالون الضجيج كأنهم ... ركب الحجيج بكعبة الزوار
وتخالهم آناً لفرط خشوعهم ... عند المصلّى ينصتون لقارى

---

(١) الديوان ٤٦٧ .

غلب الخشوع عليهم فدموعهم ... تجرى بلا كلح ولا استشار
قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم ... ما بين سيل دافق وشرار
أسعى فيأخذنى اللهيب فأنثنى ... فيصدنى متدفق التيار
لو لم ألذ بالنعش أو بظلاله ... لقضيت بين مراجل وبحار
كم ذات خدر يوم طاف بك الردى ... هتكت عليك حرائر الأستار
سفرت تودع أمة محمولة ... فى النعش لا خبراً من الأخبار
أمنت عيون الناظرين فمزقت ... وجه الخمار فلم تلذ بخمار
قد قام ما بين العيون وبينها ... ستر من الأحزان والأكدار

أرأيت كيف يصور حافظ حالة الشعب بعد وفاة زعيمه ؟! وكيف كانت حالة تسعين ألفاً التفوا حول نعشه يشيعونه وعيونهم ملأى بدموع حارة وقلوبهم مفعمة بالحزن واللوعة ؟! . وعبرت الأمة كلها عن وفائها للزعيم وتسابقت فيه النعاة من كل مكان وبمختلف الوسائل . فكان منظراً مهيبا . حتى ليراه الشاعر يوم الحشر اجتمع الناس فيه من كل لون فى موقف واحد وبدا عليهم الخشوع والذلة والمسكنة يمشون تحت لوائه فى خضوع ويخطون بأدمعهم على وجه الثرى أسطاراً للحزن . وتراهم آناً يرتفع ضجيجهم ونحيبهم وآناً تراهم خاشعين كأنهم يستمعون لآى الذكر الحكيم ودموعهم تجرى على خدودهم . أما الشاعر فقد عاش بين زفيرهم المحرق ودموعهم السائلة كالبحر . يسعى فيلسعه لهيب زفيرهم ويتراجع فيدفعه تيار الدموع المتدفق فلم يجد حيلة ينجو بها من هذا الألم إلا أن يلوذ بالنعش ويستظل بظله .

هذا عن رجال الشعب وعما حدث للشاعر نفسه وقت تشييع جثمان الفقيد أما ما حدث للنساء ذوات الخدور فقد هتكن أستارهن ومزقن خمرهن . وسفرت كل واحدة منهن وهى تودع زعيم الأمة بل وهى تودع الأمة كلها فى شخص الزعيم . فقد أمنت عيون الناظرين من الرجال لانشغال كل منهم بهول الموقف وعظم الكارثة .
وبهذا استطاع حافظ أن يصور لنا هذا الموقف الرهيب الذى صاحب تشييع جنازة الزعيم وجسّم لنا تلك الصورة المفزعة لحزن الأمة ولوعتها بعد أن أصيبت بفقد

زعيمها وقائدها .

وقد وفق حافظ فى اختيار الصور المعبرة عن هول الموقف ورهبته واختار لهذه الصور الألفاظ المعبرة والجمل الملائمة لهذا الموقف . انظر إلى قوله :

شاهدت يوم الحشر يوم وفاته   وعلمت منه مراتب الأقدار

فقد جعل يوم وفاة الزعيم بما فيه من رهبة وخشوع وانشغال كل فردٍ فيه بنفسه بيوم الحشر وما فيه من هول ورهبة .

ثم انظر إلى دقته فى التعبير عما أصاب المشيعين لجثمان الفقيد من حزن وألم :

خطوا بأدمعهم على وجه الثرى   للحزن أسطاراً على أسطار

آناً يوالون الضجيج كأنهم   ركب الحجيج بكعبة الزوار

وتخالهم آناً لفرط خشوعهم   عند المصلّى ينصتون لقارى

ثم اقرأ ما صور به حالته هو وخشوعه وما عاشه من وقت عصيب بين زفير المشيعين ودموعهم . ثم ما صور به حالة الفتيات ذوات الخدور وهن يشاركن فى تشييع الفقيد وقد مزقت كل منهن خمارها وبدت سافرة لأمنها من عيون الناظرين فقد علمت كل منهن أن كل واحدٍ من المشيعين مشغول بهول الموقف ورهبته عن أى شيءٍ آخر .

من كل هذا ندرك مدى روعة تصوير حافظ لحزن الشعب وأساه على فقد هذا الزعيم الخالد . وذلك راجع إلى عمق إحساس حافظ بفداحة المصيبة وشدة الألم الناتج عنها .

- ومن رثاء حافظ الذى تحدث فيه عن حزن الشعب على فقد أحد رجاله السياسيين قوله فى رثاء سعيد زغلول ابن أخت سعد زغلول : (١)

يا آل زغلول نوى   من روضكم غصن رطيب

فقدت به مصر فتى   أخلاقه مسك وطيب

يا آل زغلول وعو   دُكُمْ على الجلّى صليب

إنـى لأخجـل أن أعـزيكـم وكـلكـمُ أريب

---

(١) الديوان ٥٢٨ .

شاكي سلاح الصبر ممتحن لدنياه لبيب

خطب الكنانة في فقيدكم لخطبكمْ يشيب

لم يبق منا واحد إلا له منه نصيب

فقد فقدت مصر كلها بفقد المرثي فتى كملت أخلاقه وطابت سيرته . ولذا ففقد هذا المرثي كارثة كبرى وخطب عظيم تشيب من هوله رأس أبنائها . فكل واحد منهم قد أصابه من هول الكارثة وعظم الخطب نصيب . فالمصيبة في فقده مصيبة عامة وكارثة ألمت بمصر وبكل من فيها .

وجاءت أبيات حافظ في وصف هذه الكارثة أبياتاً سطحية خالية مما يثير في نفس قارئها الرهبة والهول أو الحزن واللوعة . وشتان بينها وبين الأبيات السابقة في وصف حزن الشعب وجزعه لفقد زعيمه مصطفى كامل .

ـ ومن حديث حافظ عن هذا المعنى كذلك في رثائه للزعماء ورجال السياسة قوله في رثاء الزعيم سعد زغلول : (١)

خرجت أمة تشيع نعشاً قد حوى أمةً وبحراً عبابا

حملوه على المدافع لما أعجز الهامَ حملُه والرقابا

فقد حزنت الأمة كلها لوفاة الزعيم فخرجت تشيع نعشاً حوى جثمانه بل حوى أمة بأكملها . وقد حملوا النعش على المدافع بعد أن علموا أن هاماتهم ورقابهم لا تقدر على حمله . فجثمان سعد أجل وأعظم من أن تحمله الهامات .

ويبدو تأثر حافظ في بيته الأول من هذين البيتين برثائه للزعيم مصطفى كامل . فقد جعل وداعه وداعاً لأمة بأكملها فقال متحدثاً عن مشاركة ذات الخدر في وداع مصطفى كامل :

سفرت تودع أمةً محمولةً في النعش لا خبراً من الأخبار

---

(١) الديوان ٣٤ه .

وهنا أيضاً جعل نعش الزعيم سعد زغلول نعشاً حوى أمة بأكملها .

- ومن تصوير حافظ لحزن الشعب ولوعته على الفقيد قوله فى رثاء أمين الرافعى بك (١) :

(أمين) فارقتنا فى حين حاجتنا	إلى فتىً لايرى للمال سلطانا
إلى أمين على أوطانه يقظٍ	ذى مرةٍ يتلقى الخطب جزلانا
أيلبس الخزّ من لانت مهزته	وأنت تخرج من دنياك عريانا ؟
ما هان خطبك والأخلاق والهة	تبكى عليك إذا خطب امرئٍ هانا

فقد فارق المرثى بلاده فى وقت كانت فيه فى أشد الحاجة إليه وإلى أمثاله من الأمناء المحافظين على أوطانهم المتصفين بالقناعة وعزة النفس . ولذا فقد كان موته خطباً جسيماً ومصيبة كبرى أصيب بها المجتمع المصرى .

وهكذا قدم لنا حافظ فى رثائه للوطنيين ورجال السياسة صوراً من وفاء الشعوب لهؤلاء القادة الذين قاموا بجهود مخلصة من أجل رفعة بلادهم والرقى بها مما جعلهم يستحقون من شعوبهم كل إجلال وتكريم .

٦

وكان حافظ فى رثائه للوطنيين ورجال السياسة يتحدث عن تأثر الوجود كله بفقد المرثى ويصور ما ألم بمظاهر الكون من حزن وأسى ، وما أصابها من كآبة وتصدع بعد رحيل هؤلاء القادة . فعم الحزن جميع الوجود وألبسه ثوباً من الحزن والكآبة .

- ففى رثائه لسعد زغلول يسأل حافظ الليل : هل شهدت المصاب ؟ وهل رأيت أثر هذه المصيبة فى النفوس ؟ . وتجعله المصيبة يدعو الليل لتبليغ المشرقين بغياب الزعيم وأن ينصبه للنيرات لترتدى عليه ثوب الحداد ، وأن يأمر الشمس فتتوارى فى نقابها

(١) الديوان ٤١٥ .

وتغيب عن السماء بعد أن غاب كوكب الأرض فتلبس الكون ثوب الحداد وتجلل الكون بالسواد وتجلس لتقبل العزاء . يقول حافظ : (١)

إيه ياليل هل شهدت المصابا ... كيف ينصب في النفوس انصبابا

بلّغ المشرقين قبل انبلاج الصبح أن الرئيس ولّى وغابا

وأنع للنيرات سعداً فـ(سعد) كان أمضى في الأرض منها شهابا

قدّ ياليل من سوادك ثوباً ... للدراري وللضحى جلبابا

انسج الحالكات منك نقاباً ... واحب شمس النهار ذاك النقابا

قل لها : غاب كوكب الأرض في الأرض فغيبي عن السماء احتجابا

والبسيني عليه ثوب حداد ... واجلسي للعزاء فالحزن طابا

ولا شك أنها أبيات معبرة عن مدى الحزن الذي خيّم على الكون - أو عن الذي يطلبه الشاعر من مظاهر الكون أن تتصور بصورته حزناً على الزعيم الراحل . وتعبر لفظة (إيه) في أول الأبيات من مدى التأوه والأنين . كما أن في طلبه من الليل بأن يقد من سواده ثوباً أسود ترتديه الدراري في السماء ليلاً وتتخذه الضحى في النهار جلباباً دليل على أن الشاعر لم يعد يرى أن في الكون شيئاً يمحق الحزن ويشيع في النفوس بهجة بعد موت المرثي فيجب أن يعم السواد والظلام الكون في جميع الأوقات .

وتظهر براعة الشاعر في تصوير صورة الحزن الذي يجب أن تعم الكون بعد موت الزعيم في الأبيات الثلاثة الأخيرة حينما يطلب من الليل أن ينسج من أوقاته الحالكة السواد نقاباً يهديه إلى شمس النهار ترتديه فتغيب به عن السماء وتزيد الكون ظلاماً والليل سواداً وتجلس هي في تلقي العزاء في المصاب . وهي صورة بارعة دقيقة نسجها خيال الشاعر الحزين واختار لها الألفاظ والجمل التي جسمت هذا الخيال وما اتشح به من حزن وألم .

---

(١) الديوان ٣٢ه .

ـ وفي رثاء سعد زغلول مرة أخرى يتحدث حافظ عما أصاب بعض مظاهر الوجود من تحول وتبدل وما امتلأت به من حزن وألم بعد فقد المرثي - فقد تبدل لون الأصيل فغيرته الدموع التي كانت تجرى دماً فكانت أشبه بالشفق الأحمر السائل أو بالصبح الأصفر المذاب - أما النيل فقد توقف وسها عن الجريان ذهولاً مما يرى من جموع تبكي ودموع تسال.فقد ظن ـ حين رأى هذه الجموع الغفيرة ـ أنه سيرى مهرجاناً عظيماً ولكنه رأى مأتماً مهولاً وحشداً عجيباً - قد تخضب ما في رؤوسهم من شعر أبيض بسواد الحداد والألم ومحت الحسناوات البيض من النساء ما في أيديهن من خضاب حزناً وحداداً على الفقيد - أما السحب فقد استهلت هي الأخرى بالبكاء والنحيب فأنزلت دمعها الغزير الذي غطى وجه الوادي بما فيه من قفر ويانع - ولم يعم الحزن أنحاء وادي النيل فقط وإنما شاركته البلاد الانجليزية حزنه وألمه فكتبوا يواسون أهل الشرق ويشيدون بمآثر فقيدهم - وكما عم الحزن النيل وأهله فقد عم الأسى والألم نهر التاميز وأهله - وهكذا حزن الوجود كله لموت الفقيد وعبرت كل معالمه عن ألمها وأساها :

حال لون الأصيل والدمع يجرى ... شفقاً سائلاً وصبحاً مذابا

وسها النيل عن سراه ذهولاً ... حين ألفى الجموع تبكي انتحابا

ظن ياسعد أن يرى مهرجاناً ... فرأى مأتماً وحشداً عجابا

لم تسق مثله فراعين مصر ... يوم كانوا لأهلها أربابا

خضب الشيب شيبهم بسواد ... ومحا البيض يوم مت الخضابا

واستهلت سحب البكاء على الوا ... دى فغطت خضراءه واليبابا

ساقت (التيمس) العزاء إلينا ... وتوخت في مدحك الإسهابا (١)

لم ينح جازع عليك كما نا ... حت ولا أطنب المحب وحابى

---

(١) التيمس : جريدة انجليزية .

واعتراف (التاميز) ياسعد مقيا س لما نال نيلنا وأصابا (١)

أرأيت كيف تبدل لون الأصيل حزناً على الفقيد وتوقف النيل عن الجريان نحولاً مما يرى من هول الموقف وحشد الجموع،واستهلت السحب بالدموع بكاءً على رحيل الزعيم ، وتضامن نهر التاميز مع نهر النيل فى الحزن والأسى ، واعترف الانجليز بما أصابهم من نحول وألم بعد علمهم بنبأ وفاة الزعيم؟!.

اقرأ معى الأبيات السابقة وسوف تعرف براعة حافظ فى إعطاء هذا المشهد حقه من المهابة والإجلال والإعظام وجعل كل مظاهر الوجود فى السماء والأرض تشارك أبناء الوادى حزنها وألمها على موت الزعيم . ولا غرو فهو يرثى زعيماً طالما دوخ الانجليز وناضل عن وطنه نضالاً عنيفاً . وكان حافظ من خاصة جلاسه وصفوة أصدقائه ومحدثيه . ومن أجل هذا جاءت قصيدته فى رثاء سعد زغلول طويلة النفس قوية الألفاظ معبرة أصدق تعبير عن عمق الإحساس وصدق التصوير .

ـ وفى رثاء حافظ لعثمان السيد أباظه يعبر عما تمنته الريح ـ لحزنها على المرثى ـ لو أنها كانت مسخرة لحمل نعش الفقيد حتى تعبر عن مدى الحزن الذى أصابها . وعما تمنته الشمس ـ لألمها على الفقيد ـ لو تستطيع الهبوط من الأفق لتسكن مع الفقيد قبره حتى تستريح من عناء الحزن واللوعة بعد وفاة المرثى . وعما تمناه الضحى لو أنهم قدوا منه ثوباً لإدراج الفقيد فيه حتى يشارك أهل السماء والأرض لوعتهم وحزنهم فى مصابهم الأليم . وهكذا بكت مظاهر الكون وملأها الأسى والحزن وجللها السواد والظلام ألماً على الفقيد وأسفاً على شهيد العلا والمكرمات

---

(١) التامير : نهر فى جنوب انجلترا .

وهو الذى بكت لموته مآقي الخرد الخود . يقول حافظ : (١)

وودت الريح لو كانت مسخرةً لحمل نعشك عن هام الأماجيد
والشمس لو أنها من أفقها هبطت وآثرت معك سكنى القفر والبيد
وقد تمنى الضحى لو أنهم درجوا هذا الفقيد بثوب منه مقدود
ياراحلاً أكبرتك الحادثات وما أكبرتها عند تليين وتشديد
أبكيت حتى العلا والمكرمات وما جفت عليك مآقي الخرد الخود
وبات آلك والأصحاب كلّهُمْ عليك ما بين محزون ومعمود

ويعجبني تصوير الشاعر لحزن الشمس على الفقيد في البيت الثاني بتمنيها الهبوط من أفقها ـ وهو المكان الشريف ـ لتسكن مع الفقيد في المكان المقفر الخالي من الأنيس . فهو يعبر عن مدى الضيق والملل من المهمة التي تؤديها الشمس بعد أن تركها الفقيد وحيدة في هذا الكون الفسيح .
كما أجاد حافظ التعبير عن المنزلة العالية التي كان يحتلها المرثي في حياته فقد مات فأبكى العلا والمكرمات عليه وأسال دمع الخرد الخود اللاتي لا يبكين إلا لفقد عزيز أو لمصاب عظيم .

ـ وفي رثاء مصطفى كامل يطلب حافظ من النيل أن يجرى دماً أحمر حزناً على الزعيم وإلا لم يكن جارياً.كما يطلب من مصر وأهلها أن تظل على الوفاء لعهده حافظة له عظيم جهاده وقوة بلائه في الدفاع عنها وعن كرامتها : (٢)

فيانيل إن لم تجر بعد وفاته دماً أحمراً لا كنت يانيل جاريا
ويا مصر إن لم تحفظي ذكر عهده إلى الحشر لازال انحلالك باقيا
ويا أهل مصر إن جهلتم مصابكم ثقوا أن نجم السعد قد غار هاويا

كما يذكر حافظ أن علم مصر الذى طالما دافع عنه الزعيم المرثي وجاهد طويلاً من

---

(١) الديوان ٤٤٦ .
(٢) الديوان ٤٦٥ .

أجل عودته مرفرفاً فى سماء مصر - والذى أدرج فيه جثمان الفقيد - قد حزن على المرثى فاتخذ من نفسه ثوباً لهذا الجثمان الطاهر . أما الهلال - تلك الشعار الإسلامى الذى كثيراً ما دافع عنه الفقيد - فقد جزع عليه يوم تركه وأصبح فى حالة اضطراب لا يقر له قرار بعد أن فقد من يناضل عنه ويدافع عن وجوده : (١)

أدرجت فى العَلَم الذى أصفيته	منك الوداد فكان خير شعار
علمان من فوق الرءوس كلاهما	فى طيه سر من الأســـــرار
ناداهما داعى الفراق فأمسيا	يتعانقان على شفير هارى
تالله ما جزع المحبُّ ولا بكى	لنوى مروعةٍ وبُعد مزار
جزع الهلال عليك يوم تركته	ما بين حرّ أسىً وحرّ أوار
متلفتاً متحيراً متخيــراً	رجلاً يناضل عنه يوم فخار

وهكذا أبان حافظ أن الحزن والأسى والألم على موت أحد الزعماء ورجال السياسة لم يكن مقصوراً على أبناء وطنهم من الإنسان فحسب وإنما عم الحزن والبكاء معالم الكون ومظاهر الوجود فى الأرض والسماء وشارك كل ما احتواه الوطن من مظاهر طبيعية فى إبداء الحزن والأسى على الزعيم والقائد المرثى . وفى هذا دلالة على المكانة الكبرى التى كان يمثلها المرثى فى النفوس والأوطان وما كان يمثله بالنسبة لوطنه .

٧

وكان حافظ فى رثائه لبعض الوطنيين ورجال السياسة يوازن بين الكارثة التى حلت على الأمة بموت المرثى وبين الكوارث الجسام التى تصاب بها الأمم الأخرى فى أرضها أو فى اقتصادها مثلاً . ويجعل موت المرثى أدهى وأمر من أى كارثة تصاب بها أمة من الأمم .

---

(١) الديوان ٤٦٨ .

ـ ففي رثائه لسعد زغلول يجعل نكبة مصر بوفاة زعيمها أشد هولاً وأعظم مصيبة من الزلزال الذي وهي أهل فلسطين فيقول :(١)

قل لمن بات في فلسطين يبكي	إن زلزالنا أجل مصابا (٢)
قد دهيتم في دوركم ودهينا	في نفوس أبين إلا احتسابا
ففقدتم على الحوادث جفناً	وفقدنا المهند القرضابا
سلّه ربه زماناً فأبلى	ثم ناداه ربه فأجابا
قدر شاء أن يزلزل مصراً	فتعالى فزلزل الألبابا
طاح بالرأس من رجالات مصر	وتخطى التحوت والأوشابا

فقد أصيبت فلسطين في دورها وعمرانها . أما مصر فقد أصيبت في أعز رجالها وأبرز زعمائها . وديار أهل فلسطين وما تهدم من عمرانها يسهل إعادته . فكل ما فقد من فلسطين بمثابة جفن السيف أما مصر التي أصيبت في أعز النفوس لديها فقد فقدت بفقده المهند البتار الذي طالما سلّه ربه على أعدائها فأبلى بلاءً حسناً . وفرق كبير بين فقد السيف وفقد جفنه وجرابه . ومن هنا فمصاب مصر أشد هولاً وأعظم فقداً . فقد زلزل كيان مصر بل تعدى هذا الحد فزلزل العقول والألباب فقد طاح بالرأس من رجالات مصر ولم يعد هناك من قائد يقود أهلها لدرء الخطر عنها .

وهكذا أسفرت المقارنة عن هول ما أصيبت به مصر حينما فقدت زعيمها الجسور ورأس رجالاتها الفذ والذي طالما كان سيفاً مسلولاً على رقاب الأعداء . وإذا جعلنا الأبيات في رثاء سعد زغلول وحده يكون الغرض من تعبير حافظ بالنفوس في البيت الأول أن مصر قد فقدت بفقد سعد نفوساً كثيرة لا نفساً واحدة ويكون ذلك دليلاً على المكانة الكبيرة التي كان يحتلها الزعيم المرثي في حركة المقاومة الوطنية .

---

(١) الديوان ٣٣ه .

(٢) وقع في فلسطين زلزال مروع عام ١٩٢٧م دمر كثيراً من الدور وأهلك عدداً كثيراً من الناس . ويوازن الشاعر هنا بين هذا الزلزال وبين الزلزال الذي حدث بمصر بموت زعيمها .

وتصوير حافظ لما فقده أهل فلسطين فى زلزالها بجفن السيف وما فقدته مصر بالسيف الصقيل البتار أبرز الفرق بين الشيئين المفقودَيْن فى كل من البلدين غير أنه كان ينبغى أن يختار مشبها به أقوى تعبيراً عن القيمة الكبرى للشىء المفقود .

وفى البيت قبل الأخير تصوير لهول المصيبة التى أصيبت بها مصر بفقد زعيمها فلم تقتصر على مصر وحدها بل تعدتها إلى أبناء مصر فزلزلت ألبابهم وأنهبت عقولهم لأنها طاحت بالرأس من رجال مصر وتخطت أوشاب الناس وسفلهم .
وهكذا اختار حافظ فى أبياته عدداً من الصور أثبت من خلالها عظم المصيبة وهول الكارثة التى دهيت بها مصر وأنها مصيبة أشد هولاً وأبلغ أثراً مما أصيبت فلسطين .

٨

وكان حافظ فى رثائه للزعماء وبعض رجال السياسة عادة ما يصور معاناة الشعب بعد موت الزعيم المرثى وما حل به من بؤس وشقاء أو ما ينتظره من آلام بعد موت من كان يحمى ذماره ويدافع عن حقوقه ويرسم للشعب طرق الإصلاح والتقدم .
- من ذلك قوله فى القصيدة التى أنشدها فى الذكرى الأولى لوفاة الزعيم مصطفى كامل حيث يصور ما حل بالشعب من ظلم وعدوان على يد الانجليز بعد غياب قائده فيقول : (١)

قد مرّ عام بنا والأمر يحز بنا	آناً وآونةً تنتابنا النقم
فالناس فى شدةٍ والدهر فى كلبٍ	والعيش قد حار فيه الحاذق الفهم
وللسياسة فينا كل آونةٍ	لون جديد وعهد ليس يحترم
بينا نرى جمرها تخشى ملامسه	إذا به عند لمس المصطلى فحم
تصغى لأصواتنا طوراً لتخدعنا	وتارةً يزدهيها الكبر والصمم
فمن ملاينةٍ أستارها خدع	إلى مصالبة أستارها وهمُ

---

(١) الديوان ٤٧٦ .

فطول عام مضى ـ ومنذ رحيل الزعيم ـ أصبح الشعب فى حالة يرثى لها . فهم ـ أحياناً ـ يشتد الأمر عليهم ويضيق بهم وأخرى تحل بهم النقم والدواهى . حتى أصبح الناس فى شدة دائمة وانقلب عليهم الدهر بعذابه وعسره . وامتلأت أيامهم بالتقلبات السياسية بصعابها وعهود أهلها التى لا تحترم . فحيناً تكون ناراً حامية وحيناً تكون كالرماد أو كالفحمة الباردة التى لا تنفع أكثر مما تضر والشعب ما بين ثورة وسكون والأمانى والوعود كثيرة متكررة ولكنها تئول كلها إلى خداع وأباطيل وأوهام . وهذه حالة شعب فقد قائده وذهب عنه هاديه ومرشده إلى طريق التحرر والكفاح .

وفى البيت الأول من هذه الأبيات أجمل حافظ حالة الناس وما أصبحت عليه حياتهم بعد موت الزعيم المرثى ، وفى الأبيات التالية تفصيل وشرح لهذه الحالة . وقد جمّل الشاعر أبياته عن طريق حسن التقسيم الذى تكرر فى كل الأبيات تقريباً . وما أحسن حديث الشاعر عن الحياة التى يعيشها الناس فى ظل هذه الحالة السياسية المتردية واختصارها من كل أطرافها فى قوله :

فالناس فى شدة ـ والدهر فى كَلَبٍ ـ والعيش قد حار فيه الحاذق الفهم

واختياره (الحاذق الفهم) للدلالة على مدى العسر والشدة التى يعيش فيها الناس . فإذا كان الحاذق الفهم قد حار فى عيشه فغيره من عوام الناس أشد حيرة وضيقاً بهذا العيش .

ووفق الشاعر فى بيان حالة الانجليز وتلاعبهم بعواطف الناس وأحاسيسهم فى البيتين الأخيرين من الأبيات السابقة . فهم يصغون لصوت أبناء الشعب حيناً لخداعهم وامتصاص انفعالهم . وحيناً آخر يتعالون عليهم ويرديهم الكبر والصمم وعدم المبالاة . ويلجئون حيناً ثالثاً إلى اللين والخداع . وحيناً رابعاً إلى المماطلة والأوهام . وهذه سياسة من لا يريد إجابة ولا ينوى رحيلاً .

ـ وقد تحدث حافظ عن هذا المعنى أيضاً وتحدث عن حالة الشعب بعد رحيل مصطفى كامل مرة أخرى فى رثائه له فى قصيدته التى أنشدها فى حفل الأربعين لوفاة

الزعيم وبين أن الزعيم قد تركهم وهم صرعى للحوادث وضيق العيش فقال : (١)

غادرتنا والحادثات بمرصدٍ	والعيش عيش مذلةٍ وإسار
ما كان أحوجنا إليك إذا عدا	عادٍ وصاح الصائحون : بدار
أين الخطيب وأين خلاب النهى ؟	طال انتظار السمع والأبصار
بالله مالك لا تجيب منادياً	ماذا أصابك يا أبا المغوار ؟
قم وامح ما خطت يمين كرومر	جهلاً بدين الواحد القهار

أرأيت كيف خلت الدنيا من الزعيم وقد امتلأت بالحادثات وأصبح العيش عيش مذلة وإسار . وخلت المنابر من خطيبها والمنتديات من رائدها ؟ واستطال العداة وعبث أعداء الدين بمقدساته وحرماته ؟ ولذلك عظم الخطب وجلت المصيبة . واحتاج المجتمع إلى من هو مثل الفقيد لينقذه من اعتداء المعادى وجهل الجهال . ولكن كيف وقد توارى القائد المغوار وأصبح لا يجيب داعياً ؟ .
وقد دلل حافظ على هول هذا الخطب وعظم المصيبة بهذه الاستفهامات المتكررة التي توحى باستحضار صور الألم والشقاء الذى حل بالشعب بعد موت المرثى

- وإذا كانت هذه حالة الشعب المصرى من البؤس والشقاء بعد موت مصطفى كامل فلقد جاء من يحمل بعده راية الجهاد ضد الاستعمار مثل محمد فريد الزعيم الذى طالما أقلق الاستعمار بكفاحه ووطنيته فاستعاض به الشعب قليلاً عما فقده بموت مصطفى كامل . ولكن سرعان ما استشهد محمد فريد هو الآخر فخلا الجو للاستعمار لمعاودة سياسته العدوانية ضد الشعب وطوائفه . وعن فقد مصر لآمالها

---

(١) الديوان ٤٦٥ .

وحريتها بموت محمد فريد يقول حافظ إبراهيم فى رثائه : (١)

فقدت مصر فريداً وهى فى موطن يعوزها فيه المدد
فقدت مصر فريداً وهى فى لهوة الميدان والموت رصد
فقدت منه خبيراً حوّلاً وهى والأيام فى أخذ ورد
لم يكد يمتعها الدهر به فى ربوع النيل حيًا لم يكد
ليته عاش قليلاً فترى شعب مصر عينه كيف اتحد
ويح مصر بل فويحاً للثرى إنه أبلغ حزناً وأشد
كم تمنى وتمنى أهله لو يوارى فيه نياك الجسد

فلقد غادر الزعيم مصر وهى فى أشد ما تكون حاجة إليه وإلى وجوده.فقد كانت حينذاك فى ميدان الجهاد وهى فى عمق لهوة الرحى تحتاج إلى من ينقذها من عثرتها ، ولقد رحل الزعيم قبل أن يرى ثمرة جهاده فى توحيد الأمة ولو أمهله الموت قليلاً لرأت عينه كيف أثمرت هذه الجهود واتحد عنصرا الأمة من مسلمين وأقباط .

- وتحدث حافظ عن هذا المعنى مرة أخرى فى رثائه لعبد الحليم العلايلى بك حيث تحدث عن رحيله فى وقت كان الشعب أحوج ما يكون إليه . ولقد رحل رغماً عن النيل وأهله . ولذا فقد بكى عليه منبته وأسال عليه بحراً من الدموع وقامت النادبات بكل دار فيه يبكين وينتحبن حزناً على الفقيد . وتمنى هذا المنبت أن لو حواه ميتاً كما شرف به حياً . يقول حافظ فى ذلك : (٢)

مضيتَ ونحن أحوج ما نكون إليك ومثل خطبك لا يهون
برغم النيل أن عدت العوادى عليك وأنت خادمه الأمين
برغم الثغر أن غيبت عنه وأن نزلت بساحتك المنون

---

(١) الديوان ٥١٣ .
(٢) الديوان ٥٥٧ .

أجل مناه لو يحويك ميتاً ... ليجبر كسره ذاك الدفين
أسال من الدموع عليك بحراً ... تكاد بلجه تجرى السفين
وقام النادبات بكل دار ... وكبّر فى مآتمه الأنين

ولقد أبان الشاعر عن حزن مصر كلها حينما نكر أن المنون قد عدت على الفقيد رغماً عن نيل مصر الذى طالما عمل المرثى على خدمته وخدمة أبنائه بأمانة وإخلاص ورغماً عن بلدته التى غيب عنها وطالما شرفت به مجاهداً مخلصاً .

ولقد وفق حافظ فى بيان مدى حزن الثغر وأهله على الفقيد مبالغاً فى تلك مبالغة طريفة حيث جعل ما أذرفته عيون أهل هذا الثغر من دموع بحراً عباباً تكاد أمواجه تكون صالحة لجريان السفن عليها لشدتها وسرعة تدفقها . وهذا يبين مدى حزن أبناء هذا الثغر على فقيدهم وتأثرهم برحيله .

وهكذا أثبت لنا حافظ فى رثائه للزعماء الوطنيين ورجال السياسة أن هؤلاء الرجال قد أعطوا مصر من الوفاء والتضحية ما أوجبته عليهم وطنيتهم وقيادتهم لأبنائها وكان رحيلهم عنها له أثره على شعبها وأمنها وعلى سياسة الانجليز فيها .

٩

وقد يتطرق حافظ من حديثه عن أعمال الزعيم المرثى وجهاده ضد الاستعمار إلى مهاجمة المستعمرين وتوعدهم بالنيل منهم وطردهم من البلاد بعد أن عرف الشعب طريقه إلى الحرية والخلاص منه بفضل جهود زعمائه ونضالهم من أجل إيقاظ أبناء الشعب وبث الروح الوطنية فى نفوسهم .

- ومن ذلك قول حافظ في إحدى قصائده في رثاء الزعيم مصطفى كامل : (١)

قيل اسكتوا : فسكتنا ثم أنطقنا عسف الجفاةَ وأعلى صوتنا الألمْ
قد اتهمنا ولما نطْلب جَلَلاً إن الضعيف على الحالين متهمْ
قالوا : لقد ظلموا بالحق أنفسهم والله يعلم أن الظالمين هُمُ
إذا سكتنا تناجوا : تلك عادتهم وإن نطقنا تنادوا : فتنة عممُ
ماذا يريدون ؟! لا قرت عيونهم إن الكنانة لا يُطوَى لها علَمْ
كم أمةٍ رغبت فيها فما رسخت لها - على حولها - في أرضها قدمُ
ما كان ربك رب البيت تاركها وهى التى بحبال منه تعتصمُ

فقد سكت الشعب طويلاً ثم أنطقه كثرة الظلم والقسوة وبعد أن اتهم بسوء المقصد والهدف لمجرد أنه يطالب بحريته وبحقه في الحياة الكريمة . ولكنهم اعتبروا أن المطالبة بهذا الحق ظلم من أبناء الشعب لأنفسهم ولو تبينوا الأمر لعلموا أنهم هم الظالمون فقد سلبوا الشعوب حريتهم واغتصبوا حقوقهم .

وينتقل حافظ من هذا التمهيد إلى تهديد الاستعمار بأنهم لن ينالوا ما يهدفون إليه من وراء استعمارهم للبلاد ولن يظفروا بما يبتغون.فأبناء الكنانة لن يسكتوا على ظلم ولن يقبلوا أن ينكس علم بلادهم في يوم من الأيام . فكم من أمةٍ قبلهم حاولت إيذاء مصر أو نهب ثرواتها فلم تفلح ولم يقر لها قرار على أرض مصر ابتداءً بالهكسوس ومروراً بالروم والصليبيين والتتار والعثمانيين . ولن يتركها الله لظالم أبداً وهى تعتصم بحبله المتين .

وفى هذه الأبيات تتجلى براعة حافظ في الدفاع عن مصر وبيان حقوقها في الحياة الحرة الكريمة ثم بيان خسران المستعمرين الجفاة الذين ظنوا أن جفوتهم وظلمهم سوف يحقق لهم ما يهدفون إليه . وما حدث للأمم السابقة التى حاولت

---

(١) الديوان ٤٧٥ .

احتلال مصر خير شاهد على ذلك .

وفي البيت الأول من الأبيات المذكورة تلخيص جميل لما كان عليه الاستعمار في معاملة المصريين . فطالما أسكتهم بوعوده وأمانيه فلما طال سكوتهم وكثر ظلم الاستعمار لهم نطقوا وعلت أصواتهم وهبوا يدافعون عن بلادهم وحريتهم .

وفي الاستفهام الإنكاري التوبيخي ثم ما وليه من دعاء في البيت الخامس تمهيد طريف للقضية التي أكدها الشاعر في الشطر الثاني من البيت نفسه وهي أن علم مصر لن ينكس أبداً ولن يقدر هؤلاء الانجليز أن يطووه في يوم من الأيام .

وفي البيت السادس استشهاد بيّن على هذه القضية أكدها وقواها . فكم من أمة حاولت أن تفعل في مصر ما أراد الانجليز أن يفعلوه - وكانت أكثر منهم وأشد قوة - فخابت ولم يتحقق مرادها .

- ويذكر حافظ أن روح الثورة لن تموت بموت هؤلاء القادة والزعماء بعد أن قام كل منهم بدوره في بث روح هذه الثورة في نفوس أبناء الشعب ودلهم على طريق الخلاص من هؤلاء الغاصبين . نرى ذلك واضحاً في رثائه لسعد زغلول حين يقول : (١)

كيف ننسى مواقفاً لك فينا ... كنت فيها المهيب لا الهيابا

ليت سعداً أقام حتى يرانا ... كيف نعلي على الأساس القبابا

قد كشفنا بهديه كل خافٍ ... وحسبنا لكل شيءٍ حسابا

حين قال انتهيت : قلنا بدأنا ... نحمل العبء وحدنا والصعابا (٢)

فاحجبوا الشمس واحبسوا الروْح عنا ... وامنعونا طعامنا والشرابا

واستشفوا يقيننا رغم ما نلقى ... فهل تلمحون فيه ارتيابا

قد ملكتم فم السبيل علينا ... وفتحتم لكل شعواء بابا

---

(١) الديوان ٣٥ه .

(٢) حين حضرت سعد الوفاة سئل : كيف أنت ؟ قال : انتهيت . وإلى هذا يشير حافظ إبراهيم .

وأتيتم بالحائمات ترامى تحمل الموت جاثماً والخرابا
وملأتم جوانب النيل وعداً ووعيداً ورحمة وعذابا
هل ظفرتم منا بقلب أبيّ أو رأيتم منا إليكم مثابا
لا تقولوا خلا العرين ففيه ألف ليث إذا العرين أهابا
فاجمعوا كيدكم وروعوا حماها إن عند العرين أسداً غضابا

لقد وضع سعد زغلول لأبناء شعبه الأساس الذى منه ينطلقون لتحرير بلادهم ثم رحل قبل أن يرى كيف سار الشعب على هذا الأساس . فقد كشفوا بهديه كل خاف وحسبوا لكل شيء حسابه . ولقد تحملوا وحدهم عبء الدفاع ومواجهة الصعاب بعد أن خلا الميدان من زعيم الشعب .

ثم يتوجه حافظ إلى الانجليز مهدداً : إننا على الرغم مما تصبونه علينا من ألوان العذاب ـ حتى لو حجبتم عنا الشمس وحبستم الريح ومنعتمونا الطعام والشراب ـ فنحن ثابتون على يقيننا ومبدئنا . ولقد جربتم معنا كل ألوان الظلم : فمنعتم الناس من السير فى الطرقات وقمتم بالإغارة على ممتلكاتهم وأتيتم بالطائرات المحملة بأسباب الموت وملأتم جوانب الوادى بالوعد تارة وبالوعيد أخرى وبالرحمة آناً وبالعذاب آناً آخر . فهل وجدتم منا قلباً أبياً يميل إليكم ؟ وهل رأيتم منا من يثوب إليكم ويخضع لكم ويخاف من عذابكم ؟ كلا . ولن تظفروا منا أبداً بمثل هذا .

ولا تظنون أن الميدان قد خلا من زعيم بعد سعد ففيه ألف سعد حينما يدعو الداعى إلى الجهاد وخير لكم أن تتركوا لمصر أمنها ولأبناء مصر أرضهم وحقوقهم . وهكذا أكد حافظ للانجليز أن مصر لن تهدأ بعد ضياع حريتها وأن الثورة فيها لن تتوقف بموت زعيمها ولسوف تكون أشد ضراوة واشتعالاً حتى لو ضاعف الانجليز من عذابهم وزادوا من ظلمهم للشعب واغتصابهم لحقوقه . فلقد عرف الشعب طريقه بفضل ما غرسه فيه أبناؤه المخلصون من روح وطنية عارمة ونفس أبية متوثبة .

وقد ملأ حافظ أبياته بما يقنع الانجليز بصدق كلامه عن طريق تعداد ألوان العذاب التى لم تُجْدِ ولم تَثْن احداً من أفراد الشعب عن عزمه وصلابته . بل ومطالبتهم بمضاعفة العذاب والإتيان بوسائل جديدة واختبارها وسوف يتيقنون من ثبات الشعب على مبادئه وتمسكه بحقوقه .

- وقد أكد حافظ هذه الحقيقة مرة أخرى فى رثائه لمحمد فريد حينما حمّله أمانة تبليغ رفات الزعيم مصطفى كامل أن جهوده فى إيقاظ الروح الوطنية بين أبناء بلده قد أينعت وآتت ثمارها ، وأن الشعب قد حصد ثمرة ما بذره مصطفى كامل فى التربة الوطنية لبلاده . يقول حافظ مخاطباً الزعيم محمد فريد فى رثائه له : (١)

قل لصب النيل إن لاقيته ... فى جوار الدائم الفرد الصمد
إن مصراً لا تنى عن قصدها ... رغم ما تلقى وإن طال الأمد
جئت عنها أحمل البشرى إلى ... أول البانين فى هذا البلد
فاسترح وأهنأ ونم فى غبطةٍ ... قد بذرت الحبَّ والشعب حصد

ومكذا بيّن حافظ أن جهود الزعماء المخلصين للوطن فى بث الروح الوطنية وإشعال روح الثورة لتحرير الوطن بين ابناء الشعب لم تضع هباء وإنما وجدت طريقها بينهم وظلت روحه الوطنية ماثلة أمامهم يستمدون منها الحماس والقوة فى مهاجمة الاستعمار ودحض مزاعمه .

١٠

ومن منطلق تصويره للوعة أفراد الشعب على أبناء مصر المجاهدين من الوطنيين ورجال السياسة وإبداعه فى التعبير عن استمرار روح الثورة الوطنية بعد رحيلهم يكثر حافظ من دعوة أبناء الشعب إلى السعى والعمل وبذل الجهد المتواصل

---

(١) الديوان ١٢ه .

من أجل رفعة مصر والنهوض بها وتخليصها من رجس المستعمر وظلمه . وحث المصريين على الوفاء للزعيم الراحل بالمحافظة على مبادئه والتمسك بسياسته والسير على طريق الكفاح الذي ابتدأه .

ـ ومن ذلك قوله في قصيدته التي أنشدها في الذكرى الأولى لوفاة مصطفى كامل(١)

غضوا العيون وحيوه تحيته	من القلب إذا لم تسعد الكلم
وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه	فنحن في موقف يحلو به القسم
يا أيها النشء سيروا في طريقته	وثابروا رضي الأعداء أو نقموا
فكلكم مصطفى لو سار سيرته	وكلكم كامل لو جازه السأم
قد كان لا وانياً يوماً ولا وكلاً	يستقبل الخطب بساماً ويقتحم

وهذه الأبيات ـ كما هو واضح ـ دعوة صريحة من الشاعر إلى شباب مصر ونشئها للسير على طريق المرثي في الكفاح والمثابرة والجد من أجل تحرير البلاد ورقيها . ولا يقولنّ:وأين نحن من مصطفى كامل ؟ فكلهم مصطفى لو ساروا سيرته وكلهم مصطفى لو جاوزهم السأم واتبعوا طريق المجد والكفاح . فهكذا كان مصطفى كامل لا يني ولا يتقاعس ولا يسأم من مواجهة الصعاب بل كان يستقبل الخطب بساماً ويقتحم الأهوال وكله أمل في التغلب عليها .

وقد وفق حافظ في اختيار الوقت المناسب وطلب فيه من النشء ومن شباب مصر أن يقسموا على الذود عن مبادىء الزعيم المرثي والسير على طريقه . فقد طلب منهم ذلك وهم على قبر الفقيد وفي وقت التطلع إلى قبره . وهذا وقت تمتلىء فيه القلوب بالحسرة والألم ويكون فيه الإنسان مستعداً لفعل أي شيء يرضي روح الفقيد ويدخل التسلي والتصبر على النفوس .

كما قطع الشاعر عنهم طريق الأعذار أو إبداء الحجج في إظهار روح التقاعس بهذا البيت الطريف :

---

(١) الديوان ٤٧٧ .

فكلكم مصطفى لو سار سيرته وكلكم كامل لو حازه السأم

فعليهم فقط أن يتسلحوا بما كان الفقيد يتسلح به لا ينى ولا يكل أمره لغيره ولا يعتريه اليأس والسأم بل يستقبل الخطوب باسماً ويقتحم الأهوال وهو واثق بالفوز والتغلب عليها . فإذا فعل كل منهم ذلك فسوف يكون كل منهم مصطفى جديداً يقف فى وجه الانجليز ومحققاً لبلاده حريتها وكرامتها .

- وكان حافظ يعاهد الفقيد أحياناً على أنه سيظل هو وأبناء عصره أوفياء لمبادئ الزعيم المرثى متمسكين بعهوده وبالسير على طريقه وأن شخصه سيظل ماثلاً أمامهم وصوته سيظل يناديهم يناشدهم الاتحاد ومواصلة درب الكفاح والجهاد . اقرأ معى قوله فى رثاء مصطفى كامل أيضاً : (١)

شهيدَ العلا لازال صوتك بيننا يرن كما قد كان بالأمس داويا

يهيب بنا : هذا بناء أقمته فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا

يصيح بنا : لا تشعروا الناس أننى قضيت وأن الحىّ قد بات خاليا

يناشدنا بالله ألا تفرقوا وكونوا رجالاً لا تسروا الأعاديا

فروحى من هذا المقام مطلة تشارفكم عنى وإن كنت باليا

فلا تحزنوها بالخلاف فإننى أخاف عليكم فى الخلاف الدواهيا

أجلْ أيها الداعى إلى الخير إننا على العهد ما دمنا فنم أنت هانيا

بناؤك محفوظ وطيفك ماثل وصوتك مسموع وإن كنت نائيا

وفى هذه الأبيات حوار طريف حول العهد المبرم بين الزعيم المرثى وأبناء وطنه يعترفون له فيه بأنهم ما زالوا يسمعون صوته يرن فى آذانهم تماماً كما كانوا بالأمس يسمعونه . يطلب منهم أن يتعهدوا ما أقامه من بناء فيزيدوه ارتفاعاً وتشييداً وألا يتركوه نهباً للهدم والبلى ، وأن يتبعوا الطريق الذى رسمه لهم المرثى وألا يهملوا تعاليمه ومبادئه فيظن العدو أن الحىّ قد خلا من ذوى الهمة والكرامة . كما

---

(١) الديوان ٤٦٤ .

يطلب منهم أن يكونوا قوة واحدة في وجه عدوهم ليستطيعوا قهره وتخليص بلادهم من شره وألا يتفرقوا فيسروا عدوهم بذلك . ويذكر لهم أنه وإن غاب عنهم بشخصه فروحه بينهم تطل عليهم من هذا المقام وما يسرها أن ترى بينهم الاتحاد والقوة أما ما يحزنها فهو تفرقهم وتمزيق وحدتهم.ففي اختلافهم ما يذهب بريحهم ويقوي من عزيمة عدوهم .

وقد استمع الشاعر ومن معه إلى هذا الصوت وما يردده فيهم وعاهدوه على العمل بما يطلب منهم فبناؤه سيظل محفوظاً بينهم وطيفه سيبقى ماثلاً أمام أعينهم وصوته سيظل يرن في أسماعهم .

وقد أجاد حافظ صياغة هذا الحوار واختار الطريقة المثلى لإبرام العهد بين الطرفين فقد ذكر أولاً ما سمعه الشعب من صوت الزعيم وما يطلبه منهم أن يعملوا على تحقيقه ثم أتبع ذلك بالإجابة والقبول وكأنه يقول : إننا سمعنا ما قلته أيها الزعيم وفكرنا فيما سمعنا وبعد أن رأينا أنه باستطاعتنا تنفيذ ما سمعنا أجبناك بالقبول والإيجاب . وهذا أدعى إلى التنفيذ والجد في العمل إلى تحقيق الهدف المنشود .

ـ وينكر الشاعر على نفسه وعلى أبناء وطنه البكاء على وفاة الزعيم المرثي لأن البكاء يعني الضعف والمسكنة . والزعيم المرثي ـ وهو القائد والزعيم والمجاهد ـ لا يرضى لأبناء وطنه أن يكونوا ضعفاء . ولذا فيجب عليهم أن يتخذوا من حياة هذا الزعيم وجهاده مشعلاً يهتدون به في طريقهم إلى الحرية والاستقلال .

يقول حافظ في رثائه للزعيم مصطفى كامل في نفس القصيدة السابقة :

عهدناك لا تبكي وتنكر أن يُرَى	أخو البأس في بعض المواطن باكيا
فرخص لنا اليوم البكاء وفي غدٍ	ترانا كما تهوى جبالاً رواسيا

فإن كان مصطفى كامل لا يرضى لأبناء مصر أن يكونوا ضعفاء بكائين فليرخص لهم اليوم فقط أن يريحوا أنفسهم بالبكاء عليه ، وفي غد سيكونون كما يعهدهم وكما يتمنى أن يراهم أقوياء كالجبال الشم الرواسي .

ـ وهذه أبيات أخرى يدعو فيها حافظ أبناء شعبه أن يتبعوا طريق الجد والكفاح الذى سار فيه المرثى وأن يتركوا اللهو والتباطؤ حتى يلحقوا بركب الأمم المتقدمة . يقول حافظ فى رثاء محمد عاطف بركات باشا : (١)

لم تكن مصر بالعقيم ولكن — قد رماها أعداؤها بالحبال
أفسحوا للجياد فيها مجالا — قد أضرَّ الجيادَ ضيقُ المجال
أصبحت فى القيود تمشى الهوينا — كسفين يعبرن مجرى القنال
فاصدعوا هذه القيود وخلو — ها تبارى فى السبق ريح الشمال
عرف الغرب كيف يستثمر الجد — فيبنى بفضله كل غـال
وترى الشرق كيف يستمرىء اللهـــو فيفضى به إلى شرّ حال
فاتركوا اللهو فى الحياة وجدوا — إن فى اسم الرئيس أيمن فال
فاصنعوا صنع عاطف وانكروه — آية المجد ـ نكرة الأبطال

وحقاً ما قاله حافظ . فمصر لم تكن عقيماً فى عصر من العصور . وكل عصورها ملأى بالرجال العظام الذين يهبون يدافعون عنها وقت الشدائد . ومصر لم تكن يوماً توحى بالتخلف والجمود . بل إنها تستطيع أن تلحق بركب التقدم وأن تأتى فى مقدمة الدول المتقدمة لو ترك أبناؤها ما هم فيه من لهو . واتخذوا المجد طريقاً لهم وترسموا خطى العظماء من زعمائها وقادتها .

وهكذا أهاب حافظ بأبناء وطنه أن يكملوا طريق الكفاح والجد الذى بدأه زعماء الشعب من الوطنيين والقادة لترتفع مكانة بلادهم وتكتمل لها حياة الحرية والاستقلال وتأخذ مكانها اللائق بها بين دول العالم المتقدم . وأثبت لنا حافظ بهذه الدعوة أنه لم يكن فى يوم من الأيام بعيداً عن الاهتمام بأمر وطنه أو ممالئاً للاستعمار والانجليز . بل كان رجلاً وطنياً من الطراز الأول يحب بلاده ويخشى عليها من التخلف والجمود ويدعو إلى كل ما يرفع من شأنها ويضمن لها حياة حرة كريمة .

---

(١) الديوان ٥٧٨ .

١١

وكان حافظ فى رثائه للوطنيين ورجال السياسة يعبر فى كثير من الأحيان عن حزنه هو على موت المرثى ويتحدث عما أصيب به من لوعة وألم . فحينما يحس حافظ بأن فقد أحد هؤلاء الزعماء لا يمثل فاجعة شعبية عامة تأسى لها نفوس المصريين جميعاً كان يقصر اهتمامه على تصوير حزنه هو وتصوير أثر الفاجعة على نفسه . ولا مانع عنده من بيان أثر الفاجعة على نفسه هو بجانب تصوير أثرها على الشعب بأكمله إذا كان موت المرثى فى رأيه يمثل فاجعة عامة تأسى لها نفوس أبناء الشعب .

ـ ففى رثائه لعثمان السيد أباظه يمتنع حافظ عن احتساء شراب الخمر ويستبدل به ماء المدامع الغزيرة . ويضرب عن الطرب والعود ويستبدل بهما صوت النوادب والباكيات . ولذا فهو يطلب من صاحبيه أن يمسكا عنه الراح ويبعدا عنه الغيد الملاح وأن يتركاه لهمه وسهده فقد كره الحياة ولم يعد له فيها مأرباً حسناً بعد أن مضى عنها عثمان ورحل . ويعز على الشاعر أن يعيش بعد المرثى فإن جاء داعى المنون ينشد المرثى دونه فيود أن يرحل معه ليكون رفيقه فى قبره كما كان رفيقه فى الحياة . يقول حافظ : (١)

ردّا كؤوسكما عن شبه مفؤود	فليس تلك يوم الراح والعود
ياساقيَىّ أرانى قد سكنت إلى	ماء المدامع عن ماء العناقيد
وبت يرتاح سمعى حين يفتقه	صوت النوادب لا صوت الأغاريد
فأمسكا الراح إنى لا أخامرها	وبلغا الغيد عنى سلوة الغيد
ثم أمضيا ودعانى إننى رجلٌ	قد آل أمرى إلى هم وتسهيد
أبعد عثمان ابغى مأرباً حسناً	من الحياة وحظاً غير منكود
إنى ليحزننى أن جاء ينشده	داعى المنون وأنى غير منشود

وقد أجاد الشاعر التعبير عن شدة حزنه وألمه على المرثى حينما أستبدل بالخمر

---

(١) الديوان ٤٤٥ .

ماء الدموع واستبدل بالعود وأصوات الطرب صوت النوادب والباكيات .

ويفيد لفظ (سكنت) في البيت الثاني أن الشاعر قد لازم تجرع ماء المدامع بدلاً عن الخمر وأن هذه ليست حالة طارئة بل هي حالة من سكن إلى الشيء وارتاح إليه . كما أن جملة (يرتاح سمعي) تدل على أنه قد نسي أصوات الطرب والغناء وتعود سمعه على سماع صوت النوادب والبكاء بعد رحيل المرثي .

- وقد كرر حافظ معنى البيت الأخير من الأبيات المذكورة - وهو تمنيه الموت ومرافقة المرثي في قبره - في رثائه لسليمان أباظة باشا حينما قال : (١)

شوقتنا للترب بعدك واشتهى فيه الإقامة واحد العذراء

فقد تشوق الشاعر لسكنى التراب بعد نزول الفقيد فيه بل واشتهى المسيح - عليه السلام - الإقامة فيه واستبدال السماء بالأرض لشرفها بدفن الفقيد فيها .

- وفي رثاء حافظ للزعيم محمد فريد يتحسر لموت الزعيم ويذكر أن الحزن والأسى قد عم المصريين جميعاً مسلمين وأقباط . أما هو فقد حول الحزنُ على الفقيد شعرَه على قرطاسه إلى لوعة سالت على دمع جمد . وإن لم تكفِ دموعه لأن تكون مداداً يكتب به شعره ليعبر به عن حزنه وأساه فلتكن مياه النيل الحزين مداداً لهذا الشعر

وكما طلب حافظ من النيل أن يحزن وأن تتحول مياهه إلى مدادٍ له بعد نفاذ دمعه طلب من زهر الروض أن تذبل ومن الطير أن ينوح بدلاً من الشدو . فالشدو أصبح حراماً والعيش أصبح كله نكد وهم بعد أن ولّى زعيم مصر وركنها وفتاها وسندها وقت الشدائد . يقول حافظ : (٢)

من ليوم نحن فيه من لغد مات ذو العزمة والرأى الأسد
حل بالجمعة حزن وأسى ومشى الوجد إلى يوم الأحد
وبدا شعرى على قرطاسه لوعةً سالت على دمع جمد

---

(١) الديوان ٤٥٠ .
(٢) الديوان ٥١١ .

أيها النيل لقد جلّ الأسى   كن مداداً لى إذا الدمع نفد
وانْ بلى يازهرة الروض ولا   تبسمى للطل فالعيش نكد
وانْرم النوح أياطير ولا   تبتهج بالشدو فالشدو حدد
فلقد ولّى فريد وانطوى   ركن مصر وفتاها والسند

وقد انعكس إحساس الشاعر الحزين وأساه على الفقيد على كل ما حوله أو حاول هو أن يعكسه على ما حوله من مظاهر الطبيعة وأن تشاركه حزنه ولوعته فطلب من النيل أن يجرى دمعاً ومن الزهور أن تذبل ومن الطيور أن تنوح . وهكذا حاول الشاعر أن يضفى سمة الحزن على كل مظاهر الكون من حوله لأنه رأى أن المصاب عظيم يستحق من الكون كله أن يحزن على فراقه بعد أن عم الحزن جميع طوائف المصريين .

ـ وفى رثاء سعد زغلول يتوجع الشاعر لغياب الزعيم عن المحافل والمنتديات . ويرى أن هذا من الأمور العظام التى تستوجب الحزن بل وشق الثياب أسفاً وحزناً . يقول حافظ : (١)

أين سعد ؟ فذاك أول حفل   غاب عن صدره وعاف الخطابا
لم يعود جنوده يوم خطبٍ   أن ينادى فلا يرد الجوابا
علّ أمراً قد عاقه علّ سقماً   قد عراه . لقد أطال الغيابا
أىْ جنودَ الرئيس نادوا جهاراً   فإذا لم يجب فشقوا الثيابا
إنها النكبة التى كنت أخشى   إنها الساعة التى كنت أبى
إنها اللفظة التى تنسف الأنـ   ـفس نسفاً وتفقر الأصلابا
مات سعد لا كنت يا (مات سعد)   أسهاماً مسمومةً أم حرابا
كيف أقصدتِ كلَّ حىّ على الأر   ض وأحدثت فى الوجود انقلابا؟
حسرة عند أنةٍ عند آهٍ   تحتها زفرة تذيب الصلابا

---

(١) الديوان ٥٣٣ .

وهذه الأبيات تعبر عن ألم الشاعر بل عن ذهوله بعد أن غاب سعد عن صدر المحافل والمنتديات وسكت صوته عند الخطاب . وهو أمر لم يتعوده الشاعر ولا أحد من جنود الزعيم .

ويعبر حافظ عن ذهوله لما ألم بالزعيم فيبدى عدم تصديقه لموته ويذكر أن شيئاً آخر غير الموت قد عاقه عن حضوره فيقول : علّ أمراً قد عاقه – علّ سقماً قد عراه – ولكن : لقد طال غيابه – ترى أىّ شيء قد غيبه ؟ ولنا أن نتخيل مدى ذهول الشاعر وهو يردد مثل هذه الجمل ليبدى عدم تصديقه لخبر موت الزعيم . إنها حالة من غاب عن وعيه ولم يدر ما حوله . ويكمل الشاعر تصويره لحالة الذهول التى اعترته بعد سماع نبأ الوفاة . فيطلب من الجنود أن ينادوا بأعلى أصواتهم علّه يجيب فإذا لم يجب فليكن – حينئذ – خبر وفاته صادقاً . إذن فالأمر يستحق أن يشق الثياب حزناً وأسفاً . فموت الزعيم هو النكبة الكبرى التى يخشاها الشاعر بل هى الساعة التى يكرهها ، بل هى اللفظة – لفظة مات سعد – التى تنسف الأنفس نسفاً ، بل وتفقر الأصلاب.ولنا أيضاً أن نتخيل ما توحى به هذه الجمل المتوالية من رهبة وفزع وتصوير لهول الموقف بعد سماع جملة : مات سعد . إنها جملة تنسف الأنفس نسفاً . ولذا فقد بلغ الحزن قمته فى نفس الشاعر بعد سماعها فيدعو على هذه اللفظة بالعدم والمحو من قاموس اللغة . ويذكر الشاعر سبب دعائه على هذه اللفظة بالفناء فهى على نفسه سهم مسمومة أو حربة قاتلة . ثم إن دعاءه هذا (لا كنت يا مات سعد) يوحى بقمة حزن الشاعر وألمه بل وغيابه عن الوعى تماماً من شدة الذهول .

ثم اقرأ معى البيت الأخير من الأبيات المذكورة وتأمل تصوير الشاعر لألمه وحسرته وانظر كيف صور هذا الألم وتلك الحسرة التى أصابته بعد موت الفقيد :

حسرة – عند أنةٍ – عند آهٍ   تحتها زفرة تذيب الصلابا

إنها أبيات معبرة عن الجو الرهيب الذى عاشه الشاعر ومن معه عند سماع نبأ وفاة الزعيم .

وهكذا قام حافظ بواجب الوفاء لهؤلاء الرجال الذين وهبوا أنفسهم فداءً لوطنهم . وعبر عن حزنه وأساه لفقد كل واحد منهم ، وصور ما اعتمل فى نفسه من مرارة وألم تجاه موت كل منهم .

وكان حافظ فى رثائه للوطنيين ورجال السياسة يبدى حبه لمصر وخوفه عليها بعد فقد الزعيم الذى كان يحمى حماها ويحمل راية الجهاد والمقاومة ضد أعدائها . ولاشك أن حافظا حين يرثى رجال الوطنية والسياسة فى مصر فإنه يدلل لنا بهذه الأشعار على حبه لوطنه وعشقه لمصر . فرغم المعاناة التى كان يحس بها فى حياته والضيق الذى لازمه فى معظم فترات هذه الحياة إلا أنه قال كثيرا من الأشعار التى تدل على عمق حبه لمصر وعشقه لها . فحافظ إبراهيم هو الذى يقول : (١)

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى ... فى حب مصر كثيرة العشاق

إنى لأحمل فى هواك صبابةً ... يامصر قد خرجت عن الأطواق

لهفى عليك متى أراك طليقةً ... يحمى كريم حماك شعب راقى

كلف بمحمود الخلال متيّم ... بالبذل بين يديك والإنفاق

ولطالما تغنى حافظ بتاريخ مصر وافتخر بمجدها وتاه بعزها وحضارتها فى مختلف العصور . ومن ذلك قوله فى قصيدته العصماء : مصر تتحدث عن نفسها : (٢)

وقف الخلق ينظرون جميعاً ... كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وبناة الأهرام فى سالف الدهر ... كفونى الكلام عند التحدى

أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق ... ودراته فرائد عقدى

أى شئ فى الغرب قد بهر الناس ... جمالاً ولم يكن منه عندى ؟

فترابى تبر ونهرى فرات ... وسمائى مصقولة كالفرند

إلى آخر القصيدة .....

وحافظ أيضا هو القائل : (٣)

لعمرك ما أرقتُ لغير مصر ... ومالى دونها أمل يرامُ

ذكرت جلالها أيام كانت ... تصول بها الفراعنة العظامُ

---

(١) الديوان ٢٧٩ .
(٢) الديوان ٤٠٣ .
(٣) من قصيدته إلى الأمير حسين كامل سنة ١٩٠٩ م - الديوان ٣٦٧ .

وأيام الرجال بها رجالٌ ... وأيام الزمان لها غلامْ

فأقلق مضجعي ما بات فيها ... وباتت مصر فيه فهل ألام ؟

وقد امتلأ الديوان بالأشعار التي تدل على عشقه لمصر وحبه لها . ولا يناقض هذا الحب ما قاله حافظ من أبيات تدل على ضيقه بمصر وأهلها من مثل قوله : (١)

حطمت اليراعَ فلا تعجبي ... وعفت البيان فلا تعتبي

فما أنت يامصر دار الأديب ... ولا أنت بالبلد الطيب

وكم فيك يامصر من كاتبٍ ... أقال اليراع ولم يكتب

فلا تعذليني لهذا السكوت ... فقد ضاق بي منك ما ضاق بي

أيعجبني منك يوم الوفاق ... سكوت الجماد ولعب الصبي

وكم غضب الناس من قبلنا ... لسلب الحقوق ولم تغضب

إلى آخر ما قال .

أقول : إن هذه الأبيات لا تدل على عكس ما تدل عليه الأبيات السابقة التي تثبت عمق حبه لمصر وعشقه لها ولأهلها . لأن هذه الأبيات قالها حافظ حين رأى مصر والمصريين يقفون موقفاً سلبياً من بعض القضايا الاجتماعية أو السياسية غير السوية . ومن بينها موقفهم من الاتفاق الودي الذي أبرم في عام ١٩٠٤ م بين انجلترا وفرنسا بشأن مصر وإقرار مركز انجلترا فيها .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الأستاذ محمد كامل حتة قال عن هذه الأبيات : إن هي « إلا زفرة حارة وغضبة عاتبة من قصيدة ينتصر فيها للشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد في قضيته المشهورة التي حكم فيها بفسخ عقد زواجه من بنت الشيخ عبد الخالق السادات لعدم التكافؤ في النسب » . (٢)

أي أنه قال مثل هذه الأبيات وهو في حالة الغضب من هذا الموقف السلبي ومن منطلق حرصه على مصر واستقلالها . وبهذا ندرك أنه قال مثل هذه الأبيات مخاطباً

---

(١) الديوان ٢٥٦ .

(٢) من مقال بعنوان « خطرات ومطالعات في ذكرى حافظ وشوقي » مجلة الثقافة ـ العدد ١٠٩ ـ ص ٦٥ .

مصر وأهلها ليحفزهم ويستنهض هممهم ويبصرهم بوسائل النهوض وطرق العمل الجاد .
وقد عبر حافظ عن حبه لمصر في بعض قصائده التي أنشدها في رثاء الوطنيين ورجال السياسة . وأبدى تخوفه عليها وعلى أمنها بعد رحيل هؤلاء القادة .
- ومن ذلك قوله في رثاء رياض باشا : (١) حيث بيّن تخوفه على مصر وتمزق وحدتها بعد جهاد المرثي في لم شمل المصريين في مؤتمر الإصلاح في سنة ١٩١١ م :

أمؤتمر الإصلاح والعرف قد مضى	رياض وأودى الـوازع المتورع
وكان عل كرسيه خير جالس	لهيبته تعنو الوجوه وتخشع
فياويلنا إن لم تسدوا مكانه	بذى مرة في الخطب لا يتضعضع
بعيد مرام الفكر أما جنانه	فـرحـب وأمـا عـزه فممنّـع

فمن حرص الشاعر على مصر وسلامة أمرها تمنى أن يتحد المصريون تحت راية واحد منهم يكون قادراً على أن يسد مكان الفقيد بقوته وحنكته وثباته أمام الشدائد وبفكره السديد وبقلبه الرحب الفسيح وبعزته التي تأبى عليه أن يسكت على ضيم .
- وفي مقدمة إحدى قصائده في رثاء الزعيم مصطفى كامل يخاطب الشاعر قبر الفقيد ويذكر أن مصر لم تفقد بموت الزعيم رجلاً من رجالها الأبرار وفقط بل إنها فقدت كل شيء بفقد زعيمها وحامي حماها . ولذا فهو يتخوف على مصر بعد موته فقد كان من آمال أمته وهيهات أن يأتي به الدهر ثانياً . يقول حافظ في ذلك : (٢)

أيا قبر هذا الضيف آمال أمةٍ	فكبّرْ وهلّلْ والق ضيفك جاثيا
عزيز علينا أن نرى فيك مصطفى	شهيد العلا في زهرة العمر ثاويا
أيا قبر لو أنا فقدناه وحده	لكان التأسي من جوى الحزن شافيا
ولكن فقدنا كل شيء بفقده	وهيهات أن يأتي به الدهر ثانيا

وتدل جملة (وهيهات أن يأتي به الدهر ثانيا) على يأس الشاعر وتخوفه على أمر بلاده بعد خلوها من هذا الزعيم الذي يصعب وجود مثله .

---

(١) الديوان ٤٨٥ .
(٢) الديوان ٤٦٣ .

- وفى رثاء السلطان حسين كامل يتساءل حافظ : هل فقدت مصر بفقد السلطان كل شىء أم ياترى هناك من قيضه الله لإسعادها والاهتمام بأمرها ؟ يقول حافظ فى ذلك : (١)

دك ما بين ضحوةٍ وعشىّ ... شامخ من صروح آل على
وهوى من سماوة العرْس مَلْك ... لم نمتع بعهده الذهبى
قد تساءلت يوم مات حسين ... أفَقَدْنا بفقده كلّ شئ ؟
أم ترى يسعد الكنانة باريـ ... ـها ويقضى لها بلطفٍ خفىّ ؟

وهكذا عبر حافظ عن اهتمامه بأمر مصر وشأنها حينما أظهر تخوفه عليها بعد موت زعمائها . ولذا فقد أكثر من مطالبة شباب مصر ونشئها من اتباع سنة أسلافهم وإكمال الطريق الذى بدأه هؤلاء الزعماء للنهوض بها وتخليصها من كل ما يعوق نهضتها ويوقف تقدمها . وإن جاءت أبياته فى هذا قليلة فاترة . وربما كان السبب فى ذلك هو انشغاله بإبداء مشاعره ومشاعر أبناء وطنه تجاه المرثى .

١٣

- وكان حافظ فى رثائه لأصدقائه من الوطنيين ورجال السياسة يسرد ذكرياته معهم ويتحدث عن جلساته معهم فى حياتهم وتحسره على ذهاب تلك الأيام التى طالما جمعته بهم .

وقد يكون غرض الشاعر من سرد مثل هذه الذكريات هو أن يسلّى نفسه ويثير فى السامعين مشاعر الحزن والألم فيدركوا قيمة المرثى ومدى الخسارة التى حلت عليهم بموته . وتدل أشعاره فى هذا المعنى على الوفاء الذى كان يتصف به حافظ تجاه كل من ربطته بهم صلة الصداقة والمودة فهو فى حياتهم صديقاً حميماً لهم . وبعد مماتهم دائم التذكر لعهدهم .

---

(١) [illegible]

- ومن ذلك قول حافظ فى رثاء سعد زغلول : (١)

كم شكوت السهاد لى يوم كنا بالبساتين نستعيد الشبابا
ننهب اللهو غافلين وكنّا نحسب الدهر قد أناب وتابا
فإذا الرزء كان منا بمرمىً وإذا حائم الردى كان قابا
حرمتنا المنون نيالك الوجــــه وذاك الحمى وتلك الرحابا
وسجايا لهن فى النفس روحٌ يعدل الفوز والدعاء المجابا
كم وردنا موارد الأنس منها ورشفنا سلافها والرضابا
ومرحنا فى ساحها فنسينـــــا الأهل والأصدقاء والأحبابا
ثم ولّت بشاشة العيش عنا حين ساروا فوسدوك الترابا

فكم من مرة التقى فيها الشاعر مع الزعيم ومنها جلساته معه ببساتين بركات باشا القريبة من مدينة بلبيس - من أعمال الشرقية - يستعيدون ذكريات شبابهم ويبوح كل منهم لصديقه بهمومه وشكواه من الحياة ، ويقضون معاً أوقاتاً طيبة خالية من الهموم والشكوى ، وياليتها دامت ، فسرعان ما انقض علينا الدهر ورمانا برزئه ومصائبه وحرمنا الموت من ذلك القائد وسجاياه التى تروح عن النفس وتذهب عنها كل مكروه فحرمنا من كل شيء جميل ومن تلك الأيام المليئة بالأنس والمتعة وولت بشاشة العيش وذهبت بذهاب هذا القائد .

وقد اختار حافظ تعبيراً طريفاً للتعبير عن تلك الأوقات اللاهية التى كان يقضيها مع صديقه الزعيم المرثى وحلاه بهذه الاستعارة الطريفة فى قوله :

ننهب اللهو غافلين وكنا نحسب الدهر قد أناب وتابا

كما عبر عن متعته بمجالسة المرثى وصور ذلك بصورة من يرد موارد الأنس المليئة بألوان الطرب والشراب ، وبمن يمرح لاهياً مسروراً فى ساحة اللهو والمتعة . وفى غمرة هذا اللهو والفرح ينسى كل شيء حتى الأهل والأصدقاء والأحباب :

---

(١) الديوان ٥٣٩ .

كم وردنا موارد الأنس منها ورشفنا سلافها والرضابا
ومرحنا فى ساحها فنسينـــا الأهل والأصدقاء والأحبابا

- وقد وضح هذا المعنى - سرد ذكريات الشاعر مع المرثى - فى رثاء حافظ لعبد الخالق ثروت باشا فقال : (١)

قد كنت تحسن بى وترقب جولتى فى حلبة الشعراء والكتاب
وتهش إن لاقيتنى وتخصنى بالبشر فى ناديك والترحاب
فانهب كما ذهب الربيع بنوره تأسى الرياض عليه غب ذهاب

فقد كان المرثى مهتماً بجولات الشاعر فى حلبة الشعراء والكتاب حريصاً على استماع شعره وإبداء إعجابه بهذا الشعر فرحاً بملاقاة الشاعر مرحباً به فى نواديه وجلساته . ولذلك كان ذهابه داعياً للأسى والحزن على صاحب هذه الذكريات الحلوة وعلى تلك الأيام الفضة التى قضاها الشاعر فى رحابه .

- وفى رثاء حافظ لمحمد سليمان أباظة يتذكر أيام صباه مع المرثى ورفاقه . فقد كانوا سبعة من الفتيان كثيراً ما استمتعوا بأوقات لهوهم معاً . ويبين الشاعر أن هذا اللهو كان بريئاً خاليا من كل رجس . فقد كانوا يتخذون من اللغة والتلاعب بالألفاظ وإنشاء الشعر مادة لهذا اللهو مع إرسال النكت الطريفة . ويا للأسف ! لقد انقضى كل هذا بعد تفرق الأحباب واختطاف الموت لهؤلاء الرفاق . يقول حافظ فى ذلك : (٢)

كنا على عهد الصبا سبعةً بمستطاب اللهو نستأثر
(البابلى) صفوة فتياننا و(ابن المويلحى) الكاتب الأشهرُ
(صادق) خير بنى سيد و(بيرم) إذ عوده أخضر
وكان (عبد الله) أنساً لنا وأنس (عبد الله) لا ينكرُ

---

(١) الديوان ٥٤٩ .
(٢) الديوان ٥٣٠ .

لهو كريم لم يشب صفوه رجس ولم يشهده مستهتر
فكم لنا من مجلس طيب يشتاقه هارون أو جعفرُ
نلعب باللفظ كما نشتهى ونضمر المعنى فما يظهرُ
ونرسل النكتةَ محبوكة عن غيرنا فى الحسن لا تصدر
ثم انطوى هذا وهذا وما يطوى من الأيام لا ينشر

وهكذا كان حافظ فى كل موقف من مواقفه فى الرثاء يذيب نفسه حسرة على المصاب ويندب حظه التعس فى آماله وأصدقائه . وكثيرا ما كان يجعل مرثيته سجلاً لما كان بينه وبين المرثى من ألفة ومودة وما كان بينهما من مجالس أنس وسرور « يشتاقها هارون أو جعفر » (١) وما كان يدور فى تلك المجالس من طرف وفكاهة من أناس « عن غيرهم فى الحسن لا تصدر » .

وحديث الشاعر عن ذكرياته مع المرثى مناسب لموقف الرثاء والبكاء إذا كانت هذه الذكريات معينةً على إظهار اللوعة والأسف على المرثى وعلى تصور الخسارة التى حلت به وبأبناء وطنه بموته . أما إذا كانت مجرد سرد لذكريات سلفت وأيام مضت وأحاديث خلت فهى مساعدة على فتور الرثاء مذهبة لما فيه من قوة الشعور وصدق الإحساس صارفة للسامعين عن الإحساس بهول المصيبة وفداحة الخطب . ولذا نرى حافظاً يختم أبياته فى هذا المعنى بما يوحى بالحسرة والأسف على هذه الذكريات الخالية وعلى تلك الأيام الماضية وما كانت تمتلىء به من بشاشة وحبور .

١٤

وكان رثاء حافظ لأحد الوطنيين ورجال السياسة يفضى به فى بعض الأحيان

---

(١) يقصد بهارون : هارون الرشيد . وبجعفر : أبوجعفر المنصور . الخليفتين العباسيين .

إلى تذكر السابقين من الزعماء الذين رحلوا قبل المرثي والحديث عن بعض ما قاموا به من أعمال مجيدة خلدتهم على مدى التاريخ وجعلت كلاً منهم نموذجاً يحتذى .

- ففي رثائه لسعيد زغلول يتذكر خاله الزعيم سعد زغلول وما حدث له رغم رهبته وهيبته - مشيراً إلى ما حدث لسعد زغلول من اعتداء عليه ومحاولة قتله في محطة مصر وهو متوجه إلى انجلترا لمفاوضة الانجليز في عام ١٩٢٤ م - فإن كان ابن الأخت قد اختطفه الموت فليس هو بأول كوكب أدركه المغيب . وهو إن كان أدركه الموت في بلاد الغرب فهناك أقمار في المشرق أدركها الغروب . يقول حافظ في ذلك : (١)

ما أنت أول كوكبٍ	في الغرب أدركه المغيب
فهناك أقمار المشا	رق قد أتيح لها الغروب
داس الحِمام عرين خا	لك وهو مرهوب مهيب
لم يثنه عنك الرئيـــس	ولا رمـــى عنك الخطوب

- وفي رثاء حافظ لأمين الرافعي بك يتذكر إخوانه الثلاثة مصطفى كامل ومحمد فريد وعلي فهمي كامل ويحمله التحية والسلام إليهم ويطلب من المرثي أن يبلغهم بما يلقاه الشعب من عناء بعد ذهابهم كما يطلب من المرثي أن يضرع إلى الله أن يحرس النيل وأبناء واديه ممن طغى عليهم ويحاول سلب حقوقهم . يقول حافظ في ذلك : (٢)

أمين حسبك ما قدمتَ من عمل	فأنت أرجحنا في الحشر ميزانا
بلّغ ثلاثتكم عنا تحيتنا	واذكر لهم ما يعاني قومنا الآنا
واضرع إلى الله في الفردوس مبتهلاً	أن يحرس النيل ممن رام طغيانا

- وفي رثاء الزعيم محمد فريد يتذكر حافظ زميله في الكفاح الزعيم مصطفى كامل

---

(١) الديوان ٥٢٨ .
(٢) الديوان ٥٤١ .

وأعماله المجيدة فيوصيه بأن يبلغ مصطفى كامل بأن جهاده لم يضع هباءً وأن ما بذره من حب قد أثمر وأينع وطاب ثمره وحصد الشعب ثمرة هذا البذر . وله أن يرتاح ويهنأ بما قدمه لوطنه . يقول حافظ مخاطباً محمد فريد : (١)

قل لصب النيل إن لاقيته	فى جوار الدائم الفرد الصمد
إن مصراً لا تني عن قصدها	رغم ما تلقى وإن طال الأمد
جئت عنها أحمل البشرى إلى	أول البانين فى هذا البلد
فاسترح وأهنأ ونم فى غبطةٍ	قد بذرت الحب والشعب حصد

وهكذا ترجم لنا حافظ مرة أخرى عن وفائه لهؤلاء الزعماء والقادة وأثبت لنا أن مثل هؤلاء الرجال لا يغيبون بغياب أجسامهم لأن ما قاموا به من أعمال مجيدة وبطولات خالدة توجب على كل مصرى أن يتذكرهم دائماً وأن يضع كلاً منهم تمثالاً أمام عينيه يلمس فيه القدرة التى تحفزه على العمل الجاد من أجل مصر .

١٥

وهناك ظاهرة أخرى برزت فى رثاء حافظ للوطنيين ورجال السياسة كما برزت فى رثائه للأدباء والعلماء وهى إهداؤه التحية والسلام إلى المرثى والدعاء له أن يجزيه الله عن وطنه وعن أبناء وطنه خير الجزاء .

وكما ذكرت فى الفصل السابق أن الدعاء للمرثى وإهدائه التحية والسلام معنى قديم فى الشعر العربى ذكره كثير من الشعراء العرب فى كثير من قصائد الرثاء . وعادة ما يأتى به الشاعر فى نهاية القصيدة ـ وهذا هو الغالب ـ وقد يأتى به فى وسطها .

ـ فمن الدعاء للمرثى فى رثاء حافظ للوطنيين ورجال السياسة قوله فى رثاء سليمان

---

(١) الديوان ٥١٢ .

أباظة باشا : (١)

رحم الله منه لفظاً شهياً   كان أحلى من رد كيد الأعادى

رحم الله منه طرفاً نقياً   ويميناً تسيل سيل الغوادى

رحم الله منه شهماً وفياً   كان ملء العيون فى كل نادى

وقد كرر حافظ دعاءه للمرثى بالرحمة من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليكون ذلك وسيلة لتعداد صفات المرثى الطيبة وشمائله الحسنة . فكأنه يطلب الرحمة من الله ـ سبحانه ـ كلما تذكر صفة من هذه الصفات . وقد سبق الحديث عن مثل هذا الدعاء فى رثاء حافظ للإمام محمد عبده . (٢)

ـ ومن ذلك أيضاً قول حافظ فى هذين البيتين اللذين أنشدهما على قبر عبد الله أباظة بك : (٣)

يا عابد الله نم فى القبر مغتبطاً   ما كنت عن ذكر رب العرش باللاهى

يا رحمة الله هذا قبره فقفى   وآنسى روحه يارحمة الله

وهنا يطلب حافظ أن تسكن رحمة الله هذا القبر لتكون أنساً له من وحشة القبر، فلقد كان عابداً لله دائم الذكر له ـ سبحانه وتعالى ـ لم تلهه عن ذلك الدنيا وما فيها . ومن كان مع الله فى الدنيا كانت رحمة الله معه فى الآخرة .

ـ وفى ختام رثاء حافظ لسعد زغلول يدعو الله ـ سبحانه ـ أن يجزيه خير الجزاء وأن تكون جنته مأوى الفقيد فى الآخرة جزاء جهاده فى سبيل الله والوطن . فقد خاف مقام ربه فى الدنيا وقام بواجبه الأكمل تجاه وطنه : (٤)

خفت فينا مقام ربك حياً   فانتظرْ بجنتيه الثوابا

ـ ومن أمثلة شعر حافظ فى إهدائه التحية والسلام للمرثى قوله فى ختام رثائه

---

(١) الديوان ٤٤٨ .

(٢) انظر ص ١٠٥ من هذا البحث .

(٣) الديوان ٥١٤ .

(٤) الديوان ٥٤٠ .

لرياض باشا : (١)

فياناصر المستضعفين إذا عدا ... عليهم زمان بالعداوة مولع

عليك سلام الله ما قام بيننا ... وزير على دست العلا يتربع

فقد كان المرثى ناصراً للمستضعفين معيناً لهم على نوائب الدهر وسيظل كل منهم يعترف بفضل المرثى عليه ما دامت الحياة.يهدى له التحية والسلام على مر الدهور والأيام .

- ومما يتصل بهذا الباب قول حافظ فى رثاء مصطفى كامل : (٢)

فاهنأ بمنزلك الجديد ونم به ... فى غبطة وانعم بخير جوار

واستقبل الأجر الكبير جزاء ما ... ضحيت للأوطان من أوطار

نعم الجزاء ونعم ما بلّغته ... فى منزليك ونعم عقبى الدار

فلقد جاهد الزعيم المرثى فى الله حق جهاده وقدم للأوطان العربية والاسلامية الكثير من البطولات وضحى بنفسه فداء لها ولشعوبها . فله الأجر الكبير عند الله سبحانه وتعالى - وليهنأ بمنزله الجديد فى جنة عرضها السماوات والأرض ولنعم عقبى الدار .

وهكذا لم يشأ حافظ أن يختم رثاءه لهؤلاء القاده من الوطنيين ورجال السياسة دون أن يدعو لهم بأن ينعم الله عليهم بخير الجزاء بما قدموا لأوطانهم من أعمال جليلة وما بذلوه فى سبيل حريتها واستقلالها ورفعة شأنها .

كما قدم لبعضهم تحيته وسلامه الشخصى اعترافاً منه بفضلهم وتقديراً لما قاموا به من جهاد مخلص فى سبيل الله والوطن .

هذه هى أهم المعانى البارزة فى رثاء حافظ للوطنيين ورجال السياسة ترجم لنا بها عن حبه لهؤلاء القادة وتقديره لهم ، ورسم لنا بها صورة واضحة لهؤلاء القادة وحبهم لبلادهم وجهادهم الدائم لتخليص البلاد من رجس الاستعمار ثم العمل على

---

(١) الديوان ٤٨٦ .

رقيها ورفعة شأنها والنهوض بها وبمجتمعاتها .

رثاء حافظ لبعض الأجانب :

مما يؤخذ على حافظ إبراهيم في رثائه - في رأي كثير من الأدباء - ممالأته للاستعمار في بعض قصائده وثناؤه على الانجليز في بعض أبياته التي يرثي فيها بعض زعمائهم وعلمائهم . ومن ذلك ثناؤه القوى على الملكة « فيكتوريا » وإشادته بمكانتها السياسية وعبقريتها الفكرية :

انظر إلى قوله في خطاب الملكة « فيكتوريا » : (١)

أشمس الملك أم شمس النهار ... هوت أم تلك مالكة البحار ؟

فطرف الغرب بالعبرات جارى ... وعين اليم تنظر للبَحار

بنظرة واجدٍ قلق الرجاء

أمالكة البحار ولا أبالي ... إذا قالوا تغالَى في المقال

فمثل علاك لم أر في المعالي ... ولا تاجاً كتاجك في الجلال

ولا قوماً كقومك في الدهاء

ويبدى الشاعر عظيم حزنه على تلك العبقرية السياسية وقيادتها الحكيمة للجيوش ، ويشيد بها وبجيوشها العظيمة وقت اشتعال المعارك فيقول مخاطباً إياها :

وكنتِ إذا عمدتِ لأخذ ثأر ... أسلت البر بالأُسْد الضوارى

وسيرتِ المدائن في البحار ... وأمطرت العدو شواظ نار

وذريت المعاقل في الهواء

أعزى فيك تاجك والسريرا ... أعزى فيك ذا الملك الكبيرا

أعزى فيك ذا الأسد الهصورا ... على العلم الذى ملك الدهورا

وظلل تحته أهل الولاء

أعزى فيك أبطال النزال ... ومن قاسوا الشدائد في القتال

وألقوا بالعدو إلى الوبال ... ولم يمنعهمُ فوق الجبال

لهيب الصيف أو قرّ الشتاء

---

(١) الديوان ٤٥١ .

ويلاحظ أن حافظاً قد اختار لرثائه لهذه الملكة شكلاً شعرياً خارجاً عن الأشكال القديمة للقصيدة العربية وهو ما يعرف بالمسمطات الذى ظهر أول ما ظهر فى العصر العباسى تقريباً . وقد يكون السر فى اختياره مثل هذا اللون فى رثائه لهذه الملكة بالذات هو مسايرة الأدباء الانجليز - التى تنتمى إلى بلادهم الملكة المرثية - فى بعض محاولاتهم التجديدية فى الأدب فى ذلك العصر . وبذا يكون اختياره لمثل هذا اللون - الذى يعد جديداً فى الأدب العربى - إلى حد ما - من قبيل اختيار الشكل المناسب للمقام المناسب .

على أن رثاء حافظ لفيكتوريا ملكة بريطانيا التى اغتصب شعبها أرض بلاده ونهبوا ثرواتها واستنزفوا مواردها أمر غير محمود فعله من مصرى وخاصة من شاعر كان يحب الشعب المصرى ويحبه الشعب المصرى كحافظ إبراهيم . وكان المتوقع من شاعر كحافظ أن يهنىء شعب بلاده ويبشرهم بقرب يوم التحرير وإجلاء المستعمر عن بلاده بعد موت زعيمة من زعماء الانجليز . ولكنه - للأسف - وقف يثنى على الملكة ويشيد بحنكتها السياسية وقيادتها الحكيمة للجيوش ويبدى عظيم حزنه لموتها وخلو الأرض من عبقريتها الفذة وشخصيتها التى اتصفت بكثير من صفات الإجلال والإكبار فى رأى حافظ .

وقد تحدثت فى الفصل السابق عن بعض رثائه لتولستوى - الفيلسوف الروسى - وثنائه عليه وتعداد صفاته الطيبة . (١)

ولا أريد بهذا التشكيك فى وطنية حافظ ولا التقليل من حبه لمصر ونضاله ضد الانجليز والاستعمار بعامة . وإنما أريد فقط أن أقول : إن رثاءه لبعض الشخصيات الأجنبية يوهم بأنه لم يكن صريح الوطنية دائماً ولم يكن مستمراً فى كفاحه ضد الانجليز والاستعمار فى كل الحالات ولكنه كان فى بعض الأحيان يضطر إلى مداراة الانجليز وممالأة الاستعمار حفاظاً على وظيفته أو حرصاً على بقاء وضعه فى أعين أولى الأمر على ما هو عليه .

---

(١) انظر ص ٥٩ من هذا البحث .

وأرى أن مجرد المجاملة واستعراض العضلات هو سبب من الأسباب التى جرت حافظاً إلى رثاء بعض أعداء الشعب المصرى فى سنوات احتلاله من مثل الملكة فيكتوريا أو رثاء بعض الأجانب الذين لم تربطه بهم علاقة مودة وصداقة مثل تولستوى . وقد يكون اختياره للشكل الشعرى فى رثائه لفيكتوريا مؤيداً لذلك

ويعلق الأستاذ روفائيل مسيحة على موقف حافظ من بعض الأجانب ورثائه لعظمائهم فيقول : (١)

« ويلوح أن شاعرنا كانت تسيطر عليه فى هذا الموقف العاطفة الإنسانية العامة التى تحس بوحدة الحضارة الإنسانية وتتهذب معها العاطفة القومية بحيث قد لا ترى بأساً من الإشادة بشعب أو بدولة أجنبية وبمكانتها فى الأسرة البشرية . وإذا لم يكن بغريب أن يشيد انجليزى أو فرنسى بحضارة الفراعنة وأن يقر بفضلهم على المدنية الإنسانية فأظن أنه ليس بغريب أن يعجب شاعر مصرى بروح الانجليز الدستورية وبنظامهم البرلمانى . وبآدابهم وما إليها » .

وهذه نظرة معقولة وتبرير لطيف لما صدر عن حافظ من رثائه لبعض الأجانب وثنائه عليهم - فلم يعرف عن حافظ أنه كان فى يوم من الأيام منافقاً أو مداهناً وإنما كان صريحاً واضحاً فى كل أموره وكان محباً لوطنه مخلصاً لأبناء هذا الوطن مبغضاً لأعدائه .

وبعـــــد :

فهذا ما رأيته فى شعر حافظ فى رثاء الوطنيين ورجال السياسة . ومن تأملنا فى هذا الشعر ندرك أن حافظاً قد شارك شعبه نضاله ضد المستعمر وساهم فى الدعوة إلى رقى بلاده ونهضتها عن طريق رثائه لأبناء الشعب من القواد الذين قادوا

---

(١) حافظ إبراهيم الشاعر السياسى - مطبعة الاعتماد بمصر - ط ١ - ١٩٤٧ م ص ٧٤ .

شعوبهم فى حركة النضال وبصروهم بحقوقهم فى الحرية والاستقلال ، ثم عن طريق دعوة أبناء الشعب إلى السير على درب الكفاح والنضال الذى كان الزعيم يسلكه فى حياته .

وهكذا كان رثاء حافظ للوطنيين ورجال السياسة سلاحاً من أسلحة معركة النضال ضد الاحتلال وتخليداً لأعمال هؤلاء القادة من أبناء الشعب وتمجيداً لما أبدوه من بطولات.

الفصل الثالث

الظواهر الفنية للرثاء فى شعر حافظ إبراهيم

الفصل الثالث
الظواهر الفنية للرثاء فى شعر حافظ إبراهيم

اتسم شعر الرثاء فى ديوان حافظ إبراهيم بمجموعة من السمات والظواهر الفنية منها ما هو قديم وجد فى كثير من قصائد الرثاء فى الأدب العربى على مرّ عصوره الأدبية ومنها ما يعد حديثاً وجد فى شعر حافظ وربما فى شعر غيره من معاصريه تلائماً مع روح العصر وتمشياً مع تطور الحياة والأحداث فيه .

وفى هذا الفصل محاولة لإظهار هذه السمات والحديث عنها حديثاً يوضحها ويبين مدى ظهورها فى شعر حافظ . مع توضيح القول عن كل منها بالمثال ليكون الكلام مؤيداً بالأدلة التى تثبت وجوده وتعين على فهمه . وهذه أهم السمات والظواهر الفنية فى شعر الرثاء عند حافظ إبراهيم :

١ - اتسم شعر الرثاء فى ديوان حافظ بسيره على نهج الشعراء الأقدمين وإيثار الصورة التقليدية المستمدة من التراث القديم . ولهذا جاء رثاؤه موسوماً بالسمات العربية فى ديباجته وفى صوره وفى أسلوب أدائه . فقد تمسك بالشكل الشعرى الملتزم بالوزن والقافية فيما عدا قصيدة واحدة خرج فيها على هذا النظام وهو شعره فى رثاء الملكة فيكتوريا الذى جاء به على صورة المسمطات . كما نراه فى كثير من الأحيان وقد أغرم بالمبالغة والسرف فى وصف الأشياء . فتراه يسرف فى الحزن كما يسرف فى الفرح والرضا والسخط والإخلاص . كما أن كثيراً من الصور التى يعتمد عليها فى الكشف عن أحاسيسه ومشاعره تجاه المرثى تعتمد أكثر ما تعتمد على تقليد القدماء فى تشبيهاتهم ورسم صورهم . ولهذا جاءت كثير من صوره وقد فقدت نضارتها وجدتها من كثرة الاستخدام وتعود الآذان على سماعها . فالمرثى يشبّه بالشمس وبالكوكب وبالحسام وبالقناة وبالأسد وبالبحر وبغير ذلك من تشبيهات تحولت مع مرور الزمان إلى صيغ مألوفة لاتحدث تأثيراً فى نفس المتلقى .

ولننظر في رثاء حافظ لسعد زغلول : نراه قد شبهه مرة بكوكب فقال يخاطب شمس السماء :

قل لها غاب كوكب الأرض في الأر ض فغيبى عن السماء احتجابا

وشبهه مرة أخرى بالمهند فقال يخاطب أهل فلسطين :

ففقدتم على الحوادث جفناً وفقدنا المهنّد القرضابا

وشبهه مرة ثالثة بالبحر في قوله :

خرجت أمة تشيع نعشاً قد حوى أمةً وبحراً عبابا

وهى كلها تشبيهات قديمة مألوفة ليس فيها ما يبهر النفس أو يثير كامن حزنها . (١) كما أغرم حافظ بمبالغات القدماء وسرفهم مما يضفى على المعنى ثوباً من التهويل والتفخيم . ولكن من الحق القول بأن كثيراً من مبالغات حافظ جاءت طريقة مقبولة لتصويرها المعنى تصويراً حسناً يدل على عظم الخطب وفداحة المصيبة .

انظر إليه وهو يستدر الدمع المدرار على الفقيد ويخيل إليه أن هذه الدموع تكاد تحمل نعش الفقيد إلى قبره وتدفعه انفاس المشيعين إلى هذا القبر . يقول في رثاء الإمام محمد عبده : (٢)

مشى نعشه يختال عجباً بربه ويخطر بين اللمس والقبلات

تكاد الدموع الجاريات تقله وتدفعه الأنفاس مستعرات

واقرأ معى أبياته التى تتمنى فيها الرياح أن تكون مسخرة لحمل نعش الفقيد بدلاً من حمل هام الأماجيد له. وتتمنى الشمس لو تهبط من عليائها لتسكن مع الفقيد قبره ، ويود الضحى لو يُقد منه ثوب يدرج فيه الفقيد : يقول حافظ في رثاء عثمان السيد أباظة : (٣)

ودت الريح لو كانت مسخرة لحمل نعشك عن هام الأماجيد

والشمس لو أنها من أفقها هبطت وآثرت معك سكنى القفر والبيد

---

(١) انظر مقال : الرثاء في شعر شوقي وحافظ . للدكتور عبد الفتاح عثمان — بمجلة الثقافة — العدد ١٠٩ ص ٦٥ .

(٢) الديوان ٤٦١ .

(٣) الديوان ٤٤٦.

وقد تمنى الضحى لو أنهم درجوا   هذا الفقيد بثوب منه مقدود

ويطلب حافظ من قبر الزعيم مصطفى كامل أن يكبر ويهلل وأن يلقى جثمان الزعيم جاثياً إجلالاً ورهبة فيقول :

أيا قبر هذا الضيف آمال أمةٍ   فكبر وهلل والق ضيفك جاثيا

وفى قصيدته فى رثاء الإمام محمد عبده يصور حافظ بغضه للحياة بعد وفاة المرثى حتى إنه ليخشى أن تطول فترة بقائه بها :

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله   فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

وجعل الأستاذ حسين المهدى غنام هذا البيت مأخوذاً من قول النابغة الزبيانى : (١)

فإن تحى لا أملل حياتى وإن تمت   فما فى حياتى بعد موتك طائل (٢)

كما قال بأن قول حافظ فى رثاء عثمان السيد أباظة :

ياساقيىّ أرانى قد سكنت إلى   ماء المدامع عن ماء العناقيد

قد تأثر فيه حافظ إلى حدٍ كبير بقول مسلم بن الوليد فى مدح داود بن يزيد بن حاتم بن المهلب : (٣)

لا أجمع الحلم والصهباء قد سكنت   نفسى إلى الماء عن ماء العناقيد (٤)

كما جعل الأستاذ أحمد محفوظ مرثية حافظ التائية فى رثاء الإمام محمد عبده من أروع مراثيه وإن كان قد عارض بها قصيدة دعبل بن على الخزاعى فى رثاء آل البيت وهى تائيته الشهيرة المبدوءة بقوله : (٥)

مدارس آيات خلت من تلاوة   ومنزل وحى مقفر العرصات (٦)

---

(١) ديوان النابغة الزبيانى : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط دار المعارف ـ ط ٢ـ ١٩٨٥م ص ٢٠ .

(٢) انظر كتاب : حافظ إبراهيم دراسة وتحليل ٣٥ .

(٣) ديوان مسلم بن الوليد ـ ط بريل ـ ١٢٣ .

(٤) انظر كتاب : حافظ إبراهيم ٣٥ .

(٥) ديوان دعبل الخزاعى ـ تحقيق : عبد الصاحب عمران الدجيلى ـ ط٢ ـ ١٩٧٢م ص ١٣١ .

(٦) انظر كتاب : حياة حافظ إبراهيم ١٩٥ .

وقد وجد فعلاً شبه واضح بين القصيدتين فى كثير من المعانى وطريقة الصياغة ومنها ـ على سبيل المثال ـ ما وجد من شبه واضح بينهما فى مطلع كليهما . فقد بدأ حافظ قصيدته هو الآخر بالتحسر على الإسلام والخوف على ضياعه بعد موت المرثى . كما فعل دعبل ـ فقال :

سلام على الإسلام بعد محمد　　　سلام على أيامه النضرات

وهكذا يأتى حافظ بألوان من المعانى والصور الطريفة التى تدل على تأثره بالسابقين وتأثره بما أتى به كبار الشعراء العرب الأقدمين فى رثائهم من أمثال البحترى فى رثائه للخليفة المتوكل وأبى تمام فى رثائه القائد محمد بن حميد الطوسى والمتنبى فى رثائه لأخت سيف الدولة الحمدانى وغيرهم من كبار الشعراء(١)

على أن سير حافظ فى رثائه على النهج القديم واتخاذه الطريقة التقليدية مسلكاً له لصوغ كثير من صوره وأشكاله كان نتيجة طبيعية لكلفه بتقليد القدماء ـ وعلى رأسهم البارودى ـ فى معظم أغراض شعره ، فقد تتلمذ حافظ على يد البارودى وكان يعتبره مثله الأعلى فسار على نهجه وصنع صنيعه فى تقليد شعراء العرب الأقدمين . كما أن اطلاعات حافظ على أدب الأقدمين وكتاباتهم كانت تمثل جزءاً مهماً وكبيراً من ثقافته المتواضعة ، على أن تأثر حافظ بمن سبقه من الشعراء العرب وأخذه بعض معانيهم لا يغض من قدر حافظ ولا من روعة شعره ، بل إن هذا التوافق بين أفكاره وأفكار هؤلاء يزيد من قدر حافظ ويجعله فى شعره مساوياً لكبار شعراء العربية . وإذا قرأنا شعر كبار الشعراء العرب على مختلف عصورهم وجدنا كلاً منهم قد وجد فى شعره ما وجد فى شعر حافظ من تقليد وتأثر بالسابقين . « وهذا لأن الشاعر الحق يستوعب كل ما يقع عليه من الشعر . وهذه من أكبر ميزات

---

(١) انظر كتاب : حافظ إبراهيم شاعر النيل د/ عبد الحميد سند الجندى ١٠٤ وما بعدها .

الشاعر . إذ يشغف بكل ما يراه من صادق الشعر » . (١)

ولو قرأنا كلام ابن رشيق في تقسيمه للشعراء ودرجاتهم في الفحولة وجدناه يذكر أن من علامات الشاعر الخنذيذ ـ وهو المتقدم في الفحولة الشعرية ـ جمعه بين جودة شعره وبين الجيد من شعر غيره . يقول ابن رشيق في هذا المعنى : (٢)

« وقالوا : الشعراء أربعة : شاعر خنذيذ وهو الذى يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره . وسئل رؤبة عن الفحولة قال : هم الرواة . وشاعر مفلق وهو الذى لا رواية له إلا أنه مجود كالخنذيذ في شعره . وشاعر فقط وهو الذى فوق الردىء بدرجة . وشعرور وهو لاشيء » .

على أن بعض الأدباء قد اتخذ من تقليد حافظ في بعض قصائده منطلقاً للطعن فيه والتقليل من قيمة شعره . فاتهمه الدكتور طه حسين في رثائه للإباظيين بعدم الصدق والقول لمجرد المجاملة . بل جعله من الشعر الذى اضطر إليه حافظ اضطراراً إما للمجاملة أو لأن مكانته كانت تضطره إليه . وهذا سر ما فيه من ضعف ومعنى سطحي غير مكتمل النضج في رأى الدكتور . (٣) اقرأ معى قوله : (٤)

« فأنت إذا قرأت رثاءه لبعض الإباظيين في الجزء الأول من ديوانه أعجبت باللفظ أكثر مما تعجب بالمعنى . ولم تجد في هذا الرثاء حزناً صادقاً ولا لوعة محرقة . وإنما أحسست كأنك تقرأ شعر طالب وضع أمامه نماذج من الشعر القديم وأراد محاكاتها فأخذ معانى القدماء ونهب مذهبهم في الغلو السقيم أحياناً . وكأنه لم يدفع إلى هذا الرثاء بطبيعته الرقيقة المحزونة وإنما دفع إليه بمجاملة أصدقائه من الإباظيين . فانظر إلى هذه الدالية مثلاً فسترى أن حافظاً ـ رحمه الله ـ قد كان فيها عيالاً على دالية أبى العلاء التى مطلعها :

---

(١) حافظ إبراهيم ـ بقلم حسين المهدى غنام ٣٧ .
(٢) العمدة ١ / ١١٤ .
(٣) ذكرى الشاعرين ٤٨ .
(٤) المرجع السابق ٣٩ ، حافظ وشوقى ١٣٨ .

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نوحُ باكٍ ولا ترنم شادي(١)

أخذ معنى من معانيها فجعل يطوله ويمد فيه ويقلبه على وجوه عدة ولكنه لم يجوده ولم يأت فيه بطائل ولم يبلغ منه بعض ما بلغ أبو العلاء . قال حافظ :

أيهذا الثرى إلام التمادى بعد هذا أأنت غرثان صادى
أنت تروى من مدمع كل يوم وتغذى من هذه الأجساد
قد جعلت الأنام زادك في الدهـــــر وقد آذن الورى بالنفاد
فالتمس بعده المجرة ورداً وتزود من النجوم بزاد

فانظر إلى هذين الأخيرين فسترى فيهما مبالغة أشبه بمبالغة الناشئين في الشعر لا تستقيم مع العقل ولا تكاد تدل على شيء . وكيف بشاعر يزعم أن التراب قد أكل الناس حتى كاد أن يأتي عليهم وشرب الدموع حتى كاد يستغرقها . وينصح له أن يلتمس شرابه في المجرة وطعامه في النجوم .

وحافظ يمضي في التفصيل والتطويل دون أن يبلغ قول أبي العلاء :

خفف الوطء ما أظن أديم الأر ض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العـهـــــد هوان الآباء والأجداد

أما الأستاذ أحمد محفوظ فقد أثنى على قصائد حافظ في رثاء مصطفى كامل وسعد زغلول وقال عن غير ذلك من شعر حافظ في الرثاء : (٢)

« ولكن قصائده الأخر كان أكثرها للمجاملات فنظمها من غير عاطفة فجاءت فاترة إلا في النادر القليل » .

ولكني أخالف ـ وبكل قوة ـ ما حكم به الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد محفوظ على معظم رثاء حافظ بأنه خال من العاطفة أو بفتورها أو باتصافه بعدم الصدق لأنه قيل اضطراراً لمجرد المجاملة . فشعر حافظ في الرثاء ملىء بالعاطفة

---

(١) ديوان سقط الزند للمعرى ١١١ .
(٢) حياة حافظ إبراهيم ١٩٥ .

القوية الصادقة الحزن إلا في النادر القليل منه . فقد كان حافظ ينطق بما يحس به وبما يملأ قلبه من حزن وأسى ولم يكن من هؤلاء الشعراء الذين يقولون بما لايحسون ولا من الذين يعدّون رثاء من سيموتون قبل موتهم . هؤلاء الذين تشبهوا بأبي نواس في إعداده رثاء الأحياء قبل أن يموتوا حتى يتلوه على قبورهم حين موتهم .

« قيل لأبي نواس : ما هذه المراثي التي تعدها لناس أحياء لا يزالون في الدنيا ؟ فأجاب : وماذا أصنع ؟ يموت عم الخليفة أو أخوه أو خاله فيطالبونني بالرثاء . والشعر لا يطاوع في كل آن . فإذا مات واحد من هؤلاء وجدت رثاءه معدآ فأقدمه »[1] وسوف تكون لنا رجعة للحديث عن صدق حافظ في رثائه فيما بعد .

من هذا كله ندرك أن تقليد حافظ للشعراء الأقدمين وتأثره في رثائه بكثير من معانيهم لا يغض من منزلته ولا من قيمة شعره ولا ما اتسم به من صدق وقوة .

٢ - كان حافظ في قصائد الرثاء يتحدث عن الموضوع مباشرة فخلت قصائده من الحديث عما كان يبدأ به الشعراء القدامى قصائدهم الشعرية من غزل أو وصف الأطلال أو الحديث عن الخمر . والقصيدة الوحيدة في رثاء حافظ التي بدأها بما يشبه القول في الخمر والطرب هي قصيدته في رثاء عثمان بك . فقد بدأها بأمر صاحبيه برد كؤوسهما عنه والكف عن الشراب والطرب والغناء فليس ذلك اليوم يوم الراح والعود :

ردّا كؤوسكما عن شبه مفؤود فليس ذلك يوم الراح والعود

ولكن هذا الحديث في نظرى لا يخرج الشاعر عن البدء المباشر . إذ كل ما فعله هو أن طلب من صاحبيه الكف عن الشراب والطرب والغناء لفقد مصاب الفؤاد وعدم تناسب ما هم فيه مع الشراب والغناء .

وقد سار حافظ في هذه الظاهرة على النهج التقليدى في بدء قصيدة الرثاء . وهذا يتناسب مع موضوع الرثاء الذى يكاد يتنافى مع الغزل أو وصف الأطلال أو الحديث عن الخمر الذى كان يبدأ به كثير من الشعراء العرب في العصور الأولى قصائدهم في غير المراثي .

---

(١) حياة حافظ إبراهيم - أحمد محفوظ ١٩٦ .

بل إن حافظا قد اختار البدء بالرثاء لبعض قصائده غير الخالصة للرثاء . ففى قصيدته العمرية التى يتحدث فيها عن مناقب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وأخلاقه ويرثيه فيها بدأها بالرثاء والحديث عن مقتله . وإن كان بعض النقاد قد عابوا عليه بدأه لهذه القصيدة بالرثاء . وقد أصاب الأستاذ عبد الحميد حمدى ـ شارح بعض ألفاظ القصيدة وكلماتها اللغوية ـ فى الرد على هؤلاء النقاد حين قال : (١)

« هؤلاء متأثرون بفكرة الترتيب التاريخى . ولكنهم متى علموا أن حافظاً كان راثياً ومثنياً على عمر لا مؤرخاً سيرته أدركوا أنه أصاب فى استهلاله ليفجع ويستنزل غضب العالم على قاتل أعدل من حكم الناس » .

وإذا عرفنا أن البدء بالغزل أو وصف الأطلال أو وصف الخمر أمر غير مناسب لموضوع الرثاء وإبداء مظاهر الحزن والبكاء عرفنا شذوذ ما ورد من قصائد فى الشعر العربى بدأها قائلوها بالغزل أو بالوقوف على الأطلال أو بوصف الخمر قبل الرثاء . وقد ذكر بعضهم ابن رشيق فى قوله : (٢)

« وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك فى المدح والهجاء . وقال ابن الكلبى ـ وكان علامة ـ : لا أعلم مرثيةً أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أرثَّ جديد الحبل من أم معبد بعافيةٍ وأخلفت كل موعد ؟

وعن على بن سليمان عن أبى العباس الأحول أن القصيدة التى لأبى تحافة أعشى باهلة إنما هى لابنة المنتشر واسمها الدعجاء . قال : وقال على بن سليمان : حدثنى أبى أن أولها :

هاج الفؤاد على عرفانه الذِكَرُ ونكر خوبٍ على الأيام ما يذرُ

---

(١) عمرية حافظ بك إبراهيم ـ تقديم محمد بك الخضرى ـ المطبعة الرحمانية بمصر ـ بدون تاريخ ص ٤ .

(٢) العمدة ٢ / ١٥١ .

قد كنت أنكرها والدار جامعة   والدهر فيه هلاك الناس والشجر

ثم قال ابن رشيق عن عدم بدء قصيدة الرثاء بالغزل : (١)

« وأنا أقول : إنه الواجب فى الجاهلية والإسلام وإلى وقتنا هذا ومن بعده . لأن الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة ، والاهتمام بالمصيبة وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة وحين أخذ ثاره وأدرك طلبته . وربما قال الشاعر فى مقدمة الرثاء : « تركت كذا » أو « كبرت عن كذا » و « شغلت عن كذا » وهو فى ذلك كله يتغزل ويصف أحوال النساء . وكان الكميت ركاباً لهذه الطريقة فى أكثر شعره » .

٣ ـ تميز شعر حافظ فى الرثاء ـ كما تميز شعره عموماً ـ بسهولة الألفاظ ووضوحها وندرة الغريب فيها . وقد أشار إلى هذه الظاهرة فى شعر حافظ الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فقال : « ولو أنك أجريت شعر حافظ فى أبلغ ما قاله المطبوعون من الأعراب وشعراء القرن الأول لالتأم به وزاد عليه فى الصناعة وبعض المعنى . وقلّ أن تجد فى شعره كلمة ينبو بها مكانها إلا ألفاظا قليلة كان يستكرهها يحسب أن يستطرفها منها ويرى فى غرابتها شيئاً جديداً » (٢)

ولعل سهولة ألفاظ حافظ وخفتها فى شعره راجع إلى أنه كان فى كثير من شعره يخاطب الجماهير ويعبر عن أحاسيسهم ومشاعرهم . وهذا ما يدفعه إلى اختيار اللفظ الواضح القريب من أفهام السامعين .

على أن طبيعة حافظ الواضحة البعيدة عن الغموض والالتواء كانت سبباً آخر فى قلة ما ورد فى شعره من الغريب أو الغامض . وبجانب هذا وذاك كان لثقافة حافظ البسيطة أثر فى بعده عن التعمق فى ألفاظ اللغة وميله إلى البساطة فى ألفاظه ومعانيه .

---

(١) العمدة ٢ / ١٥٢.

(٢) وحى القلم ٣ / ٢٧٨ .

واقعياً معنى رثاءه كله قصيدة قصيدة فلن تجد فيها لفظاً غريباً أو عبارة غامضة إلا في القليل النادر . ومن هذا القليل النادر لفظ « المستاف » في قوله في رثاء الإمام محمد عبده :

أنسى الأحياء ذكرى (عبده)   وهي للمستاف من مسك وطيب (١)

ولفظ « ممعود » في قوله في رثاء محمود سامي البارودي :

وأوحش الشرق من فضل ومن أدب   وأقفر الروض من شدو وتغريد

وأصبح الشعر والأسماع تنبذه   كأنه دسم في جوف ممعود (٢)

ولفظ « مصالبة » في قوله في رثاء الزعيم مصطفى كامل :

فمن ملاينة أستارها خدع   إلى مصالبة أستارها وهم (٣)

ومع ذلك فهذه الألفاظ وأمثالها ليست غريبة في ذاتها وإنما غرابتها ترجع إلى عدم تعود الآذان على سماعها لقلة تكرارها وإلا فإنها واضحة غير بعيدة المعنى . ومع سهولة ألفاظ حافظ وخفتها في شعره كان حافظ يهتم أكثر ما يهتم بجمال اللفظ ورصانته واختيار الألفاظ التي يحسن وقع جرسها في الآذان . ولقد جاء شعره في هذا متفقاً مع نظرته إلى الشعر الجيد . فقد ذكر الأستاذ عبد العزيز البشرى أن حافظاً « يرى - ولقد يرى معه كثير - أن جلال الشعر وبهاءه ليسا في التعلق بدقائق المعاني وإن تزايلت من دونها الألفاظ . وإن أدق المعاني وأجلها لقد تقع للدهماء في حوارهم ومنازع كلامهم . أما إشراق الديباجة وفصاحة القول وتلاحم النسج ورصانة القافية فذلك الشعر . أليس يبهرك ويروعك ويشيع فيك الطرب قول البحتري مثلاً : (٤)

ذاك وادي الأراك فاحبس قليلاً   مقصّرا من صبابة ومطيلا

---

(١) المستاف : الذي يشم الطيب .
(٢) الممعود : هو الذي أصيب في معدته .
(٣) المصالبة : تعني الشدة والقوة .
(٤) ديوان البحتري - شرح وتحقيق : حسن كامل الصيرفي - دار المعارف ١٩٧٧ م ج ٣ / ١٧٦٢ .

لم يكن يومنا طويلا بنَعْمَا ن ولكن كان البكاء طويلا

وقوله : (١)

وقفة في العقيق أطرح ثقلاً من دموعي بوقفةٍ في العقيق

وقول الشاعر :

ياليت ماء الفرات يخبرنا أين تولت بأهلها السفن

وقول الشاعر العربي :

فسائل بني جرم إذا ما لقيتهم وسعداً إذا جئت عليك بنو سعد

فإن يخبروك الحق عني تجدهم يقولون أبلى صاحب الفرس الورد

وبعد : فأى معنى في مثل هذا يرتفع على ما تبتذل به العامة في أحاديثهم وأسمارهم وفنون مناقلاتهم . إنما خطره كله في لطف الصياغة وشدة القول وقوة الأسلوب . ولو قد نمبت تؤدى بلغة أخرى أفخر ما نظم البحترى وأبو تمام وأضرابهما من أعيان الشعر ما خرجت من ذلك بجليل . ولو أنك تعمدت أبلغ ما قالوا فنقضت غزله ونثرت نظمه ما عدا أن يكون كلاماً من أوسط ما اعتاده الناس من كلام(٢)ه .

وهكذا كان حافظ يولي الألفاظ والعبارات اهتماماً خاصاً حتى تجيء على أحسن ما تكون ملاءمة لذوق جماهير الشعب وثقافاتهم وأفهامهم حتى تميزت أشعاره على اختلاف موضوعاتها بالديباجة المشرقة والألفاظ الجذلة و العبارات الرشيقة .

وقد ذكرت منذ قليل الأسباب التي قد تكون وراء سهولة ألفاظ شعر حافظ وخفتها . وهنا أذكر كلام الدكتور : حسن أحمد الكبير في بيان أسباب اهتمام حافظ بالألفاظ والصياغة في شعره . يقول : (٣)

« ويرجع سبب اهتمام حافظ بالألفاظ ومتانة الصياغة حتى إنه ـ كما يقول ـ يميت المعنى إذا لم يتفق له لفظ رائع ـ لعدة عوامل أهمها :

---

(١) ديوان البحترى ٣ / ١٤٨٢ .

(٢) من مقال بعنوان : « حافظ في المرآة » نشر في كتاب : ذكرى الشاعرين ـ تقديم : أحمد عبيد ٥١ ، ٥٢ .

(٣) تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث ١١١ .

أولا : نشأة حافظ الفقيرة وثقافته المتواضعة وبؤسه وحرمانه الذى لازمه طوال حياته مما لم يمكنه من الوقوع على المعانى الغالية والأخيلة المهومة فى مجال الطبيعة واستبطان النفوس ودخائل القلوب .

وثانيا : لأن اهتمام حافظ الزائد بالجماهير وحرصه على مخاطبتهم والتأثير فيهم بلغة واضحة لا التواء فيها جعله يضع فى اهتمامه الأول الصياغة المحكمة واللفظ المنتقى .

ولعل ما وهبه الله من مقدرة على التمكن من الإلقاء وإخراج الحروف إخراجاً متميزاً بتأثيره السحرى فى النفوس قد عوض ما كان لدى حافظ من ضآلة الفكرة وبساطتها وقربها » .

٤ ـ ومن الظواهر البارزة التى اتسم بها شعر حافظ فى الرثاء : ظاهرة التكرار .

والتكرار إذا كان لغرض لفظى أو معنوى فلا بأس به بل هو شىء مفيد يخدم المعنى ويزيده حسناً وجمالاً .

ويأتى التكرار فى قصائد حافظ على عدة صور : فهو أحياناً يكون بتكرار كلمة واحدة وأحياناً أخرى يكون بتكرار جملة وثالثة يكون بتكرار شطر بيت بأكمله .

ـ فمن النوع الأول ـ وهو تكرار كلمة واحدة ـ قول حافظ فى هذين البيتين اللذين قالهما ليكتبا على قبر السيد عبد الرحمن الكواكبى : (١)

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى ... هنا خير مظلوم هنا خير كاتب

قفوا واقرءوا أم الكتاب وسلموا ... عليه فهذا القبر قبر الكواكبى

وقد كرر حافظ لفظ (هنا) ليكون وسيلة لتعداد الصفات الطيبة للمرثى ولاستحضار صورة الفقيد أمام أعين المخاطبين وفى أذهانهم فيزداد الحزن والأسى .

وشبيه بهذا التكرار قول حافظ فى رثاء الزعيم مصطفى كامل فى قصيدته الميمية :

هنا جثمان تعالى الله بارئه ... ضاقت بآماله الأقدار والهمم

---

(١) الديوان ٤٥٢ .

هنا فم وبنان لاح بينهما | فى الشرق فجر تحيى ضوءه الأمم
هنا فم وبنان طالما نثرا | نثراً تسير به الأمثال والحكم
هنا الكمى الذى شادت عزائمه | لطالب الحق ركناً ليس ينهدم
هنا الشهيد هنا رب اللواء هنا | حامى الذمار هنا الشهم الذى علموا

وتكرار لفظ (هنا) أدى نفس الغرضين السابقين بجانب ما أفاده من حسن الألفاظ وتزيينها وجمال وقعها فى السمع .

من ذلك أيضاً قول حافظ فى نفس القصيدة السابقة :

إنى أرى وفؤادى ليس يكذبنى | روحاً يحف بها الإكبار والعظمُ
أرى جلالاً أرى نوراً أرى ملكاً | أرى محياً يحيينا ويبتسم

وأفاد تكرار لفظ (أرى) فى هذين البيتين تجسيم كل معنى من المعانى التى أتت بعده فى كل مرة وكأن حافظاً يرى ببصره كلاً منها شاخصة أمام ناظريه .

ومن ذلك أيضاً قول حافظ فى رثاء عبد الخالق باشا :

هو مستقيم ملتو هو لين | صلب هو الواعى هو المتغابى
هو حوّل هو قلّب هو واضح | هو غامض هو قاطع هو نابى
هو ذلك الطلسم من أعيا الحجا | حلاً ومات ولم يفز بطلاب
هو ما تراه مفاوضاً كيف انبرى | لكبيرهم بذكائه الوثاب

وأفاد تكرار لفظ (هو) فى هذه الأبيات إثبات كل هذه الصفات المتناقضة للمرثى لا لغيره فهو المستقيم وهو الملتو . وهو اللين وهو هو - لا غيره - الصلب.وهو الواضح وهو هو - لا غيره - الغامض ..... وهكذا .

ويخيل لى أنه لولا تكرار الشاعر لهذا اللفظ لتوهم القارىء أن هذه الصفات ليست كلها لشخص واحد ، وخوف الشاعر من هذا التوهم جعله يكرر هذا اللفظ ليثبت له هذه الصفات المتناقضة حتى يصل فى النهاية إلى الوصف الذى أراد أن يثبته له من وراء وصفه بكل هذه الصفات وهو : هو ذلك الطلسم من أعيا الحجا حلاً .

ـ ومن النوع الثاني وهو تكرار جملة تامة قول حافظ في ر... سليمان أباظة باشا :

رحم الله منه لفظاً شهياً كان أحلى من رد كيد الأعادى
رحم الله منه طرفاً تقياً ويميناً تسيل سيل الغوادى
رحم الله منه شهماً وفياً كان ملء العيون في كل نادى

وتكرار جملة (رحم الله منه) أفاد تكرار الدعاء للمرثي بالرحمة بتكرار الصفات الطيبة التي اتصف بها والأعمال الجليلة التي كان يقوم بها .

ومثل هذا قول حافظ في رثاء الإمام محمد عبده :

رحمة الله عليه كلما خرج التفسير عن طوق الأريب
رحمة الرأى عليه كلما طاش سهم الرأى في كف المصيب
رحمة الفهم عليه كلما دقت الأشياء عن ذهن اللبيب
رحمة الحلم عليه كلما ضاق بالحدثان ذو الصدر الرحيب

وقد كرر الشاعر هنا الرحمة على الفقيد كلما احتاج المسلمون إليه في أحد الميادين التي نبغ فيها المرثي ليبرز مدى حاجة المسلمين إلى الإمام وعلمه في ميادين متعددة وليبين مدى المهام التي كان يقوم بها والتي تعطلت بموته .

ومن تكرار الجملة أيضاً قول حافظ في رثاء أبي الفتوح باشا حيث يتحسر الشاعر على غياب تلك الأنامل التي طالما خطت الكلمات العذبة والعبارات الهادفة والتي طالما حل بما تخطه أعقد المشاكل وأصعبها وأدقها والتي طالما أمدها الفقيد بالعطاء والهبات الجزيلة للعفاة السائلين :

لهفي عليها في الطروس تسيل سيل الجدول
لهفي عليها في الجداول تحل عقد المشكل
لهفي عليها للرجاء وللعفاة السؤّل

ولعظم ما كانت تقوم به تلك الأنامل كرر الشاعر تحسره عليها ليدل ذلك على عظم الخطب وشدة المصيبة .

- ومن النوع الثالث - وهو تكرار شطر البيت جميعه - قول حافظ فى رثاء الزعيم محمد فريد :

فقدت مصر فريداً وهى فى   موطن يعوزها فيه المدد
فقدت مصر فريداً وهى فى   لهوة الميدان والموت رصد

وقد كرر الشاعر الشطر الأول فى هذين البيتين ليصور عظم الخطب الذى أصيبت به مصر بفقدها فريداً وهى فى أشد حاجتها إليه وإلى جهاده ، وليؤكد أن مصر كلها قد تأثرت بهذا المصاب وأن موته ليس خسارة مقصورة على فئة دون أخرى .

هذا وقد يكون التكرار فى شعر حافظ تكراراً للصورة الواحدة فى عدة قصائد . وهذا راجع إلى كون الصورة تقليدية قديمة . وتحدث الدكتور عبد الفتاح عثمان عن تكرار الصورة فى رثاء الشعراء الكلاسيكيين من أمثال شوقى وحافظ فقال : (١)
« فإذا كان المرثى زعيماً أو وزيراً فهو الحسام والسيف والقناة والشمس والكوكب إلى آخر هذه الصفات . وإذا كان فناناً فهو البلبل ومزمار داود . فالصورة تحولت إلى (أكليشيه) يوضع مع كل قصيدة » .

ونحن نرى فعلاً صوراً كثيرة تكررت فى رثاء حافظ وغيره من الكلاسيكيين ولكنها ليست بهذه الكثرة التى ذكرها الدكتور عبد الفتاح . فالشاعر من هؤلاء ينوع فى صوره لتشابه الميادين التى عمل بها عدد ممن يرثيهم الشاعر مما يضطر معه إلى تكرار بعض الصور فى أكثر من قصيدة .
ومن الصور التى كررها حافظ فى رثائه صورة بكاء العالم الإسلامى كله بل بكاء الشرق كله حزناً على الفقيد ومشاركة مصر فى مصابها الأليم . نرى هذا فى رثاء حافظ للإمام محمد عبده حين يقول :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة   وضاقت عيون الكون بالعبرات

---

(١) من مقال بعنوان : الرثاء فى شعر شوقى وحافظ . بمجلة الثقافة - العدد ١٠٩ ص ٦٥ .

ففى الهند محزون وفى الصين جازع — وفى مصر باكٍ دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب — وفى تونس ما شئت من زفرات
بكى عالَم الإسلام عالِمَ عصره — سراج الدياجى هادم الشبهات

ونراها فى رثائه للزعيم سعد زغلول حين قال :

جزع الشرق كله لعظيم — ملأ الشرق كله إعجابا
علّم الشام والعراق ونجداً — كيف يُحمَى الحمى إذا الخطب نابا

ونكر مثل هذه الصورة فى مطلع رثائه للدكتور يعقوب صروف فقال :

أبكى وعين الشرق تبكى معى — على الأريب الكاتب الألمعى

ومن الصور التى كررها حافظ صورة رحيل زعيم من زعماء الأمة فى وقت كانت فيه مصر أشد ما تكون حاجة إليه ولذا فقد تعرضت مصر من بعده للإيذاء وتعرض أهلها للبطش والتعذيب على أيدى الاستعمار :

نرى مثل هذه الصورة فى رثائه لمصطفى كامل حين قال :

غادرتنا والحادثات بمرصدٍ — والعيش عيش مذلةٍ وإسار
ما كان أحوجنا إليك إذا عدا — عادٍ وصاح الصائحون : بَدَار

ونراها فى رثائه للزعيم محمد فريد حين يقول :

فقدت مصر فريداً وهى فى — موطن يعوزها فيه المدد
فقدت مصر فريداً وهى فى — لهوة الميدان والموت رصد
فقدت منه خبيراً حوّلاً — وهى والأيام فى أخذ ورد
لم يكد يمتعها الدهر به — فى ربوع النيل حيًا لم يكد

وهكذا ورد التكرار فى شعر الرثاء عند حافظ بصور شتى . وهى ظاهرة لا بأس بها لأنها جاءت لغرض خدمة المعنى وتقويته وتأكيده فكأن المعنى هو الذى طلبها واستدعاها.

٥ ـ تميز أسلوب حافظ فى رثائه ـ وفى شعره عامة ـ بالسهولة واختيار اللفظ الجزل المتلائم مع ما يجاوره من ألفاظ . فجاء أسلوبه متسماً بالرصانة ودقة النظم وقوة

العبارة مع سهولتها وسلاستها . مما أعان على تجلية حافظ لشخصية المرثى وإعطائها حقها من الإجلال والإكبار مجلياً ما برع فيه الفقيد من ميادين وما تركه من آثار فى ميادين الوطنية أو الإصلاح أو العلم والأدب .

ولقد جاء شعره كله متسماً بهذا الأسلوب السهل ذى الديباجة المشرقة واللفظ السهل والعبارة الواضحة البليغة . « وقل أن تجد فى شعره كلمة ينبو بها مكانها إلا ألفاظاً قليلة كان يستكرهها يحسب أنه يستطرف منها ويرى فى غرابتها شيئاً جديدا . وهذا من خطأ رأيه فى الأسلوب لأنه مع بلاغته كان ينقصه أن يكون فيلسوفاً فى البلاغة . وأنا أرى أنه لو تمت له الموهبة الفلسفية لما جاراه شاعر آخر . ولكن الكمال عزيز فى البشرية » . (١)

وقد بين الأستاذ الرافعى أثر ضعف الموهبة الفلسفية لدى حافظ على شعره فقال : (٢)

« وضعف الموهبة الفلسفية فى حافظ عوضه ناحية أخرى من أقوى القوة فى الشعر وهى امتداؤه إلى حقيقة الغرض الذى ينظم فيه وتركه الحوشى والزيادات وانصراف قواه إلى دقة الوصف حين يصف وتعويله على إحساسه أكثر من تعويله على فكره . فزاد ذلك فى رونق شعره ومائه ونحا به منحى المطبوعين فخرج يتدفق سلاسة وحلاوة ممتلئاً من صواب المعنى وبلاغة الأداء وقوة التأثير . وبهذا نبغ فى الرثاء ووصف الفجائع نبوغاً انفرد به حتى لأحسب أن هناك روحاً يمده فى هذه المواقف . وأن الحقيقة تتبرج له فى هذه العظائم خاصة ليرى منها ما لايراه غيره . وهو يتحد بالعظيم الذى يرثيه فيجيد فيمن يعرفه إجادة منقطعة النظير تتبين الفرق بينها وبين شعره فيمن لا يعرفه تلك المعرفة . وأحسبه يسأل روح العظيم الذى يصفه أو يرثيه :

---

(١) من مقال بعنوان : « حافظ الشاعر الاجتماعى » للأستاذ مصطفى صادق الرافعى ـ نشر بكتاب ذكرى الشاعرين ص ١٣٣ .

(٢) المرجع السابق ١٣٤ .

أين المعنى الذى فيه حقيقتك ؟ وأين الحقيقة التى فيها معناك ؟ » .

ويبين الأستاذ الرافعى المراد من الموهبة الفلسفية فى الشعر أو الفلسفة الشعرية ومدى توافرها فى شعر حافظ فيقول :

« والفلسفة الشعرية كلها أن يحل فى الشاعر الملهم ذلك السر الجميل الجاذب والمنجذب معاً المستقر والمتحول جميعاً . الباطن والظاهر فى وقت فيكتنه الشاعر ما لايدركه غيره فيقف على الجمال والحسن والرقة ويلهم الحكمة والبصيرة ويتناول الأغراض بالتحليل والتركيب ويؤتى التعبير عن كل ذلك فى طريقة خاصة به هى أسلوبه . وهذا لم يتفق على أتمه وأحسنه فى حافظ فقصر به فى توليد المعانى المبتكرة ونزل به فى الغزل ووصف الجمال . بيد أنه اتفق له مثل هذا الجلال بعينه فى (الجانب المتألم من شعره) أى الرثاء والشكوى ووصف الفجيعة . ولو ذهبت تستعرض المراثى فى الشعر العربى ومثلت بينها وبين رثاء حافظ للعظماء الذين خالطهم كالأستاذ الإمام والبارودى ومصطفى كامل وثروت لراعك أنك واجد للشعراء ما هو أسمى من معانيه وأقوى من خياله ولكنك لا تجد البته ما هو أفخم وأدق مما جاء به فى هذا الباب كأنه منفرد فى العربية بهذه الخاصة » .

وأرى أن انعدام تلك الموهبة الفلسفية أو الفلسفة الشعرية وإن كانت قد أصابت شعره بالنقص فى ناحية فإنها كانت خيراً وبركة على هذا الشعر فى نواح أخرى . فقد كان لها أثرها فى ضعف غزله ووصفه للجمال . ولكنها كانت عاملاً مساعداً فى اهتدائه إلى حقيقة الغرض الذى ينظم فيه وتركه الحوشى والزيادات وتعويله على إحساسه أكثر من تعويله على فكرة . وهذا ما وهبه قوة القول فى الجانب المتألم من شعره .

وهذا مثال من رثاء حافظ نرى فيه خلو أسلوب حافظ من الروح الفلسفية وتعويله فيه على إحساسه ومشاعره مما جعل أسلوبه يفيض سلاسة ورقة .

يقول حافظ فى رثاء محمود سليمان باشا الذى أحس حافظ بنعمه عليه وعلى والده فى صغره والذى لمس فيه صفة العطف والكرم والتحرى فى جمعه للمال وبذله إياه فى الأعمال العظيمة . وقد ترجم حافظ عن إحساسه هذا فى رثائه له فقال :

قضيتها مائة فى كل واحدة ... تعد زادك من بر وإحسان
فكم صفحت عن الجانى ولم تره ... وكم غرست وكان المعوز الجانى
وكم أقلت كريماً عند عثرته ... وكم مشيت بصلح بين إخوان
إنى رأيتك قبل الموت فى فلكٍ ... من الجلال على جنبيه نوران
نور اليقين ونور الشيب بينهما ... سكينة حركت نفسى ووجدانى
على جبينك آيات الرضا ارتسمت ... وبين جنبيك قلب غير وسنان
قسمت ما جمعت كفاك من نشبٍ ... على بنيك فكنت الوالد الحانى
مال حلال مزكى ما خلطت به ... مسليم سحت ولاحقا لإنسان
كم نعمة لك يامحمود عند أبى ... بشكرها لك عند الموت أوصانى

فمن يقرأ هذا الشعر ـ ومثله كثير فى شعر حافظ ـ يشعر بأنه خرج من نفس بسيطة أحست بلذع الحزن ومرارة الفقد فعبرت عما تحس وترجمت ما تشعر به . ولعل هذا هو السبب فى خلو رثاء حافظ من الفلسفة ولغة المنطق اللذين يعتمدان على الروية والتفكير وإعمال العقل .

٦ ـ كان حافظ إبراهيم يميل إلى تشخيص المعانى وتجسيمها وتصويرها أمام القارىء فى صور متحركة وأشكال تتراءى أمامه حتى تؤدى الغرض منها وهو التأثير فى السامعين وإثارة معانى الحزن والألم فى نفوسهم والإحساس بعظمة الفقيد وضخامة المصيبة فى فقده .

ومن ذلك أبياته التالية التى قالها فى رثاء الزعيم مصطفى كامل التى يصف فيها عظمة هذا الزعيم وعلو شأنه ويناشد أبناء الأمة أن يقسموا على الذود عن مبادئه والسير على دربه فى الثورة ضد الظلم وتطهير البلاد من المستعمرين فيقول :

إنى أرى وفؤادى ليس يكذبنى ... روحا يحف بها الإكبار والعظم
أرى جلالاً أرى نوراً أرى ملكاً ... أرى محيًّا يحيينا ويبتسم
الله أكبر هذا الوجه أعرفه ... هذا فتى [illegible]

غضوا العيون وحيوه تحيته ... من القلوب إذا لم تسعد الكلم
وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه ... فنحن في موقف يحلو به القسم
لبيك نحن الألى حركت أنفسهم ... لما سكنت ولما غالك العدم
جئنا نؤدي حساباً عن مواقفنا ... ونستمد ونستعدي ونحتكم

فألفاظ حافظ وعباراته ومعانيه في هذه الأبيات ـ كما يقول الدكتور حسن أحمد الكبير ـ « مرسومة رسماً دقيقاً منظماً · بل إنها تتميز بميزة ظاهرة وهي هندسة عقلية محكمة وهندسة لفظية دقيقة تتمثل في تقطيع الجمل وتتابع جرسها وتلاحق معانيها وجمال الصور في إطار من الروعة والدهشة والتعرف والمناشدة · فحافظ يدهش ويذهل لرؤية الجلال والنور · ثم تسلمه هذه الدهشة إلى الصياح بأعلى صوته : « هذا فتى النيل هذا المفرد العلم » · ثم يتجه بحديثه إلى الجماهير موجها : « إنكم أمام الزعيم فغضوا أبصاركم إكباراً وإجلالاً وحيوه تحية الوفاء والحب وتعاهدوا على الذود عن مبادئه » (١)

ويسجل الدكتور طه حسين إعجابه بهذه الأبيات فيقول : (٢) « لو قرأها أرسطاليس صاحب الخطابة ومنشيء علم البيان لما تردد في أن يتخذها مثلاً لما يسميه في الكتاب الثالث من الخطابة وضع الشيء تحت العين » ·
وهكذا وفق حافظ في تشخيص معاني هذه الأبيات وجعل جهاد الزعيم المرثي ضد الاستعمار هيكلاً مجسماً يراه المخاطبون ويجب أن يتخذوه مثالاً لهم يحتذون به ويسيرون على هديه ومعالمه ·

وإذا كانت المعاني التي رددها حافظ في كثير من قصائده في المراثي مألوفة ليس فيها كثير تجديد فهذا ما لابأس به ولا اعتراض عليه · لأن الآلام

---

(١) تطور القصيدة الغنائية ١١٤ .
(٢) حافظ وشوقي ١٤٦ .

والأحزان تتجدد بتجدد رحيل الراحلين · والمهم هنا أن يجيد الشاعر التعبير عن هذه الآلام ويبرع في تصوير أحاسيس الشعب وآلامه · ولقد بلغ حافظ في ذلك مبلغاً كبيراً ونجح إلى حدٍّ بعيد في تصوير مشاعره ومشاعر الشعب وآلامه تجاه الفقيد وتجسيم هذه الصور وتشخيصها ·

اقرأ معي أبياته التي يصور فيها آلام الشعب وأحزانه وهو يشيع جثمان زعيمه مصطفى كامل · وكيف جسم هذه الصور وجعلها معبرة أتم تعبير عن هول الموقف وعظم الخطب وشدة وقعه على نفوس أبناء الشعب على مختلف طوائفه حتى لقد خرجت النسوة ذوات الخدوريودعن الفقيد سافرات الوجوه حاسرات الرؤوس لأمنهن عيون الرجال لانشغال كل منهم بهول الموقف وشدة المصيبة : (١)

شاهدت يوم الحشر يوم وفاته ... وعلمت منه مراتب الأقدار

ورأيت كيف تفي الشعوب رجالها ... حقّ الولاء وواجب الإكبار

تسعون ألفاً حول نعشك خشّعٌ ... يمشون تحت لوائك السيار

خطوا بأدمعهم على وجه الثرى ... للحزن أسطاراً على أسطار

آناً يوالون الضجيج كأنهم ... ركب الحجيج بكعبة الزوار

وتخالهم آناً لفرط خشوعهم ... عند المصلى ينصتون لقاري

غلب الخشوع عليهمُ فدموعهم ... تجري بلا كلح ولا استنثار

قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم ... ما بين سيل دافق وشرار

أسعى فيأخذني اللهيب فأنثني ... فيصدني متدفق التيار

لو لم ألذ بالنعش أو بظلاله ... لقضيت بين مراجل وبحار

كم ذات خدر يوم طاف بك الروى ... هتكت عليك حرائر الأستار

سفرت تودع أمةً محمولةً ... في النعش لا خبراً من الأخبار

أمنت عيون الناظرين فمزقت ... وجه الخمار فلم تلذ بخمار

قد قام ما بين العيون وبينها ... ستر من الأحزان والأكدار

---

(١) انظر ما كتب حول هذه الأبيات في صفحة ٣٣ من هذا البحث .

أما تصويره لحزنه هو وتجسيمه لشدة ما أصابه من ألم وحزن فنختار منه تلك الأبيات التى عبر بها عن سوء ما أصابه وعن سوء حالته بعد أن سمع بخبر وفاة الزعيم سعد زغلول فقال :

أين سعد ؟ فذاك أول حفل	غاب عن صدره وعاف الخطابا
لم يعود جنوده يوم خطب	أن ينادى فلا يرد الجوابا
علَّ أمراً قد عاقه علَّ سقماً	قد عراه لقد أطال الغيابا
أى جنود الرئيس نادوا جهاراً	فإذا لم يجب فشقوا الثيابا
إنها النكبة التى كنت أخشى	إنها الساعة التى كنت آبى
إنها اللفظة التى تنسف الأنـ	ـفس نسفاً وتفقر الأصلابا
مات سعد لا كنت (يامات سعد)	أسهاماً مسمومة أم حرابا
كيف أقصدت كل حىٍّ على الأر	ض وأحدثت فى الوجود انقلابا
حسـرة عنـد أنـةٍ عنـد آهٍ	تحتهـا زفـرة تذيب الصلابـا

ومن يقرأ هذه الأبيات يحس بأنه يرى إنساناً أخرجته المصيبة عن صوابه وحولته إلى إنسان غير سوى لا يدرى بما يقول . (١)

وهكذا نجح حافظ فى تشخيصه لمعانيه وتجسيمه لها فى صورة حية تدل على هول الموقف وشدة المصيبة وعظم الخطب . وهذه ميزة توفرت فى رثائه فضلاً عن وجودها فى شعره كله .

٧ ـ ومن سمات شعر الرثاء عند حافظ إبراهيم صدق العاطفة والتعبير عن إحساس واقعى وشعور حقيقى . ويرجع ذلك ـ فى رأى كثير من الأدباء ـ إلى ما اتصف به حافظ من وفاء وإخلاص ومودة بجانب اتصافه بالحس القو ى وعدم حمله لأحد مكروهاً أو ضغينة . « وما أحسب أنى أعرف شاعراً من شعراء العربية فى العصر الحديث قد بلغ فى الرثاء ما بلغه حافظ . فكثير منهم يرثون فيحسنون

---

(١) انظر ما كتب حول هذه الأبيات فى صفحة ٥٩ امن هذا البحث .

الرثاء ويجيدون وصف الفقيد الراحل وتعديد خلاله ومآثره ويصورون ذلك كله تصويراً يلذ العقول والأسماع ولكنهم لا يثيرون ما في النفوس من عواطف الحزن الكامنة . وسبب ذلك أن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن عن غير حزن صادق وينوحون ولكن عن غير لوعة محرقة . فهم يرثون لأنهم يفهمون أن الرثاء من فنون الشعر يجب أن يشاركوا فيه كارهين أو راضين .

أما حافظ فكان يرثي في صدق وحرارة لأنه يحزن ويتفجع ولأن نفسه كانت بريئة من الضغينة والحقد » . (١)

ولقد شب حافظ وفي قلبه ونفسه غير قليل من الحزن والأسى . فلقد ذاق مرارة اليتم مبكراً وامتلأت حياته بالبؤس والإعدام . فطبعت نفسه على الحزن وفطر قلبه على الأنين والألم رغم ما كان يظهره من السرور المصطنع والضحك المتكلف . فإذا فقد صديقاً أو أحداً ممن اتصل بهم جزعت نفسه أشد الجزع واستجاب بقوة لنداء القريض وانطلق لسانه معبراً عن حزنه وجزعه بشعر كله صدق وإحساس .

وقد عبر الأستاذ أحمد أمين عن صدق حافظ وقوة شعره إذا كان حزيناً فقال : « خير شعر حافظ ما اتصل بعاطفته الحزينة فأما فرح بالطبيعة وفرح بنفسه ونحو ذلك مما ينبعث عن عاطفة السرور فلم يكن له كبير مجال في شعره » . (٢) فلم يكن رثاء حافظ رثاءً مفتعلاً أو من شعر المناسبات وإنما بدت في الغالبية العظمى منه سمة الصدق العاطفي ولوعة المشاعر . وإن كان هذا الصدق قد زاد قوة في بعض مراثيه دون بعضها الآخر .

ومن هذا المنطلق فإنني لا أتفق مع الدكتور طه حسين في تقليله من شعر حافظ في رثاء جماعة الإباظيين حين قال بأن شعره في رثائهم متكلف لا يدل على حزن صادق

---

(١) حافظ إبراهيم شاعر النيل ١٣٠ ـ ١٣١ .
(٢) مقدمة الطبعة الأولى لديوان حافظ ٨٩ .

ولا على لوعة محرقة إنما دفع إليه بواجب المجاملة . (١) فإن قصائد حافظ التى إنشدها فى رثاء مؤلاء الناس تثبت لمن يقرأها أنها صدرت عن شاعر امتلأ قلبه بالحزن على المرثى وامتلأت نفسه بالوفاء لأفراد هذه الأسرة الذين جمعته بهم صداقة قوية ومودة مخلصة . واقرأ له معى قوله - على سبيل المثال - فى رثاء سليمان أباظة باشا عميد أسرة الإباظيين : (٢)

أنى حللتَ أرى عليك مآتماً	فلمن أوجه فيك حسن عزائى ؟
لبنيك أم لذويك أم للكون أم	للدهر أم لجماعة الجوزاء ؟
لاتحملوه على الرقاب فقد كفى	ما حملت من منّةٍ وعطاء
ونزوا على نهر المدامع نعشه	يسرى به للروضة الفيحاء

ويمكن أن نرجع ما فى رثائه لهؤلاء الناس من تقصير فنى - إذا كان موجودا - إلى أن حافظاً أنشد هذا الرثاء فى بداية شبابه وأول عمره الفنى . لكنه على كل حال صادر عن إحساس الشاعر ومعبر عن حزنه العميق .

وكان حافظ فى كل موقف من مواقفه الرثائية يذيب نفسه حسرة على المصاب ويندب حظه فى آلافه وحظ الأمة فى رجالها وحظ الشرق فى زعمائه وحظ الدين فى حماته . معبراً فى كل ذلك عن إحساس واقعى وعاطفة صادقة ومتأثراً فى ذلك بحياته التعسة التى تقلب فيها بين الشقاء والبؤس والألم مما جعل وتره الحزين يجيد عزف النغمات المفعمة بالحزن واللوعة . وقد قال هو عن نفسه : (٣)

ذقت طعم الأسى وكابدت عيشاً	دون شربى قذاة شرب الحمام
فتقلبت الشقاء زماناً	وتنقلت فى الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقباً فى فؤادى	ومشى الحزن ناخراً فى عظامى

---

(١) انظر فى ذلك : كتابه حافظ وشوقى ١٣٨ . وكتاب : ذكرى الشاعرين ٣٩ . وانظر ص ١٨٠ من هذا البحث .

(٢) الديوان ٤٤٩ .

(٣) الديوان ٢٨٨ .

ونلحظ سمة الصدق في الشعور والتعبير عن الإحساس الواقعي - كما قلت - في الغالبية العظمى من رثاء حافظ إبراهيم . وإذا أخذنا رثاءه للزعيم سعد زغلول -كمثال لذلك-فسوف نلحظ الصدق متحققاً في كل بيت من أبيات القصيدة . فقد كان سعد زغلول صديقاً لحافظ يغمره بفيض رعايته وكرمه وأنيساً له يأنس بجواره ويسعد بحديثه معه . بجانب أنه كان زعيماً شعبياً يحبه شعبه ويرون فيه خير معبر عن آلامهم وآمالهم في الحياة . لذا جاء رثاء حافظ له نغمة وفاء لكل هذه المعاني وكلمة صدق في تصوير مشاعره ومشاعر الجماهير العربية تجاه هذا الزعيم .

اقرأ معي بيته الأول في القصيدة وتأمل ما امتلأ به من معاني الأسى واللوعة :

إيه ياليل قد شهدت المصابا ... كيف ينصب في النفوس انصبابا

ثم اقرأ معي كلام حافظ وهو يخاطب هذا الليل بكلمات تمتلىء أسىً وحسرة طالباً منه أن يضفي على الوجود ثوباً من السواد حزناً على المصاب :

قد ياليل من سوادك ثوباً ... للدراري وللضحى جلبابا

انسج الحالكات منك نقاباً ... واحب شمس النهار ذاك النقابا

قل لها غاب كوكب الأرض في الأر ... ض فغيبي عن السماء احتجابا

والبسيني عليه ثوب حداد ... واجلسي للعزاء فالحزن طابا

ففي هذه الدرة الثمينة التي تفوه بها حافظ نقرأ كثيراً من المعاني الشريفة وقد صورت في أعذب لفظ وأحسن بيان وأكرم عبارة مع ابتعاده فيها عن الالتواء والتكلف مما كان سبباً في نيوعها وانتشارها على لسان كل عربي .

ومما يدل على واقعيته في رثائه بل على حنكته وخبرته بالأمور وحسن فراسته لما ستأتي به الأيام قوله في رثاء قاسم أمين . متحدثاً عن دعوته لتحرير المرأة :

الحكم للأيام مرجعه ... فيما رأيت فنم ولا تسل

وكذا طهارة الرأي تتركه ... للدهر ينضجه على مهل

فلقد نادى قاسم أمين بتحرير المرأة ومات قبل أن تؤتي دعوته ثمرتها المرجوة ولكن حافظاً كان ينظر إلى هذه الدعوة بعين الصدق واليقين فقال في رثاء قاسم هذين

البيتين وهو يعلم أن الدهر كفيل بإنضاج هذه الدعوة وإخراج ثمرتها . ولقد تحققت نبوءة حافظ فـ « أنضج الدهر رأى قاسم أمين على مهل ونهضت المرأة كما أراد لها . وهذان البيتان من أصدق الشعر الذى قرأناه للمتقدمين والمحدثين ومن أبلغ ما عرفناه فى شعر الرثاء أداة ومعنى ووقعاً فى النفوس . وإذا كان فيهما ما يعاب فلفظة « لا تسل » لأن صاحب الرأى كالوالد أو الأم الرءوم دائماً تحنو على أبنائها .
وإذا ماتت لم يكن شىء يؤلمها غير تركها بنيها وخصوصاً الصغار منهم » . (١)
وليس أدل على صدق حافظ فى رثائه من قوله فى رثاء تولستوى ـ الفيلسوف الروسى :

ولستُ أبالى حين أبكيك للورى   حوتك جنان أم حواك سعيرُ

فقد أبت عليه شاعريته الصادقة أن ترثى إنساناً كافراً بغير ما يستحقه وأن تتوقع له غير المصير الذى ينتظره جزاء كفره . ولم ترض أن تنافق أو تداهن فتعده بمغفرة الله له ودخوله الجنة لأن الله « لا يغفِرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ ويغفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاء » . (٢) ومن أجل ذلك ضحى حافظ بجمال البيت ونوقه ولم يستطع أن يضحى بصدق ضميره وشعوره .

وهكذا استجاب حافظ فى رثائه لنبض مشاعره وما تمليه عليه نفسه التى تمتلىء بالحزن لموت صديق أو زعيم أو عالم أو أديب . وهذا ما جعل رثاءه صادقاً . وصدقه كان أهم ما جعله مؤثراً فى وجدان كل من يقرأه .
اقرأ معى قول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد وهى تتحدث عن تأثير رثاء حافظ فى نفسها ولمسه لمشاعرها : (٣)
« نفَّس حافظ عن نفسه بالرثاء . ولعل هذا سر إجادته له . فقد عاش يتيماً مقلاً معذباً لم يرض غرائز الوالدية والتملك والسيطرة فيه . فما أن يأخذ فى الرثاء حتى يفطر

---

(١) حافظ إبراهيم ـ حسين المهدى غنام ٢٧ .
(٢) من الآيتين ٤٨ ، ١١٦ من سورة النساء .
(٣) خصائص الشعر الحديث ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٨٠ م ص ١٤٨ .

قلب القاسى . أنا ما قرأت رثاءه فى مصطفى كامل إلا بكيت على الرغم من الأعوام الطويلة التى تفصل بينى وبين المصاب . وعلى الرغم من أننى لم أعرف (مصطفى كامل) إلا سيرة من سير التاريخ المصرى ولم أر بالطبع (مصطفى كامل) وإن كنت رأيت وجه مصر فيه .
أترى الأمر صدق اللوعة فى الشعر وأقصد اللوعة الشعبية المصرية لا لوعة فرد أو شاعر . وأنا مصرية يقترن فى نمنى مصطفى كامل بذكرى دنشواى ؟ أم لأنى أعيش فى قراءاتى كأنها بنت ساعتها ؟ لست أدرى . ولكن حافظاً فى مراثيه عميق الإحساس ..... هل هو الشجى يبعث الشجى فهو يستريح إلى البكاء لأنه يشفى شجى بلابله ؟ أيا كان السبب فإن مراثى حافظ يعدى صدقها ويمس النفس شجاها » .

٨ ـ اتسم خيال حافظ فى رثائه ـ كما اتسم خياله فى شعره بصفة عامة ـ بالقرب والسطحية وعدم العمق . فجاء رثاؤه فى الغالب واضح التصوير قريب الخيال لا يغرب فيه ولا يجنح إلى الغموض والالتواء .

وقد تحدث الدكتور أحمد أمين عن هذه السمة فى شعر حافظ فقال : « أما خياله فكان مع الأسف خيالاً قريباً قلل حظه من الابتكار وقلل حظه من التصوير . قصر خياله عن أن يغوص فى باطن الشىء فيصل إلى مكان الحياة فيه ثم يخرجه إلى الناس كما يشعر به وقصر عن أن يحلق فى السماء فيصور منظراً عاماً يجذب النفوس إليه ».(١)
كما عرف عنه صديقه الأستاذ أحمد محفوظ هذه السمة فقال : إن حافظا « كان قريب الغور لا يضرب فى سماوات الخيال بسهم بعيد الرمية ولا يحلق إلا بأجنحة متكسرة » (٢) ولعل نفس حافظ الواضحة المطبوعة على الصراحة والبعد عن المداراة كان لها أثر فى وضوح خياله وبعده عن العمق والتعقيد .

وتكثر الأمثلة التى تثبت لنا قرب خيال حافظ فى رثائه وبعده فيه عن العمق والالتواء

---

(١) مقدمة الطبعة الأولى للديوان ٩٠ .
(٢) حياة حافظ إبراهيم ١٨٥ .

. اقرأ معنى قوله فى رثاء باحثة البادية السيدة ملك حفنى ناصف : (١)

قد كنت زوجاً طبَّةً	فى البدو عاشت والحضر
سادت على أهل القصو	ر وسوّدت أهل الوبرْ
غربية فى علمها	مرموقة بين الأسر
شرقية فى طبعها	مخدورة بين الحُجَر
بينا تراها فى الطرو	س تخط آيات العبر
وتريك حكمة نابهٍ	عرك الحوادث واختبر
فإذا بها فى مطبخ	تطهو الطعام على قدرْ
وإذا بها قعدت تخيـ	ـط وترتضى وخز الإبر
فخرت بوالدها ووا	لدها بحليتها افتخر

فقد اقتصر خيال حافظ فى هذه الأبيات على تخيل المرثية ونجاحها فى حياتها كزوجة تساير الحياة الشرقية فى طباعها وعملها فى البيت،والحياة الغربية فى علمها وعلاقاتها الاجتماعية ، ثم على تخيلها تارة بين كتبها تخط أحسن ما يُقرأ وتارة فى مطبخها بين النار والقدور تطهو الطعام بجودة واقتدار ، وتارة ثالثة وهى تخيط الثياب وتتعرض لوخز الإبر وهى راضية لا تأنف من ذلك ولا تغضب . بل تفخر بوالدها الذى رباها ونشأها على هذه المقومات والأخلاق . وهو خيال قريب سطحى كما هو واضح . وكان يمكن لحافظ أن يتعمق داخل حياة هذه السيدة الاجتماعية والعلمية إلى أكثر من ذلك بكثير .

ولكن ليس معنى حديثنا السابق أن خيال حافظ كان قريباً سطحياً فى جميع رثائه وإنما وردت عنه بعض المراثى التى اتسم خياله فيها بالعمق والقوة - وإن اتسم مع عمقه بالوضوح والبعد عن الغموض والالتواء - ومن ذلك قوله فى رثاء الطبيبين إبراهيم حسن باشا ومحمد شكرى باشا :

---

(١) الديوان ٥٠٧ .

كم فيك جراح كأن يمينه | عند الجراحة بلسم وسلام
قد صيغ مبضعه وإن أجرىٰ دماً | من رحمة فجريحه بسام
وموفق جم الصواب إذا التوىٰ | داء العليل وحارت الأفهام
يلقىٰ بسمع لا يخون إذا هفت | أذن وخان المسمعين صمام
وإذا عضال الداء أبهم أمره | عرفت خفىّ دبيبه الإبهام
يستنطق الآلام وهىٰ دفينة | خرساء حتىٰ تنطق الآلامُ
كم سل من أيدى المنايا أنفساً | وثنىٰ عنان الموت وهو زؤام
ومطبب للعين يحمل ميله | نوراً إذا غشىٰ العيون قتام
وكأن إثمده ضياء نره | عيسىٰ بن مريم فانجلىٰ الإظلام
ومطبب للطفل لم تثبت له | سن ولم يدرج إليه فطام
يشكو السقام بناظريه وماله | غير التفزز والأنين كلام
فكم استشف وكم أصاب كأنما | فىٰ نظرتيه الوحى والإلهام
ومولّدٍ عرف الأجنةُ فضله | إن أعسرت بولادها الأرحام
كم قد أنار لها بحالكة الحشا | سبلاً تضل سلوكها الأوهام
لولا يداه سطا علىٰ أبدانها | كرب المخاض وشفها الإيلام

فنلحظ فىٰ هذه الأبيات عمق خيال حافظ وهو يتصور مبضع الجراح وكأنما قُدَّ من رحمة وإن أسال دماً،فبينما يعمل عمله فىٰ المريض إذ به يبتسم . ويصور الطبيب الماهر وهو يكتشف سر المرض الدفين بسمعه وأذنه وإبهامه . وبهذه الأعضاء يستنطق الآلام الدفينة الخرساء ولا يزال يستعملها حتىٰ تنطق الآلام وتفصح عن مكمنها .

ولنا أن نتخيل ما فىٰ كلام حافظ عن الآلام بأنها دفينة خرساء،فهىٰ دفينة مغيبة فىٰ جسم المريض وإذا ظهرت فهىٰ خرساء لا تفصح عن نفسها ولا يعرف نوعها وكيفية علاجها غير هذا الطبيب الماهر الذى يظهرها ويستنطقها حتىٰ تنطق . ثم يثب خيال حافظ وثبة أخرىٰ وهو يبين فضل هذا الطبيب علىٰ مرضاه . فكم انتزع من أيدى

العنايا أنفساً كانت على وشك الرحيل . وكم ثنى عنان الموت بعد أن أجهز على المريض .

وينتقل حافظ إلى تصوير مهارة طبيب العيون فصوره وهو يحمل ميله وكأنما يحمل نوراً يعيد به للعيون المظلمة ضياءها ونورها . ويتخيله وهو يضع إثمده ـ أو كحله ـ فى عين المريض فيعيد إليها النور والإشراق بعيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ الذى كان يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله .

وينتقل حافظ فيتخيل مهارة طبيب آخر من أطباء مصر طبيب الأطفال الذى يستشف من تفزز الصبى وأنينه سبب مرضه وكأنما عيناه وحى وإلهام يدلانه على ما أصاب هذا الطفل الذى لا يستطيع الإفصاح عما أصابه . كما يصور مهارة طبيب النساء الذى تعرف الأجنة فضله . فقد هداها السبيل لتخرج إلى الدنيا فى أمن وسلامة ولولا مهارته لأصاب الوالدة ما أصابها من كرب المخاض وعسر الولادة .

وخيال حافظ لا بأس به فى هذه الأبيات . فقد بلغ حداً من القوة والعمق كما بلغ ـ فى نفس الوقت ـ حداً لا بأس به أيضاً من الوضوح والبساطة .

مما سبق يتضح لنا صدق ما قيل عن خيال حافظ واتصافه بالقرب والبساطة والبعد به ـ فى معظم الأحيان ـ عن العمق والابتكار .

وقرب خيال حافظ فى شعره لا يعيبه كثيراً . فشعره ـ على وجه العموم ـ يبلغ حداً كبيراً من الجودة والعظمة والإتقان . وقد تحدث الدكتور حسن أحمد الكبير عن قرب خيال حافظ وضآلته وأنه لم يغض من شعره فقال : (١)

« ولكننا من وجهة نظر أخرى نرى أن حافظاً وإن قصر فى مجال الخيال فإن شعره يمثله لنا شاعراً محبباً لبلاده حفيًا بأمته » .

٩ ـ ومما يميز شعر حافظ فى الرثاء أنه استجاب فيه لنبض المجتمع الذى عاش فيه

---

(١) تطور القصيدة الغنائية فى الشعر العربى الحديث ١١٣ .

وتعرف على أهم أحداثه وحاول تصويرها والحديث عنها . مما نفث فى شعره هذا حرارة الصدق العاطفى والشعورى والتعبير عن الواقع بإخلاص وأمانة .

لقد أحس حافظ بأن واجبه كشاعر للشعب أن يسجل اهتزازات نفوس أبناء الشعب فى الأحداث الوطنية والتاريخية فانصرف برثائه إلى تحقيق هذه الغاية مما تحولت معه القصيدة إلى كونها وثيقة تاريخية وسجل حافل بمختلف الأحداث التاريخية والاجتماعية التى تتصل بالمرثى وحياته . كما تحولت إلى سجل ملئ بأعلام النهضة المصرية فى مختلف المجالات .

وفى الحقيقة لم تكن هذه الميزة مقصورة على شعره فى ميدان الرثاء فحسب وإنما وجدت فى شعره كله على مختلف الموضوعات . فقد كان حافظ يتجاوب مع الحياة التى يعيشها ويسجل معالمها فى شعره الذى كانت تزيده الأيام بأحداثها ووقائعها قوة وجمالاً حتى احتل به مكانة فنية عالية . لقد طلع على العالم العربى بشعره الغنائى المسجل لفرح الشعب وأحزانه لأنه كان دائم الإحساس بآلام أبناء الشعب وآماله فسهل عليه أن يغنى فى أفراحهم وأن يتجاوب معهم فى الحوادث والخطوب .

إن حافظ إبراهيم « كان بحق شاعراً اجتماعياً جعل شعره سجلاً للحوادث التى مرت بضفاف النيل وأحس بشعور الشعب فارتبط شعره بأفراحه وأتراحه . وديوانه يصلح أبداً أن يكون من الوثائق الاجتماعية للحوادث القومية بوادى النيل » . (١)

ولم يكن رثاؤه خالياً من ذلك . فقد ضمن حافظ قصائده فى الرثاء - وخاصة فى رثائه للوطنيين ورجال السياسة - كثيرا من الأحداث التاريخية والسياسية والاجتماعية - حتى إن كثيرا من رثائه ليعد مصدراً من المصادر التاريخية لما حدث فى العصر الحديث من أحداث داخل مصر وبعض البلدان العربية .

---

(١) نظرات فى أدبنا المعاصر - د/ زكى المحاسنى ٥٠ .

وقد أشار الدكتور طه حسين إلى هذه الخاصية فى رثاء حافظ فقال : (١) « رحم الله حافظاً لم يكن رثاؤه صورة لما يثور فى نفسه ونفس الناس من حزن فحسب . وإنما رثاؤه يصلح مصدراً من مصادر التاريخ السياسى والاجتماعى فى هذا العصر . فقد كان حافظ يبالغ ويغلو ويطيع الخيال ويضطر إلى المحال . ولكنه رغم هذا لم يكن يفسد الحقائق ولا يعبث بها وإنما كان مؤرخاً صادقاً للحوادث فى رثائه وشعره السياسى كما كان مصوراً متقناً للنفوس » .

اقرأ معى قوله فى رثاء الشاعر الفارس محمود سامى البارودى متحدثاً عن بلائه فى يوم كريد ومشبهاً له ببعض قواد العرب :

نسخت يوم كريد كل ما نقلوا	فى يوم (ذى قار) عن (هانئ بن مسعود)
نظمت أعداك فى سلك الفناء به	على روىّ ولكن غير معهود
كأنهم كلم والموت قافية	يرمى به عربى غير رعديد

فلقد أعاد المرثى بما فعله مع الخارجين على الدولة فى جزيرة كريد ما نقله لنا التاريخ عن الشاعر العربى هانئ بن مسعود فى يوم ذى قار . (٢) فقد نظم أعداءه بهذا اليوم فى سلك الفناء ونظمهم على نظام واحد كما ينظم أبيات القصيدة وكلماتها على روى واحد .

واقرأ معى أبيات حافظ وهو يتحدث عن موقف رياض باشا من بطش اسماعيل وغدره وتعذيبه لأبناء الشعب ووقوفه فى وجه ظلمه وعدوانه ثم عن موقفه من ظلم الاستعمار ضد الضباط المصريين فى عهد اسماعيل . يقول :

---

(١) ذكرى الشاعرين ٤٩ .

(٢) فى سنة ١٨٦٦م انتفض أهل جزيرة كريد على الدولة التركية . فأرسلت مصر جيشاً لمساعدتها على تأديبهم . وكان البارودى من قواد هذا الجيش وقد أبدى هناك من الشجاعة والإقدام والدهاء والحزم ما أطلق الألسنة بمدحه والإعجاب به . وأبلى الجيش المصرى فى إخماد تلك الثورة بلاء حسناً حتى أخمدها. أما يوم ذى قار فهو من أيام العرب الكبيرة مع الفرس وكان بين بكر بن وائل والفرس . وذو قار هو الموضع الذى وقعت فيه هذه الوقعة . انظر هامش ديوان حافظ/٤٥٥ .

وقفت لإسماعيل والأمر أمره ... وفى كفه سيف من البطش يلمع
إذا صاح لباه القضاء وأسرعت ... إلى بابه الأيام والناس خشع
يذل - إذا شاء - العزيز وترتمى ... إرادته رفع الذليل فيرفع
ففى كرة من لحظة وهو عابس ... ترك جبال لم تكن تتزعزع
وفى كرة من لحظه وهو باسم ... تسيل بحار بالعطاء فتمرع
فما أغلب شاكى العزيمة أروع ... يصارعه فى الغاب أغلب أروع
بأجرأ من ذاك الوزير مصادماً ... إرادة اسماعيل والموت يسمع (١)
وفى الثورة الكبرى وقد أحدقت بنا ... صروف الليالى والمنية شرع
نظرت إلى مصر فساءك أن ترى ... حلاها بأيدى المستطيلين تنزع
ولم تستطع صبراً على هتك خدرها ... ففارقتها أسوان والقلب موجع
وعدت إليها حين ناداك نيلها ... أقِلْ عثرتى فالقوم فى الظلم أبدعوا
فكنت أبا محمود غوثاً وعصمةً ... إليك دعاة الحق تأوى وتفزع

ومرت بنا قبل ذلك أبيات حافظ فى حديثه عن السياسة الانجليزية وتسجيله لظلم الاستعمار للشعب المصرى بعد موت الزعيم مصطفى كامل . (٢)

أما تسجيل حافظ لبعض القضايا الاجتماعية فنختار منه ما كتبه حافظ عن حادث شهداء العلم الذين راحوا ضحايا حادث القطار الذى كان يقلهم عبر إيطاليا فى أكبر كارثة للسكك الحديدية شهدتها أوربا آنذاك . وقد بين حافظ أثر هذه المصيبة

---

(١) أشار حافظ بهذه الأبيات إلى وقوف رياض باشا فى وجه اسماعيل والحد من ظلمه ضد أبناء الشعب . وفى الأبيات التالية يشير إلى هجرة رياض باشا من مصر إلى أوربا عندما ثار الضباط فى عهد اسماعيل عام ١٨٧٩م لأن ناظر المالية إذ ذاك (السير ريفريس ولس) رأى أن يرفت ٢٥٠٠ ضابطا على سبيل الاقتصاد من غير أن يدفع المتأخر من مرتباتهم فتظاهروا أمام نظارة المالية وأوسعوا نوبار باشا رئيس النظار و(ولس) لكماً وضرباً . وكادوا ينالون من الفقيد - وكان وزيراً للداخلية فى هذه الوزارة . وبقى رياض بأوربا حتى دعاه توفيق باشا لتولى رئاسة النظار فعاد إلى مصر . انظر هامش ديوان حافظ ص ٤٨٣ .

(٢) انظر ما كتب عن هذه الأبيات فى صفحة ١٤٨ من هذا البحث .

على أبناء الشعب المصرى فقال (١)

صدمة فى الغرب أمسى وقعها فى ربوع الشرق مشئوم الأثر
زلزلت فى أرض مصر أنفساً لم يزلزلها قرار المؤتمر
قطف الموت بواكير النهى فجنى أجمل طاقات الزهر
وعدا الموت على أقمارنا فتهاووا قمراً بعد قمر
فى سبيل النيل والعلم وفى ذمة الله قضى الإثنا عشر
أى بدور الشرق ماذا نابكم فى مسار الغرب من صرف الغير
نبأ قطع أوصال المنى وأصم السمع منا والبصر
كم بمصر زفرة من حرها كنس الأعفر والطير وكر
كم أب أسوان داع قلبه مستطير اللب مفقور الظهر
ساهم الوجه لما حلّ به سادر النظرة من وقع الخبر
كم بها والدة والهة عضها الثكل بناب فعقر
ذات نوح تحت أنيال الدجى علّم الأشجان سكان الشجر
تسأل الأطيار عن مؤنسها كلما صفق طير واصطحر
تسأل الأنجم عن واحدها كلما غوّر نجم أو ظهر
تهب العمر لمن ينبئها أنه أفلت من كف القدر

وهكذا جعل حافظ من رثائه سجلاً لكثير من الأحداث التاريخية والسياسية والاجتماعية التى تتصل بالمرثى وحياته . مما تحولت معه القصيدة إلى وثيقة تاريخية لما حدث فى عصر الشاعر من أحداث .

١٠ ـ ومما تميز به رثاء حافظ كثرة التشبيهات وغيره من الألوان البيانية . وقد استخدم حافظ التشبيه لتجسيم المعنوى وتصويره فى صور مرئية تدل على عظمة ما اتصف به المرثى من صفات . أو لتوضيح هذه الصفات وزوال ما فيها من إبهام .

---

(١) الديوان ٥٧٣ .

فالتشبيه - ومعه الاستعارة - كما يقول ابن رشيق : « يخرجان الأغمض إلى الأوضح ويقربان البعيد » . (١)

- وقد استخدم حافظ التشبيه في رثائه كثيراً وعلى مختلف صوره وأشكاله : فمن التشبيهات المفردة قول حافظ في رثاء سليمان أباظة باشا : (٢)

خلق كضوء البدر أو كالروض أو   كالزهر أو كالخمر أو كالماء

فقد أفاد التشبيه نقل الشيء المعنوى (الخلق) إلى أشياء محسوسة كلها محببة إلى الإنسان حتى يصور لنا مدى ما اتصف به المرثى من جميل الأخلاق .

وشبيه بهذا التشبيه قوله في رثاء قاسم أمين : (٣)

خلق كأنفاس الرياض إذا   أسحرن غب العارض الهطل

وقوله في رثاء على أبي الفتوح باشا : (٤)

يازهرة الروض ويا   ريحانة المستقبل

ومن هذا النوع من التشبيه قوله في رثاء تولستوى ودعوته إلى السلم ونبذ الحرب(٥)

حياة الورى حرب وأنت تريدها   سلاماً وأسباب الكفاح كثير

وقوله في رثاء الطيارين العثمانيين فتحى وصادق متحدثاً عن حسد الكواكب للطيار فتحى لبراعته في الطيران : (٦)

والعين مثل السهم تنفذ في الترائب والنحور

وقوله في بيان شجاعة البارودى وكثرة إعماله للسيف في رقاب الأعداء في حرب كريد : (٧)

نظمت أعداك في سلك الفناء به   على روى ولكن غير معهود

كأنهم كلم والموت قافية   يرمى به عربى غير رعديد

---

(١) العمدة ١ / ٢٨٧ .

(٢) الديوان ٤٤٩ .

(٣) الديوان ٤٧٠ .

(٤) الديوان ٤٩٠ .

(٥) الديوان ٤٨٠ .

(٦) الديوان ٤٩٤ .

(٧) الديوان ٤٥٥ .

ومن التشبيهات المقيدة قوله فى رثاء البارودى مبيناً حالة الشعر بعده :

وأصبح الشعر والأسماع تنبذه   كأنه دسم فى جوف ممعود

فقد أصبح الشعر بعد البارودى منبوذاً لا تستسيغه الأسماع كالطعام الدسم فى جوف الإنسان المريض الذى لا يستسيغ طعاماً بل لا يقدر على هضمه .

وقوله فى رثاء الأستاذ الإمام محمد عبده :

وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً   كأنى حيال القبر فى عرفات

وقوله فى رثاء محمد عاطف بركات باشا متحدثاً عن حالة مصر فى ظل الاستعمار :

أصبحت فى القيود تمشى الهوينا   كسفين يعبرن مجرى القنال

ومن التشبيهات المركبة قوله فى رثاء البارودى متحدثاً عن تلك القصائد الجياد التى أعاد بها للشعر العربى جدته وبهاءه :

كأنها وهى بالألفاظ كاسية   وحسنها ما بين مشهود ومحسود

لآلىء خلف بلور قد اتسقت   فى بيت دهقان تستهوى نهى الغيد

وقوله فى رثاء باحثة البادية مبيناً حالة زوجها بعد رحيلها :

وتركتِ شيخكِ لا يعى   هل غاب زيد أو حضر

ثملاً ترنحه الهمو   م إذا تحامل أو خطر

كالفرع هزته العوا   صف فالتوى ثم انكسر

ومن التشبيه الضمنى قوله فى رثاء مصطفى كامل :

شاهدت يوم الحشر يوم وفاته   وعلمت منه مراتب الأقدار

فقد شبه يوم وفاته فى الرهبة والخشوع وحشد الخلق بيوم الحشر .

- أما الاستعارة فهى كثيرة أيضاً فى رثاء حافظ وكانت وسيلته لتصوير المصيبة التى تحل على الأهل والأصدقاء أوعلى الوطن وأهله أوعلى العلم والأدب بموت المرثى .

اقرأ معى قوله فى رثاء الإمام محمد عبده وما حل بالدين الإسلامى وأهله بموت إمامه :

فياسنة مرت بأعواد نعشه   لأنت علينا أشأم السنوات

حطمت لنا سيفاً وعطلت منبراً ... وأنويت روضا ناضر الزهرات

وأطفأت نبراساً وأشعلت أنفساً ... على جمرات الحزن منطويات

وقوله في رثاء الدكتور شبلي شميل مصوراً حالة العلم والدين بعد رحيله

حزن العلم يوم مت ولكن ... أمن الدين صيحة المرتاب

وقوله متحدثاً عن مهارة أطباء مصر في قضائهم على أسباب أشد الأمراض :

كم سل من أيدي المنايا أنفساً ... وثنى عنان الموت وهو زؤام

وقوله مصوراً حالة العلم والمعرفة بعد رحيل الإمام محمد عبده :

أجدب العلم وأمسى بعده ... رائد العرفان في وادٍ جديب

ـ واستخدم حافظ في رثائه الكناية كثيراً لتزيين الأسلوب وتحسينه . ومنها قول حافظ في رثاء عثمان أباظة بك :

أبكيت حتى العلا والمكرمات وما ... جفت عليك مآقي الخرد والخود

فبكاء الخرد الخود كناية عن عظم المصيبة التي حلت عليهن فهن لا يبكين هذا البكاء المتواصل إلا إذا أحسسن بفظاعة المصاب .

وقوله في رثاء سليمان أباظة باشا :

ومناقب لولا المهابة والتقى ... قلنا مناقب صاحب الإسراء

وعزائم كانت تفل عزائم ... الأحداث والأيام والأعداء

ففي هذين البيتين كناية عن علو مناقب المرثي وقوة عزائمه حتى لتقترب مناقبه في عظمها وعلو شأنها من مناقب صاحب الإسراء ـ صلى الله عليه وسلم . أما عزائمه فكان يقضي بها على أهوال الأحداث والأيام والأعداء .

وقوله مكنياً عن تقوى المرثي وإيمانه القوي بالله سبحانه وتعالى ومراعاته له فيما يجمع من أموال :

مال حلال مزكي ما خلطت به ... مليم سحت ولا حقاً لإنسان

ومن ذلك قوله في رثاء الزعيم محمد فريد مصوراً كبر المصيبة في فقده وشمولها لعنصري الأمة من مسلمين وأقباط :

حل بالجمعة حزن وأسى ومشى الوجد إلى يوم الأحد

فقد كنى بيومى الجمعة والأحد عن مسلمى مصر وأقباطها . وبذلك يكون الحزن على وفاة الزعيم قد عم أفراد مصر على مختلف دياناتهم .

- أما المجاز المرسل فقد جاء فى بعض المواضع من رثاء حافظ . ومن ذلك قوله فى رثاء الزعيم مصطفى كامل :

هنا فم وبنان لاح بينهما فى الشرق فجر تحيى ضوءه الأمم

ففى البيت مجاز مرسل علاقته الجزئية .

وقوله فى رثاء الأديب مصطفى لطفى المنفلوطى يطمئن الفقيد على أولاده : (١)

عين سعد ترعاهم بعد عين الله فاهدأ فقد وجدت المواتى

فالمراد بالعين هنا العناية والرعاية . والعين آلة للرعاية والعناية فالعلاقة الآلية .

ومنه قوله فى رثاء الدكتور يعقوب صروف : (٢)

أبكى وعين الشرق تبكى معى على الأريب الكاتب الألمعى

فالمراد : عين أهل الشرق والشرق محل لأهله فالعلاقة المحلية .

ومثل ذلك قول حافظ فى رثاء سعد زغلول :

جزع الشرق كله لعظيم ملأ الشرق كله إعجابا

وهكذا أتى حافظ فى رثائه بكثير من التشبيهات والألوان البيانية الأخرى ليتمم بها ما فى صوره من حسن وبهاء .

١١ - كما حلّى حافظ شعره فى الرثاء ببعض المحسنات البديعية التى جاءت طبيعية عفو الخاطر بحيث تلاءمت مع سياق الكلام واستدعاها الأسلوب فلم تخرج الشاعر عن جو الحزن والأسى الذى يعيش فيه وهو يودع أحد أدباء الأمة أو علمائها أو زعيم من زعمائها أو أحد رجالها السياسيين .

---

(١) الديوان ص٥٨٠ .

(٢) الديوان ص٥٤٢ .

ـ ويمكن القول بأن أكثر المحسنات البديعية وروداً فى شعر حافظ فى مجال الرثاء هو « حسن التقسيم » الذى يقصد به تفصيل الصورة واستقصاء أجزائها والوصول بها إلى كل ما يوضح المعنى ويجليه عن طريق تقسيم البيت إلى عدة فقرات متساوية تقريباً بحيث تكون كل منها قائمة بذاتها وشبه مستقلة عما عداها ·
ومن ذلك قول حافظ فى رثاء الإمام محمد عبده وبيان حزن الأمة الإسلامية لفقده :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة ... وضاقت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون وفى الصين جازع ... وفى مصر باك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب ... وفى تونس ما شئت من زفرات

ومنه أيضا قول حافظ فى القصيدة ذاتها مخاطباً الإمام :

لقد كنت مقصود الجوانب آهلاً ... تطوف بك الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ـ ومهبط حكمة ... ومطلع أنوار ـ وكنز عظات

ومنه قول حافظ فى رثاء الزعيم مصطفى كامل متحدثاً عن حالة الناس تحت وطأة سياسة الاحتلال الغاشمة :

فالناس فى شدة ـ والدهر فى كَلَبٍ ... والعيش قد حار فيه الحائق الفهم

ـ ومن الألوان البديعية التى كثر ورودها فى رثاء حافظ « الطباق » وهو التضاد فى معنى اللفظتين اللتين جمع بينهما المتكلم فى جملة واحدة · ومن ذلك قول حافظ فى رثاء الإمام محمد عبده :

أبنت لنا التنزيل حكماً وحكمة ... وفرقت بين النور والظلمات

وقوله فى رثاء الدكتور شبلى شميل ذاكراً بعض محاسنه :

مفضلاً محسناً على العسر واليسر جميع الفؤاد رحب الجناب

وقوله فى رثاء باحثة البادية :

قد كنت زوجاً طلّة ... فى البدو عاشت والحضر

ـ ومن الألوان البديعية الكثيرة فى رثاء حافظ أيضا « الجناس » وهو مجانسة الكلمة للأخرى أى مشابهتها لها فى حروفها كلا ـ وهو المسمى بالتام ـ أو

بعضاً - وهو المسمى بالناقص - مع اختلاف المعنى ·

ومن الأول - وهو الجناس التام - قول حافظ فى رثاء الإمام محمد عبده :

بكى عالم الإسلام عالم عصره ... سراج الدياجى هادم الشبهات

ومنه قوله فى رثاء قاسم أمين :

غلّ القضاء يد القضاء فذا ... يبكى عليك وذاك فى جذل

فالقضاء الأول أريد به الموت والثانى بمعنى الفصل فى الخصومات ·

ومن الثانى - وهو الجناس الناقص - قول حافظ فى رثاء مصطفى كامل :

ورماهمُ بمجلدين رموهما ... فى رتبة الأصفار لا الأسفار

ومنه قوله فى رثاء مصطفى كامل أيضا :

متلفتا متحيراً متخيراً ... رجلاً يناضل عنه يوم فخار

- ومن الألوان البديعية الواردة فى رثاء حافظ : « التورية » · وهو اللفظ المحتمل معنيين أحدهما قريب ظاهر وهو غير المراد · والآخر بعيد غائب وهو المراد ·

ومن ذلك قول حافظ فى رثاء الطبيبين إبراهيم حسن باشا ومحمد شكرى باشا :

علمان من أعلام مصر طواهما ... فيك الردى فبكتهما الأهرام

فلفظ (الأهرام) يعنى أمرين : قريب وهى أهرام مصر ويرشحه لفظ مصر · وبعيد وهى جريدة الأهرام التى نعت الطبيبين إلى قرائها حين وفاتهما ·

- ومن الألوان البديعية الواردة فى رثاء حافظ « التفسير » وهو أن يستوفى الشاعر شرح ما ابتدأ به مجملاً · (١) ومنه قول حافظ فى رثاء قاسم أمين :

شغلتك عن دنياك أربعة ... والمرء من دنياه فى شغل

حقّ تناصره ومغفرة ... تمشى إليها غير منتحل

وحقائق للعلم تنشدها ... ما للحكيم بهن من قِبَل

وفضيلة أعيت سواك فلم ... تمدد إليه يداً ولم يصل

---

(١) العمدة ٢ / ٣٥ .

- ومنها « الاحتراس » وهو أن يحاول الشاعر معنى فلا يدع شيئاً يتم به حسنه إلا أورده وأتى به إما مبالغة وإما احتياطاً واحتراساً من التقصير .(١) ومنه قول حافظ فى رثاء مصطفى كامل :

ماذا على السارى - وهن منائر - لو سار بين مجاهل وقفار

ومنه قوله فى رثاء قاسم أمين :

إن ريت رأياً فى الحجاب - ولم تُعصَم - فتلك مراتب الرسل

الحكم للأيام مرجعه فيما رأيت فنم ولا تسل

ومنه قوله فى قصيدته الميمية فى رثاء مصطفى كامل :

إنى أرى - وفؤادى ليس يكذبنى - روحاً يحب بها الإكبار والعظم

- ومنها « اللف والنشر » وهو ذكر متعدد على سبيل الإجمال أو التفصيل ثم ذكر ما لكل واحد منهما دون تعيين اعتماداً على أن السامع يرد كلاً إلى ما يناسبه .

ومنه قول حافظ فى رثاء قاسم أمين :

غل القضاء يد القضاء فذا يبكى عليه وذاك فى جذل

- ومنها « رد الصدر على العجز » . ومنه قول حافظ فى رثاء الطبيبين إبراهيم حسن باشا ومحمد شكرى باشا :

يستنطق الآلام وهى دفينة خرساء حتى تنطق الآلام

وقوله فى رثاء عبد الله أباظة بك :

يارحمة الله هذا قبره فقفى وآنسى روحه يارحمة الله

إلى غير ذلك من الألوان البديعية التى وردت على لسان حافظ فزينت أسلوبه وكان لها أثرها فى جمال المعنى وقوته لمجيئها طبيعية غير متكلفة ولا منافرة لموقعها فى الكلام . بجانب أن الشاعر لم يقصد إليها قصداً وإنما جاءت فى كلامه عفو الخاطر .

---

(١) العمدة ٢ / ٥٠ .

١٢ ـ وردت فى شعر حافظ فى الرثاء بعض الأبيات التى تحمل حكمة مستمدة من الجو الذى يتحدث فيه حافظ مما جعلها تساهم فى تلخيص المعنى الذى يتحدث عنه الشاعر وتجسله فى كلام موجز مقنع .

ومن هذه الأبيات قول حافظ فى رثاء مصطفى كامل :

يموت المداوى للنفوس ولا يرى — لما فيه من داء النفوس مداويا

فهى حكمة استمدها حافظ من حياة الزعيم المرثى ووفاته فطالما داوى نفوساً وأيقظها من سباتها وبصّرها بطريق الحق والحرية والكرامة ولكنه لم يجد من يداويه من دائه الذى مرض به ولم يجد من يبعد عنه الموت . وهكذا حالة من يشتغل بإصلاح أحوال الناس والمجتمع .

ومنها أيضاً قول حافظ فى القصيدة الميمية التى قالها فى ذكرى وفاة الزعيم مصطفى كامل :

قد اتهمنا ولما نطلب جللاً — إن الضعيف على الحالين متهم

فالضعيف دائماً مغلوب ولو كان الحق معه . والناس دائماً عليه ولو كان مظلوما . وهى حكمة استمدها حافظ من حياة المصريين أيام الاحتلال الانجليزى .

ومن الأبيات التى تحمل قولاً حكيماً الأبيات التالية التى تبين للقارىء الحكمة من امتزاج الخير بالشر واجتماعهما فى حياة الناس . يقول حافظ فى رثاء تولستوى :

ولولا امتزاج الشر بالخير لم يقم	دليل على أن الإله قدير
ولم يبعث الله النبيين للهدى	ولم يتطلع للسرير أمير
ولم يعشق العلياءَ حرٌ ولم يسد	كريم ولم يرج الثراء فقير
ولو كان فيها الخير محضاً لما دعا	إلى الله داعٍ أو تبلج نور
ولا قيل هذا فيلسوف موفق	ولا قيل هذا عالم وخبير
فكم فى طريق الشر خير ونعمة	وكم فى طريق الطيبات شرور

ففي هذه الأبيات أبان حافظ عن الفوائد والأمور التي تترتب على امتزاج الشر بالخير وأن الحياة لا تسير بواحدٍ منهما مجرداً عن الآخر .

ومن الأبيات الحكيمة قول حافظ في نفس القصيدة السابقة :

إذا هدمت للظلم دور تشيدت   له فوق أكتاف الكواكب دور

فالظلم دائماً موجود لا تخلو منه نفوس البشر حتى لو تهدمت دور الظلم في الأرض لصعد الظالمون إلى الكواكب فشيدوا للظلم دوراً فوقها .

ومن أبيات الحكمة أيضاً قول حافظ في رثاء جورجي زيدان :

وقد تخرس الأحزانُ كل مفوهٍ   يصرف في الإنشاد كل عنان

فالحزن إذا اشتد على النفس أخرسها ولو كان صاحبها مفوهاً بليغاً في كل فنون القول . فالأحزان تعقد الألسنة عن الكلام وتمسك الدموع عن السيلان.ولذا فإني أخالف حافظاً في بيت آخر يبين فيه أن إنزال الدمع دليل على شدة المصيبة وقوة وقعها على النفوس . يقول في رثاء السلطان حسين كامل :

إن شر المصاب ما أطلق الدمع وراع المفوهين بعيّ

فهو في هذا البيت قد خالف الواقع الذى تعارف عليه الناس وهو جمود العين عند شدة المصيبة . وهو واقع ردده الشعراء كثيراً واثبته أستاذه البارودي في رثائه لابنته حين قال : (١)

فزعت إلى الدموع فلم تجبني   وفقد الدمع عند الحزن داء

وما قصرت عن جزع ولكن   إذا غلب الأسى ذهب البكاء

وتقول الخنساء في رثاء أخيها صخر : (٢)

أعينيَّ جودا ولا تجمدا   ألا تبكيان لصخر الندى

---

(١) ديوان البارودي ـ شرح وضبط : على الجارم ومحمد شفيق معروف ج ١ ص ٢٦ .

(٢) شعر الخنساء ـ تحقيق وشرح كرم البستاني ـ دار المسيرة ـ بيروت ط ٢ ص ٤١ .

ويقول ابن الرومي في رثاء ولده الأوسط محمد : (١)

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي   فجودا فقد أودى نظيركما عندي

ومن الأبيات التي تحمل معنى الحكمة قول حافظ في رثاء سعد زغلول :

والمقادير إن رمت لا تبالي   أرؤوساً تصيب أم أذنابا

وهو قول واقعي واضح يلمسه الناس في كل وقت وفي أي مكان . فالموت ـ كما يقال ـ لا يفرق بين أمير وخفير .

ومنها قوله في نفس القصيدة السابقة :

حجج المبطلين تمضي سراعاً   مثلما تطلع الكؤوس الحبابا

فحجج المبطلين واهية سرعان ما تدحض وتنقض . بالضبط كالفقاقيع التي تظهر على سطح الكؤوس التي تتهاوى بمجرد ظهورها .

ومنها قوله في رثاء شهداء العلم من المصريين بإيطاليا :

إن مَن يعشق أسباب العُلا   يطرح الإحجام عنه والحذر

وهكذا برع حافظ في تزيين شعره في الرثاء ببعض الأقوال الحكيمة التي استمدها من تأثره بالموقف الذي ينشد فيه شعره ومن خبرته بالحياة بمواقفها التي تعرض لها .

وقد جاءت الحكمة في أبيات حافظ طريقة قوية لاتسامها بالواقعية والتعبير عما يحسه الناس ومما يحدث لكثير منهم في الحياة .

١٣ ـ أشار حافظ في رثائه إلى بعض المعاني القرآنية وإلى بعض المعاني التي وردت في شعر بعض الشعراء العرب القدامى أو اقتباس بعض كلماتها . كما أشار إلى أسماء أو ألقاب كثير من الشعراء العرب في العصور السابقة .

ـ فمن الأول ـ وهو إشارته إلى بعض المعاني القرآنية ـ قوله في رثاء سليمان أباظة باشا :

---

(١) ديوان ابن الرومي ٢ / ٦٢٤ .

أيها اليم كم بقاعك نفس   فيك أودت من عهد ذي الأوتاد

ففي البيت إشارة إلى لقب ذكره القرآن الكريم لفرعون في قوله : « وفِرعَون ذِي الأَوتَاد » . (١)

ومن ذلك ما ورد في قوله في رثاء مصطفى كامل :

وهدمت سوراً قد أجاد بناءه   فرعون ذو الأوتاد والأنهار

فقد اقتبس الآية الكريمة المذكورة « وفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَاد » بجانب إشارته إلى ما ورد في القرآن الكريم على لسان فرعون في قوله تعالى : « ونادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُون » . (٢) ومن التأثر بالقرآن الكريم واقتباس بعض جمله في رثاء حافظ أيضاً قوله في نهاية القصيدة السابقة :

نعم الجزاء ونعم ما بلغته   في منزليك ونعم عقبى الدار

فقد اقتبس الجملة الأخيرة مما ورد في الآية الكريمة : « سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار » . (٣)

ومن ذلك أيضاً قول حافظ في رثاء الأديب مصطفى لطفي المنفلوطي :

ومناهُمُ أن يحطموا بيدي   قلماً أثار عليهم النقعا

ففي الشطر الثاني تأثر بقول الله تعالى : « فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً » . (٤)

- ومن الثاني - وهو إشارته إلى بعض المعاني الواردة في شعر بعض شعراء العرب أو اقتباس بعض كلماتهم في شعره - قوله في رثاء الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد :

فلو رآه (ابن أوس) ما قرأت له   السيف أصدق أنباء من الكتب

---

(١) الآية رقم ١٠ من سورة الفجر .
(٢) الآية رقم ٥١ من سورة الزخرف .
(٣) من الآية رقم ٢٤ من سورة الرعد .
(٤) الآية رقم ٤ من سورة العاديات .

فالشطر الثانى من البيت مطلع القصيدة المشهورة لأبى تمام (وهو المشار إليه بابن أوس) المبدوءة بقوله :

السيف أصدق أنباءً من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

ومن ذلك أيضاً قول حافظ فى رثاء سليمان أباظة باشا :

لم تلدنا حواء إلا لنشقى   ليتها عاطل من الأولاد

فأرى أن معنى هذا البيت مستمد من معنى بيت أبى العلاء المعرى : (١)

تعب كلها الحياة فما   أعجب إلا من راغب فى ازدياد

ومن ذلك أيضاً قول حافظ فى رثاء أمين الرافعى بك :

لم يلوه المال عن رأى يدين به   (ولو حملت إليه الدهر ملآنا)

فالشطر الثانى من البيت هو عجز بيت للمتنبى من قصيدة يمدح بها أبا سهل سعيد ابن عبد الله يقول فيه : (٢)

ولا أسَرّ بما غيرى الحميد به   ولو حملتَ إليه الدهر ملآنا

- ومن الثالث - وهو ذكره لأسماء بعض شعراء العرب القدامى أو لبعض الألقاب التى لقبوا بها - قوله فى رثاء البارودى :

نسخت يوم كريد كل ما نقلوا   فى يوم ذى قار عن هانى بن مسعود

وقوله فى نفس القصيدة :

أودى المعرى تقى الشعر مؤمنه   فكاد صرح المعالى بعده يودى

ففى البيت الأول جاء ذكر الشاعر الجاهلى هانىء بن مسعود ، وفى البيت الثانى ذكر أبا العلاء المعرى الشاعر الفيلسوف العربى .

ومن ذلك قوله فى رثاء تولستوى مشيراً إلى لقب أبى العلاء المعرى (رهين المحبسين) :

إذا زرت رهن المحبسين بحفرة   بها الزهد ثاو والذكاء ستير

---

(١) ديوان سقط الزند ١١١ .

(٢) ديوان أبى الطيب المتنبى - بشرح أبى البقاء العكبرى - تصحيح مصطفى السقا - وآخران ٤ / ٢٢٤ .

ومن ذلك أيضاً ذكره للشاعرين : الوليد - أبي عبادة البحتري - وعمر بن أبي ربيعة في قوله في رثاء الشاعر اسماعيل صبري :

إذا قيل (صبري) ذكرت (الوليد) ومرت بنفسي ذكرى (عمر)

ومنه أيضاً ذكره لابن أوس (أبي تمام) في البيت المذكور آنفاً . ومن ذكره لبعض أدباء العرب السابقين ذكره لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ولأبي سعيد الأصمعي في قوله يرثي الدكتور يعقوب صروف :

في النقل والتصنيف أربي على مدى (ابن بحر) ومدى (الأصمعي)

هذا إلى جانب ما ذكره حافظ في رثائه لكثير من اسماء الفلاسفة والعلماء والأدباء ورجال السياسة في قصائده الشعرية . وهذا ينم عن ثقافة حافظ واطلاعه الواسع في شتى فنون العلم والمعرفة .

١٤ - وهناك ظاهرة بارزة في رثاء حافظ وهو إيثاره للأوزان الطويلة ليصوغ رثاءه على نغماتها . وهذا يرجع إلى ملاءمة هذه الأوزان لجو الرثاء والحزن . فطول الموسيقا هنا تساعد الشاعر على حشد كثير من المعاني والصفات التي يتحدث عنها الشاعر في رثائه للفقيد .

ومع هذا فقد اختار حافظ لبعض قصائده في الرثاء بعض الأوزان ذات النغمة الموسيقية القصيرة ولكنها جاءت أقل جودة في معانيها وصورها عن القصائد التي وردت من النوع الأول .

وباستقراء القصائد والمقطوعات الرثائية في ديوان حافظ وجد أنه ورد منها على وزن كل من بحري : الكامل والبسيط سبع قصائد ومقطوعتان . وعلى وزن بحر الخفيف ثماني قصائد . وعلى وزن بحر الطويل ست قصائد ومقطوعة واحدة . وعلى وزن بحر الرمل أربع قصائد . وعلى وزن بحر الوافر ثلاث قصائد ومقطوعة واحدة . وعلى وزن بحر الرجز قصيدتان ومقطوعة واحدة . وعلى وزن بحر مجزوء الكامل خمس قصائد . وعلى وزن بحر المتقارب قصيدة واحدة . وعلى وزن بحر السريع مقطوعة واحدة .

وبالنظر فى هذه الأرقام نجد أن الغالبية العظمى من رثاء حافظ قد جاء على أوزان البحور ذات النغمة الموسيقية الطويلة الملائمة لجو الحزن والرثاء . وهذا ما ساعد على قوة شعر حافظ فى فن الرثاء وأضفى عليه مسحة من الجودة والاتقان . ويلاحظ أن هذا المنهج لم يكن مقصوراً على الرثاء فى شعر حافظ فقط بل إنه اتخذه منهجاً فى فنون شعره كلها . وقد أشار إلى ذلك الدكتور حسن أحمد الكبير فقال : (١)

« لم يجدد حافظ فى الأوزان والقوافى بل التزم البحور التى ورد عليها الشعر العربى القديم والقافية الموحدة والروى الواحد . وليس له تجديد فى هذا المجال أو خروج عن المأثور عن العرب فى الأوزان والقوافى . بل إنه لم ينظم من الموشحات سوى موشح واحد جعل عنوانه : سوق الأسعار (البورصة ١ / ٢٠) . وكان يروض القوافى ويحكم أداءها وينظم فى البحور التى تتناسب مع امتداد الصوت والإلقاء المؤثر الذى كان يحرص عليه ليجذب الجماهير ويؤثر فيها ويعوض ما كان يشعر به من بساطة وقصور عن أن يحلق فى سماوات الفكر والفن » .

١٥ ـ جاء شعر حافظ فى رثائه لأبناء عصره متنوعاً بين قصائد طويلة وأخرى قصيرة وبين مقطوعات شعرية محدودة الأبيات . حتى لقد اقتصر فى بعضها على بيتين قرأهما على قبر الفقيد أو قالهما ليكتبا على قبره . فقد عزى المرحوم محمود سامى البارودى فى ابنته ببيتين اثنين . (٢) كما رثى كلاً من حبيب المطران باشا . (٣) وعبد الله أباظة بك (٤) ببيتين اثنين أيضا . وأنشد بيتين آخرين ليكتبا على قبر السيد عبد الرحمن الكواكبى . (٥)

وباستقراء شكل شعر حافظ فى الرثاء وجد أنه يضم حوالى ثلاث وأربعين

---

(١) تطور القصيدة الغنائية فى الشعر العربى الحديث ١١٢ .
(٢) الديوان ٥٦٠ .
(٣) الديوان ٥٥٩ .
(٤) الديوان ٥١٤ .
(٥) الديوان ٤٥٢ .

قصيدة تختلف فى عدد أبياتها بين القلة والكثرة ، وحوالى ثمانى مقطوعات ما بين بيتين وخمسة أبيات بجانب أربعة عشر بيتاً قالها فى رثاء الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وتحدث فيها عن مقتله .(١)

كما نلاحظ فى رثاء حافظ أنه كان فى بعض الأحيان ينشد أكثر من قصيدة فى رثاء فقيد واحد . فعل ذلك فى رثاء كل من : الزعيم مصطفى كامل (ثلاث قصائد) والإمام محمد عبده (قصيدتان) وسليمان أباظة باشا (قصيدتان) . وعبدالحليم العلايلى بك (قصيدتان) والأديب محمد المويلحى بك (قصيدة ومقطوعة) . وكان حينئذ ينشد كل قصيدة أو مقطوعة فى مناسبة مختلفة . كيوم الوفاة وفى ذكرى الأربعين وفى الذكرى الأولى أو مابعدها لوفاة المرثى . وهذا كله يخضع لمنزلة الفقيد فى نفس حافظ وما تمتلىء به نفسه من حزن وأسى ومن مشاعر وأحاسيس تجاه المرثى ومدى ما يكنه هو ـ أو أبناء شعبه ـ من حب وتقدير له .

وبعـــــــد :

فهذه أهم الظواهر والسمات الفنية فى رثاء حافظ . تحدثت عنها على أساس ما عنّ لى بعد النظر فى شعر حافظ ومعاودة قراءته ومحاولة فهمه .

---

(١) الديوان ٧٧ .

المبحث الثاني

شعر الرثاء بين حافظ ومعاصريه

المبحث الثاني
شعر الرثاء بين حافظ ومعاصريه

اجتمع في العصر الحديث مجموعة من الشعراء اتصفوا كلهم ـ كما اتصف حافظ إبراهيم ـ بالمقدرة البيانية والنخوة الوطنية وحب بلادهم التي عاشوا على أرضها وحب أبنائها الذين درجوا معهم على هذه الأرض . ومن هنا حرص كل منهم على مشاركة الأمة في مصابها والتعبير عن عظم المصيبة وفداحة الرزء الذي يحل بالأمة بفقد زعيم من زعمائها أو أديب من أدبائها أو عالم من علمائها .
وفي هذا البحث رأيت من الخير وإتماماً للفائدة أن أعقد فصلاً في الموازنة بين حافظ إبراهيم وبعض معاصريه من الشعراء في رثاء بعض الشخصيات التي شارك بعضهم حافظاً في رثائها وتأبينها لتتبين للقارىء منزلة حافظ بين معاصريه من شعراء عصره في هذا الفن .

وقد جعلت أساس هذه الدراسة قائماً على الموازنة بين حافظ وشوقي في رثاء الشخصيات التي اخترتها لعقد هذه الموازنة وإن تحدثت عن رثاء بعض الشعراء الآخرين لبعض هذه الشخصيات ووازنت بين رثائهم ورثاء حافظ لها . وكان دافعي إلى التركيز على الموازنة بين حافظ وشوقي بالذات في هذا المجال ما رأيت من أنهما شاعران بارزان في العصر الحديث . وقد شغلا الأدباء والنقاد واستحوذ ا على حديث الناس وإعجابهم زمناً طويلا . ولا زالا يحتلان مكان الصدارة من حديث الأدباء والنقاد عن شعراء العصر الحديث . بالإضافة إلى اقترانهما في أذهان الناس وفي كلامهم فلا يذكر أحدهما حتى يتطرق الحديث إلى ذكر الآخر والمقارنة بينهما والموازنة بين شعرهما . « وقد عرف حافظ ذلك في حياته . وله في التلازم بينه وبين شوقي نادرة لطيفة . فقد حدث أن كتب الدكتور محمد حسين هيكل مقالاً عن الشاعرين بعنوان « شوقي وحافظ » وبلغ حافظاً أن شوقي قد غضب من هذا الجمع بينه وبين حافظ . إذ كان يعتقد تفوقه على حافظ ولا يرى حافظاً نداً له . فقال حافظ :

« لماذا يغضب ؟ إننا متلازمان . أما سمع الناس يقولون : « زفتى وميت غمر » فهل غضبت من ذلك زفتى أو ميت غمر ؟ ويقولون : « سميط وجبنة » و « خيار وفقوس » و « عسل وبصل » . ثم يعقب ـ رحمه الله ـ على ذلك بقوله : أما من يكون العسل ومن يكون البصل فهذه مسألة أخرى » . (١)

ومما يغرى بالموازنة بين الشاعرين ـ بجانب ما سبق ـ هو تباين الشاعرين فى البيئة والمنشأ والمعيشة رغم اتحادهما فى الموطن وتقاربهما فى المولد والوفاة . مما يدفع بالدارس إلى حب معرفة تناولهما للحدث الواحد وسمات شعر كل منهما فى تناوله لهذا الحدث ، وهل جاء شعر كل منهما فى هذا المجال متأثراً بظروف معيشة كل منهما ونشأته أم لا ؟ . فقد « نشأ شوقى فى بيت الإمارة وفى بيئة الخاصة وعاش عيشة الترف والنعمة ، ونشأ حافظ فى بيت أبيه وفى بيئة عامة وعاش عيشة البؤس والشدة . فكان من نعمة الله أن قسمت الحياة بينهما هذا التقسيم ليؤدى كل منهما للعربية رسالته من ناحيته ومؤثراتها الخاصة به .

فلقد أخرجت بيت الإمارة المرتبة بالخلافة من شوقى شاعر الإسلام والعرب والأحداث الإسلامية الكبرى والتاريخ الإسلامى العام وتاريخ العرب . وأخرجت البيئة العامة الرازحة تحت نير الظلم والمتجرعة لألوان الشقاء والمتقلبة فى دركات الانحطاط من حافظ شاعر الأخلاق والاجتماع والوطنية . ولا غناء لواحد من العرب عما جاد به كل واحد من الشاعرين فى ناحيته . ولو لم يخلق الله إلا أحدهما لما تمت النعمة من الناحيتين » . (٢)

وانطلاقاً من هذا كله ركزت موازناتى فى هذا الفصل بين ما قاله حافظ وشوقى فى رثاء الشخصيات المختارة مع عدم إهمال ما قاله بعض الشعراء الآخرين فى هذا

---

(١) الفكاهة فى مصر ـ د / شوقى ضيف ـ دار المعارف ـ ط ٣ ـ ١٩٨٨م ص ١٨٦ .

(٢) من مقال بعنوان : ذكرى الشاعرين شوقى وحافظ ـ للأستاذ عبد الحميد بن باديس ـ العدد ٢٨٦ من مجلة العربى / ٧٢ .

الميدان . فلئن استحوذ حافظ وشوقي على إعجاب الناس وحديثهم في العصر الحديث فهناك غيرهما من شعراء هذا العصر من قال فأجاد وأنشد فأعجب ورثى فأبكى . تماماً كما يقول الأستاذ حسين المهدي غنام : « وحافظ وشوقي هما الشاعران اللذان يمكنك أن تقارن بينهما لتقارب ثقافتيهما ولوجودهما في آن واحد مع أنه كان هناك كثيرون غيرهما وكان لهما كذلك القدح المعلى في الشعر المحلي أو شعر المناسبات » . (١)

وقد اخترت لعقد هذه الموازنة رثاء بعض الشخصيات التي اشترك هؤلاء الشعراء - أو بعضهم - في القيام بواجب الوفاء لها وإعطائها حقها من التأبين والتخليد . ولم أشأ أن أتحدث عن كل الشخصيات التي اشتركوا في رثائها لأن المجال هنا لا يتسع لذلك . بجانب أن الحديث عن البعض يغني عن الحديث عن الكل . وهذه هي محاولاتي في الموازنة بين رثاء حافظ ورثاء بعض معاصريه للشخصيات التالية :

١ - رثاء ابنة البارودي :

كان للشاعر محمود سامي البارودي ابنتان توفيت إحداهما في ليلة زفاف أختها إلى زوجها . وقام كل من شوقي وحافظ بواجب العزاء نحو الأب والأستاذ الشاعر ورثى كل منهما الابنة الفقيدة . أما حافظ فقد رثاها بقصيدة بلغت اثنى عشر بيتاً . (٢) وإن ذكر بعض الأدباء أنها أطول من ذلك ولكن لم يعثر على ما ضاع منها . وأما شوقي فقد رثاها بقصيدة بلغت ثلاثين بيتاً . (٣) افتتحها بعدة أبيات في الحكمة والحديث عن غدر الدنيا وبغتات المقادير وأنها لا تترك شيئاً يظل على حاله . فما بين عشية وضحاها وما بين أول الليل وآخره تتبدل الأحوال وتتغير الأمور :

أحيث تلوح المنى تأفلُ   كفى عظةً أيها المنزل

---

(١) حافظ إبراهيم - دراسة وتحليل ونقد / ١١ .
(٢) ديوان حافظ / ٥٦٠ .
(٣) الشوقيات ٣ / ٨٩ .

حكيت الحياة وحالاتها   فهلا تخطيت ما تنقل ؟
أمن جنح ليل إلى فجره   جمىّ يزدهى وحمىّ يعطل
ونلك يوحش من ربة   ونلك من ربةٍ يأهل ؟

وأكمل شوقى قصيدته فى الحديث عن الأب الذى اجتمع عليه حالا الدنيا فى وقت واحد وكيف كان صلباً قوياً بين ما يمليه عليه عقله وقلبه فى آن واحد . ومدى ما يدل عليه هذا الموقف من تماسك وصلابة ورقة وحلم وقوة من هذا الوالد . وكأنه ـ كما يقول شوقى ـ (شمشون هذى الحياة) . ولم يتحدث شوقى عن الفتاة المرثية إلا فى بيتين فقط من خلال حديثه عن الأب وجمعه بين الحالتين المتناقضتين : حالة الإبنة الفرحة المسرورة بزفافها وحالة البنت التى توفيت فأضفت على الجو حزناً ومرارة .

فمن غادة فى مجالى الزفاف   إلى غادة داؤها معضل
ونى فى نفاستها تنطوى   ونى فى نفائسها ترفلُ

أما حافظ فقد قسم أبياته فى قصيدته إلى نصفين متساويين : الأول خصه بخطاب الفتاة المتوفاة تحدث فيها عن عدم تصديقه لدفن الإبنة فى باطن الأرض وأن هذا إن كان قد تم فلابد أن يكون قد وقع رغماً عنها .

بين السرائر ضنةً دفنوك   أم فى المحاجر خلسةً خبئوك ؟
ما أنت ممن يرتضى هذا الثرى   نزلاً فهل أرضوك أم غبنوك ؟

أما القسم الآخر فقد جعله للحديث عن الأب الملتاع والحديث عن نفس هذا الأب القوية فى مواجهة حوادث الدهر .

وقد تفوق حافظ على شوقى فى حديثهما عن الفتاة المرثية . لأنه بهذه الأبيات قد وفاها بعض حقها من التكريم وبيّن ظلم المقادير التى اختطفت مثل هذه الفتاة الناعمة رغماً عنها وعبر عن لومه لهؤلاء الناس الذين وضعوها فى التراب وتركوا شبابها الغض نهباً للبلى . كما عبر فيها عن حزنه الشديد ولوعته على شبابها المتروك . أما شوقى فلم يتحدث عن الفتاة إلا فى بيتين ـ كما قلت ـ من خلال المقارنة بينها وهى ترفل فى أكفانها الجديدة وبين أختها العروس وهى ترفل فى

ثياب زفافها . ولم يعبر لنا عن مشاعره تجاه المرثية وإنما انشغل عنها بأقوال الحكمة وتلخيص حال البيت الذى جمع بين حالتى الدنيا فى آن واحد .

ولكن شوقى قد تفوق هو الآخر على حافظ فى وصف حالة الأب وقدرته على مواجهة هذا الحادث فى هذا الوقت العصيب وقوته النفسية التى مكنته من إظهار البشر والسرور لضيفانه بينما كان قلبه يمتلأ بمرارة الوجد واللوعة .

كما تفوق عليه فى تحلية صوره بكثير من الألوان البيانية والبديعية الرائعة التى خلت أبيات حافظ منها .

اقرأ معى أبيات شوقى فى حديثه عن الوالد الممزق بين عقله وقلبه :

كأنى بسامى هلوع الفؤاد	إذا أسمعت همسة يعجل
يرى قدراً يأمل اللطف فيه	وعادى الردى دون ما يأمل
يضيىء لضيفانه بشره	وبين الضلوع الغضى المشعَل
ويقر يهم الأنس فى منزل	ويجمعه والأسى منزل
فمن غادة فى مجالى الزفاف	إلى غادة داؤها معضل
ونى فى نفاستها تتطوى	ونى فى نفائسها ترفل
تقسم بينهما قلبُه	وخانته عيناه والأرجل
فيا نكد الحر هل تنقضى ؟	ويافرح الحر هل تكمل ؟
وياصبر سامى بلغت المدى	وياقلبه السهل كم تحمل ؟

أما أبيات حافظ فى هذا المعنى فقد جاءت خالية من الروح القوية التى رأيناها فى أبياتها الأولى من القصيدة . فهى عبارة عن وصف الأب بقوته فى حروبه وكثرة إعماله السيف فى رقاب الأعداء ثم عن قوته النفسية أمام حوادث الدهر . ثم عن القول بأن كل نفس ذائقة الموت وأن التراب سوف يجمع بين السوقة والملوك :

عهدى به يلقى الردى بمهند	يعلوه غمد من دم مسفوك
يانفس محمود وأنت عليمة	بطريق هذا العالَم المسلوك
عهدوك لا تتصدعين لحادث	أو أنت باقية كما عهدوك
هذا التراب - وأنت أعلم - ملتقى	هذى الورى من سوقة وملوك

وهكذا نرى أن كلا الشاعرين قد أجاد فى ناحية وقصر فى الأخرى . كما أن كليهما قصر – بصفة عامة – فى مواجهة هذا الحادث ولم يعطياه حقه من الوصف والتعبير . فلم يتطرق واحد منهما إلى ذكر مخايل الفتاة وما يتوقع لها فى حياتها لو طال العمر بها . وهذا من أهم المعانى التى يجب أن يتحدث عنها الشاعر فى رثائه للأطفال . وقد قال ابن رشيق فى هذا المعنى : (١) « ورثاء الأطفال أن يذكر مخايلهم وما كانت الفراسة تعطيه فيهم مع تحزن لمصابهم وتفجع بهم » .

وربما يرجع هذا التقصير إلى طبيعة القول فى النساء عموماً مما يجعل رثاءهن أصعب لأن التنوع فى القول والتفنن فى التعبير الموجه إليهن محدود لضيق المعانى التى يمكن للشاعر أن يعبر بها إزاءهن .

وهذه ليست حالة خاصة بحافظ أو بشوقى بل ينطبق ذلك على معظم الشعراء العرب إن لم يكونوا كلهم فى ذلك سواء . وقد اعترف بعض نقاد العرب القدماء بهذه الصعوبة مثل ابن رشيق القيروانى الذى يقول : (٢)
« ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثى طفلاً أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما وقلة الصفات . ألا ترى ما صنعوا بأبى الطيب – وهو فحل مجود إذا ذكر المحدثون – فى قوله يذكر أم سيف الدولة :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

فقالوا : ماله ولهذه العجوز يصف جمالها ؟! » .

٢ – رثاء الإمام محمد عبده : (١٨٤٩ – ١٩٠٥م)

انشد حافظ إبراهيم قصيدتين فى رثاء الإمام محمد عبده . إحداهما قالها عقب وفاته وهى التائية المبدوءة بقوله :

---

(١) العمدة ٢ / ١٥٨ .
(٢) العمدة ٢ / ١٥٤ .

سلام على الإسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات (١)

والأخرى قيلت في ذكراه السابعة عشرة وهي التي ضمنها رثاءه لحفني ناصف . وبدأها بقوله :

آننت شمس حياتي بمغيب ودنا المنهل يانفس فطيبي (٢)

وقد ملأ حافظ قصيدتيه بكثير من آيات الأسى واللوعة .

أما شوقي فقد اقتصر في رثائه للإمام محمد عبده على ثلاثة أبيات فقط جاءت خالية - أو شبه خالية - من الرواء والعاطفة القوية واستدعاء الفجيعة كما نرى في رثاء حافظ له . فقد اكتفى شوقي بنعت الإمام بالنعت الذي كان الإمام يحب أن ينعت به في حياته وهو : « المفسر لكتاب الله » . ويطلب منه في نفس البيت أن يفسر للناس آية الموت التي عجز عن تفسيرها أو تأويلها المفسرون .

وعلى الرغم من قصر نفس شوقي في رثائه للإمام إلا أنه لم يستطع أن يتخلص من عادته في الرثاء وهو إرسال الكلام عن الموت والحكمة منه فيذكر أن كل الناس إلى فناء ولن يدوم هناء أو حزن . ويختم شوقي أبياته بإعطائنا فكرة مجملة عن خطوات حياة الإنسان في هذه الدنيا فهي « ميلاد فشغل فمأتم فذكر » . ولم ينس شوقي أن يذكر باختصار شدة ما صار إليه حال الناس بعد وفاة الإمام من الحاجة الملحة إلى القيادة الفكرية والدينية التي تقودهم نحو حياة الهدى والصلاح .

وهذه هي أبيات شوقي في رثاء الإمام : (٣)

مفسر آي الله بالأمس بيننا قم اليوم فسّر للورى آية الموت

رُحِمتَ مصيرُ العالمين كما ترى وكل هناء أو عزاءٍ إلى فوتِ

هو الدهر : ميلاد فشغل فمأتم فذكر كما أبقى الصدى ذاهب الصوتِ

---

(١) الديوان ٤٥٨ .

(٢) الديوان ٥١٧ .

(٣) الشوقيات ٣ / ٣٣ .

ويلتمس الدكتور عبد الرحيم محمود زلط العذر لشوقى فى قصر نفسه فى رثاء الإمام فيقول : (١) « وإن كان رثاء أمير الشعراء قلّ فربما له العذر . إذ لا يستطيع أن يرثى من كان ملء الأسماع والأبصار بما لا يجد فى الأسماع والأبصار مكاناً للتفجع عليه . فيكفيه أن تظل صورة الإمام حية ناطقة لديهم ولا يتمثل أحد أن يحل محلها كلمة الرحيل أو الموت . فمادامت تعاليمه باقية فهو حى فى خلد الأجيال . وعليهم ألا يشعروا بموته فتموت معه تعاليمه وفكره وهذا بعد نظر من الأمير الفطن » .

وهذا الكلام قد يكون صحيحاً . كما يصح القول بأن قصر نفس شوقى فى رثائه للإمام ربما يرجع إلى عدم تأثره الشديد بفقد الإمام لانعدام الصلة القوية التى تربط بين حياته وحياة الإمام وخاصة أن هذه الكارثة قد وقعت قبل أن ينزل شوقى إلى الشارع المصرى ويختلط بشدة بحياة المصريين ويلتف مع من التف حول الإمام يستمعون إلى فكره ويتعطشون إلى نصائحه . وهذا ما يفرق بينه وبين حافظ الذى أنهلته الفجيعة وجعل يتذكرها ويذكر الناس بها كلما لاحت الفرصة لذلك . وفى رثائه لقاسم أمين وحفنى ناصف دليل على ذلك . ففى قصيدة حافظ فى رثاء قاسم أمين يعرج على الإمام محمد عبده ويتحسر على فقده ويقول : ما أحوجنا الآن إلى وجوده معنا وبين صفوفنا حتى يرعى دعوته ويحافظ عليها ويذكرنا بها كلما ابتعدنا عنها . ثم يذكر حافظ الناس بمآثر الإمام الباقية آثارها فى أرض مصر بل وفى العالم الإسلامى كله . يقول حافظ فى تلك القصيدة مخاطباً قاسم أمين : (٢)

جاور أحبتك الألى نهبوا	بالعزم والإقدام والعمل
وانكر لهم حاج البلاد إلى	تلك النهى فى الحادث الجلل
قل للإمام إذا التقيت به	فى الجنتين بأكرم النزل
إن الحقيقة أصبحت هدفاً	للراكبين مراكب الزلل
لله آثار لكم خلدت	صاح الزوال بها فلم تزل

(١) رسالة الشعر فى خدمة الدعوة وحركات الإصلاح ٢١٢ .
(٢) الديوان ٤٧٣ .

لله أيام لكم درجت طالت عوارفها ولم تطل
نعم الظلال لو أنها بقيت أو أن ظلاً غير منتقل

وقد شارك الشاعر اسماعيل صبرى فى رثاء الإمام محمد عبده بقصيدة طويلة ملأها بمعانى الألم والأسى على فقد الإمام. (١)

وقد بدأ صبرى قصيدته بحث نفسه — وحث غيره من الشعراء — إلى النهوض للتعبير عن حزنه وأحزان أبناء الأمة الإسلامية إما بالدموع أو بالدم أو بالقول. فلا يصح أن ينعى صاحب الفضائل ولا يكون هو فى جملة الباكين :

تدفقّ دموعاً أو دماً أو قوافيا مآتم أولى الناس بالحزن هاميا
أيجمل أن تُنعَى الفضائل للورى ولم تك فى الباكين ويحك باكيا

وهو ابتداء قوى النغمات إلا أن حافظاً قد أتى بما هو أقوى من ذلك : فقد أصبح بعد وفاة الإمام يتمنى الموت ويخشى أن تطول به الحياة وهو الذى كان يحرص عليها ويخشى أن ينزل به الموت قبل وفاة الإمام. ولم يكتف بحث نفسه ببكاء الإمام والحزن كما فعل صبرى بل تمنى أن يلحق به وأن يكون بجواره فى قبره كما كان بجواره فى الدنيا.

لقد كنت أخشى عادىّ الموت قبله فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

وينتقل صبرى فى قصيدته من المقدمة إلى وصف دور العلم بخلوها من المفكرين والقائمين على أمور الدين والعاملين على نصرته والهادين الناس إلى نوره. ثم يتعرض إلى جهاد الإمام فى سبيل الدين الإسلامى ورسم الطريق الواضح لتفسير كتاب الله والتصدى لكل محاولات المغرضين حتى يفيئوا إلى الحسنى :

(محمد) مَن للدين يحرس حوضه ويدرأ بين الناس عنه العواديا
تعرض قوم للكتاب وأثخنوا صراحته شرحاً عن القصد نائيا
فأرسلت فيه نظرة نفذت إلى صميم مراد الله إذ قمت هاديا

---

(١) ديوان اسماعيل صبرى باشا / ٢٠٧.

ووفقت بين الشرع والعقل بعدما	قد اعتقد الإلفان ألا تلاقيا

ويظهر حزن صبرى وتفجعه واضحين فى مناداته للإمام ولا مجيب عليه . وفى تحسره على ما كان للإمام من ثقافة دينية وفكرية أفحمت المتحذلقين بأمور الدين وفى تصويره لتصدى الإمام للمناظرين له بقوة تمكنه من إفحامهم لأنه كان يتكلم بلسان الحق والصدق . ومهما حاول أصحاب الرأى الآخر أن ينالوا منه ومن فكره ارتدوا خائبين . ولا غرو فهو للدين وعلومه كالحصن المنيع وخاصة فيما يخص كتاب الله - تعالى - وتفسيره ، والقضاء على الخرافات التى أساءت إلى الدين والتعرض لمبادئه بسوء . فكان يغلبهم ببرهانه الساطع وبيانه الناصع : يقول صبرى :

ورب أناس حاربوا دين أحمد	فثرتَ عليهم ثورة الليث عاديا
وقفت وأقلام الغواية شرع	وأقلام أهل الحق ترنو سواهيا
وأفحمت بالبرهان كل مناضل	لو انك لم تغضب لزاد تماديا
ففاءوا إلى الحسنى ولو لم تجبهم	لعادت زئيراً صيحة القوم داويا

وقد تحدث حافظ أيضاً عن كل هذه المعانى حتى لكأن الشاعرين قد التقيا للاتفاق على تناول كل منها . وكل ما يفترقان فيه فى حديثهما عن جهود الإمام فى سبيل نصرة الدين الإسلامى وصحة عقائده والنهوض بعلومه هو ذكر حافظ الصريح لجدال الإمام ومحاوراته مع (هانوتو) و (رينان) ورده على مطاعنهما فى الدين الإسلامى ودحضه لمزاعمهما . يقول حافظ فى هذا المعنى :

لقد كنت فيهم كوكباً فى غياهب	ومعرفةً فى أنفس نكرات
أبنت لنا التنزيل حكماً وحكمة	وفرقت بين النور والظلمات
ووفقت بين الدين والعلم والحجا	فأطلعت نوراً من ثلاث جهات

وقفت لـ (هانوتو) و(رينان) وقفة ... أمدك فيها الروح بالنفحات (١)
وخفت مقام الله فى كل موقف ... فخافك أهل الشرك والنزعات
وكم لك فى إغفاءة الفجر يقظة ... نفضت عليها لذة الهجعات
وأرصدت للباغى على دين أحمد ... شباة يراع ساحر النفثات .

وشىء آخر زادت به أبيات حافظ فى هذا المعنى وهو جمال تصويره فيها وحسن صياغته لها مع ما زينها من ألوان بيانية ومحسنات بديعية أضفت على أبياته رونقاً وبهاء . فالإمام فى أهل عصره كوكب فى ظلمات ، ومعرفة بين أنفس نكرات ، وأبان عن التنزيل ففرق بين النور والظلمات ، وفى جداله لـ (هانوتو) و(رينان) أمده جبريل بنفحات من عند الله تعالى . وهكذا ملأ حافظ أبياته بكل ما يوفر لها القوة والجزالة والإبانة عن المعنى بكل وضوح .

وتناول صبرى فى قصيدته معنى خوف الإمام على الإسلام وعلومه بعد أن خلت دور العلم من الإمام وعلمه وأصبح المجال أمام أعداء الدين مهيئاً لبث سمومهم ونشر أفكارهم الباطلة . فقد خلت ساحة الحق من حارسها وهان الأمر لمن أراد أن ينال من الدين وأهله وطابت نفس هؤلاء المضلين بموت الإمام :

(محمد) دور العلم كانت أواهلاً ... بفضلك ما بين الأنام زواهيا
فصبّحها إلا من الحزن والأسى ... عليك القضاء المستبد خواليا
فما للردى ـ لا بارك الله فى الردى ـ ... أحال بشير الأمس فى الكون ناعيا
برغم الحجا والمجد أن مسَّك البلى ... بسوء فأضحى عودك الصلب ذاويا
هنيئاً لهم فليحملوا حملاتهم ... فقد أصبح الميدان بعدك خاليا

وفى أبيات صبرى هذه بعض الجمل التى تدل على زيادة الحزن والأسى فى نفس

---

(١) هانوتو : هو جبرائيل هانوتو . السياسى المؤرخ الفرنسى . ولد عام ١٨٥٣م وله مقالات فى الطعن فى الإسلام . أما رينان : فهو أرنست رينان الفرنسى (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢م) كان قساً كاثوليكياً مشهوراً بمطاعنه فى الإسلام . وقد وقف لهما الإمام محمد عبده ورد مطاعنهما فى الإسلام .

الشاعر، ولكن إذا نظرنا إلى أبيات حافظ في هذا المعنى فسوف نرى أنّها تفوق ما في أبيات صبرى بكثير . فقد تأثر الإسلام بموت الإمام ومضت أيامه النضرات ومضت معها زهوة الدين والدنيا والبر والتقوى بل والحسنات كلها . ولا عجب في هذا فقد أصبح الدين الإسلامي وحيداً بغير حماة ولانت قناته للغمزات وأصبح عالم الإسلام يتهدده الخطر من كل النواحي : خطر الاختلاف والفرقة بعد أن ذهب الداعي إلى الشورى والأخذ بها في أمور الحياة ، وخطر الضلال بعد ذهاب من كان يتصدى للفتيا فيبين الحق من الباطل ، وخطر المساوىء والشح بعد رحيل الداعي إلى الخيرات وبذل الصدقات . يقول حافظ :

سلام على الإسلام بعد محمد ... سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجا ... على البر والتقوى على الحسنات
تباركت هذا الدين دين محمد ... أيترك في الدنيا بغير حماة ؟
تباركت هذا عالِم الشرق قد قضى ... ولانت قناة الدين للغمزات
زرعت لنا زرعاً فأخرج شطأه ... وبنت ولما نجتن الثمرات
فواهاً له ألا يصيب موفقاً ... يشارفه والأرض غير موات
مددنا إلى الأعلام بعدك راحنا ... فردت إلى أعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغي سواك عيوننا ... فعدن وآثرن العمى شرقات
فياويح للشورى إذا جد جدها ... وطاشت بها الآراء مشتجرات
وياويح للفتيا إذا قيل من لها ... وياويح للخيرات والصدقات

وكما ختم قصيدته بإهداء التحية والسلام إلى روح الإمام والدعاء له أن يجزيه الله عن الإسلام وأهله خيراً نرى صبرى يفعل الشيء نفسه بل ويتحدث قبل هذا الختام ـ وكما فعل حافظ ـ عن بعض فضائل الإمام على طلاب العلم . يقول صبرى :

(محمد) وفيت المروآت حقها ... وقمت إليها في حياتك داعيا
وعلمت أهل العرف في العرف أوجهاً ... لها غرر مشهورة ومعانيا
وعالجت أمراض القلوب بحكمةٍ ... ترى ظاهراً من خلفْها البرء صافيا
وأودعت في الطلاب أجزاء مهجةٍ ... ترى العلم إن لم يعل بالمرء هانيا

ألا نمْ مع الأبرار في الخلد ناعماً ... فكم بت فينا ساهر العزم عانيا
جزيت عن الإسلام ما أنت أهله ... فقد كنت سيفاً في يد الحق ماضيا

ولكن حافظ قد أكد كلامه في هذا المعنى بدليل حسيّ . فقد اتخذ من زوراته للإمام في بيته ومن جلساته في هذا البيت لاستماع النصح والعظة دليلاً على فضل الإمام على أبنائه من طلاب العلم وتأثيره الواضح فيهم . وهذا ما جعل لأبيات حافظ في هذا المعنى قوة وبهاء :

بكينا على فرد وإن بكاءنا ... على أنفس لله منقطعات
تعهدها فضل الإمام وحاطها ... بإحسانه والدهر غير مواتي
فيامنزلاً في عين شمس أظلني ... وأرغم حسادي وغم عداتي
دعائمه التقوى وآساسه الهدى ... وفيه الأيادي موضع اللبنات
عليك سلام الله مالك موحشاً ... عبوس المغاني مقفر العرصات

هذا عن قصيدة حافظ التائية التي قالها عقب وفاة الإمام ومظاهر تفوقها على غيرها . أما عن قصيدته البائية التي أنشدها في ذكراه السابعة عشرة فهي في مستواها أقل من هذه القصيدة . فقد ملأها حافظ بالحديث عن بغضه للحياة وكرهه لها بعد أن رحل رفقاؤه عنها بجانب رثائه لحفني ناصف وتذكر السابقين من خلانه وأصدقائه وليس فيها حديث خالص عن الإمام وفضائله إلا أبياتا معدودة .

وقد رثى الإمامَ محمد عبده كثير من شعراء العصر الحديث غير حافظ وشوقي وصبري ولكنا نكتفي في هذا المقام بما ذكرنا خوفاً من الإطالة أكثر من ذلك . وعلى العموم فقد تفوق حافظ على غيره في رثاء الإمام محمد عبده . وقد بيّن الدكتور عمر الدسوقي مظهراً من مظاهر ضعف صبري في قصيدته السابقة يعضد القول بتفوق حافظ عليه في هذا المجال . فذكر أنك « لا تشعر في رثاء صبري بتلك اللوعة التي تحس بها في رثاء المفجوعين وإنما يسير في رثائه على هينة كأنه يقص

خبراً من الأخبار » . (١)

وعلى العكس من ذلك نجد هناك من الأدباء من رفع قصيدة حافظ فى رثاء الإمام على غيرها مما شابهها فى موضوعها من قصائد الرثاء . ليس فى العصر الحديث وحده بل وفى العصور السابقة . اقرأ معى قول الدكتور حسن الكبير حول قصيدة حافظ :(٢)

« وعلى الرغم من أن هذه القصيدة معارضة لقصيدة دعبل الخزاعى والتى مطلعها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

فإننا نجد روح حافظ وما تميز به من بساطة فى الأداء وصياغة محكمة قد جعلت تلك المعانى التى قد ألم بها من القدماء وتخرج فى صياغة جديدة تجعلها تفوق أصلها .

انظر إلى قول أبى العلاء المعرى فى الرثاء :

ولولا قولك الخلاق ربى لكان لنا بطلعتك افتتان

وقوله أيضاً :

أسهب فى وصف علاك لنا حتى خشينا النفوس تعبدكا

نجد أن هذين البيتين صعلوكين إذا قستهما بقول حافظ فى رثاء الشيخ محمد عبده إذ يقول :

فلا تنصبوا للناس تمثال (عبده) وإن كان ذكرى حكمة وثبات

فإنى لأخشى أن يضلوا فيؤمنوا إلى نور هذا الوجه بالسجدات

ففى هذين البيتين لاشك صورة خالدة » .

ويبدى الدكتور طه حسين اعجابه بقصيدة حافظ إبراهيم هذه فيقول بعد تحليله لبعض أبياتها : (٣) « ولو أنى نعبت أحلل القصيدة كلها وأختار منها لما تركت منها بيتاً واحداً . فكلها جيد إما لجدة المعنى وإما لرصانة اللفظ وإما لصدق اللهجة وإما لهذه الخلال كلها مجتمعات » .

---

(١) فى الأدب الحديث ٢ / ٣٦٩ .

(٢) تطور القصيدة الغنائية فى الشعر العربى الحديث ٩٢ .

(٣) حافظ وشوقى - طبع الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية / ١٤١ ، ذكرى الشاعرين ٤١ .

ويقول في موضع آخر مبيناً خلود هذه القصيدة وفضلها على غيرها من قصائد الشعراء المحدثين في رثاء الإمام محمد عبده : (١)

« هذه قصيدة خالدة من غير شك - وهي لا تستمد خلودها ممن قيلت فيه وحده ولا ممن قالها وحده وإنما تستمد هذا الخلود من الرجلين جميعاً - فقد كانت حياة الأستاذ شيئاً رائعاً واستطاع حافظ أن يعطي منها صورة رائعة - وما أكثر ما قال الشعراء في الأستاذ الإمام بعد موته - ولكنك تستطيع أن تقرأ هذا الشعر الكثير فستجد منه الحسن الجميل وستجد منه المتوسط وستجد منه الرديء دون أن تظفر بمثل هذه القصيدة روعة وجمالاً وصدق لهجة واستحقاقاً للخلود » .

ويرى الدكتور طه حسين أن من أسباب تفوق حافظ في رثائه للإمام محمد عبده أن حافظاً في هذه القصيدة « قد غلبت طبيعته صناعته وأنه تحدث بقلبه وإيمانه إلى قلوب المسلمين وإيمانهم فانتقل حزنه ووفاؤه إلى نفوس الناس فعلمهم كيف يجدون لذع الحزن وكيف يستعذبون لذة الوفاء - ومع ذلك كله جاء رصين اللفظ بديع الأسلوب لا يعرف الضعف ولا الوهن إلى شعره سبيلاً » . (٢)

كما أعجب الدكتور عبد الرحيم زلط بقصيدة حافظ إبراهيم هذه وسجل إعجابه هذا بقوله معقباً على القصيدة : (٣) « فلله در حافظ إبراهيم كيف استطاع أن يجمع شتات فكره أمام ذلك الموقف الرهيب الذي فيه يكاد الإنسان يفقد حسه خاصة إذا كان المتوفي من أعز أصدقائه وأساتذته ولكنه الإيمان بالعقيدة الصادقة التي بعثها ونماها ورعاها وأحاطها بثاقب فكره وعلمه العالم الإمام محمد عبده ولولا أن دعوته راسخة في قلوب رجاله وتلاميذه ما استطاع هذا الشاعر وأمثاله أن يطوعوا الألفاظ والأوزان والمعاني كي تؤدي واجبها وتكمل رسالتها في محيط دعوة

---

(١) حافظ وشوقي ١٤٣ ، ذكرى الشاعرين ٤٢ .

(٢) ذكرى الشاعرين ٤٠ .

(٣) رسالة الشعر في خدمة الدعوة وحركات الإصلاح ٢٠٦ .

الإمام التى كان لها أبعد الأثر الزمنى بعد رثائه » .
كما أبدى الدكتور كامل جمعه إعجابه هو الآخر بقصيدة حافظ هذه فقال عنها : (١)
« .... تعد بحق من رائعات المراثى على امتداد عصور الشعر العربى : فنفثات قلبه تملأ أبياتها فتملأ النفوس لوعة والقلوب أسىً والنار التى تضطرم بنفسه حزناً صادقاً على أستاذه ووليه تنفذ خلال القلوب وكأنما تلذع جمراتها قلبه لذعاً أليماً » .

وفى رأيى أن من دوافع براعة حافظ فى هذه القصيدة وتوفيقه فى رثاء الإمام محمد عبده هو صداقته القوية للإمام وتلمذته على يديه . فلقد كان حافظ صديقاً صدوقاً للإمام وتلميذاً مخلصاً له لازمه منذ بداية دعوته الإصلاحية حتى وفاته . فلما أصيب الشاعر بوفاة هذا الصديق الأستاذ أملى عليه شعوره بهذه الفجيعة ، وإحساسه بألم الفراق هذه القصيدة الصادقة التى شرح فيها جهود الإمام فى الدعوة إلى الإصلاح وإلى الجانب التعبدى فى حياته . وعرج فيها إلى بيان موقف المستعمرين من دعوة الإمام ومحاولتهم تفتيت وحدة العقيدة التى كان يدعو إليها محمد عبده ويدافع عنها بكل قوة .

٣ - رثاء الزعيم مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨م)

رثى الزعيم مصطفى كامل كل من أحمد شوقى واسماعيل صبرى وخليل مطران بجانب رثاء حافظ وغيره له .
أما حافظ فقد قال فى رثاء مصطفى كامل ثلاث قصائد : الأولى ألقاها عقب وفاة الزعيم وهى قصيدته اليائية التى بدأها بقوله : (٢)

أيا قبر هذا الضيف آمال أمةٍ   فكبّرْ وهلّل والقَ ضيفك جاثيا

والثانية قالها حافظ فى ذكرى الأربعين لوفاة الزعيم وهى الرائية المبدوءة

---

(١) حافظ إبراهيم ما له وما عليه - الطبعة الثانية - ١٩٦٠ م ص ٢٤٤ .
(٢) ديوان حافظ ٤٦٣ .

بقوله : (١)

نثروا عليك نوادى الأزهار   وأتيت أنثر بينهم أشعارى

والثالثة قالها فى الذكرى الأولى لوفاة الفقيد فى الحفل الذى أقيم عند قبره . وهى الميمية المبدوءة بقوله : (٢)

طوفوا بأركان هذا البيت واستلموا   واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم

ورثى شوقى الزعيم مصطفى كامل هو الآخر بثلاث قصائد : الأولى قالها بعد أيام من وفاة الزعيم وهى النونية التى بدأها بقوله : (٣)

المشرقات عليك ينتحبان   قاصيهما فى مأتم والدانى

والثانية هى قصيدته الميميّة التى قالها فى الحفل الذى أقيم لتأبين الزعيم بمناسبة مرور ستة عشر عاماً فى عام ١٩٢٤م . وهى المبدوءة بقوله : (٤)

إلام الخلف بينكمو إلما   وهذى الضجة الكبرى علاما

والثالثة هى القصيدة الرائية التى قالها بعد التآم شمل الأحزاب المصرية المتنافرة فى سنة ١٩٢٦م وأشاد فيها شوقى بفضل الزعيم مصطفى كامل على الأمة المصرية ونكر أنه هو الذى وضع حجر الأساس لهذا التجمع الوطنى . وقد بدأها شوقى بقوله : (٥)

لم يمت من له أثر   وحياة من السير

أما الشاعر اسماعيل صبرى فقد قال فى رثاء الزعيم مصطفى كامل قصيدة مؤثرة ألقاها على قبر الزعيم يوم دفنه وبدأها بقوله : (٦)

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعيا   هددت القوافى إذ قمت بالأمس ناعيا

أجل أنا من أرضاك خلًا موافيا   ويرضيك فى الباكين لو كنت واعيا

---

(١) الديوان ٤٦٥ .
(٢) الديوان ٤٧٤ .
(٣) الشوقيات ٣ / ١٢٢ .
(٤) الشوقيات ١ / ١٧٠ .
(٥) الشوقيات ٣ / ٧٢ .
(٦) ديوان اسماعيل صبرى ٢١٧ .

وبعد أن قال هذين البيتين خنقته العبرات ولم يستطع أن يكمل قصيدته فانقطع عن الإنشاد وأكمل القصيدة في حفل تأبين الزعيم في ذكرى الأربعين لوفاته .
وقد لاحظت أن شارح الديوان قد جعل البيت الأول مقدمة لمقطوعة شعرية نظمها الشاعر حينما بلغه نعي الزعيم وقال هذا البيت وحده على قبره حين دفنه ولم ينشد بقية الأبيات . وجعل البيت الثاني مقدمة لقصيدة أخرى قالها الشاعر في ذكرى الأربعين لوفاة الفقيد . والمشهور ما ذكرته أولاً بدليل اتفاق البيت المذكور مع القصيدة في الوزن والقافية بجانب أنه لم يعثر أحد على تلك الأبيات التي ذكر شارح الديوان أنها تكمل المقطوعة الشعرية التي منها هذا البيت المذكور .
أما الشاعر خليل مطران فقد رثى الزعيم مصطفى كامل بقصيدة طويلة قالها في ذكرى الأربعين لوفاة الزعيم وبدأها بقوله : (١)

أعلى مكانتك الإله وشرفا   فانعم بطيب جواره يامصطفى

وقد تحدث حافظ في شعره في رثاء مصطفى كامل عن كثير من المعاني التي دلت على وفائه للزعيم وإعطائه حقه من التكريم والتعظيم . فلقد ذكر في رثائه له كثيراً من صفاته الطيبة وأخلاقه الحميدة . كما سرد فيها كثيراً من الأعمال البطولية التي قام بها مصطفى كامل في سبيل وطنه وتحرير شعبه ، وتحدث أيضاً عن حنكة الزعيم السياسية وخبرته في مقاومة الاستعمار ، وصور ببعض شعره مظاهر حزن أبناء الشعب على الفقيد وشدة المصيبة على نفوسهم وأبان عن تأثير الوجود كله - حتى الجماد - بوفاة مصطفى ، وصور معاناة الشعب في ظل السياسة الظالمة التي أخذ بها الاستعمار أبناء الشعب بعد موت زعيمهم ، ودعا حافظ أبناء الشعب إلى السير على طريق النضال الذي بدأه الزعيم المرثي ، وحثهم على إكمال هذا الطريق واتخاذه مناراً يسيرون على دربه لتخليص بلادهم من ظلم الاستعمار وآثامه ...... إلى غير ذلك من المعاني التي تحدث عنها حافظ في رثائه للزعيم مصطفى كامل والتي تحدثت عنها في مواطن منثورة في الفصل الثاني من المبحث الأول .

---

(١) ديوان الخليل - مطبعة دار الهلال - ١٩٤٨م / ١ / ٢٩٨ .

وقد جاء شعر حافظ فى رثائه لمصطفى كامل غاية فى البراعة وقمة التصوير ، وامتلأت قصائده الثلاث بكثير من معانى الحزن والألم وتصوير لوعة الشعب وفداحة مصابه بفقد هذا الزعيم .

ففى قصيدته الأولى الكثير من الأبيات التى تعبر عن لوعة حافظ الصادقة . كما امتلأت بالأبيات التى تعبر عن حزن الشعب وعظيم ألمه بهذا الحادث الجلل . اقرأ معى قوله فى مخاطبة قبر الزعيم مصطفى كامل :

أيا قبر هذا الضيف آمال أمةٍ ... فكبر وهلل والقَ ضيفك جاثيا

عزيز علينا أن نرى فيك مصطفى ... شهيد العلا فى زهرة العمر ذاويا

أيا قبر لو أنا فقدناه وحده ... لكان التأسى من جوى الحزن شافيا

ولكن فقدنا كل شىء بفقده ... وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا

« فلهذه الأبيات قدرة غريبة فى السيطرة على النفوس والمشاعر لأنها تصور حزن الشعب وأساه . فقد كان مصطفى زعيماً سياسياً أيقظ الأمة من سباتها العميق وملأ نفوسها أملاً ورجاءً فنطق حافظ بألسنة الجماهير المكلومة فى هذه الأبيات » . (١)

وقد جاءت القصيدة كلها ـ كما يصفها الدكتور عمر الدسوقى ـ « بطبيعتها وسرعة إنشائها لوعة صادقة تصور هول الفجيعة ، ودمعة حارة وزفرة عميقة جاءت من وحى العقل الباطن لا نتيجة تفكير وترو . ومست جوانب العظمة فى مصطفى كامل وبينت عمله لمصر وما يرجوه الشاعر من مصر بعد وفاته . وكانت خير معبر عن شعور المصريين إزاء هذا الخطب الفادح » . (٢)

ويكفى منها للتمثيل على جودتها وحسن تصويرها ما أتى به حافظ من تصوير لشخص الزعيم وصوته وهو ينادى أبناء وطنه يحثهم على المحافظة على البناء الذى أقامه والصرح الذى شيده بالسير على هديه والعمل على إكماله وعدم الشعور بالضعف أو الميل إلى الفرقة والاختلاف . فروح الزعيم مطلة على أبناء شعبه وما يحزنها غير الخلاف والفرقة :

---

(١) تطور القصيدة الغنائية فى الشعر العربى الحديث ـ د / حسن الكبير ٩٣ .

(٢) فى الأدب الحديث ٢ / ١١٠ .

شهيد العلا لازال صوتك بيننا — يرن كما قد كان بالأمس داويا
يهيب بنا : هذا بناء أقمته — فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
يصيح بنا : لا تشعروا الناس أنني — قضيت وأن الحي قد بات خاليا
يناشدنا بالله ألا تفرقوا — وكونوا رجالاً لا تسروا الأعاديا
فروحي من هذا المقام مطلة — تشارفكم عني وإن كنت باليا
فلا تحزنوها بالخلاف فإنني — أخاف عليكم في الخلاف الدواهيا
أجل أيها الداعي إلى الخير إننا — على العهد مادمنا فنم أنت هانيا
بناؤك محفوظ وطيفك ماثل — وصوتك مسموع وإن كنت نائيا

والقصيدة الثانية مجد فيها حافظ الزعيم وجهاده ضد الاستعمار ، وعمله الدائب لرفع راية الحرية في البلاد وتخليصها من رجس الاستعمار وآثامه . كما صور فيها ببراعة ودقة مشهد أبناء الشعب وحالتهم من الحزن والبكاء وقت تشييع جنازة الزعيم .

وقد اتهم الدكتور عمر الدسوقي حافظاً في هذه القصيدة بفتور العاطفة وقلة اللوعة فقال : (١)

« خفت فيها حدة العاطفة وحرارة اللوعة وصور فيها حافظ بشعوره الواعي الحوادث الخارجية ووصف الجنازة ومواقف مصطفى كامل التاريخية المجيدة » .

ولست مع الدكتور عمر في حكمه على حافظ في هذه القصيدة بفتور العاطفة وقلة اللوعة . ففيها من المعاني ما يدل على أنها خرجت من قلب ملئ بالحزن ومن نفس مفعمة بالألم والحسرة . انظر إلى قوله مصوراً حزنه وحزن أبناء الشعب من رجال ونساء وقت تشييع جنازة الفقيد :

عز القرار عليَّ ليلة نعيه — وشهدت موكبه فقر قراري
شاهدت يوم الحشر يوم وفاته — وعلمت منه مراتب الأقدار
ورأيت كيف تفي الشعوب رجالها — حق الولاء وواجب الإكبار

---

(١) في الأدب الحديث ٢ / ١١١ .

تسعون ألفاً حول نعشك خشّع ... يمشون تحت لوائك السيار

خطوا بأدمعهم على وجه الثرى ... للحزن أسطاراً على أسطار

آناً يوالون الضجيج كأنهم ... ركب الحجيج بكعبة الزوار

وتخالهم آناً لفرط خشوعهم ... عند المصلى ينصتون لقارى

غلب الخشوع عليهم فدموعهم ... تجرى بلا كلح ولا استئثار

قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم ... ما بين سيل دافق وشرار

أسعى فيأخذنى اللهيب فأنثنى ... فيصدنى متدفق التيار

لو لم ألذ بالنعش أو بظلاله ... لقضيت بين مراجل وبحار

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى ... هتكت عليك حرائر الأستار

سفرت تودع أمة محمولة ... فى النعش لاخبراً من الأخبار

أمنت عيون الناظرين فمزقت ... وجه الخمار فلم تلذ بخمار

قد قام ما بين العيون وبينها ... ستر من الأحزان والأكدار

فمثل هذه الأبيات لا تخرج إلا من إنسان امتلأ قلبه بالحزن واللوعة وثارت عاطفته فصور ما يحسه من ألم ومرارة .

أما القصيدة الثالثة لحافظ فى رثاء مصطفى كامل فقد جاءت تحفة رائعة عبر بها حافظ عن حالة أبناء الشعب وما فعله بهم الاستعمار بعد عام من وفاة الزعيم الذى طالما تصدى لهم وأبان عن ظلمهم وعسفهم . وقد وصفها الدكتور عمر الدسوقى بقوله : (١) « كانت أروع هذه القصائد لا من حيث تصويرها للوعة الأسى وحرقة الفراق وعظم المصاب ولا من حيث تصويرها لجهاد الفقيد ودفاعه الحار عن مصر وقضيتها وإيقاظه قوماً ظن أعداؤهم بهم الظنون ورموهم بكل نقيصة ولكن من حيث وصفه آلام مصر وآمالها وشعورها إزاء الاحتلال ومصائبه . وقد أسفر حافظ عن ذات نفسه فى هذه القصيدة فجهر بعدائه الصارخ للانجليز ولم يعد بعد ذلك يلين القول ويدعو إلى المهادنة . وهى خير ما يمثل شعر حافظ السياسى الذى اكتسب به لقب «

---

(١) فى الأدب الحديث ٢ / ١١١ .

شاعر النيل » .

وفي هذه القصيدة كثير من الأبيات التي تغري قارءها بذكرها للتدليل بها على براعة حافظ فيها وبلوغه درجة عالية من التوفيق والإجادة . وإني ذاكر هنا الأبيات التالية لأذكر بعدها هذا القول الجميل الذي عبر به الدكتور طه حسين عن إعجابه بها . يقول حافظ في هذه القصيدة مبيناً عظمة الفقيد وما تحلى به من محاسن :

إني أرى وفؤادي ليس يكذبني — روحاً يحف به الإكبار والعظم

أرى جلالاً أرى نوراً أرى ملكا — أرى محيًّا يحيينا ويبتسم

الله أكبر هذا الوجه أعرفه — هذا فتى النيل هذا المفرد العلم

غضوا العيون وحيوه تحيته — من القلوب إذا لم تسعد الكلم

لبيك نحن الألى حركت أنفسهم — لما سكنت ولما غالك العدم

جئنا نؤدي حساباً عن مواقفنا — ونستمد ونستعدي ونحتكم

ويقول الدكتور طه حسين معبراً عن إعجابه بهذه الأبيات لما اشتملت عليه من محاسن (١) « ألا ترى هذه الأبيات وكيف استحضر الشاعر فيها شخص الزعيم يحف به الجلال والعظمة وكيف مهد لهذا الاستحضار بهذا البيت الأول الذي خرج فيه عن طوره العادي وأخرج الناس معه عن أطوارهم وهيأهم لموقف غير مألوف ثم أخذ يدفعهم إلى هذا الموقف دفعاً ويملأ قلوبهم هيبة وإجلالاً بهذا البيت الذي ألفه من جمل متقطعة قصيرة ختمه بصورة خلابة رائعة :

أرى جلالاً أرى نوراً أرى ملكاً — أرى محيًّا يحيينا ويبتسم

ثم انظر إليه كيف استأثر به الذهول وغلبه على نفسه وملك عليه أمره فصاح :

الله أكبر هذا الوجه أعرفه — هذا فتى النيل هذا المفرد العلم

ثم انظر إليه بعد ذلك وقد أكد الجمهور وأنساه وملك عليه شعوره وحسه وأقنعه بأنه أمام الزعيم كيف يتحدث إلى هذا الجمهور بهذا الحديث الذي تملؤه المهابة والروعة والحب معاً فيقول :

---

(١) ذكرى الشاعرين ٤٤ ، حافظ وشوقي ١٤٥ .

غضوا العيون وحيوه تحيته من القلوب إذا لم تسعد الكلم

ثم يتجه بعد ذلك إلى الزعيم نفسه فيصيح صيحة كلها إيمان وطاعة ويقين وإعجاب :

لبيك نحن الألى حركت أنفسهم لما سكنت ولما غالك العدم

هذه أبيات لو قرأها أرسطاطاليس صاحب الخطابة ومنشئ علم البيان لما تردد في أن يتخذها مثلاً لما يسميه في الكتاب الثالث من الخطابة وضع الشيء تحت العين » . هذا عن شعر حافظ في رثاء مصطفى كامل . أما شعر شوقي في ذلك فقد ملأه بالحكمة وبسرد ذكرياته مع الزعيم الصديق . ويلاحظ أن شوقي لم يرث مصطفى كامل بعد وفاته مباشرة كما فعل حافظ وبعض معاصريه على الرغم من صداقة شوقي لمصطفى كامل . وكان عدم رثائه للزعيم في يوم وفاته دافعاً للطعن عليه والطعن في الروح الوطنية عنده . اقرأ معي قول الدكتور أحمد هيكل في ذلك : (١)

« ولنفس السبب الذى أسكت شوقي عاماً عن حادث دنشواى نراه يسكت عن رثاء مصطفى كامل فلا يرثيه يوم وفاته كغيره من كبار الشعراء ولا يرثيه بعد أيام تسمح بعمل قصيدة في رثاء صديق ومجاهد كبير وإنما يرثيه بعد نحو أسبوعين ولا يعرض في رثائه لوطنية المرثى ومحاربته للاحتلال والاستبداد وإنما يدير الحديث حول شبابه الذى ذوى ويردد تكهنات الناس عن سبب وفاته ويعدد من أمجاده القدرة الخطابية والدعوة إلى الإصلاح الخلقي والعلمي وما إلى ذلك ...... والسبب في موقف شوقي من رثاء مصطفى كامل واضح وهو ما كان من معاداة عباس للشاب الثائر . ثم ما كان من سخط الانجليز عليه . فلم يرد شوقي ـ فيما يبدو ـ أن يرثي مصطفى كامل رثاءً وطنياً حتى لا يجلب على نفسه سخط الخديوى وحتى لا يثير مشكلات تمس ما بين القصر والانجليز من وفاق . ومن هنا تردد شوقي أولاً ثم دبج هذا الرثاء « الدبلوماسى » الذى لم يورد فيه أهم خصائص مصطفى كامل كثائر وطني ورائد من أبرز رواد الحركة المقاومة للاحتلال » . ويذكر الدكتور أحمد

---

(١) تطور الأدب الحديث في مصر ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧١م ـ دار المعارف ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

الحوفي أن شوقي لم يسكت عن رثاء مصطفى كامل عاماً كما هو المشهور بل لم يسكت شهراً عن ذلك ولكنه رثى صديقه الزعيم بعد اثنى عشر يوماً فقط من وفاته . ويدلل على ذلك أنه قرأ قصيدة شوقي في رثاء مصطفى كامل في (اللواء) بتاريخ ٢٣ من فبراير عام ١٩٠٨م والمعروف أن مصطفى كامل توفي في يوم ١١ من فبراير عام ١٩٠٨م . (١) ومن ثم فتعليل تأجيل شوقي رثاءه لمصطفى كامل بأنه مجاملة للخديوى عباس وخوفه على علاقته بالقصر يحتاج إلى نظر كما يقول الدكتور ." لأن هذه الأيام القلائل (اثنا عشر يوماً) ليست من السعة بحيث تغير رأى الخديوى في مصطفى كامل وتخفف من بغضه له . ولو أن صمت شوقي كان خوفاً من الخديوى أو مجاملة له أو انتظاراً لتغير رأى الخديوى فيه لكان على شوقي أن يصمت عاماً أو بضعة أعوام ثم يرثى مصطفى كامل .

وإنما السبب فيما أرى أن عاطفة الحزن أحياناً تغل الشاعرية وتشل التفكير وتطغى على الإبانة فيضطر الشاعر إلى مهلة من الزمن يستجم فيها ويستعيد صوابه فيرثى أحبابه .

أما في معمعة الأسى فإنه كثيراً ما يجنح إلى الدموع ويركن إلى الزفرات والأنات ويستريح إلى الأخيلة والذكريات والحسرات في صمت حزين . وها هو ذا شوقي يقرر هذا المعنى في رثائه لوالده حوالى سنة ١٨٩٧م : (٢)

سألوني لِمَ لَمْ أرثِ أبي ... ورثاء الأب دَيْن أى دَيْن

أيها اللوام ما أظلمكم ... أين لى العقل الذى يسعد أين ؟

ويقول في رثائه لمصطفى كامل : (٣)

ماذا دهاني يوم بنت فعقنى ... فيك القريض وخانني إمكاني

ومن هنا تعود كثير من الشعراء أن يلقوا مراثيهم في حفلات التأبين بعد أربعين

---

(١) وطنية شوقي - الطبعة الرابعة - ١٩٧٨ ص ١٣٤ .

(٢) الشوقيات ٣ / ١٢٠ .

(٣) الشوقيات ٣ / ١٢٤ .

يوماً أو أكثر أو أقل » (١)
وكلام الدكتور الحوفى له مكان كبير من الواقعية والصدق وقد يكون السبب الذى ذكره هو الذى وراء عدم رثاء شوقى لمصطفى كامل فى يوم وفاته . مع احتمال وجود السبب الذى ذكره الدكتور هيكل أيضا .

وقد تميزت قصيدة شوقى النونية فى رثاء مصطفى كامل بشدة اللهجة التى تثير كثيراً من الأحزان واللوعات إلا أنها جاءت مليئة بالحكم التى تصور فلسفة الحياة والموت وتبتعد بنا كثيراً عن جو الحزن على الزعيم المصاب . اقرأ معى قوله :

الناس جار فى الحياة لغاية	ومضلل يجرى بغير عنان
والخلد فى الدنيا - وليس بهين -	عليا المراتب لم تتح لجبان
المجد والشرف الرفيع صحيفة	جعلت لها الأخلاق كالعنوان
وأحب من طول الحياة بذلة	قصر يريك تقاصر الأقران
دقات قلب المرء قائلة له	إن الحياة دقائق وثوانى
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها	فالذكر للإنسان عمر ثانى
للمرء فى الدنيا وجم شئونها	ما شاء من ربح ومن خسران
فهى الفضاء لراغب متطلع	وهى المضيق لمؤثر السلوان
الناس غاد فى الشقاء ورائح	يشقى له الرحماء وهو الهانى
فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها	نعمى الحياة وبؤسها سيان

كما أن هذه القصيدة قد جاءت خالية أو شبه خالية من الإشادة بجهاد مصطفى كامل ضد الاستعمار والحديث عن حياته السياسية . والسبب فى ذلك أنه رثى بها - كما يقول الدكتور عمر الدسوقى - (٢) صديقاً حميماً ولم يرث زعيماً عظيماً وإماما من أئمة الجهاد فى مصر . وهذا ما يفرق بينه وبين رثاء حافظ لمصطفى كامل . وهو نفسه السبب الذى جعل لرثاء حافظ للزعيم قوة وجمالاً ووقعاً كبيراً فى نفوس أبناء الشعب . فبينما نرى حافظ إبراهيم يرثى فى مصطفى كامل زعيماً سياسياً ومجاهداً

---

(١) وطنية شوقى ١٣٥ - ١٣٦ .
(٢) فى الأدب الحديث ٢ / ١١٠ وما بعدها .

وطنياً إذ بنا نرى شوقى فى قصيدته هذه يرثى فى مصطفى كامل صديقاً حميماً ورفيقاً عزيزاً عليه ولم يتعرض لحياته السياسية إلا لماماً تدل على تخوفه من الحديث فى هذا المعنى .

وقد شرح الدكتور عمر الدسوقى بإسهاب هذا المعنى فى رثاء شوقى لمصطفى كامل فقال : (١) « وكان شوقى صديقاً لمصطفى كامل يرسل إليه القبلات فى رسائله إلى محمد فريد من أوربا . وكان من المنتظر حين يرثيه شوقى وقد زاره على فراش الموت أن يبدع فى رثائه ويشيد بمواقفه الوطنية العظيمة وإحيائه للأمة بعد أن استكانت ، وتنغيصه على المحتل مقامه بوادى النيل . ولكن شوقى رثاه عقب وفاته بقصيدة صور فيها فى دقة تامة إحساسه المتفجع فى فقد صديق الصبا والشباب وصور آخر لقاء كان بينهما تصوير الأخ المفجوع فى أخ عزيز . وبعد عن السياسة كل البعد ولم يتطرق إليها إلا بحذر بالغ نائياً عن الحديث فى الجانب القوى من حياة مصطفى كامل وأثره فى النهضة الوطنية . رثى شوقى فى هذه القصيدة صديقاً حميماً ولم يرث زعيماً وطنياً وإماماً من أئمة الجهاد .

ولا شك أن شوقى قد تأثر فى رثائه هذا بسياسة القصر حينذاك وهى سياسة الحيدة والتحفظ أمام كل ما يؤذى الانجليز أو يغضبهم . أضف إلى هذا أن علاقة مصطفى كامل بعباس قد انقطعت أو كادت فى أخريات حياته . بل كان مصطفى كامل قاسياً فى انتقاده لتصرفات عباس وميوله نحو الانجليز وتساهله معهم . وكان شوقى كلما اقترب فى هذه القصيدة من الناحية السياسية كقوله :

هل قام قبلك فى المدائن فاتح ... غاز بغير مهند وسنان ؟

وتظن أنه سينتقل إلى جهاد مصطفى كامل وكيف أثار الحمية والعزيمة فى النفوس إذا بك تراه يفاجئك بشىء آخر بعيد عن هذا بقوله :

يدعو إلى العلم الشريف وعنده ... أن العلوم دعائم العمران

وبذلك يتخلص من السياسة قبل أن يتورط فيها . وإذا قاربها مرة أخرى فى قوله :

---

(١) المرجع السابق ٢ / ٩٧ ـ ٩٨ .

اخلع على مصر شبابك عالياً — والبس شباب الحور والولدان
فلعل مصراً من شبابك ترتدى — مجداً تتيه به على البلدان
فلو أن بالهرمين من عزماته — بعض المضاء تحرك الهرمان
علمت شبان المدائن والقرى — كيف الحياة تكون فى الشبان

نراه يبتعد سريعاً عن السياسة وعما عساه أن يتورط فيه من ذكر صلابة مصطفى كامل وعدم مهادنته الغاصبين فيختم القصيدة على عجل وكأنه ينجو من أمر خطير وشر مستطير بقوله :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها — قبر أبر على عظامك حانى
أقسمت أنك فى التراب طهارة — ملك يهاب سؤاله الملكان ».

وهكذا كان تجاهل شوقى للجانب السياسى فى رثائه لمصطفى كامل سبباً من الأسباب التى أدت إلى عدم توفيقه الكامل فى هذا الرثاء والنزول به إلى درجة أقل من الجودة والإتقان فى هذه القصيدة . « فهى من هذه الوجهة يمكن أن يقال إنها مرثية لصديق عادى . ولم يكن مصطفى بالفرد العادى فى الناحية التى لمع فيها اسمه وهى الوطنية المتأججة . كان على شوقى أن يصور هذا الجانب فى الفقيد وأن يجلوه كل الجلاء لتكون الصورة واضحة المعالم عن سياسى كانت حياته كلها جهاداً وكفاحاً وإقلاقاً لراحة الغاصب وإشعالاً لنار الوطنية فى النفوس وتطرفاً فى هذه الوطنية » . (١) ولكن شوقى لم يستطع أن يخوض فى هذا الجانب بقوة حفاظاً على علاقته بالقصر وبصاحب القصر .

وقد أبدى الأستاذ العقاد موقفه من قصيدة شوقى النونية فى رثاء مصطفى كامل واتهمها بالخلو من الوحدة الفنية بحيث لو انتُزِعَتْ أبيات منها ووضعت فى غير مكانها لما أحس القارىء بذلك التغيير ؛ لأنها غير متماسكة أصلاً . فهى ليست وحدة عضوية وإنما هى حبات عقد إذا انفرط كان من الممكن إعادة ترتيبه على أى

---

(١) حافظ وشوقى ـ حسن كامل الصيرفى / ٢٨ .

وضع . وليس ذلك من سمات الشعر الحي » .(١)
ولإثبات هذا الاتهام أجرى العقاد بعض التعديلات في ترتيب أبيات القصيدة وخرج بالنتيجة التي أرادها من وراء هذه التعديلات وهي فقدان القصيدة للوحدة الفنية . « والواقع أن العقاد قد تخير لذلك قصيدة من قصائد الرثاء المليئة بأبيات الحكمة . ومن طبيعة بيت الحكمة أن يستقل بمعناه وأن يستشهد الناس به منفرداً . فمن الطبيعي أن يستطيع العقاد تغيير أبياتها كما يشاء » .(٢)

على أن هذه الظاهرة ـ في الحقيقة ـ ليست قاصرة على شعر شوقي وحده وإنما هي ظاهرة تتميز بها القصيدة العربية بشكل عام . فالشعراء العرب منذ العصر الجاهلي كانوا يميلون إلى بناء قصائدهم على أساس وحدة البيت وانفراده بمعناه حتى كأنه كلام مستقل كما يقول ابن خلدون . (٣) « ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة القافية نفسها لأن السامع أو القارئ يحتاج إلى الوقوف عند آخر كل بيت ليتذوق القافية ولكي تلتذ بها أذنه . وليس معنى ذلك أن سياق القول كان منقطعا مبدداً فقد كان الكلام متصل المعنى أو ينبغي أن يكون كذلك . ولكن قد ترتب على ميل العرب إلى استقلال كل بيت عما قبله وعما بعده أن أصبح من الممكن نقل الأبيات عن موضعها في بعض الأحيان » . (٤) كما أنني أخالف الأستاذ العقاد في وصفه لهذه القصيدة بأنها « كومة من رمل لا روح لها ولا سياق ولا شعور ينظمها ويؤلف بينها مما يدل على فقدان الخاطر المؤلف بين أبيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكرة وجفاف السليقة » . (٥) ففيها بعض الصور الجميلة والمعاني اللطيفة والمشاعر الصادقة . ومن ذلك بيته الذي اختصر لنا شوقي به شأن الحياة الدنيا وحقيقتها في

---

(١) حركة البعث في الشعر العربي الحديث ـ د / ماهر فهمي / ١٩٥ .
(٢) المرجع السابق / ١٩٥ .
(٣) انظر مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق د / علي عبد الواحد وافي ط ٣ ـ ج ٣ ص ١٢٩٩ .
(٤) حركة البعث في الشعر العربي ١٩٥ ـ ١٩٦ .
(٥) الشعر المصري بعد شوقي ـ د / محمد مندور ص ٢٣ .

أدق وصف لها فقال :

دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثواني

هذا البيت الذي يحفظه كل عربي حتى كثير من العامة ومحدودي الثقافة لخفته وصدق معناه وجمال ألفاظه . ورغم هذا يعيبه العقاد ويأخذ عليه فيه « الجمع بين دقات الساعة ودقات القلب . ويرى في هذا التشبيه الحسي ولوعاً بالأعراض دون الجواهر » وكأن الأستاذ ـ كما يقول الدكتور محمد مندور ـ « قد غفل أو تغافل عما في البيت من تصوير ناطق لفناء الحياة المتلاحق وكأن كل دقة من دقات القلب تفنى جزءاً من تلك الحياة كما تفنى دقات الساعة الزمن » . (١)

كما أخالف الأستاذ العقاد أيضاً في حكمه على شوقي في بيته الآتي بالسخف :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها   قبر أبر على عظامك حاني

فقد سخر العقاد من شوقي ورماه بالسخف في هذا البيت لأنه « رثى رجلاً أحيا نهضة في بلاده بأن جعلها قبراً له » . (٢) وأرى أن قول شوقي هذا يدل على مدى الحزن والأسى الذي عم أرجاء مصر بموت زعيمها .

وبعد هذا كله نخلص إلى أن خطأ شوقي في هذه القصيدة هو إغراقه في الحكمة والإكثار منها وعدم الحديث عن الجانب السياسي الوطني للزعيم الفقيد . وقد تدارك شوقي خطأه في هذا الجانب السياسي بعد أن خلص من قيود الوظيفة وأغلال القصر وزالت الأسباب التي منعته عن الخوض في هذا الجانب . وكأني به قد أحس بالتقصير في هذه القصيدة فقال قصيدة أخرى في رثاء مصطفى كامل بمناسبة مرور ستة عشر عاماً على وفاته في عام ١٩٢٤م وهي قصيدته الميمية التي تحدث فيها بكل جرأة وشجاعة عن مصطفى كامل الزعيم الوطني الذي بذل حياته كلها في سبيل تحرير بلاده وتبصير مصر والمصريين بحقهم في الحياة .

وقد أشار الدكتور عمر الدسوقي إلى هذا التحول في رثاء شوقي لمصطفى كامل

---

(١) المرجع السابق / ٢٥ .
(٢) نفس المرجع / ٢٤ .

بهذه القصيدة فقال : (١)

« على أن شوقي قد تدارك ما فاته في القصيدة (يقصد النونية) من وصف وطنية مصطفى كامل وأثره في مصر وفي جيله وفي القضية الوطنية عامة بعد أن زالت الأسباب التي كانت تلجم لسانه وتشل بيانه ووفي هذا الصديق حقه وهذا الزعيم ما يليق به من رثاء . إذ انتهز شوقي فرصة مرور سبعة عشر عاماً (٢) على وفاة مصطفى كامل حين أقيمت له حفلة ذكرى . فقال قصيدة ربما كانت من أحسن ما قيل حتى اليوم في مصطفى كامل وفي جهاده وهي من أروع الشعر العربي الحديث قيلت سنة ١٩٢٤م بعد أن عاد شوقي من منفاه ورأى أن الدنيا قد تغيرت وسدت دونه أبواب القصر والثورة المصرية قد تأجج سعيرها واشتد لظاها وهبت مصر عن بكرة أبيها تدعو إلى الإستقلال التام أو الموت الزؤام ومطلعها :

إلام الخلف بينكمو إلاما ... وهذي الضجة الكبرى علاما ».

ومن مظاهر براعة شوقي في هذه القصيدة أبياته التي تناول فيها ما أصاب البلاد بعد وفاة الزعيم من انقسام وتشاحن وخلاف وكأنه يدعو العرب إلى الاتحاد والالتئام للتخلص مما أصاب بلادهم من تخلف ونهب وطغيان على يد الاستعمار :

إلام الخلف بينكمو إلاما ... وهذي الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكم لبعض ... وتبدون العداوة والخصاما
وأين الفوز ؟ لا مصر استقرت ... على حال ولا السودان داما

ومنها تلك الأبيات التي ذكر فيها بعض مناقب الفقيد وبيّن فضله في بث وتقوية الروح الوطنية في نفوس أبناء الشعب فيقول :

شهيد الحق قم تره يتيماً ... بأرض ضيعت فيها اليتامى
أقام على الشفاه بها غريباً ... ومرّ على القلوب فما أقاما

---

(١) في الأدب الحديث ٢ / ٩٩ .
(٢) هي ستة عشر عاماً من عام ١٩٠٨م إلى ١٩٢٤م .

أتذكر قبل هذا الجيل جيلاً	سهرنا عن معلمهم وناما ؟
مهاد الحق بغضنا إليهم	شكيم القيصرية واللجاما
(لواؤك) كان يسقيهم بجام	وكان الشعر بين يدى جاما
جمعتهم على نبرات صوتٍ	كنفخ الصور حركت الرجاما
لك الخطب التى غصّ الأعادى	بسورتها وساغت للندامى
بك الوطنية اعتدلت وكانت	حديثاً من خرافة أو مناما
بنيت قضية الأوطان منها	وصيرت الجلاء لها تماما

هى قصيدة رائعة بلا شك ولكنها لا ترتقى فى روعتها ودرجة إجادتها إلى درجة شعر حافظ فى رثاء مصطفى كامل . فما من معنى اشتملت عليه قصيدة شوقى إلا وتحدث عنه حافظ فى شعره مع حسن التصوير وروعة الأداء .

أما قصيدة شوقى الرائية فليس فيها ما يتصل برثاء الزعيم الوطنى إلا بعض أبيات قليلة يبين فيها فضل الزعيم فى بث الروح الوطنية فى نفوس أبناء الشعب ويبين اتحاد القوم والتفاهم حول المبادىء القويمة التى عمل الزعيم على غرسها بينهم . وهى تلك الأبيات التى يخاطب فيها الزعيم بقوله :

قم تر القوم كتلة	مثل ملمومة الصخر
جددوا ألفة الهوى	والإخاء الذى شطر
ليس للخلف بينهم	أو لأسبابه أثــر
ألـفـتـهـم روانـــح	غاديات من الغِيَر
وصحوا من منوم	وأفاقوا من الخدر
أقبلوا نحو حقهم	ما لهم غيره وطر
جـعـلـوه خـلـيّـةً	شرعوا دونها الإبر
وتـواصَـوْا بـخـطـةٍ	وتـداعـوا لمؤتـمـر

أما بقية أبيات القصيدة فهى إما فى الحكمة السطحية القريبة غور أو فى سرد بعض ذكريات الشاعر مع المرثى فى صباه أو فى وصف براعة المرثى فى

خطبته الأخيرة فى حياته أو فى الحديث عن حزنه على تلك الذكريات الماضية والمودة المنقضية وهى كلها أوصاف لا روح فيها ولا وراء . وأحسن ما فيها تلك الأبيات التى يذكر فيها شوقى حاجة الحق الوطنى إلى وجود الزعيم الراحل والتى يقول فيها :

أعوز الحقَ رائدٌ	وإلى مصطفى افتقر
وتمنت حياضه	هبّة الصارم الذكر
الذى ينفذ المدى	والذى يركب الخطر
أيها القوم عظموا	واضع الأس والحجر

وهكذا تفوق حافظ على شوقى - بصفة عامة - فى رثائهما لمصطفى كامل وأثبت حافظ جدارته واستحقاقه للقب شاعر الشعب الذى يقف بجانبه يمجد أبطاله ويخلد أعمالهم الوطنية .

أما قصيدة الشاعر اسماعيل صبرى فى رثاء مصطفى كامل فهى قصيدة جيدة مؤثرة تنم عن الحرص الشديد من جانب الشاعر - وكان صديقاً للزعيم - على دوام روح الود والمحبة على الرغم من العداوة الشديدة بين الزعيم والانجليز وعلى الرغم من أن اسماعيل صبرى كان موظفاً فى الحكومة حتى قبل أن يقول هذه القصيدة بقليل وكان أمله كبيراً فى العودة إلى وظيفته .

وقد بدت فى القصيدة روح التأثر بالتراث العربى القديم . فقد حذا صبرى - كما فعل حافظ فى قصيدته - حذو القدامى من الشعراء العرب . ونرى ذلك واضحاً فى الأبيات الأولى من القصيدة حيث يقول :

أجل أنا من أرضاك خلاً موافيا	ويرضيك فى الباكين لو كنت واعيا
وقلبى ذاك المورد العزب لم يزل	كما ذقت منه الحبّ والودّ صافيا
سوى أنه يعتاده الحزن كلما	رآك عن الحوض المهدد نائيا
ويعثر فى بعض الخطوب إذا مشى	إلى بعض ما يهوى فيرجع داميا
وإن رامه سرب المسرات لم يجد	محلاً به من لاعج الهم خاليا

ألا علّلاني بالتعازي وأقنعا فؤادي أن يرضى بهن تعازيا
وإلا أعيناني على النوح والبكا فشأنكما شأني وما بكما بيا
وما نافعي أن تبكيا غير أنني أحب دموع البر والمرء وافيا

فنلمح صبري في هذه الأبيات - كما يذكر الدكتور محمود شوكت والدكتور رجاء عيد - (١) وقد تأثر بالمتنبي في قصيدته التي يمدح بها كافور الإخشيدي والتي بدأها بقوله : (٢)

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

كما نرى تأثره بالشعر العربي القديم في مخاطبته رفيقين على عادة الشعراء القدامى في قوله : علّلاني - أعيناني - كذلك نجد الجزالة في التعبير في مثل قوله : الحوض المهدد - ولاعج الهم - وغير ذلك مما يذكرنا بالشعر العربي القديم .

وهي قصيدة بلغت حداً من الجودة والبراعة في رثاء الزعيم مصطفى كامل إلا أنها جاءت أقل من شعر حافظ في هذا المجال لخلوها تقريباً من وصف الحياة السياسية للمرثي وما قام به في بث الروح الوطنية في نفوس أبناء الشعب ، كما أن الشاعر لم يضمن قصيدته ما يكفي لتصوير حزن الشعب وأساه أسفاً على رحيل الفقيد وما حل بهم وبمصر بعد موته . ولكنها على العموم جيدة في بابها وعبرت عن وفاء الشاعر لصديقه وزعيم الشعب.وقد أشار الدكتور عمر الدسوقي عن إعجابه بهذه القصيدة وما فيها من بعض أوجه القصور فقال بأنها قصيدة ذات « عاطفة جياشة تنبيء عن لوعة صديق محزون هدّه الحزن . لم يصور فيها مصطفى كامل الوطني المشتعل حماسة وثورة على قيود الرق وأغلاله بما يليق به واكتفى بذكر الشجن والأسى والحسرات لفراقه . وليس فيها من نبأ عن وطنية مصطفى كامل إلا إشارات

---

(١) مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر - دار الفكر العربي / ١٠١ .
(٢) ديوان المتنبي ٤ / ٢٨١ .

عابرة وما عدا ذلك فهو تصوير لعظم الفجيعة » (١) وبذلك نعلم أن قصيدة صبرى هذه قد تشابهت مع شعر شوقى فى رثاء مصطفى كامل فى ابتعادها عن التعرض بقوة وإفاضة لحياة الزعيم الوطنية والسياسية وجهاده المستمر ضد الانجليز . وربما كانت لوظيفة صبرى السابقة فى الحكومة وأمله فى استردادها أثر فى ذلك . تماماً كما كانت حال شوقى وصلته بالقصر الخديوى أيام أن ألقى قصيدته النونية فى رثاء مصطفى كامل . اقرأ معى قول صبرى فى رثاء الزعيم :

ألا علانى بالتعازى واقنعا	فؤادى أن يرضى بهن تعازيا
وإلا أعينانى على النوح والبكا	فشانكما شانى وما بكما بيا
وما نافعى أن تبكيا غير أننى	أحب دموع البر والمرء وافيا
أيا مصطفى تالله نومك رابنا	أمثلك يرضى أن ينام اللياليا
تكلم فإن القوم حولك أطرقوا	وقل ياخطيب الحى رأيك عاليا

فإن من يقرأ هذه الأبيات يتوقع أن الشاعر سيخوض بعدها فى الحديث عن جهاد الزعيم وحياته السياسية والوطنية . ويخيل إليه « أنه سيفيض فى ذكر مزاياه ويتحدث بإسهاب عن وطنيته . ولكنه يشير بعد أبيات فى إيجاز شديد إلى أن مصطفى كامل كان سلاح مصر وكوكبها المضيىء فى دجنة الحوادث وأنها فقدت هذا السلاح وهى أحوج ما تكون إليه . « وهذا الكوكب (قد أفل وترك مصر) وهى تتخبط فى الظلماء ولولا ما خلفه من الأمانى فى نفوس مواطنيه لكان فى بكائهم عليه بكاء على أمانيهم :

فقدناك فقدان الكمى سلاحه	وسارى الدياجى كوكب القطب هاديا
وبتنا ودمع العين أندى خمائلاً	وأكثر إسعافاً من الغيث هاميا
ولولا تراث من أمانيك عندنا	كريم بكينا إذ بكينا الأمانيا

وأشار كذلك إلى قوة حجته وعظيم دفاعه عن مصر فى إيجاز شديد :

فليتك إذ أعييت كل مساجل	قنعت فلم تعى الطبيب المداويا
وليتك إذ ناضلت عن مصر لم تفض	مع الحبر قلبا - يعلم الله - غاليا

---

(١) فى الأدب الحديث ٢ / ١٢٦ .

فهو لا ينطلق على سجيته ويخيل إليك أنه يمشي بحذر خائفا يترقب . فثمة الانجليز وثمة القصر وكلاهما غير راض عن مصطفى كامل . وهو شاعر يدين للقصر بالولاء كما ينطق بذلك ديوانه الذي يغص بقصائد المديح يزجيها في كل مناسبة للخديو . ولكنه كان - على كل حال - أجرأ من شوقي في هذه المناسبة . ولعل جرأته أتت من أنه كان قد اعتزل الخدمة وأصبح لا يخشى بأساً من الانجليز » . (١)

وهكذا يظهر تفوق حافظ على صبري في رثائهما للزعيم مصطفى كامل . إذ خلت قصيدة صبري من كثير من المعاني التي تحدث عنها حافظ في شعره هذا وكان لها أكبر الأثر في علو منزلته وتفوقه على غيره من معاصريه في ميدان الرثاء . بجانب ذلك فإن المعاني التي تحدث عنها صبري ووجدنا لها نظيراً في شعر حافظ قد جاءت أقل روعة وتصويراً مما رأيناه في شعر حافظ . فأين أبيات صبري المذكورة آنفا والتي يتحدث فيها عن بكاء الشعب على الزعيم وعن حاجته إليه لاستكمال مسيرة الكفاح والنضال ضد الاستعمار . أقول أين هذه الأبيات من أبيات حافظ في تصوير بكاء الشعب للزعيم وحزنهم عليه وقت تشييع جنازته في قصيدته الرائية.أو من أبياته التي يصور فيها سياسة الانجليز مع الشعب المصري وحاجة المصريين إلى الزعيم الذي وقف كثيراً ضد كيد الاستعمار وظلمه وطغيانه في القصيدة الميمية ؟!

وإن من يقرأ شعر حافظ ويقرأ معه شعر صبري في رثاء مصطفى كامل يحس بهذا الفرق الواضح في التصوير والصياغة وحسن المعاني والألفاظ .
أما قصيدة الشاعر خليل مطران في رثاء مصطفى كامل فهي أفضل وأحسن من قصيدة صبري السابقة.ولكنها مع ذلك جاءت أقل جودة وبراعة من شعر حافظ في رثاء الزعيم . ولاشك أن قصيدة مطران بها أكثر من معنى جيد برع الشاعر في تصويره . منها - على سبيل المثال - تصويره لحزن الشعب وأساه وفرط بكائه وقت تشييع جنازة الزعيم والذي جاء تصويره فيه مشابها في كثير من أجزائه لتصوير حافظ لهذا المعنى . مع

---

(١) في الأدب الحديث - عمر الدسوقي ٢ / ١٢٧ .

الفارق فى الجودة وقوة التصوير لصالح حافظ . وهذه هى أبيات خليل مطران :

فوردت وردك فى الخلود منعماً ... والأرض مائدة عليك تأسفا
لم تلف قبلك أمة فى مشهد ... يذرو الرجال به المدامع نزفا
يمشون من حول الجنازة ضائقاً ... بهم الرحيب من المسالك مصرفا
متثاقلين من الوقار وإنما ... ساروا بطيف ناحل أو أنحفا
بحر من الأحياء نعشك فوقه ... فلك يظلله اللواء مرفرفا
يبكون فى آثاره العلم الذى ... آثاره من رقعة لا تقتفى
سعت الخوادر حاسرات والأسى ... قلق على الأبصار سدا أغدفا
ولئن سفرن ولم يخلن فإنه ... خطب الآن بروعه صم الصفا
فزع الشباب إلى الشيوخ بثأرهم ... من دمعهم إن خانهم فتكفكفا

ومنها تصويره لتأثر الوجود كله لفقد الزعيم وحزن الشعب بكل طوائفه لوفاته وفقدان الدين الإسلامى لحاميه من الجهالة والجاهلين بعد رحيل حاميه من تهم العدى .

كما أجاد مطران فى تصويره لحنكة الزعيم السياسية وما قام به من بطولات لرفع راية مصر وعودة الحرية إليها والمطالبة بحقها فى الحياة الحرة الكريمة . وغير ذلك من المعانى التى تحدث عنها الشاعر خليل مطران فى قصيدته وأدى بها واجب الوفاء لهذا الزعيم الذى طالما سعى لمصلحة مصر وتطهيرها من آثام الاستعمار وطغيانه . وهذه بعض أبيات الشاعر فى بيان حب الزعيم لمصر أختم بها حديثى عن هذه القصيدة . يقول مطران مخاطباً الزعيم مصطفى كامل :

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها ... وأرى ترابك من حنين قد هفا
وكأننى بالقبر أصبح منبراً ... وكأننى بك موشك أن تهتفا
مصر التى لم تحظ من نجبائها ... بأعز منك ولم تعز بأحصفا
مصر التى لم تبغ إلا نفعها ... فى الحالتين ملايناً ومعنفا
مصر التى غسلت يداك جراحها ... بصبيب دمعك جارياً مستنزفا
مصر التى كافحت لدّ عداتها ... متصدراً لرماتها مستهدفا

مصر التى سقت الجيوش مناقباً ومنى لتكفيها المغير المجحفا
مصر التى أحببتها الحب الذى بلغ الفداء نزاهة وتعففا
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفاً من شملها مالم يكن ليؤلفا

هذا وقد رثى الزعيم مصطفى كامل كثير من شعراء العصر الحديث غير حافظ وشوقى وصبرى ومطران . ومنهم الشاعر أحمد الكاشف الذى ساهم فى تقدير الزعيم مصطفى كامل وإعطائه حقه من الإجلال والتعظيم وقال فى رثائه قصيدة طويلة بلغت حوالى مائة بيت بدأها بقوله : (١)

ياكوكباً فى كل برج دارا أرضيت فى هذا الضريح قرارا
ومجاهداً فى كل واد ضارباً لولا المنية ما لقيت عثارا

ولكن يظل حافظ أبرع من رثى مصطفى كامل ، ويظل شعره أجود ما قيل فى تمجيد هذا الزعيم والاعتراف بفضله على الحياة الوطنية والسياسية فى مصر الحديثة . ورسم الطريق الذى سار عليه من بعده لتخليص البلاد من الاستعمار وآثامه .

٤ ـ رثاء قاسم أمين (١٨٦٥ ـ ١٩٠٨م) .

اشترك مع حافظ عدد كبير من الشعراء المحدثين فى رثاء قاسم أمين . ومن أهمهم شوقى وخليل مطران وعلى الجارم .

أما حافظ فقد رثاه بقصيدته اللامية التى اهتم فيها أكثر ما اهتم بتعداد صفات الفقيد وبالتعبير عن حزنه ووصف مصيبته ومصيبة مصر فى فقده . وقد بدأها بقوله : (٢)

لله دَرُّك كنت من رجل لو أمهلتك غوائل الأجل

ورثاه شوقى بقصيدته الرائية وتحدث فيها عن عدة معانى بجانب تعبيره عن حزنه

---

(١) ديوان الكاشف ـ مطبعة الجريدة بمصر ـ ١٩١٣م ج ٢ ص ١١٦ .
(٢) ديوان حافظ ٤٧٠ .

وحزن مصر على المرثى وبدأها بقوله : (١)

يا أيها الدمع الوفيّ بَدَار نقضي حقوق الرفقة الأخيار

ورثاه الشاعر خليل مطران بقصيدته الميمية التى تحدث فيها عن بعض القضايا التى ساهم الفقيد فيها بجانب وصفه لحزن مصر على الفقيد ـ وبدأها بقوله : (٢)

لقد فدح الخطب في قاسم فيالك من زمن غاشم

أما الشاعر على الجارم فقد قال فى رثاء قاسم أمين قصيدة طويلة أنشدها فى الذكرى الثلاثين لوفاة قاسم فى عام ١٩٣٨م ـ وهى قصيدته البائية المبدوءة بقوله(٣)

ملّ من وجده ومن فرط ما به وأراق الشراب من أكوابه

وللموازنة بين شعر حافظ فى رثاء قاسم أمين وبين شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة : شوقى ومطران والجارم سوف أقوم بعرض المعانى التى تحدث عنها حافظ فى قصيدته ونظيرها فى شعر هؤلاء الثلاثة ، وأهم المعانى التىلم يطرقها حافظ فى قصيدته ووجدت عند غيره من هؤلاء .

وقد اهتم حافظ فى قصيدته ـ كما ذكرت قبل قليل ـ بالحديث عن أخلاق قاسم أمين ووصف مصيبته ومصيبة مصر فى فقيدها وفى رجالها السابقين ولم يتعرض لغير ذلك إلا بإشارات خفيفة إلى بعض المعانى الأخرى ـ وهذا عرض للمعانى التى تحدث عنها حافظ ونظيرها عند شوقى ومطران والجارم :

ـ بدأ حافظ قصيدته بالحديث عن أخلاق المرثى وما تحلى به من شمائل فى حياته مما جعل المصيبة فى فقده أجل وأعظم :

لله درك كنت من رجل لو أمهلتك غوائل الأجل

خلق كأنفاس الرياض إذا أسحرن غب العارض الهطل

وشمائل لو أنها مزجت بطبائع الأيام لم تحل

---

(١) الشوقيات ٣ / ٥٩ .

(٢) ديوان الخليل ٢ / ٢ .

(٣) ديوان الجارم ـ مطبعة دار المعارف بمصر ١ / ١٠٤ .

جم المحامد غير متهم جم التواضع غير مبتذل
يادولة الأخلاق رافلة من قاسم فى أبهج الحلل
كيف انطويت به على عجل أكذا تكون مصارع الدول

وقد أشار شوقى إلى بعض ما اتصف به قاسم أمين من صفات غير ما ذكر حافظ فقال :

فى أريحىّ ماجدٍ مستعظم رزء الممالك فيه والأمصار
أوفى الرجال لعهده ولرأيه وأبرهم بصديقه والجار
وأشدهم صبراً لمعتقداته وتأدباً لمجادل وممارى
يسقى القرائح هادئاً متواضعاً كالجدول المترقرق المتوارى

وواضح تفوق أبيات حافظ على أبيات شوقى فى وصفهما لمآثر المرثى وما تحلى به من أخلاق وشمائل . فلقد تحدث حافظ عن صفات قاسم أمين من خلال حديثه عن عدة قضايا بأسلوب اتسم بالتجسيم والتشخيص لهذه الصفات بفضل ما أتى به حافظ من ألوان بيانية أو محسنات بديعية كالتشبيه فى البيت الثانى والاستعارة فى البيت الثالث والاحتراس فى البيت الرابع . أما شوقى فقد سرد صفات المرثى فى أسلوب مباشر خال من مثل هذه الأشياء التى زين بها حافظ أبياته غير الاستعارة والتشبيه اللذين استخدمهما شوقى فى البيت الأخير من أبياته .

وأشار الشاعر خليل مطران إلى بعض ما تحلى به قاسم من صفات طيبة فقال :

لك الله من شائدٍ للعلا وفى يده معول الهادم
يدك القبيح ويبنى المليح رجوعاً إلى سنة الراسم
مضيت فأى فتىً باسل فقدناه فى أسدٍ باسم

وقد أجاد مطران فى صياغته صفات المرثى فى أسلوب ملىء بالاستعارات المعبرة الجميلة ولكنه لم يتعرض لأخلاقه وسيرته الخلقية وركز اهتمامه على ذكر الصفات الخارجية أو الملموسة مثل البسالة والبشر والشجاعة .

وعلى العموم فقد أجاد مطران فى سرده لصفات المرثى وإن كنت أرى أبيات حافظ أكثر جودة وروعة .

وتحدث كذلك الشاعر على الجارم عن بعض صفات قاسم أمين الخلقية والنفسية فقال واصفاً إياه بالصبر والجرأة والشجاعة وقوة العزيمة :

فقد الناسُ قاسماً فرأوه ‏ ‏ أصبر الناس فى تجرع صابه
صال بالرأى قاسم لا يبالى ‏ ‏ ومضى فى طريقه غير آبه
كم جرئ لا يرهب السيف إن سلّ ونكس يخاف مس قرابه
مثل عزم الداعى وفضل المجلّى ‏ ‏ ومن الله ما ترى من ثوابه

ولم يقدم الشاعر لنا شيئاً فى هذه الأبيات غير كلمات يمكن أن تطلق على أى إنسان . بجانب أن تعداده لهذه الصفات منصب ـ كما يظهر من الأبيات ـ على وصفه بها فى ظروف خاصة وهى تحليه بها أثناء انشغاله بقضية تحرير المرأة . وبهذا يظهر تفوق حافظ على الجارم فى تناوله لصفات المرثى وتعداد شمائله .

ـ ووصف حافظ فى قصيدته كبر المصيبة التى حلت به وبمصر كلها بفقد قاسم أمين وعبر لنا عما امتلأت به نفسه ونفوس أبناء مصر من حزن وألم على هذا المصاب فقال :

مالى أرى الأجداث حالية ‏ ‏ وأرى ربوع النيل فى عطل
فإذا الكنانة أطلعت رجلاً ‏ ‏ طاح القضاء بذلك الرجل
أو كلما أرسلت مرثية ‏ ‏ من أدمعى فى إثر مرتحل
هاجت بى الأخرى دفين أسىً ‏ ‏ فوصلت بين المدامع المقل
إن خاننى فيما فجعت به ‏ ‏ شعرى فهذا الدمع يشفع لى
لهفى عليك قضيت مرتحلاً ‏ ‏ لم تشك لم تستوص لم تقل
غلّ القضاء يد القضاء فذا ‏ ‏ يبكى عليك وذاك فى جذل

ويقول :

واهاً على دار مررت بها ‏ ‏ قفراً وكانت ملتقى السبل
أرخصت فيها كل غالية ‏ ‏ وذكرت فيها وقفة الطلل
ساءلتها عن قاسم فأبت ‏ ‏ رد الجواب فرحت فى خبل

متعثراً ينتابني وهنٌ مترنحاً كالشارب الثمل

وعبر شوقي عن حزنه لموت الفقيد وحزن مصر على مصابها فقال واصفاً حاله بعد رحيل قاسم ومن سبقه من رجال مصر الأبرار :

عطفاً عليهم بالبكاء وبالأسى فتعهد الموتى من الإيثار
ياغائبين وفي الجوانح طيفهم أبكيكم من غيّب حضّار
بيني وبينكم وإن طال المدى سفر سأزمعه من الأسفار
إني أكاد أرى محلي بينكم هذا قراركم وذاك قراري
أو كلما سمح الزمان وبشرت مصر بفرد في الرجال منار
فجعت به فكأنه وكأنها نجم الهداية لم يدم للساري
إن المصيبة في الأمين عظيمة محمولة لمشيئة الأقدار

وصدق حافظ في أبياته واضح من وراء جمله وعبارات أبياته مع أن الشاعرين قد التقيا في كثير من معاني أبياتهما مثل حديث كل منهما عن بعض من رحل قبل المرثي ، ووصف فجيعة مصر في رجالها الذين لم يمهلهم القدر حتى تجنى ثمرة نبوغهم . وإن كان شوقي في تناوله لهذا المعنى أظرف أسلوباً وأرق لفظاً وأكثر دقة في اختيار الكلمات المعبرة عن الحزن الذي امتلأت به جوانحه . وقد تحدث حافظ عن دار قاسم التي مر بها وهي خاوية على عروشها خالية من أهلها مما زاد في ألمه فأرخص كل غالية وراح في خبل متعثراً ينتابه الوهن والضعف مترنحا كالشارب الثمل بعد أن سأل الدار عن ساكنها الحبيب ولم تعره جوابا وهذا المعنى غاب عن شوقي فكان سبباً آخر من أسباب قصور شعره في تناول هذا المعنى.

أما الشاعر خليل مطران فقد لخص لنا حزنه وحزن مصر كلها على الفقيد في أبيات ثلاثة بدأ بها قصيدته فقال :

لقد فدح الخطب في قاسم فيالك من زمن غاشم
أما يشفع الفضل في فاضل أما يشفع العلم في عالم ؟
عزيز على مصر هذا المصاب بمقدامها المصلح الحازم

وليس في هذه الأبيات ما يؤهلها للحاق بأبيات حافظ أو حتى بأبيات شوقي . فقد خلت من العاطفة القوية ومن العبارات التي توحي بحزن الشاعر وألمه على الفقيد المصلح الحازم .

وأما على الجارم فقد ملأ القصيدة بالأبيات التي تدخل في باب الحكمة والتي تلخص موقفه هو من موت الراحلين وتفطر قلبه على من فارقه إلى الدار الآخرة دون أن يعطينا أبياتاً محددة تصور حزنه على قاسم أمين مما يجعلنا نحكم على قصيدته بأنها أقرب إلى تصوير فلسفة الحياة والموت من كونها قصيدة في رثاء شخص معين . ولولا حديثه في بعض أبياتها عن قاسم أمين ودعوته إلى تحرير المرأة والمطالبة بتعليمها لقلنا إنها مجرد قصيدة في الحكمة وتلخيص موقف الشاعر من الحياة والموت .

وبذلك يظهر تفوق حافظ على أقرانه في تناوله لهذا المعنى أيضاً . واقرأ معي ما يؤيد ذلك من كلام الدكتور طه حسين من حديثه عن تفوق حافظ في رثاء قاسم أمين : (١) « ورثى حافظ قاسماً فلم يكن في رثائه شعبياً ولا شاعر جمهور بالمعنى الذى نراه في رثائه للإستاذ الإمام ولمصطفى كامل . وإن كان إنساناً حساساً قوى الحس محزوناً صادق الحزن ومصرياً مشفقاً على مصر من هذه الأحداث للتي تلم بها سراعاً فتنتزع أعلامها انتزاعاً . انظر إلى قوله » ونكر بعض أبيات حافظ السابقة .

ـ ومن المعاني التي تناولها حافظ في رثائه لقاسم أمين تناوله لبلاغته في تعبيره عن آرائه في القضايا المختلفة . وقد أشار إلى هذا المعنى فقال :

ولقد أقول وما يطاولني	عند البديهة قول مرتجل
يامرسل الأمثال يضربها	قد عز بعدك مرسل المثل
يارائش الآراء صائبة	يرمى بهن مقاتل الخطل
لله آراء شأوت بها	في الخالدين نوابغ الأول

---

(١) حافظ وشوقي ١٤٦ .

وقد أشار شوقى إلى بلاغة قاسم باختصار فشبهه بقسّ بن ساعدة الإيادى فى نصف بيت وببشار بن برد فى نصف البيت الآخر حيث طلب من الناس أن يأتوا بقس بن ساعدة لتأبينه وببشار لرثائه فقال :

هاتوا ابن ساعدة يؤبن قاسماً وخذوا المراثى فيه من بشار

وواضح تفوق حافظ على شوقى فى هذا المعنى حيث بيّن بلاغة قاسم فى كل فنون القول وبيان فصاحته فى كل منها . وأجمل شوقى الحديث عن ذلك وتحدث عن بلاغة المرثى من وراء حجاب .

وقد خلت قصيدة الشاعر خليل مطران من الحديث عن بلاغة قاسم وقوة منطقه إلا من أبيات تحدث فيها عن دعوته للعلم وإزالة الجهل . وسوف أتناول الحديث عنها عند الكلام على دور قاسم أمين فى إنشاء الجامعة الأهلية .

أما الشاعر على الجارم فقد تحدث عن بلاغة قاسم وفصاحته فى خطابته والتى كانت تضيىء الطريق للسالكين . وبموته سكت هذا الصوت القوى الذى كان يدوى فى آفاق الجهالة فيزيل الأوهام والخرافات . حتى لقد تفوق قاسم ـ وهو الكردى الأصل ـ على كثير من العرب فى ميدان اللغة العربية :

عصفت صيحة الردى بخطيبٍ وهو لم يَقْضِ صفحةً من خطابه
سكتة أسكتت نشيج خضم عقد النوء لجه بسحابه
سكتة أطفأت منار طريق كم مشت مصر فى ضياء شهابه
ومضى قاسم وخلف مجداً يقرع النجم راسبات قبابه (١)
يافتى الكرد كم بززت رجالاً من صميم الحمى ومن أعرابه
كم سؤال بعثت إثر سؤال أيقظ النائمين رجع جوابه

وعندى أن أبيات على الجارم تفوق أبيات حافظ فى تصويرها لبلاغة المرثى وقوة منطقه فى إقناع الناس وتبصيرهم بما ينير لهم الطريق إلى الهدى والنور . فقد صوره لنا ـ فى بلاغته وجهارة صوته ـ بالبحر الخضم الذى عقد النوء عبابه بسحبه وعواصفه

---

(١) النشيج : الصوت . الخضم : البحر العظيم . يقرع : يعلو .

وصور لنا المنية التى أسكتت هذا الصوت بالعاصفة حتى يبين قوة هذا الصوت الذى لا تسكته غير العواصف القوية . كما صور لنا خطابته وقوة منطقه فى آرائه بالمنار الذى يهتدى به السالكون وطالما مشت مصر فى ضياء شهابه - وهذا فى رأيى أقوى من تصوير حافظ لهذا المعنى .

- أما تولى قاسم أمين لمنصب القضاء وبراعته فيه . فقد قصّر حافظ فى تصويره والحديث عنه تقصيراً واضحاً فلم يشر إليه إلا فى بيت واحد وهو :

غلّ القضاء يد القضاء فذا   يبكى عليه وذاك فى جذل

فلم يزد حافظ عن أن جعل قاسماً يداً للقضاء وقد حلّ بها قضاء الله فغلّها وقضى عليها .

أما شوقى فقد وصفه بتفرده فى القضاء ونبوغه فى هذا العلم وتفوقه على غيره فيه فقال :

يامن تفرد بالقضاء وعلمه   إلا قضاء الواحد القهار

مازلت ترجوه وتخشى سهمه   حتى رمى فأحطت بالأسرار

ويظهر من هذين البيتين تفوق شوقى على حافظ فى هذا المعنى .

وتفوق الشاعر خليل مطران على كل من شوقى وحافظ فى تناوله لهذا المعنى حيث وضح لنا نبوغ المرثى فى مهنة القضاء وفصل لقارىء شعره كيف كان المرثى يقوم بمهام عمله فى هذه الوظيفة فقال :

وَليتَ القضاءَ فكنت القضاء   على المعتدى وعلى الآثم

تزيل دجى الريب المسدلات   بأمضى وألمع من صارم

وكم ليلة بتها ساهداً   وذو الشأن فى غبطة النائم

تبالغ فى البحث عن حقه   كبحث الشحيح عن الخاتم

وتوقع حكمك عن حكمةٍ   فما من هضيم ولا هاضم

- وتحدث حافظ عن قضية الحجاب والسفور التى اشتهر المرثى بانشغاله بها من خلال دعوته إلى تحرير المرأة وتأليفه فى ذلك كتابيه المشهورين : تحرير المرأة والمرأة الجديدة .

وقد تعرض حافظ لهذه القضية ولكنه تحفظ ولم يذكر لنا موقفه هو منها . وإن دلت نغمة كلامه على أنه مع من يرون رأى قاسم أمين فى قضية تحرير المرأة . يقول حافظ مخاطباً قاسم أمين :

إن ريت رأياً فى الحجاب ولم	تعصم فتلك مراتب الرسل
الحكم للأيام مرجعه	فيما رأيت فنم ولا تسل
وكذا طهاة الرأى تتركه	للدهر ينضجه على مهل
فإذا أصبت فأنت خير فتى	وضع الدواء مواضع العلل
أولا فحسبك ما شرفت به	وتركت فى دنياك من عمل

وأبيات حافظ هذه تتميز بالظرف والرقة ولكن تحفظه عن إبداء رأيه فى هذه القضية بصراحة جعلت أبياته فى هذا المجال أقل من غيرها كأبيات شوقى التى صرح فيها بأنه يخالف دعوة قاسم أمين إلى ترك الحجاب وسفور المرأة . فقال يخاطب صاحب هذه الدعوة :

ماذا رأيت من الحجاب وعسره	فدعوتنا لترفق ويسار
رأى بدا لك لم تجده مخالفاً	ما فى الكتاب وسنة المختار
والباسلان : شجاع قلب فى الوغى	وشجاع رأى فى وغى الأفكار
أوددت لو صارت نساء النيل ما	كانت نساء قضاعة ونزار ؟
يجمعن فى سلم الحياة وحربها	بأس الرجال وخشية الأبكار
إن الحجاب سماحة ويسارة	لولا وحوش فى الرجال ضوارى
جهلوا حقيقته وحكمةَ حكمِهِ	فتجاوزوه إلى أذىً وضرار

وتبدو أبيات شوقى فى صراحتها وشرحها للقضية ودعوتها إلى الالتزام بالحجاب الذى دعا إليه الإسلام وعدم تجاوزه إلى ما فيه أذىً للنساء وإضرار بهن - كالنقاب مثلاً - أدق تعبيراً وأحسن تصويراً من أبيات حافظ السابقة فى هذا الشأن .
ولم يشر الشاعر خليل مطران إلى قضية تحرير المرأة - أو قضية الحجاب والسفور - فى رثائه لقاسم أمين . وإنما أشار إلى فضل قاسم فى الدعوة إلى تعليم المرأة

وانتشالها من ظلمات الجهل والتخلف . وسيأتي الحديث عن هذا المعنى بعد قليل .
أما الشاعر على الجارم فقد وافق على دعوة قاسم إلى تحرير المرأة وصحح له ما في دعوته من قصور فتمنى أن لو كان المرثي قد عمل - بجانب ذلك - على أن يغرس في المرأة روح العفة ويحفها بسياج من الحياء ثم لا يهم الأمر بعد ذلك رَفع الحجابُ أم أبقى عليه . فليس النقاب يمنع شراً أو يحفظ المرأة من الوقوع في الزلل والعثار إذا حرمت الحياء وبعدت عن العفة والطهارة . يقول الجارم في ذلك :

قمت للجهل تقلم الظفر منه ... وتفض الحداد من أنيابه
في زمان كان القديم به قُد ... ساً يذاد الجديد عن محرابه
يانصير النساء والدين سمحٌ ... لو وعينا الشرىّ من آدابه
قد خشينا على الحمائم في الدو ... ح أظافير بازه أو عقُابه
إن أردت الظباء تمرح في السهـ ... ـل فطهّر أكنافه من ذئابه
كم ضراءٍ وسط المدائن أنكى ... من ضراء الضرغام في وسط غابه
وشباكٍ من الجرائم والختل ... حواها شيطانهم في جرابه
وإذا ما الحياء لم يستر الحسـ ... ـن فماذا يفيده من نقابه ؟

وأبيات الجارم تتسم بالواقعية ووصف بعض الحقائق الملموسة في قضية العلاقة بين الرجل والمرأة . فكم من امرأة توارت تحت نقابها وهي حين تنفرد برجل شيطانٌ رجيم . وكم من امرأة سافرة يمنعها حياؤها وعفتها من استجابة داعي الهوى والانزلاق إلى مهاوي الرذيلة . ومثل هذا التصوير ما يجعل أبيات الشاعر أقوى وأجود في بابها ويتفوق بها الشاعر على أبيات حافظ . وليس معنى ذلك أني أدعو إلى السفور وأقول - كما يقول الشاعر على الجارم - إن المهم هو التحلي بالعفة والحياء . ولكني أقول : يجب أن تتحلى المرأة بالحجاب والزي الإسلامي ويجب قبل هذا أن تتحلى بالعفة والطهارة والحياء ، بذلك نضمن سلامة المجتمع ونقضي على ما فيه من رذائل .

- وأشار حافظ في رثائه لقاسم أمين إلى أن موت قاسم أثار في نفسه ذكرى أصدقائه الذين رحلوا من رجال مصر وقادتها وعلمائها وعلى رأسهم الإمام محمد عبده . وذكر

حافظ ما آلت إليه البلاد بعد ذهاب هؤلاء القادة وحاجة مصر إليهم وإلى آرائهم وأفكارهم بعد أن امتلأت أيامها بالحوادث الجسام ولم يعد هناك من منقذ أو هاد يقول حافظ يخاطب قاسم أمين :

جاور أحبتك الألى ذهبوا ... بالعزم والإقدام والعمل
وأنكر لهم حاج البلاد إلى ... تلك النهى فى الحادث الجلل
قل للإمام إذا التقيت به ... فى الجنتين بأكرم النزل
إن الحقيقة أصبحت هدفاً ... للراكبين مراكب الزلل
لله آثار لكم خلدت ... صاح الزوال بها فلم تزل
لله أيام لكم درجت ... طالت عوارفها ولم تطل
نعم الظلال لو أنها بقيت ... أو أن ظلاً غير منتقل

وقد أتى شوقى فى بداية قصيدته بما يفيد تذكره لرفقائه الذين خانوه وتركوه وحيداً فى دار الدنيا وذهبوا إلى الديار المقفرة مع أنهم قد تعاهدوا معه على أن يبكوه هو أولاً . يقول شوقى :

ياأيها الدمع الوفى بَدَار ... نقضى حقوق الرفقة الأخيار
أنا إن أهنتُك فى ثراهم فالهوى ... والعهد أن يبكوا بدمع جارى
خانوا وكانوا الأكرمين وغودروا ... بالقفر بعد منازل وديار
لهفى عليهم أسكنوا دور الثرى ... من بعد سكنى السمع والأبصار
أين البشاشة فى وسيم وجوههم ... والبشر للندماء والسمار
كنا من الدنيا بهم فى روضةٍ ... مروا بها كنسائم الأسحار

وتفوقت أبيات شوقى فى اللهفة والحسرة على السابقين الذين تذكرهم وتذكر عهوده معهم وأيامه معهم برحيل المرثى بجانب أنها تفوقت على أبيات حافظ فى إثارة الأسى واللوعة فى نفوس قارئيها . ولكننا لا ننكر ما فى أبيات حافظ من روح وطنية وخوفه على بلده بعد رحيل قادتها ومن أناروا لأهلها طريق الخير والهداية .

وقد أشار إلى قريب من ذلك الدكتور طه حسين فقال عن أبيات حافظ المذكورة : (١)

« ومن خير ما فى هذه الأبيات يأس حافظ مما انتهت إليه الحياة بعد أصدقائه هؤلاء وما انتهت إليه مصر من فساد الحال واعوجاج الأمر بعد أن رحل عنها أولئك المصلحون . والغريب أن ما قاله حافظ بعد موت قاسم نستطيع أن نردده الآن بعد موت الذين ماتوا من زعماء مصر وقادتها . فليس مصر بالبلد الذى يمكن أن يتمثل فيه بقول الشاعر :

إذا مات منا سيد قام سيد ... قئول لما قال الكرام فعول

وإنما يمضى الزعيم أو المصلح فيخلو مكانه ويظل خالياً وينساه الناس ولا يذكره منهم إلا الأقلون » .

وخلت قصيدتا مطران والجارم من الإشارة إلى هذا المعنى غير بيت واحد فى قصيدة الشاعر على الجارم يذكر فيه أن قاسماً كان ـ بحرية فكره ونضج آرائه ـ نعم المؤازر والنصير للإمام محمد عبده . ولذا قدمه الإمام واصطفاه وجعله من خاصة أصحابه وجلسائه . وفى هذا شبه تذكر للإمام محمد عبده وآرائه النيرة :

كنت فى الحق للإمام نصيراً ... والوفىّ الصفىّ من أصحابه

هذا ولم يتحدث حافظ فى قصيدته فى رثاء قاسم أمين عن دور المرثى فى إنشاء الجامعة المصرية أو عن دعوته إلى تعليم المرأة .

وقد أشار كل من خليل مطران وعلى الجارم إلى دعوة قاسم إلى تعليم المرأة وانتشالها من ظلمات الجهل . وبين خليل مطران فضل هذه الدعوة على المجتمع بأكمله وأشار إلى أن نيل المرأة حظها من التعليم والثقافة سوف يكون له أثره فى تربية النشىء تربية فاضلة وفى رفع شأن المجتمع المصرى بعامة . وليس كذلك ترك المرأة فى جهلها وإهمال حقها فى العلم والمعرفة فإن ذلك معين على إخراج جيل فاسد مفطوم على الجهل يكون ربحاً للعدى وخسراناً على الوطن .

---

(١) حافظ وشوقى ١٤٩ .

على أن حافظاً قد تحدث عن هذه القضية بإفاضة فى غير هذه القصيدة وذلك فى قصيدته التى قالها فى حفل مدرسة البنات ببورسعيد عام ١٩١٠م . (١)
وهذه هى أبيات مطران فى ذلك :

قضيتَ بعدلك حق البلاد ... على كل حر لها خادم
وأعملت طبك فيما مشى ... من الداء فى جسمها السالم
فأعضل داءٍ لها غائل ... وعن حال نسوتها ناجم
فطام البنين على الترهات ... وناهيك بالجهل من فاطم
وما أم جهل على برها ... سوى آفةِ الحكم والحاكم
تزيغ خلائق أبنائها ... بما زاغ من فكرها الواهم
تدك الحصون وتبنى السجون ... وتفسح للسالب الغانم
إذا الأم أخطأها حظها ... من العلم والأدب العاصم
غدا نسلها مربحاً للعدى ... وخسراً على الوطن الغارم
دعوت إلى رفع شأن النساء ... برغم المسفه واللائم
وسلطت بالحلم نور اليقين ... على ريب المنكر الغاشم
نحلّ بدارك فى مَخْضَب ... وبشر جيلك بالقادم

أما الشاعر على الجارم فجاءت أبياته فى قضية تعليم المرأة أقل جودة من هذه الأبيات . وها هى ذى :

قمت تدعو البنات للعلم فانظر ... كيف حلقن فوق شم هضابه
وزها النيل بابنةِ النيل فاختا ... ل يجر الذيول من إعجابه
وغدا البيت جنة بالتى فيه ... خصيباً بالأنس بعد يبابه

كما أشار كل من شوقى ومطران إلى دور قاسم أمين فى إنشاء الجامعة المصرية ورفع راية العلم فى أنحاء القطر المصرى وهو المعنى الثانى الذى لم يتحدث عنه حافظ فى رثائه لقاسم أمين وإن كان قد أشار إلى هذا الدور فى قصيدته التى قالها

---

(١) ديوان حافظ ٢٧٩ .

فى الحث على تعضيد مشروع الجامعة المصرية عام ١٩٠٧م . (١)
أما شوقى فقال فى ذلك :

لله جامعة نهضت بأمرها	هى فى المشارق مصدر الأنوار
أمنية العقلاء قد ظفروا بها	بعد اختلاف حوادث وطوارى
والعقل غاية جريه لأعنة	والجهل غاية جريه لعثار
لو يعلمون عظيم ما ترجى له	خرج الشحيح لها من الدينار
إن كان سرك أن أقمت بناءها	قد ساءها أن مال خير جدار

وأما أبيات الشاعر خليل مطران فى بيان دور قاسم فى إنشاء الجامعة المصرية فجاءت مصورة لهذا الدور الذى قام به المرثى ودعواته فى دفع الجهل ورفع راية العلم والمعرفة فيقول :

مرامٌ ظفرتَ به فاستزد	تَ مراماً أعزّ على الرائم
ترى الشعب إن ظل فى جهله	بمنزلة النَّعَم السائم
فلا شىء مما صرفت إليه	مشيئة مقتدر عازم
كجامعةٍ كنت حتى المما	ت أساساً لبنيانها القائم
مضيت وفى النعش منك خطيب	ينادى على الملأ الواجم
أنيروا أنيروا فإن الظلام	حليف المظالم والظالم
أنيروا أنيروا فإن الضيا	ء عدو الجرائم والجارم
أنيروا العقول ولا تتركوا	على الفكر من أثر قاتم
ففى كل ظل خيال الردى	يطوف بموكبه القائم

وهكذا رأينا حافظ إبراهيم فى رثائه لقاسم أمين أقل مما رأيناه عليه من الجودة والبراعة فى رثاء كثير من رجال مصر وقادتها وعلمائها . وتفوق عليه غيره من بعض معاصريه فى رثائهم لقاسم أمين وإن تفوق عليهم فى بعض المعانى التى اشتركوا معه فى الحديث عنها .

---

(١) انظر ديوان حافظ ص ٢٦٥ .

٥ - رثاء على أبى الفتوح باشا (١٨٧٣ - ١٩١٣م)

أنشد بعض الشعراء المعاصرين شعراً فى رثاء على أبى الفتوح باشا نختار منهم شوقى وصبرى لنوازن بين شعرهما وبين ما أنشده حافظ فى رثائه .

وقد أنشد حافظ فى رثاء على أبى الفتوح قصيدته اللامية المبدوءة بقوله : (١)

جل الأسى فتجمّلى   وإذا أبيتِ فأجملى

وأنشد شوقى هو الآخر فى رثائه قصيدته التى اتفقت مع قصيدة حافظ فى الوزن (مجزوء الكامل) وفى القافية حتى فى حركة حرف الروى . وبدأها بقوله : (٢)

ما بين دمعى المسبل   عهد وبين ثرى (علِى)

وأما الشاعر اسماعيل صبرى فرثاه بقصيدة قصيرة بلغت عشرة أبيات فقط وهى قصيدته السينية المبدوءة بقوله : (٣)

عزِّ الكرام وشاطرهم رزيتهم   فإنهم بالتعازى أخلق الناس

وجاءت أبيات صبرى هادفة إلى مشاركة أهل الفقيد الحزن والبكاء على فقيدهم . ومن ثمّ انصبت أغلب معانيها على وصف حزن وبكاء هؤلاء الأهل وما حل بهم بعد رحيل الفقيد . وقد رآهم الشاعر أخلق الناس بالتعزية والمشاركة فى الحزن على مصابهم الأليم . ويذكر الشاعر أن هؤلاء الناس قد هدهم الحزن وإن أظهروا التجلد أمام الناس والدليل على ذلك أن من يراهم فى مضاجعهم يحسبهم سكرى من شدة المصيبة وقوة وقعها على نفوسهم . يقول صبرى :

عز الكرام وشاطرهم رزيتهم   فإنهم بالتعازى أخلق الناس
وألق دمعك فى تيار أدمعهم   ووحد الرزء فى مصر وبلقاس
واخلق عذارك فالأشجان آمرة   وما على من يطيع الأمر من باس
ولا يغرك فى البلوى ثباتهمُ   كم من رفيع الذرا فوق اللظى راسى

---

(١) ديوان حافظ ٤٩٠ .
(٢) الشوقيات ٣ / ٩٤ .
(٣) ديوان اسماعيل صبرى / ٢٢٢ .

هم الألى قطعوا فى الحزن أودية — يضل إن سار فى أقطارها الآسى
يخالهم من رآهم فى مضاجعهم — سكرى وما ذاك من دنّ ولا كاس
جلت مصيبتهم عن أن يكون لها — عرض سوى الهم أو طول سوى الياس

وإن كان صبرى قد جعل المصيبة فى موت علىّ قد عمت مصر حيث كان يعمل وبلقاس حيث مولده ووجود أهله فإن حافظا قد جعل هذه المصيبة تعم البلدان المصرية جميعها فقال :

ويح الكنانة مالها — فى غمرة لا تنجلى
باتت وكارثة تمر بها — وكارثة تلى

والأبيات الثلاثة الباقية من قصيدة صبرى جاء أحدها فى وصف المرثى باختصار بطيب الخلال ورقة الشمائل والآخران فى خلو مصر وحياة أهلها من شخص الفقيد وبقاء ذكراه وحدها بينهم :

أبا الفتوح ومَن ناداك جاوَبَهُ — من جانب اسمك نفح الورد والآس
إذا غدت مصر منك اليوم خالية — فما لعهدك فيها الدهر من ناسى
هل كان يومك فينا غير يوم منىً — كانت كباراً فأمست طىّ أرماس

وفرق كبير بين ما وصف به صبرى الفقيد من صفات وما ذكره حافظ فى قصيدته وهو يعدد صفاته فيقول :

يازهرة الماضى ويا — ريحانة المستقبل
يالابس الخلق الكريـم — المطمئن الأمثل
ياحافظاً غيب الصديـق — وياكريم المقول
أى المحامد غضّةً — بحلاك لم تتجمّل
أدنى مرامك همة — فوق السماك الأعزل

هذا وقد خلت قصيدة صبرى من وصف مشاعر حزنه هو وألمه لموت الفقيد ولم يعطنا صورة عن وقع المصيبة على نفسه هو ، فهو وإن كان قد بكى فبكاؤه لمجرد مشاركة الأهل فقط حزنهم ودمعهم ، كما أنه اقتصر على وصف مظاهر حزن أهل الفقيد فقط

ولم يصف ما حل به هو من وراء ذلك . كما أن وصفه لمحاسن المرثي وشمائله جاء وصفا مختصراً خاطفاً محدوداً قاصراً عن إعطاء المرثي بعض ما يستحقه من تنويه بطيب أخلاقه وحسن صفاته . وبهذا يظهر قصور شعر صبري عن شعر حافظ في رثاء علي أبي الفتوح والوفاء بحقه .

كما أن قصيدة شوقي قد جاءت هي الأخرى أقل بكثير في درجة جودتها وبراعتها عن قصيدة حافظ وجودته في رثاء علي أبي الفتوح باشا .

فقد أغرق شوقي نفسه - أثناءها - في الحكمة - كعادته في الرثاء - وفي سرد ذكرياته مع الفقيد في سني دراستهما في فرنسا ولم يهتم كثيراً بوصف المصيبة وما حل به بسبب موت رفيق الشباب .

ويمكن أن نقسم قصيدة شوقي هذه إلى أربعة أقسام : الأول في الحكمة وتشغل نحواً من تسعة أبيات . والثاني : في وصف وقع المصيبة على نفسه واختصره في تسعة أبيات أيضاً . والثالث في سرد ذكرياته مع الفقيد ويشغل الحيز الأكبر من القصيدة إذ يبلغ أكثر من عشرين بيتا . والرابع : في وصف وقع المصيبة على أهل الفقيد وزوجه وبلده وجاء به فيما يقرب من عشرين بيتا . أما الحكمة فقد استخلصها شوقي من جو الحزن الذي خيم عليه نتيجة تذكره للراحلين من الرفقاء والأحباب . والحكمة في الشعر لا بأس بها بل قد تكون سبباً في جمال الشعر وزيادة بهائه إذا جاءت بقدر واستدعاها المقام . أما إذا أكثر الشاعر منها وزادت عن الحد المطلوب في القصيدة الواحدة كان عاملاً مشيناً للقصيدة ومقللاً من جمالها - كالذي يلاحظه القارئ في رثاء شوقي . والقصيدة التي معنا من هذا النوع وإن جاءت الحكمة فيها معقولة مقبولة بعض الشيء . واقرأ معي قول شوقي :

والدمع مروحة الحزين وراحة المتململ

نمضي ويلحق من سلا في الغابرين بمن سُلي

كم من تراب بالدموع على الزمان مبلّل

إلى آخر ما قال ......

أما وصف المصيبة وبيان وقعها على نفس شوقي فقد جاء فاتراً بارداً يدل على عدم

التهالك فى الأسى واللوعة ، وعلى أن الشاعر لم يكتو بنار الحزن المحرقة بل كان حزنه من الحزن العادى الذى يصاب به كل من عرف الفقيد وذاق حلو فضائله وكرم شمائله . يقول شوقى فى ذلك :

قل للنعىّ : هتكت دمع الصابر المتجمّل
الملتقى الأحداث إن نزلت كأن لم تنزل
حتى نهلتُ ومن يذق فقد الأحبةِ يذهل
فعتبت فى ركن القضا ء على القضاء المنزل
لهفى على ذاك الشبا ب وذلك المستقبل
وعلى شمائل كالربى بين الصبا والجدول
وحياء وجهٍ كان يؤثر عن يسوع المرسل

ويُلحظ أن شوقى كان يذكر بعض صفات المرثى وما تحلى به من أخلاق أثناء وصفه لوقع المصيبة على نفسه . وأرى أن أجمل من هذا الوصف وصف حافظ لمشاعره والمصيبة التى حلت به بموت المرثى حينما قال :

درج الأحبة بعدما تركوا الأسى والحزن لى
لم يحل لى من بعدهم عيش ولم أتعلل
فى كل عام وقفة حرى على مترحل
أبكى بكاء الثاكلات وأصطلى ما أصطلى
لم يبق لى يوم الفقيد عزيمة لم تفلل
يوم عبوس قد مضى بفتى أغرّ محجّل
من لم يشاهد هوله عند القضاء المنزل
لم يدر ما قصم الظهو ر ولا انخزال المفصل

فيحس من يقرأ هذه الأبيات أنها خرجت من إنسان ذى قلب مفعم بالأسى وصاحب نفس اصطليت بلهيب الحرمان وفقد الأحبة . وليس أدل على صدق حافظ فيها وإخلاصه فى التعبير عن حزنه وأساه من اخباره بأنه يبكى على الفقيد بكاء

المشاكلات ويصطلي بنار الأحزان ما يصطلي وما يحس به هو وحده من دون الآخرين · وإعلامه بأنه قد فقد في يوم رحيل المرثي عزائم الرجال على مواجهة الشدائد · وغير ذلك مما امتلأت به الأبيات من عبارات تنبيء عن الصدق ·

أما سرد شوقي لذكرياته مع الفقيد فهو حقاً ما جعل القصيدة تتصف بالفتور والخلو من العاطفة الصادقة · فسرد مثل هذه الذكريات قد يكون له مكان آخر غير الرثاء · وبجانب أن مثل هذه الأبيات تبعد قارئ القصيدة عن جو الحزن والبكاء الذي تمليه قصيدة الرثاء فإنها قد جرت شوقي للحديث عن نفسه والتيه بها وهو ما يأباه موقف الرثاء ·

اقرأ معي قول شوقي :

إذ نحن في ظل الشبــــاب الوارف المتهدل
جاران في دار النوى متقابلان بمنزل
أبكي وأبكك ضاحكا ن على خمائل مونبلي
والدرس يجمعني بأفضـــــل طالب ومحصّل
أيام نبذل في سبيــل العلـــم ما لم يبذل
لم يدر إلا اللـــه ما خبـــأت لك الدنيا ولي
تجري بنا لمفتح بين الغيوب ومقفل

فمن يقرأ هذه الأبيات وحدها بعيداً عن القصيدة لا يشم منها رائحة الرثاء وإنما يحسبها مقطوعة في فن الإخوانيات · وأفضل منها - في رأيي - قول حافظ يذكر بعضاً من ذكرياته مع الفقيد ولكنه يمزجها باعترافه بفضل الفقيد عليه فيقول :

إني حللت رحابه فنزلت أكرم منزل
ونهلت من أخلاقه فوردت أعذب منهل

ويخيل إلي أن أبيات شوقي المطولة في سرد ذكرياته مع الفقيد كانت سبباً من أهم الأسباب التي جعلت الأستاذ حسن كامل الصيرفي يصف قصيدة شوقي هذه بأنها مليئة بمظاهر الفتور بعيدة عن المناسبة التي قيلت فيها لاختياره فيها الموسيقى

وأظن أن المراد بالموسيقى الراقصة فى قصيدة شوقى هذه هى كلماته وجمله التى تعبر عن جو الفرح والسرور أثناء سرده لهذه الذكريات وليس الوزن العروضى الخفيف الذى جاءت عليه القصيدة . وإلا فإن قصيدة حافظ هى الأخرى جاءت على نفس الوزن العروضى وهو مجزوء الكامل .

وقد جاءت فى قصيدة شوقى بعض الكلمات والجمل التى تنقل القارئ إلى جو الفرح والسرور وهو يتلو ذكريات الشاعر مع الفقيد . ويظهر ذلك فى مثل قوله :

كانت موطأة المهاد لنا عذاب المنهل

إذ نحن فى ظل الشباب الوارف المتهدل

أبكى وأبكك ضاحكاً على خمائل مونبلى

أما أبيات أحمد شوقى فى وصف وقع المصيبة على أهل الفقيد وزوجه وأبناء وطنه فهى أحسن أبيات القصيدة وأقواها . فقد ملأها بالصور التى تبين فداحة الخطب على أبناء الوطن وعلى ما حل به بعد رحيل المرثى ثم انتقل إلى وصف حزن الأب الذى رهن كل ضياعه لمن يرد له « علىّ » . ثم وصف حزن الزوجة التى غلبها الهم ولازمها بعد أن اختطف الموت أسدها فكسر جناحها المنعم وأصاب فؤادها المدلل . ولم يجد الشاعر أمامه من أهل الجنة أفضل من سيد شبابها سيدنا الحسين بن على - رضى الله عنهما - فشبه المرثى به : اقرأ معى قول شوقى فى وصف مشاعر الأب والزوجة نحو الفقيد :

وأب وراءك حزنه	لنواك حزن المثكل
يهب الضياع العامرا	ت لمن يرد له علىّ
ونجيبةٍ بين العقا	ئل همها لا ينسلى
دخلت منازلَها المنو	نُ على الجرئ المشبل
كسرت جناح منعّم	ورمت فؤاد مدلل .

---

(١) حافظ وشوقى - مطبعة المقتطف بالمقطم - ص ٦ .

فكان آلك من شج ومتيم ومرمل
آل الحسين بكر بلا في كربةٍ لا تنجلي

هذه هي كل ما في قصيدة شوقي من رثاء حقيقي لأبي الفتوح باشا . ويحس القارئ لها انه حقاً يقرأ شعراً في فن الرثاء لامتلائها بمعاني الحزن وصور البكاء .
هذا وقد تفوقت قصيدة حافظ على قصيدة شوقي في معنى آخر لم يمسه شوقي إلا مسّاً خفيفاً بينما أكثر حافظ من القول فيه حتى يبين عظم المصيبة وشدة وقعها على النفوس . وهو الحديث عما حلّ بمصر ومعاهدها وأبنائها بموت الفقيد . وهو ما لم يذكره شوقي إلا في أبيات خمسة هي :

ياراحلاً أخلى الديا ر وفضله لم يرحل
تتحمل الآمال إثـ ـر شبابه المتحمل
مشت الشبيبة جحفلاً تبكي لواء الجحفل
انظر سريرك هل جرى فوق الدموع الهطل
الله في وطن ضعيـ ـف الركن واهي المعقل

بينما ذكره حافظ في أكثر من عشرة أبيات ملأها بالتصوير الحي الذي يرسم شدة ما أصيبت به مصر كلها بعد موت الفقيد . وها هي بعض أبيات حافظ في هذا المعنى :

يامصر قد أودى فتاك ولا فتى إلا علي
قد مات نابغة القضاء وغاب بدر المحفل
ويح الكنانة مالها في غمرة لا تنجلي
باتت وكارثة تمر بها وكارثة تلي
يازهرة الماضي ويا ريحانة المستقبل
كنا نعدك للشدائد في الزمان المقبل
فارقتنا في حين حاجتنا ولم تتمهل

وبجانب ذلك فقد تفوق حافظ على شوقي في تعداد صفات الفقيد وبيان حسن شمائله وطيب أخلاقه مما يدخلها أكثر في باب الرثاء . وهكذا أثبت حافظ تفوقه على بعض معاصريه في رثاء علي أبي الفتوح باشا وجاء في قصيدته بكثير من المعاني التي تثبت هذا التفوق .

٦ ـ رثاء جورجي زيدان (١٨٦١ ـ ١٩١٤م)

رثى الأديب جورجي زيدان مجموعة من شعراء العصر الحديث مختار منهم حافظ وشوقي .

أما حافظ فقد رثاه بقصيدته النونية التي بدأها بقوله مصوراً أثر الفجيعة على نفسه(١)

دعاني رفاقي والقوافي مريضة ... وقد عقدت هوج الخطوب لساني

ورثاه شوقي بقصيدته اللامية التي بداها بتصوير حالة الشرق بعد رحيل الفقيد فقال(٢)

ممالك الشرق أم أدراس أطلال ... وتلك دولاته أم رسمها البالي ؟

وجاءت قصيدة حافظ أقوى في تصوير المصيبة وشدة هولها وتعداد صفات النبوغ والتفوق للمرثي من قصيدة شوقي . فقد أبدع حافظ في تصوير أثر المصيبة على نفسه . وجاء إبداعه هذا من تفصيله لأثر المصيبة على لسانه ثم على جسمه ثم على عقله وفكره . اقرأ معي قوله:

دعاني رفاقي والقوافي مريضة ... وقد عقدت هوج الخطوب لساني

فهذا البيت يبين أثر المصيبة على لسانه . ثم يقول :

فجئت وبي مايعلم الله من أسىً ... ومن كمدٍ قد شفني وبراني

فهنا يبين لنا ما فعلته هذه المصيبة بجسمه . ثم يقول :

مللت وقوفي بينكم متلهفاً ... على راحل فارقته فشجاني

أفي كل يوم يبضع الحزن بضعةً ... من القلب إني قد فقدت جناني

فهو هنا يشرح أثر المصيبة على قلبه وفكره . وكانت نتيجة هذا الألم والحزن الذي عمه كله أن كره الحياة بعد ذهاب الأهل والأحباب فتمنى الموت لحاقاً بهم فقال:

---

(١) ديوان حافظ ٤٩٧ .

(٢) الشوقيات ٣/٩٧ .

تفرق أحبابى وأهلى وأخوت	يد الله يومى فانتظرت أوانى
ومالى صديق إن عثرت أقالنى	ومالى قريب إن قضيت بكانى

أما شوقى فقد بدأ قصيدته كما قلت بأبيات تدل على تبدل ممالك الشرق ودولاته حين عمها خبر موت المرثى . وأجمل شوقى هذا المعنى فى أبيات قليلة مخلوطة بالحكمة . وجاءت أبياته هذه فى أول القصيدة وكأنها فى الوقوف على الأطلال ووصف الدمن والآثار . ومع ذلك لم تخل من قول الحكمة التى هى عادة شوقى وطبيعة رثائه -يقول شوقى :

ممالك الشرق أم أدراس أطلال	وتلك دولاته أم رسمها البالى ؟!
أصابها الدهر إلا فى مآثرها	والدهر بالناس من حال إلى حال
وصار مانتغنى من محاسنها	حديث ذى محنةٍ عن صفوه الخالى
إذا جفا الحق أرضاً هان جانبها	كأنها غابة من غير رئبال
وإن تحكم فيها الجهل أسلمها	لفاتكٍ من عوادى الذل قتال
نوابغ الشرق هزوه لعل به	من الليالى جمود اليائس السالى

وبعد هذه الأبيات تخلو قصيدة شوقى من الرثاء إلا فى القليل من أبياتها فقد تحدث بعدها حديثاً مطولاً عن العلم وفضله . ولم ينس أن يمزج هذا الحديث بقول الحكمة . ثم انتقل إلى الفخر بنفسه وبأخلاقه وشعره ثم إلى الحكمة مرة ثالثة ثم إلى بعض أبيات فى المواعظ ثم يظهر وكأنه استحيا من الناس لعدم اختصاصه الفقيد بشىءٍ ذى بال من الرثاء فتحدث عن بعض صفات الفقيد ونبوغه فى مجال الصحافة والأدب .

ومثل هذه الطريقة فى الرثاء تدل على أن مذهب شوقى فى الرثاء يقوم - كما سبق أن ذكرت - على العقل والمنطق والاغتراف من معين الثقافة والفكر لا على التعبير عن العواطف والمشاعر وما تحس به نفسه وقلبه . على عكس مذهب حافظ فى الرثاء الذى يقوم أساساً على العاطفة والوجدان والإكثار من إظهار الحزن والأسى

والحسرة . وهو ما يجعله أقرب إلى مذهب العرب في فن الرثاء . وقد قرر ابن رشيق ذلك فقال : (١)

« وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بيّن ا لحسرة مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً » .

وقصيدة حافظ جاءت كلها - إلا القليل منها - في تأبين الفقيد وتعداد صفاته وإظهار أثر المصيبة على نفسه . صحيح أنه خرج عن هذا الهدف في بعض الأبيات ولكنه خروج إلى معنًى قريب من موضوع القصيدة . ومع ذلك فلم ينس نفسه كثيراً فسرعان ماعاد إلى موضوعه الأصلي.

فحديثه عن تفرق احبابه وأهله وأصدقائه جعله يتذكر بعض الراحلين منهم وتقصيره في رثائهم - ومنهم أحمد فتحي زغلول باشا العالم القانوني « ت ١٩١٣م » والشيخ إبراهيم اليازجي الشاعراللبناني « ت ١٩٠٨م » وجورجي زيدان المرثي بهذه القصيدة - فاعتذر لهم عما يحس به من تقصير شعره في القيام بواجب الوفاء لهم وبيان أن هذا التقصير لم يكن عن عمد وإنما عقدت المصيبة فيهم لسانه عن الرثاء الجيد . ومن هنا نرى أن هذا الخروج ليس بعيداً عن موضوع القصيدة كما قلت . وهذه هي أبيات حافظ :

أراني قد قصرت في حق صحبتي	وتقصير أمثالي جناية جاني
فلا تعذروني يوم «فتحي» فإنني	لأعلم ما يجهل الثقلان
فقد غاب عنا يوم غاب ولم يكن	له بين هالات النوابغ ثاني
وفي ذمتي «لليازجي» وديعة	وأخرى «لزيدان» وقد سبقاني
فياليت شعري مايقولان في الثرى	إذا التقيا يوماً وقد ذكراني
وقد رميا بالطرف بين جموعكم	ولم يشهدا في المشهدين مكاني
أيجمل بي هذا العقوق وإنما	على غير هذا العهد قد عرفاني
دعاني وفائي يوم ذاك فلم أكن	ضنيناً ولكن القريض عصاني

---

(١) العمدة ٢/١٤٧ .

أأنساهما والعلم فوق ثراهما   تنكّس من أعلامه علمان

وأبيات الحكمة التى زادت عن الحد فى قصيدة شوقى كانت عاملاً مقللاً من جودة رثائه فيها لأنها تبعد القارئ عن جو الحزن على الفقيد بل ونسيانه – فى موقف نكره – فى خضم هذا السيل المتدفق من المعانى الأخرى التى تحملها أبيات الحكمة . وهذا بعض من كثير من أبيات شوقى فى الحكمة فى هذه القصيدة غير ماذكر فى الأبيات التى افتتح بها القصيدة . يقول شوقى :

ليس الغلو أميناً فى مشورته   مناهج الرشد قد تخفى على الغالى

لاتطلبوا حقكم بغياً ولاصلفاً   ماأبعد الحق عن باغ ومختال

ولايضيعن بالإهمال جانبه   فرب مصلحة ضاعت بإهمال

كم همةٍ دفعت جيلاً ذرا شرفٍ   ونومةٍ هدمت بنيان أجيال

ولم نقرأ فى قصيدة حافظ مايدخل فى باب الحكمة غير بيت واحد ويتصل معناه إلى حد كبير بباب الرثاء . وهو :

وقد تخرس الأحزان كل مفوّهٍ   يصرف فى الإنشاد كل عنان

ثم إن شوقى قد وقع فى خطأ آخر فى هذه القصيدة – وفى قصائد أخريات غيرها – حينما تعمد الفخر بنفسه وبشعره . وقد أطال فى ذلك فى هذه القصيدة حتى ليظن القارئ أن ماقدمه من أبيات الرثاء فى مقدمة القصيدة كان سهواً من الشاعر وأن الأصل فيها هو الحديث عن العلم وفضله وفخر الشاعر بنفسه . فقد انتقل شوقى من الحديث عن العلم وفضله إلى الفخر بنفسه دون أن يفصل بينهما ولو ببيت واحد فى تمجيد المرثى . يقول شوقى :

ورب صاحب درس لو وقفت به   رأيت شبه عليم بين جهّال

وتسبق الشمسَ فى الأمصار حكمتهُ   إلى كهول وشبان وأطفال

فهذان آخر أبيات شوقى فى بيان فضل العلم وأهله . وبعدهما مباشرة يفخر بنفسه فيقول :

زيدان إنى مع الدنيا كعهدك بى   رِضَى الصديق مقيل الحاسد الغالى

لى دولة الشعر دون العصر وائلةً   مفاخِرى حِكَمِى فيها وأمثالى

إن تمشِ للخير أو للشربي قدم | أشمّر الذيل أو أعثر بأذيالي
وإن لقيتُ ابن أنثى لي عليه يد | جحدت في جنب فضل الله أفضالي
وأشكر الصنع في سرى وفي علني | إن الصنائع تزكو عند أمثالي
وأترك الغيب لله العليم به | إن الغيوب صناديق بأقفال
كأرغن الدّيْر إكثارى وموقعه | وكالأذان على الأسماع إقلالي

أما حافظ فليس له في قصيدته من هذا المعنى شيء غير بيت واحد مزجه ببيان فضل المرثى عليه وعلى شعره - بل وأشرك معه في ذلك غيره - فقال :

وكم فزت من رب « الهلال » بحكمة | وكم زنت من رب « الضياء » بياني

والحق أن ظاهرة فخر شوقي بنفسه أثناء الرثاء لم يقتصر وجودها على هذه القصيدة وحدها بل وجدت في كثير من مراثي شوقي كما ذكرت قبل قليل . وقد أشار إلى هذه الظاهرة في رثاء شوقي أحد نقاد شعره فقال موازنا بينه وبين حافظ في ذلك :

« وهناك ظاهرة ثانية تتصل بالمضمون عند شوقي هي فخره بنفسه وتمجيده لصفاته وإقحام ذلك على قصيدة الرثاء . ويقابل هذه الظاهرة عند حافظ الاعتراف بالفضل لذويه وذكر أيادي المرثى عليه .

ففي رثاء شوقي لجدته يقطع الرثاء ليوضح أن أهم مفاخرها هي كونها أماً له :

تجاوزتِ الولائد فاخراتٍ | إلى فخر القبائل واللغات
وأحكم من تحكم في يراع | وأبلغ من تبلغ من وداد

وهو معنى مأخوذ من بيت المتنبي الذي يخاطب فيه أمه :

ولو لم تكوني بنت أكرم والدٍ | لكان أباك الضخم كونك لي أما

وفي رثائه لرياض باشا يقول عن نفسه :

خلقت كأنني عيسى حرام | على قلبي الضغينة والشماتْ

وكذلك في رثائه لجورجي زيدان :

لي دولة الشعر دون العصر وائلة | مفاخرى حكمي فيها وأمثالي

حتى في رثائه لوالدته يختمه بهذين البيتين :

أتيت به لم ينظم الشعر مثله | وجئت لأخلاق الكرام به نظما

ولو نهضت عنه السماء ومخضت   به الأرض كان المزن والتبرو الكرما

أما حافظ فلا تجد له بيتاً واحداً يفتخر فيه بنفسه وإنما يذكر الفضل لأصحابه » . (١)

أما الحديث عن آثار المرثى وتعداد فضائله وخلاله الكريمة فلا بأس بها عند شوقى وإن كان قد قلل من صفات المرثى وأطال الحديث - طولاً زائداً عن العادة - عن جريدة الهلال التى أنشأها المرثى فبين كل ماكانت تقوم به من نشاط فى نشر روائع العلم والأدب والتاريخ . وأحسن مافى هذه الأبيات - بل وأحسن مافى القصيدة كلها - بيتاه الأخيران اللذان يصور فيهما ماحدث لهضاب لبنان وأرضها من اضطراب وزلزلة وبكاء على فقد عالمها الكبير :

هضاب لبنان من منعاتك اضطربت   كأن لبنان مرميٌّ بزلزال

كذلك الأرض تبكى فقد عالمها   كالأم تبكى نهاب النافع الغالى

وفى رأيى أن أبيات حافظ فى الحديث عن مناقب المرثى وآثاره وتعداد شمائله أقوى بكثير من أبيات شوقى فى ذلك . فقد ذكر فيها حافظ كل الصفات الحسية والمعنوية التى اتصف بها الفقيد والتى تثبت نبوغه وتفوقه وتصور الخسارة الكبيرة التى نزلت بالعلم والأدب والتاريخ بموت الفقيد . يقول حافظ فى ذلك :

أزيدان لاتبعد وتلك غلالة   ينادى بها الناعون كل حُسَان

لك الأثر الباقى وإن كنت نائياً   فأنت على رغم المنية دانى

وياقبر زيدان طويت مؤرخاً   تجلّى له ماأضمر الفتيان

وعقلاً ولوعاً بالكنوز فإنه   على الدر غواص ببحر عُمَان

وعزماً شآمياً له أينما مضى   شبا هندوانىٍّ وحديمانى

وكفًا إذا جالت على الطرس جولة   تمايل إعجاباً بها البلدان

وياما أحسن ماختم به حافظ أبياته هذه . فبعد أن ذكر من صفات الفقيد ومظاهر تفوقه ونبوغه ماذكر أحس بأن شعره لم يساعده فى عد خلال المرثى كما ينبغى

---

(١) من مقال بعنوان : الرثاء فى شعر شوقى وحافظ - للدكتور عبد الفتاح عثمان بمجلة الثقافة - العدد ١٠٩ - أكتوبر ١٩٨٢م ص ٦٣ .

فتوجه إلى حماة النشر حتى يقوموا هم بهذه المهمة بدلاً منه فعسى أن يطاوعهم النشر بحريته وانطلاقه فى ذلك :

سألت حماة النشر عدّ خلاله فمالى بما أعيا القريض يدان

وهكذا تفوقت قصيدة حافظ على قصيدة شوقى فى جوانب متعددة بفضل عاطفة حافظ التى تملى عليه رثاءه وتمده بالمعانى فيصوغها فى أجمل حديث . أما شوقى فيلجأ إلى نفسه وعقله ويهمل عاطفته فيخرج رثاؤه باهتاً فى ثنايا حكمه وفلسفته وفخره .

٧ - رثاء محمد فريد (١٨٦٧ - ١٩١٩) .

قال فى رثاء الزعيم الوطنى محمد فريد كثير من شعراء العصر الحديث غير حافظ إبراهيم . فقد رثاه شوقى بقصيدتين : أولاهما تلك التى ألقاها عقب وفاة الزعيم فى عام ١٩١٩م وهى المبدوءة بقوله : (١)

كل حىٍّ على المنية غادى تتوالى الركاب والموت حادى

والثانية : قصيدته التى ألقاها فى الذكرى الخامسة لوفاة الزعيم عام ١٩٢٤م وهى قصيدة قصيرة تبلغ ثلاثة عشر بيتاً فقط وبدأها بقوله : (٢)

نجدد ذكرى عهدكم ونعيد وندنى خيال الأمس وهو بعيد

ورثاه الشاعر البدوى محمد عبد المطلب بقصيدته الفائية المبدوءة بقوله : (٣)

سلوا جفن عينى ماله بات ينزف وعهدى به إن سمته الدمعَ يأنف

ورثاه الشاعر خليل مطران بقصيدته الرائية التى بدأها بقوله :

أفريد لاتبعد على الأزهار أنت الشهيد الخالد التذكار

بالأهل بالدم بالرفاهة بالغنى فديت مصر وفديت من دار

وغير هؤلاء الشعراء ممن عبروا عن مشاعرهم وأحاسيسهم تجاه الفقيد . وفى هذا

---

(١) الشوقيات ٣/٤٣ .
(٢) الشوقيات ٤/٥٣
(٣) ديوان عبد المطلب - شرح وتصحيح إبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى ط١ ص ١٥٠ .

المقام يكفي أن نختار شاعرين من هؤلاء الشعراء لنوازن بين ماقاله كل منهم وبين ماقاله حافظ في رثاء محمد فريد وليكن اختيارنا لشوقي وعبد المطلب .

وقد رثى حافظ الزعيم الوطني محمد فريد بقصيدته الدالية التي بدأها بقوله :(١)

مَن ليوم نحن فيه مَن لغد ؟   مات ذو العزمة والرأى الأسد

وقد تفوق حافظ على شوقي في رثائهما لمحمد فريد فقد جاءت قصيدة شوقي الأولى خالية من معنى الرثاء ولم يتوجه شوقي فيها إلى شخص محمد فريد ورثائه إلا في قليل من أبياتها . وجاء معظمها في الحكمة أو في الحديث عن حقيقة الموت والحياة . وحتى في الأبيات التي اتصلت بالرثاء ملأها شوقي بالحديث عن مصر وأحوال المصريين بعد رحيل الزعيم . ولم يعطنا صورة لما تمتلىء به عاطفته هو - كمصرى - من حزن وأسى وماخيم على نفسه من لوعة بعد رحيل الفقيد . اقرأ معي قوله يحدث الفقيد عن مصر :

قم إن اسطعت من سريرك وانظر   سرَّ ذاك اللواء والأجناد

هل تراهم وأنت موفٍ عليهم   غير بنيان ألفةٍ واتحاد

أمةً هيِّئت وقوم لخير الدهر   أو شره على استعداد

مصر تبكي عليك في كل خدر   وتصوغ الرثاء في كل ناد

لو تأملتها لراعك منها   غرّة البر في سواد الحداد

منتهى مابه البلاد تعزَّى   رجل مات في سبيل البلاد

وأحسن من هذه الأبيات أبيات حافظ التي يخلط فيها أحزانه بأحزان مصر ومعالمها من حوله.فلم يقتصر على وصف أحزان مصر وحدها كما فعل شوقي وإنما مزج أحزانه بأحزانها . بل جعل حزنه هو الأساس وطلب من معالم مصر أن تشاركه أحزانه ولوعاته فقال :

أيها النيل لقد جل الأسى   كن مداداً لي إذا الدمع نفد

---

(١) ديوان حافظ ٥١١ .

وانبلى يازهرة الروض ولا	تبسمى للطل فالعيش نكد
والزم النوح أيا طير ولا	تبتهج بالشدو فالشدو حدد
فلقد ولّى فريد وانطوى	ركن مصر وفتاها والسند

وفى رأيى أن أحسن مافى قصيدة شوقى السابقة وأدخلها فى باب الرثاء قوله :

وسّدوه التراب نضو سفار	فى سبيل الحقوق نضو سهاد
واركزوه إلى القيامة رمحاً	كان للحشد والندى والطراد
واقروه فى الصفائح عضباً	لم يدن بالقرار فى الأغماد
نازح الدار أقصر اليوم بين	وانتهت محنة وكفت عوادى

وقوله :

أمهات لاتحمل الثكل إلا	للنجيب الجرىء فى الأوتاد
كفريد وأين ثانى فريد ؟	أى ثان لواحد الآحاد ؟

فقد قدم شوقى فى هذه الأبيات شيئاً يذكرنا بالمرثى وجهاده فى سبيل بلاده ومالقيه من عناء وتعب فى مواصلة هذا الجهاد .

أما الحكمة التى أغرم بها شوقى فى رثائه كله وأكثر منها فى هذه القصيدة . فهى فى جملتها لاتعدو أن تكون أقوالاً فى التنفير من الدنيا وعدم الغرور بها وعن عدم وفائها لأحدٍ من الخلائق . وأن كل من عليها سيأتى عليه يوم يلقى فيه فى التراب . وهذه أقوال يقولها - كما يذكر الأستاذ العقاد (١)- المكدون والشحاذون . وهى حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان والعكاكيز إذ ينادون فى الأروقة والسبل : دنيا غرورة . كله فان . الذى عند الله باق . ياماداست جبابرة تحت التراب . من قدم شيئاً التقاه .

وهذه هى بعض أبيات شوقى فى مقدمة القصيدة :

كل حىّ على المنية غادى	تتوالى الركاب والموت حادى
ذهب الأولون قرناً فقرناً	لم يدم حاضر ولم يبق بادى ؟

---

(١) انظر كتاب : مقومات الشعر العربى الحديث والمعاصر ١٤١/ .

هل ترى منهم وتسمع عنهم	غير باقى مآثر وأيادى ؟
كرة الأرض كم رمت صولجاناً	وطوت من ملاعب وجياد
والغبار الذى على صفحتيها	دوران الرحى على الأجساد

وفرق كبير بين أبيات شوقى هذه وبين مافتتح به حافظ قصيدته . فهذه أبيات عامة يمكن أن تطلق ويتفوه بها الناس فى كل موقف مشابه ولاتدل على شئ من أثر موت المرثى على الشاعر . أما حافظ فقد بدأ قصيدته بالحديث عن الغرض الأصلى من القصيدة مباشرة فأبان عن مدى الحزن الذى حلّ به وبالأمة كلها بعد فقد ذى العزمة والرأى الأسد :

من ليوم نحن فيه من لغد	مات ذو العزمة والرأى الأسد
حلّ بالجمعة حزن وأسى	ومشى الوجد إلى يوم الأحد
وبدا شعرى على قرطاسه	لوعة سالت على دمع جمد

فقد قدم فى هذه الأبيات الثلاثة شيئاً عن المرثى وصفاته الطيبة وعن حزن الأمة كلها وعن حزنه هو على الفقيد .

وفى قصيدة شوقى بيت يقول فيه متحدثاً عن نعش الفقيد :

لو تركتم لها الزمام لجادت	وحدها بالشهيد دار الرشاد

وقد عاب العقاد هذا البيت بل و تهكم بصاحبه فيقول : (١)

«وأما معنى البيت : إن نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه إلى مصر لسعى وحده إلى مصر . فلله ماأقدر راثى الشموس على إحالة الجليل مضحكاً والتقديس زراية : نعش يسعى وحده فى البرور والبحار ويجوس خلال المدائن والديار . يعتدل ويتعطف حتى يستقر ملهماً عند قبره ...... أفمن هذه الصورة ينتزع الشعر مادة الرثاء والإجلال »

ولست مع الأستاذ العقاد فى هذا التهكم الساخر من شوقى نتيجة ماقاله فى هذا البيت . فالكلام فيه محمول على الكناية . فمراد شوقى أن يقول : إن جثمان محمد

---

(١) كتاب الديوان ١/١٦ .

فريد شديد الشوق إلى أرض مصر يود أن يأتي إليها ويأبى أن يدفن في غير أرضها . فهي بلاده التي طالما وقف بجانبها ودافع عنها ونفى منها في حياته فلا أقل من أن يعود إليها بعد وفاته ولايصح ان يدفن في أرض سواها .

أما قصيدة شوقي الثانية فقد جاءت على قصرها خالصة في رثاء محمد فريد غير بيتين فقط يدخلان في باب الحكمة وهما :

وللناس في الماضي بصائر يهتدي ... عليهن غاو أو يسير رشيد
إذا الميت لم يكرم بأرض ثناؤه ... تحير فيها الحيّ كيف يسود

وقد اعترف فيها شوقي بفضل محمد فريد على مصر والمصريين ومجّد جهاده في سبيل وطنه حتى لقي ربه . ولذا فإنه سيظل للمصريين ونشأها تمثالاً من الحق خالصًا يتخذونه رمزاً للتمسك بالحق الوطني والدفاع عنه :

نجدد ذكرى عهدكم ونعيد ... وندني خيال الأمس وهو بعيد
ونحن قضاة الحق نرعى قديمه ... وإن لم يفتنا في الحقوق جديد
ونعلم أنا في البناء دعائم ... وأنتم أساس في البناء وطيد
فلا زلت تمثالاً من الحق خالصاً ... على سره نبني العلا ونشيد
يعلم نشء الحي كيف هوى الحمى ... وكيف يحامي دونه ويذود

أما حافظ فقد خلد المرثي بخلودذكرياته وأعماله المجيدة في سبيل بلاده فقال :

خالد الآثار لاتخشى البلى ... ليس يبلى من له ذكر خلد
زرت «برلين» فنادى سمتها ... نزلت شمس الضحى برج الأسد
واختفت شمسك فيها وكذا ... تختفي في الغرب أقمار الأبد
ياغريب الدار والقبر ويا ... سلوة النيل إذا ماالخطب جد

وأبيات شوقي تبدو أروع في تخليد الزعيم وتمجيد أعماله وبقائه رمزاً للكفاح الوطني يسير على هديه نشء مصر وشبابها على تتابع الأجيال من أبيات حافظ .

وتحدث شوقي في قصيدته هذه عن نفي محمد فريد وما لقيه من بؤس وحرمان وشقاء وذكر ماكان يجود به المرثي من مال في سبيل رفعة بلاده ثم جوده بنفسه بعد ماله :

تغربت عشراً أنت فيهن بائس ... وأنت بآفاق البلاد شريد
تجوع ببلدان وتعرى بغيرها ... وترزح تحت الداء وهو عتيد
ألا في سبيل الله والحق طارف ... من المال لم تبخل به وتليد
وجودك بعد المال بالنفس صابراً إذا جزع المحصور وهو يجود

وفي قصيدة حافظ أفضل من هذه الأبيات في بابها . فقد جعل من نفي الزعيم وجوده بماله ونفسه إيثاراً منه لبلاده - بلاد النيل - على ماله وهواه وولده . وجعل من صبره على ماكان يلقاه أثناء غربته من بؤس وشقاء وسيلة لتحقيق الخير لبلاده . ولقد أنساه هذا الهدف كل ماكان يلقاه من تعب أثناء رحلاته التي كان يقوم بها لتحقيق هذا الخير :

آثر النيل على أموالـه ... وقـواه وهـواه والـولـد
يطلب الخير لمصر وهو في ... شقوة أحلى من العيش الرغد
يستجم العزم حتى إن بدت ... فرصة شد إليها وصمد
فهو لايثني عناناً عن منىً ... وهو هجيراه من جد وجد
فأياديه إذا ما أنكرت ... إنما تنكرها عين الحسد

فأبيات حافظ هذه أقوى تصويراً من أبيات شوقي وأفضل منها في تجسيم المعنى وتشخيصه .
وهكذا يبدو تفوق شعر حافظ - بصفة عامة - على شعر شوقي في رثاء محمد فريد وبيان فضله ومابذله من جهد في سبيل بلاده ورفعة شأنها .

أما قصيدة الشاعر محمد عبد المطلب فقد جاءت - بحق - مفعمة بالحزن والأسى على الفقيد مليئة بتصوير مابذله في سبيل بلاده ومالقي في سبيل رفعتها من عناء ومشقة . وهي لذلك تفوق ماقاله شوقي في رثاء محمد فريد .
وإذا كان حافظ قد جعل شعره على قرطاسه لوعة تسيل على ماجمد من دمعه حزناً على الفقيد ، وإذا كان قد طلب من مظاهر الطبيعة المصرية من حوله أن تشاركه

أحزانه على الزعيم فإن عبد المطلب قد استقل سعد بل استقل نفسه بأكملها بجانب ماأصيبت به مصر في فقد زعيمها الغائب عنها قبل أن يغيب عن الدنيا :

سلوا جفن عيني ماله بات ينزف ... وعهدي به إن سمته الدمع يأنف

وماأنا؟! مادمعي؟! وفي مصر أنة ... بها الطير نوح والغمائم وكف

بكين غريباً طرّح البين داره ... فلا العَوْدُ مأمول ولا الدار تعرف

وأبيات عبد المطلب تقترب كثيراً في تصوير ما حلّ بالشاعر وبمصر من حزن وأسى من أبيات حافظ التي افتتح بها قصيدته .

وقد قدم عبد المطلب في قصيدته صورة كامله للفقيد وهو يودع مصر إلى برلين ومامتلأت به نفسه في هذا الموقف من حزن وأسى ومن شعور نفسي بأن خروجه من مصر في هذه المرة هو خروج أبدى لا رجعة له منه . كما فصّل مالقيه الفقيد من متاعب في غربته وماأصيب به من مرض استعصى علاجه على أطباء أوربا . مما لانجد منه عند حافظ غير حديثه عن متاعب فريد النفسية وماحلّ عليه من بؤس وشقاء في سنوات بعده عن مصر .

وهاهي أبيات عبد المطلب في بيان متاعب فريد في غربته :

ثوى في بلاد الغرب بالنيل عاتباً ... وفي الغرب للعاني مراد ومألف

يصرف أحداث الليالي غواشماً ... وأنيابها من شدة البأس تصرف

فطوراً تراه في جنيف لباسه ... على القرأسمال به يتلفف

إذا صفرت من ذات دنياه كفّه ... تجلد لايشكو ولايتأفف

ويأوى إلى بيت وطيء عماده ... وفي مصر يبكيه البناء المطفف

أما أبيات حافظ في ذلك فقد ذكرتها قبل قليل وهي المبدوءة بقوله :

آثر النيل على أمواله ... وقواه وهواه والولد

وأبيات عبد المطلب أكثر تفصيلاً لمتاعب الفقيد في غربته.ولكن أبيات حافظ أقوى تصويراً لصبر الفقيد واستعذابه الآلام والمتاعب في سبيل بلاده واستقلالها والدفاع عن حقوقها .

كما صور عبد المطلب حزن مصر على الفقيد بعد أن تركها وهي في أشد حاجتها

إليه وإلى جهاده فى سبيل نصرتها فقال :

فيا مسمع الأحرار من كل أمة	منى قومه والحر للحر ينصف
لقد فجع الفسطاط فيك وأهله	من الغرب ناع قام باسمك يهتف
لقد فجعونا فيك يوم تتابعت	رسائلهم بالموجعات وأرجفوا
فليت الليالى سالمت فيه أمة	براها الأسى من بعده والتلهف
عرفنا له بر الوفى بعهدها	إذا خان قوم عهد مصر فلم يفوا
أفاض عليها نفسه بعد ماله	ومال بهم عنها متاع وزخرف

وقد تحدث حافظ عن هذا المعنى وصوره تصويراً بارعاً يفوق تصوير عبد المطلب . وكان فى حديثه أكثر صراحة فى تصوير حزن مصر لفقدها الزعيم الذى يدافع عن استقلالها وكرامتها وهى فى أشد حاجتها إليه واختطفه الموت قبل أن يمتعها الدهر بهذا الزعيم الحاذق بالأمور وقبل أن يلمس هو ثمرة جهاده فى سبيل بلاده واتحاد أبنائها فقال :

فقدت مصر فريداً وهى فى	موطن يعوزها فيه الصـدد
فقدت مصر فريداً وهى فى	لهوة الميدان والموت رصد
فقدت منه خبيراً حولاً	وهى والأيام فى أخذ ورد
لم يكد يمتعها الدهر به	فى ربوع النيل حيّاً لم يكد
ليته عاش قليلاً فترى	شعب مصر عينه كيف اتحد

ثم إن قصيدة حافظ قد تفوقت على قصيدة عبد المطلب فى شئ آخر وهو إكثاره فيها من ذكر صفات المرثى وطيب شمائله . فهو ذو عزمة ورأى سديد ، وهو ركن مصر وفتاها وسندها ، وهو حسام باتر وشهاب وضاء ، وهو خبير بأمور السياسة وتقلباتها . وغير ذلك من الصفات الطيبة التى اتصف بها ذلك الزعيم والتى لم نجد منها فى قصيدة عبد المطلب إلا القليل .

وهكذا تفوق حافظ على زميليه فى شعره الذى رثى به الزعيم محمد فريد ومجد بشعره هذا أعمال الزعيم وكفاحه الوطنى . وإن كان كل من شوقى وعبد المطلب قد

أتى في قصيدته بمعان رائعة عبرت عما قام به الزعيم من جهود في سبيل حرية بلاده وما لاقاه من متاعب وآلام في سنى غربته وخاصة قصيدة الشاعر محمد عبد المطلب .

٨ – رثاء اسماعيل صبرى (١٨٥٤ – ١٩٢٣م)

رثى الشاعر اسماعيل صبرى كثير من شعراء العصر الحديث نختار منهم – مع ماقاله حافظ في رثائه – ثلاثة من هؤلاء الشعراء . فقد رثاه الشاعر أحمد شوقى بقصيدة طويلة هي قصيدته الفائية التى استهلها بقوله : (١)

أجلٌ وإن طال الزمان موافى   أخلى يديك من الخليل الوافى

ورثاه الشاعر محمد عبد المطلب بقصيدته الفائية أيضاً التى قالها في حفل الأربعين وهى المبدوءة بقوله : (٢)

بارحات بالواديين هوافى   ياحمام الروض عز القوافى

ورثاه الشاعر على الجارم بقصيدته اللامية وقالها أيضاً في حفل الأربعين وهى المبدوءة بقوله : (٣)

صادح الشرق قد سكت طويلاً   وعزيز عليه ألا تقولا

أما حافظ إبراهيم فقد رثاه بقصيدته الرائية التى ألقاها هى الأخرى في حفل الأربعين وهى المبدوءة بقوله : (٤)

نعاك النعاة وحم القدر   ولم يغن عنا وعنك الحذر (٥)

وهاهى ذى بعض المعانى التى تحدث عنها حافظ في رثائه لصبرى وموازنتها بمثيلاتها عند الشعراء الثلاثة المذكورين :

---

(١) الشوقيات ٨٢/٣ .

(٢) ديوان عبد المطلب ١٥٤ .

(٣) ديوان الجارم ١١٦/١ .

(٤) ديوان حافظ ٥٢٢ .

(٥) جاء في ديوان حافظ : أن حافظاً لما وقف ليلقى قصيدته هذه في رثاء صبرى أكثر المجتمعون من التصفيق له ترحيباً به . فقال حافظ مرتجلاً :

اكثرتم التصفيق في موطن   كان البكا فيه بنا أليقا

فأكرموا «صبرى» بإنصاتكم   وليعذر الدمع إذا صفقا

- تحدث حافظ فى ابتداء قصيدته عن العلة التى أصيب بها اسماعيل صبرى قبل وفاته . ومما يذكر أن صبرى قد أصيب بالذبحة الصدرية قبل وفاته بأعوام طويلة وظل مصاباً بها حتى أودت بحياته . وفى هذا يقول حافظ :

نعاك النعاة وحمّ القدر ولم يغن عنا وعنك الحذر
طوت نبحة الصدر صدر الندىٰ فلم تطو إلا سجل العبر
فأمسيت تذكر فى الغابرين وإن قلّ مثلك فيمن غبر

وأشار شوقى إلى هذا المعنى فقال :

نهب الذبيح السمح مثل سميّه طهر المكفن طيب الألفاف
كم بات يذبح صدره لشكاته أتراه يحسبها من الأشياف
نزلت على سَحْر السماح ونحره وتقلبت فى أكرم الأكناف (١)
لجت على الصدر الرحيب وبرحت بالكاظم الغيظ الصفوح العافى
ماكان أقسى قلبها من علةٍ علقت بأرحم حبةٍ وشغاف

وأبيات شوقى أكثر تفصيلاً للمعنى وأحسن تصويراً لما عاناه المرثى من آلام هذه العلة . فكثيراً مابات - كما يصوره شوقى - يذبح صدره ويقدمه قرباناً لعلته كما يقدم الكريم الذبيحة لضيفه . كما صور هذه العلة وهى تتنقل بين الرئة بتنقل الضيففى أطيب الأماكن وتقلبه فى أكرم الأكناف . كما أنها لجت على صدر الفقيد ولكنه كان رحب الصدر كاظماً غيظه صفوحاً عفواً عن كل ماكانت تفعله به هذه العلة وتسببه له من آلام . ولكنها للأسف كانت تقابل كل هذا بقلب قاس لايعرف الرحمة على الرغم من تعلقها بأرحم قلب وأرق شغاف . ومثل هذا التصوير افتقدناه فى أبيات حافظ التى لم يزد فيها عن إخبارنا بقضاء الزبحة الصدرية على صدر الندىٰ وطيّها لسجل العبر .

ولم يتحدث محمد عبد المطلب عن هذا المعنى فى رثائه لإسماعيل صبرى غير بيت واحد يشم فيه رائحة هذا المعنى ولكنه حديث خافت غير وافٍ ببعض ما أصيب به

---

(١) السَّحْر : الرئة .

المرثى من علة وألم - وهو تلك البيت الذى يقول فيه :

جاءه السقم بالرحيل نذيراً صادقاً فى الوعيد والأرجاف

أما الشاعر على الجارم فلم يتحدث عن العلة التى أصيب بها المرثى حديثاً مباشراً وإنما صور لنا المرثى وهو يتخطفه الموت ويمد له أسباب الرحيل - وذكر أنه لم يمت إلا بعد أن أنهكت العلة قواه وأذهب السقم نضارته - يقول الجارم :

لو رأيت الردى يحوم عليه والمنايا ترمى له الأحبولا
لرأيت الطود الأشم الذى كا ن منيع الذرا كثيباً مهيلاً
ورأيت الصمصام لا يقطع الضغث وقد كان صارماً مصقولا
ورأيت الروح الخفيفة حيرى إن عبء السقام كان ثقيلا

وأبيات الجارم هذه تفوق هى الأخرى أبيات حافظ - فقد صور بها مافعلته تلك العلة - التى هى بمثابة الأحبول المفضى إلى الموت - بالمرثى من تحوله إلى كثيب مهيل بعد أن كان طوداً شامخاً وإلى قطعة من حديد باردة بعد أن كان سيفاً صارماً مصقولاً - وإلى إنسان ذى روح حيرى لاتقدر على التماسك والمقاومة بعد أن كان ثاقب الفكر قوى البيان - وهذا كله يفضل تصوير حافظ لطى العلة صدر الندىّ وسجل العبر -

-وتحدث حافظ فى قصيدته عن كثير من صفات صبرى وأخلاقه التى كان موسوماً بها فى حياته فقال :

إذا ذكرت سير النابهين فسيرة صبرى تجب السير
لقد كنت براً بظل الشباب فلما تقلّص كنت الأبر
فلم تستبق نزوة فى الصبا ولم تستبح هفوة فى الكبر
أهنى الثرى أم أعزى الورى لقد فاز هذا وهذا خسر
رحمت فقد كنت حلو اللسان جلىّ البيان صدوق الخبر
قليل التعجب جم الأناة حكيم الورود حكيم الصدر
شمائلك الغرهن الرياض روى عن شذاها نسيم السحر
لها مثل روح الدعاء استجيب فعافى وآوى وأغنى وسر

وقد خص شوقي صفات صبري والحديث عن أخلاقه بعدة أبيات وصفه فيها بمثل الصفات ألتي ذكرها حافظ في الأبيات السابقة فقال :

حملوا على الأكتاف نور جلالةٍ ... يذر العيون حواسد الأكتاف

وتقلدوا النعش الكريم يتيمةً ... ولكم نعوش في الرقاب زياف

متمايل الأعواد مما مسّ من ... كرم ومما ضمّ من أعطاف

ولقد قصّر شوقي في هذه الأبيات عما جاء به حافظ من صفات للمرثي والحديث عن أخلاقه . فلقد قصر حديثه على مالوحظ على نعش الفقيد حين وضع فيه . فلقد تحول إلى نور جلالةٍ وضع على الأكتاف مما جعل العيون تحسد الأكتاف على مانالت من عظيم الشرف . كما أن حاملي النعش قد تقلدوه يتيمةً يعز عليهم خلعها عن أعناقهم ومشى النعش متمايل الأعواد بما مسّ من كرم صاحبه وماضمه بين جنباته من أعطاف . وهي تصويرات لابأس بها من اللطف والرقة.وإن كانت أبيات حافظ قد أسبغت عليه مثل هذه الصفات : ليس بعد مماته فقط كما فعل شوقي وليس في كبره وإنما في صباه وشبابه وشيخوخته وبعد مماته . حتى لقد توجه إلى الثرى بالتهنئة – يوم أن عزى الورى في الفقيد – بما ناله من شرف دفن الفقيد فيه .

ولقد تأثر الشاعر عبدالمطلب ببعض ما ذكره شوقي عن نعش الفقيد فقال واصفاً إياه:

ما رأى الناس كوكباً قبل صبري ... سار فوق الأعناق والأكتاف

ولم نجد في قصيدة عبد المطلب شيئاً عن صفات المرثي وأخلاقه غير ماذكره في هذا البيت وماذكره أثناء حديثه عن نبوغ المرثي في شعره وبيانه . ومنه ماقاله في هذين البيتين :

أدب غاض في الثرى ووفاء ... أسلم الموت عوده للجفاف

وندىً يملأ الندىّ سماحاً ... وسجايا كانت مزاج السلاف

أما الشاعر علي الجارم فقد سرد كثيراً من صفات المرثي وتحدث عن أخلاقه الطيبة حديثاً مباشراً فقال :

خلق لو يمس هاجرة القـــــــيظ لأمست على الأنام أصيلا

وخلال مثل النسيم وقد مـــــــرّ بزهر الربا عليلا بليلا

وحديثاً حلو الفكاهة عذب لم يكن أسفاً ولا معلولا
يذهل الصب عن أحاديث ليلاه وينسيه حوملاً والدخولا
يقصر الليل حين يسمر صبرى بعد أن كان نابغيًا طويلا

وأرى أن أبيات حافظ جاءت فى بيان ماإتصف به المرثى من صفات أفضل من أبيات الجارم هذه فقد اقتصر الجارم على وصف الفقيد بثلاث من الصفات . خلق كالأصيل فى رقته وحلاوته ، وخلال - هكذا مجملة - كالنسيم فى طيبه وعذوبته ، وحديث حلو الفكاهة عذب يطرب السامع ويأخذ بلبه . على أن حافظاً قد أشار أيضا إلى هذا المعنى فى قصيدته فقال :

زكى المشاعر عف الهوى شهى الأحاديث حلو السمر

ولكننا لاننسى التصوير الجميل الذى أتى به الجارم مع كل وصف من هذه الصفات التى ذكرها مما جعلها تأتى فى أجمل صورة وأبهاها . فخلقه لو مس هاجرة القيظ الشديد الحر لأحس بها الناس أصيلاً فى الرقة والطيب . وخلاله مثل النسيم العليل البليل . وحديثه حلو الفكاهة عذب لو سمعه امرؤ القيس الصب العاشق نسى ليلاه واستغنى به عن الوقوف على ديارها . كما أن حديثه - لعذوبته وحلو فكاهته - يجعل الليل قصيراً خالياً من الهموم بعد أن كان مثل ليل النابغة الزبيانى فى طوله وكثرة همومه . وهو يشير إلى ليل النابغة الذى وصفه فى قوله (١)

كلينى لهم ياأميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآيب

ولكن هذه الأبيات - مع هذا كله - ليست وافية ببيان صفات المرثى وأخلاقه .
ـ وتحدث حافظ فى رثائه لصبرى عن نبوغه فى شعره وبيانه وما اتصف به شعر صبرى من صفات الجودة والإعجاز فقال :

أأول يوم لعهد الربيع تجف الرياض ويذوى الزهر ؟
ويذبل زهر القريض الثرى ويقفر روض القوافى الغرر

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم /٤٠ .

ليهدأ عمان فغواصه | أصيب وأمسى رهين الحفر
فقد كان يعتاده دائباً | بكوراً رؤوحاً لنهب الدرر
يقول فيرغص درالنحور | ويغلى جُمان بنات الفكر
يسوق القصار فيأبى العثار | وكم من مطيل مملّ عثر
قصار وحسب النهى أنها | لها معجزات قصار السور

ويقول أيضاً عن بيانه وشعره فى موطن أخر من القصيدة :

وفكرك فى خصبه ثروة | لفكر الأديب إذا ما افتقر
وشعرك كالماء فى صفوه | على صفحتيه تراءى الصور
عيون القصائد مثل العيون | وشعرك فيهن مثل الحور
وكم لك شكوى هوىً أو أسىً | لها نفثاتٌ تذيب الحجر
هتفت بها مرة فى الهجير | فكاد يدب إليك الشجر

ويشبه حافظ المرثى فى جزالة شعره ورقة غزله فيه بالبحترى أو بعمر بن أبى ربيعة فيقول :

إذا قيل صبرى نكرت الوليد | ومرت بنفسى نكرى عمر

أما شوقى فجاء حديثه عن شعر صبرى محصوراً فى المقارنة بينه وبين الشاعر العباسى « الشريف الرضى » فى نسبه وفى فنه الشعرى حيث يقول :

فجعت ربى الوادى بواحد أيكها | وتجرعت ثكل الغدير الصافى
فقدت بنانا كالربيع مجيدةً | وشى الرياض وصنعة الأفواف
إن فاته نسب الرضى فربما | جرياً لغاية سؤدد وطراف
أو كان دون أبى الرضى أبوهُ | فلقد أعاد بيان عبد مناف

ومثل هذه الأبيات لا نفى بماكان يتميز به شعر صبرى من بيان وقوة . فلم يذكر لنا شوقى شيئاً عن سمات هذا الشعر غير ماذكره من مقارنة بينه وبين شعر الشريف الرضى . وكأنى بشوقى يبخل بالحديث الصريح عن براعة شعر حافظ ومميزاته حتى لايكون حديثه مخلة لتفضيل شعر المرثى على شعره هو . فبدلاً من الإشادة الصريحة بشعر صبرى وإعطائه حقه من الرفعة والتقدير نرى شوقى يؤيد

بشعره هو ويرفع من قدره وهو يهديه إلى روح الفقيد فيقول :

أأبا الحسين تحية لثراك من ... روح وريحان وعذب نطاف
هل في يديّ سوى قريض خالدٍ ... أزجيه بين يديك للإتحاف
ماكان أكرمه عليك فهل ترى ... أنى بعثت بأكرم الألطاف
هذا هو الريحان إلا أنه ... نفحات تلك الروضة المئناف
والدر إلا أنّ مهد يتيمه ... بالأمس لجة بحرك القذاف

فياليته كان قد تحدث عن شعر صبرى بمثل ماتحدث به عن شعره هو فيكون حينئذٍ قد وصفه ببعض مايستحقه .

وأفضل من حديث شوقى هذا عن شعر صبرى وبيانه ماذكره الشاعر محمد عبد المطلب عن هذا المعنى فى قوله :

رحمتا للقريض ينشد شيخاً ... مر فى الذاهبين والأسلاف
ولربع البيان من بعد اسما ... عيل فى الموحشات بين العوافى
يا أبا المعجزات وهى قواف ... ساحرات البيان غير خوافى
هى نور الربيع وهى شذا المسك ودر البحار فى الأصداف
هى عند الأديب لحن رخيم ... أو شراب من السلافة صافى
وهى عند الحكيم آيات حكم ... تتولى النهى بحسن الثقاف
حكم كالأمثال يضر بها اللب لما فى الصدور تجرى شوافى
موجزات كالآى واحدها يغنيك فى قدر عن الآلاف
دقة البحترى فى أسر بشار ونسج ابن معمر أو خفاف
كلم طيب وروض أنيق ... فيه للنفس بغية المعتاف
تلك آثارك التى هى فى مصر لباس من المكارم ضافى
لك فيها على الزمان خلود ... وحياة موشية الأطراف

ويبدو فى هذه الأبيات كثير من المعانى التى ذكرها حافظ فى أبياته السابقة . فقد نعى كل منهما القريض بنعى الفقيد . فقصائده ساحرات البيان ومقطوعاته القصار كالآى المعجزة عند عبد المطلب وكقصار السور فى إيجازها

وإعجازها عند حافظ . وصبرى فى شعره وبراعته فيه كالبحترى عند حافظ وعبد المطلب وفى رقة غزله كعمر بن أبى ربيعة عند حافظ وكجميل بن معمر العذرى عند عبد المطلب . ولكل منهما معان لم توجد عند الآخر ولكن حديثهما فى النهاية يصوران براعة شعر صبرى وروعة بيانه وإن كانت أبيات حافظ أقوى وأبرع فى تصوير شاعرية صبرى وقوة شعره وحسن بيانه .

وتحدث الشاعر على الجارم عن شعر صبرى وبيانه حديثاً طويلاً لم يخرج فيه عن شئ مما عند حافظ وعبد المطلب . وإن تميزت لهجة الجارم فى أبياته بالاعتماد على قوة الرنين واختيار الألفاظ ذات الجرس القوى الوقع على السمع وكثرة اقتباسه من المصطلحات العلمية والقرآنية وأقوال الشعراء السابقين . وهذه بعض أبيات الجارم فى ذلك :

قد سمعناه فى المزاهر لحناً ... وسمعناه فى الحمام هديلا
وشممناه فى الكمائم زهراً ... وشربناه فى الكؤوس شمولا
تتهب الدر من عقود الغوانى ... ثم تدعوه فاعلاتن فعولا
غزل كالشباب أسجح ريّا ... ن يذيب القاسى ويدنى الملولا
ونسيب يكاد يبعث فينا ... من جديدٍ كثيّراً وجميلا
وقوافٍ سالت من اللطف حتى ... لحسبنا المجتث فيها طويلا
عبثت بالوليد ثم أرته ... منه أنقى معنىً وأقوم قيلا
لو وعاها ما اهتز ينشد يومًا ... أذاك وادى الأراك فاحبس قليلا
قف مشوقًا ومسعداً أو حزيناً ... أو معيناً أو عاذراً أو عذولا
هبطت حكمة البيان عليه ... فاذكروا فى الكتاب اسماعيلا

ومع براعة الجارم فى استخدام المصطلحات العلمية فى هذه الأبيات فإنها جاءت أقل تصويراً لقيمة شعر صبرى ولطف بيانه من أبيات حافظ أو عبد المطلب .

وقد عاد الجارم إلى الحديث عن هذا المعنى مرة أخرى فى القصيدة فذكر أن صبرى قد أعاد لدولة الشعر قوتها ومجدها بعد البارودى فقال :

يامليك البيان دعوة خلّ	وجد الصبر بعدكم مستحيلا
أنا أرثيك شاعراً وأديباً	ثم أبكيك صاحباً وخليلا
قل لحسان إن مررت عليه	فى ظلال الفردوس يطوى الرسولا
إن مصراً أحييت موات القوافى	وأقامت عمودها أن يميلا
وأعادت إلى سليلة عدنا	ن شباباً غضاً ومجداً أثيلا

- كما تحدث كل من حافظ وشوقى عن فضل المرثى عليه وعلى شعره واعترف كل منهما بالتلمذة على يد اسماعيل صبرى . وأنه كان مرجعاً يرجع إليه كل منهما للاطمئنان على شعره وتقويمه وتهذيبه . ولكن شوقى قد أجمل هذا المعنى فى بيتين اثنين هما :

أيام أمرح فى غبارك ناشئاً	نهج المهار على غبار خِصاف (١)
أتعلّم الغايات كيف ترام فى	مضمار فضل أو مجال قوافى

بينما فصل حافظ هذا المعنى وأبان عما كان يحدث بينه وبين صبرى فى بيته من عرض شعره عليه والاستماع إلى آرائه فيه وماكانت تؤدى إليه هذه الآراء من تقويم شعر حافظ وتهذيبه والوصول به إلى أعلى درجات الكمال فقال :

لقد كنت أغشاه فى داره	وناديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع	لطيف يحس نبو الوتر
على سمع باقعة حاضر	يميز القديم من المبتكر
فيصقل لفظى صقل الجمان	ويكسوه رقة أهل الحضر
يرقرق فيه عبير الجنان	فتستاف منه النهى والفكر
كذلك كان - عليه السلام -	إمامًا لكل أديب شعر
فكنا الجداول نروى الظماء	ظماء العقول وكان النهر

---

(١) خِصاف : فرس مشهور عند العرب .

وأبيات حافظ هذه لاشك أفضل من بيتي شوقي وأحسن منها تصويراً لفضل المرثي على الشاعر وشعره وأكثر صراحة في الاعتراف بهذا الفضل . وكل مايؤخذ عليه فيها – في رأيي – أنه شبه صبرى في رعايته للأدباء والشعراء بالرسول – عليه الصلاة والسلام – وماكان يفعله مع الشعراء من الصحابة . ومثل هذا التشبيه لايليق في هذا المقام . فينبغي أن نرتفع بقدر الرسول عن مثل هذه التشبيهات .

هذا ولم نجد في رثاء عبد المطلب والجارم شيئاً من الحديث في هذا المعنى .

- كما تحدث حافظ في قصيدته عن زهد صبرى في الحياة وكرهه لها وكثرة شكواه منها ومن آلامها في شعره . حتى لقد تمنى الموت قبل أن يموت بزمن بعيد . وحينما أصيب في حادث القطار بالإسكندرية كان قد شارف على الموت . وبعد شفائه مما أصيب به كان يتحدث إلى جلسائه بأنه ذاق طعم الموت فوجده لذيذ المذاق . وكان يتمنى أن لم يعد إلى الحياة ثانية . ومازال يشتهي الموت ويتمناه حتى نال ماتمناه واستراح من تعب الحياة وآلامها . وهذه بعض أبيات حافظ في ذلك :

زهدت على شهرةٍ طبقت   وجاهٍ أظل وفضل بهر
خلعت الشباب فلم تبكه   وساءك أنك لم تحتضر
وقد ذقت طعم الردى عندما   أصيب قطارك يوم السفر
فأقسمت أنك ألفيته   لذيذ المذاقة إذ تحتضر
تمنيت أن لم تعد للحياة   ولكن أباها عليك القدر
وكم ساعة بين ساع الحياة   سقتك المُرار بكأس الضجر (١)
فرحت إلى أختها شاكياً   أذاتك منها فكانت أمر
تمنيتها خطوة للممات   تفرج عنك كروب الغِير
وها قد خطاها ونلت المنى   فهل في الممات بلوغ الوطر

وحديث حافظ عن زهد المرثي في الحياة وبغضه لها جره للحديث عن الموت والمقارنة بين حياة القبر والحياة على وجه الأرض مفضلاً هو الآخر حياة القبر

---

(١) المرار : شجر شديد المرارة .

لخلوها مما تمتلىء به الحياة الدنيا من سوءات وظلم واستعباد . يقول حافظ :

صدقت ففي الموت نصر الأبي ... على الدهر إن هو يوماً غدر
أتحت التراب يضام الكريم ... ويشقى الحليم ويخفى القمر ؟
ويهضم حق الأديب الأريب ... ويطمس فضل النبيه الأغر ؟
أتحت التراب تساق الشعوب ... بسوط العبودة سوق البقر ؟
ويعقد مؤتمر للسلام ... فنخرج منه إلى مؤتمر ؟
فإن كان ماعندنا عندكم ... فليس لنا من شقاء مفر

ولم يتحدث شوقي عن شيء يدل على زهد صبري في الحياة وكرهه لها ولكنه ملأ قصيدته بالحديث عن تفاهة الدنيا وغرورها وعن حياة القبر ومايدور فيها :

ماأنت يادنيا ؟ أرؤيا نائم ... أم ليل عرس أم بساط سلاف ؟
نعماؤك الريحان إلا أنه ... مشت حواشيه نقيع زعاف

كما امتلأت قصيدة شوقي بالحديث عن حياة الفقيد في قبره ومآلت إليه حاله بعد الموت . وكعادة شوقي في كثير من رثائه يتوجه إلى الميت بالسؤال عما يدور في الدار الآخرة وحقيقة الحياة فيها مكثراً أثناء ذلك من أبيات الحكمة التي يلخص فيها أحاسيس شوقي ومشاعره تجاه مواقف الحياة والموت . مما يبعدنا عن جو الرثاء وينقلنا إلى جو المواعظ والزهد . اقرأ معي قوله :

قاضي القضاة جرت عليه قضية ... للموت ليس لها من استئناف
في منزل دارت على الصيد العلا ... فيه الرحى ومشت على الأرداف
وأزيل من حسن الوجوه وعزها ... ماكان يعبد من وراء سجاف
من كل لماح النعيم تقلبت ... ديباجتاه على بلًى وجفاف
وترى الجماجم في التراب تماثلت ... بعد العقول تماثل الأصداف
وترى العيون القاتلات بنظرة ... منهوبة الأجفان والأسياف
وتراع من ضحك الثغور وطالما ... فتنت بحلو تبسّم وهتاف

إلى آخر هذه الأبيات التي يصور فيها شوقي مايدور في حياة الإنسان في الدار الآخرة ثم الإعلان عن مظاهر خوفه من أهوال القبر وعذابه . إلى غير هذه الأشياء

التى يمكن أن تذكر فى كل المواقف المتشابهة مما يوحى بأن الشاعر قد حوّر فى عقله وفكره أفكاراً معينة يتلوها على مسامع الناس فى مواقف الرثاء المختلفة . ولكثرة ترداده لها أصبحت خالية من المشاعر والأحاسيس الصادقة . وإن كان حافظ قد ذكر شيئاً عن تلك الحياة وقارن بينها وبين الحياة الدنيا فى هذه القصيدة فإنه ربط بين حديثه هذا وبين ماحدث من المرثى فى حياته من بغضه للحياة وكرهه لها وإيثاره الموت على ما فيها من شقاء وآلام . وقد تحدث الشاعر محمد عبد المطلب عما تحدث عنه حافظ من زهد صبرى فى الحياة وكرهه العيش فيها ثم عن التنفير من الحياة وبيان مايدور بين أهلها من عداوات وإحـن :

كره العيش بين أبناء دنيا	خلقوا من تنافر وتنافى
لو دروا ماالحياة لم يقطعوها	بين حرب على الهوى وخلاف
نكّبوا سنة الهدى حين ضلوا	سفهاً عن شريعة الإنصاف
ليس للحق عندهم من مثال	غير سمر القنا وبيض الخفاف
فهم بين جاهل وعمىّ	غافل عن تصرف الدهر غافى

وأبيات حافظ أدخل فى الرثاء من أبيات عبد المطلب . فحديث عبد المطلب بعيد بعض الشيء عن الرثاء وإنما هى وصف لبعض مايدور بين الناس على وجه الأرض . ولو قرأنا الأبيات وحدها بعيداً عن بقية القصيدة لما ظن أحد أنها أبيات فى الرثاء . بخلاف أبيات حافظ الذى كان يحرص فيها على إظهار أن ما يحدث فى هذه الحياة لايحدث نظيره تحت التراب مما يذكرنا بجو الحزن والبكاء . وكما تحدث شوقى عن حقيقة الحياة والموت جاء الشاعر على الجارم فى قصيدته بمقطوعة تحدث فيها حديثاً شبيهاً بحديث شوقى ويحس من يقرأها بأنها مقطوعة فى الزهد ولا صلة لها برثاء صبرى الذى أنشئت من أجله القصيدة . وهاهى أبيات الجارم :

إنما نحن فى الحياة إلى حين	شباباً وفتية وكهولا
نتمنى الحياة جد تمن	وهى ليست إلا متاعاً قليلا
وقف الطب حائراً والمنايا	ساخرات يغتلن جيلاً فجيلا

دورة الأرض كم أهدت قتيلا	جميلا وكم أبادت قبيلا
نضرة في ازاهر الصبح تمسي	بعد لأي تصوحاً وذبولا
رب قصر قد كان ملعب أنس	صيرته الأيام ربعاً محيلا
وفتاةٍ طوى محاسنها الدهر	بناناً غضاً وخداً أسيلا
نأكل الأرض ثم تأكلنا الأر	ض دواليك أفرعاً وأصولا

وهكذا أثبت حافظ تفوقه على زملائه في رثاء الشاعر اسماعيل صبرى بما أتى به من معان بارعة وتصويرات معبرة عن إحساس صادق وقلب مفعم بالألم على رحيل أستاذ أديب طالما جالسه وأفاد من عرض شعره عليه مستنيراً بما يبديه أستاذه حول شعره من آراء .

٩ – رثاء سعد زغلول (١٨٦٠ – ١٩٢٧) .

أما الزعيم سعد زغلول فقد حظى برثاء أكبر عدد من شعراء العصر الحديث . ويصعب أن نتحدث عن كل هؤلاء الشعراء الذين قاموا بواجب الوفاء للزعيم الوطني . ومن هنا وقع اختياري على ثلاثة منهم لنقارن بين ماقالوه باختصار وماقاله حافظ في رثاء سعد زغلول .

وقد رثى شوقي الزعيم الوطني سعد زغلول بقصيدة تعد من عيون شعر الرثاء في ديوانه . وهي قصيدة طويلة تزيد على التسعين بيتاً . وقد بدأها شوقي بقوله : (١)

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها	وانحنى الشرق عليها فبكاها

ورثاه الشاعر البدوي محمد عبد المطلب بقصيدته الحائية التي تزيد على مائة بيت بدأها بقوله : (٢)

أحبتنا وماهان الرواح	جرى بالبين بارحهم فراحوا

ورثاه الشاعر علي الجارم هو الآخر بقصيدة طويلة تبلغ نحو تسعين بيتاً وهي

---

(١) الشوقيات ٣/١٣٥ .

(٢) ديوان عبد المطلب ٥٤ .

القصيدة اللامية المبدوءة بقوله : (١)

لا الدمع غاض ولا فؤادك سالى　　　　دخل الحِمام عرينة الرئبال

أما حافظ فقد رثى الزعيم الوطنى بواحدة من قصائده الرائعات . وهى قصيدته البائية المبدوءة بقوله : (٢)

إيه ياليل هل شهدت المصابا　　　　كيف ينصب فى النفوس انصبابا

وإن كان حافظ قد رثى سعداً بقصيدة واحدة ورثى الزعيم مصطفى كامل بثلاث قصائد فقد كان فى رثائه لسعد زغلول أطول نفساً من مراثيه فى مصطفى كامل فقد بلغت قصيدته فى سعد نحواً من تسعين بيتاً . وهى أطول قصائد حافظ فى فن الرثاء .

أما قصيدة شوقى فقد جاءت معبرة عن مدى حزن الشعب وعن آلام مصر وهمومها وشقائها نتيجة هذه الكارثة المهولة التى أصيبت بها بموت الزعيم . كما جاءت معبرة عن الصداقة التى جمعت بين شوقى والزعيم وعن الود الذى ربط بينهما . كما جاءت تجسيماً واضحاً لجلال سعد وجهاده وزعامته وقيادته للشعب ضد الاستعمار . ورغم ذلك فقد تفوقت عليها قصيدة حافظ التى اتسمت بالصدق وامتلأت بالألم والأسى . فقد كان سعد بمثابة الصديق الذى يغمر حافظاً بفيض من الرعاية والعناية . كما كان الزعيم من خير من يأنس بهم حافظ ويصغى إليهم . بجانب إحساس حافظ بأن جماهير الشعب المصرى فقدت بموت سعد زغلول زعيماً طالما ندد بالاستعمار وأخذ على عاتقه تبصير الشعب بظلم الانجليز ووجوب مقاومته والتخلص منه . ولذا فقد جاءت القصيده ناطقة بوفاء الشاعر لهذا الزعيم الصديق مليئة بصدق التصوير وخالص المشاعر .

ولكن هذا لايمنع من الإشادة بقصيدة شوقى والاعتراف بأنها تحمل بين جنباتها كثيراً من المعانى الرائعة الدالة على مدى الحزن والألم الذى امتلأ به قلب

---

(١) ديوان الجارم ٤٥ .
(٢) ديوان حافظ ٥٣٢ .

الشاعر وهو يودع صديقه الذى ملأ الدنيا جهادًا وثورة من أجل استقلال مصر وظفرها بحريتها . اقرأ معى قوله معبراً عن حزنه هو على الزعيم الفقيد :

أين من عينىّ نفس حرة كنت بالأمس بعينىّ أراها
كلما أقبلت هزت نفسها وتواصى بشرها بى وندَاها
وجرى الماضى فماذا ادكرت وادكار النفس شىء من وفاها
ألمح الأيام فيها وأرى من وراء السن تمثال صباها
لست أنسى صفحة ضاحكة تأخذ النفس وتجرى فى هواها
وحديثاً كروايات الهوى جدّ للصب حنين فرواها
وقناةً صعدة لو وهبت للسماك الأعزل اختال وتاها

فيمثل هذه الأبيات المليئة باللوعة والأسى على ذلك العهد الذى جمعه بصاحب هذه الصفات الحلوة يعبر شوقى عن حزنه وألمه . ولكنها فى الحقيقة لا ترقى فى صورها ومعناها إلى أبيات حافظ فى التعبير عما أصابه من لوعة وأسىً وما نزل به من نكبات حينما سمع خبر نعى الزعيم فقال :

أين سعد ؟ فذاك أول حفل غاب عن صدره وعاف الخطابا
لم يعود جنوده يوم خطب أ ن ينادى فلا يرد الجوابا
علّ أمراً قد عاقه علّ سقماً قد عراه لقد أطال الغيابا
اى جنود الرئيس نادوا جهاراً فإذا لم يجب فشقوا الثيابا
إنها النكبة التى كنت أخشى إنها الساعة التى كنت آبى
إنها اللفظة التى تنسف الأنـ ـفس نسفاً وتفقر الأصلابا
«مات سعد» لاكنت يا «مات سعد» أسهاماً مسمومة أم حرابا
كيف أقصدت كل حىّ على الأر ض وأحدثت فى الوجود انقلابا
حسرة عند أنةٍ عند آهٍ تحتها زفرة تذيب الصلابا

هذه أبيات عبرت بصدق عن هول الموقف وفظاعة المصيبة . وقد سبق أن بينت مافيها

من تصوير . فلا داعي لتكراره . (١)

ولم يكتف شوقي بتصوير حزنه هو على الزعيم الصديق في رثائه له وإنما صور لنا في براعة حزن الأمة المصرية وماأصيبت به مصر من كوارث بعد فقد هذا الزعيم الذى طالما جاهد من أجلها وبذل في سبيل استقلالها كل رخيص وغال . وهذه بعض أبيات شوقي في ذلك :

مادرت مصر : بدفن صبحت	أم على البعث أفاقت من كراها
صرخت تحسبها بنت الشرى	طلبت من مخلب الموت أباها
وكأن الناس لما نسلوا	شعب السيل طغت في ملتقاها
وضعوا الراح على النعش كما	يلمسون الركن فارتدت نزاها
خفضوا في يوم سعد هامهم	وبسعد رفعوا أمس الجباها
تسكب الدمع على سعدٍ دمًا	أمة من صخرة الحق بناها

هذه أبيات معبرة عن هول ما أصيب به أبناء مصر ومدى ما نزل بهم من ألم وأسى بموت زعيمهم . ولكنها مع ذلك لاترقى إلى أبيات حافظ في هذا الصدد وهو يقول :

قدر شاء أن يزلزل مصراً	فتغالى فزلزل الألبابا
طاح بالرأس من رجالات مصر	وتخطى التحوت والأوشابا
خرجت أمة تشيع نعشاً	قد حوى أمةً وبحراً عبابا
حال لون الأصيل والدمع يجرى	شفقاً سائلاً وصبحاً مذابا
وسها النيل عن سراه ذهولاً	حين ألفى الجموع تبكى انتحابا
ظن ياسعد أن يرى مهرجاناً	فرأى مأتماً وحشداً عجابا
لم تسق مثله فراعين مصر	يوم كانوا لأهلها أربابا
خضب الشيب شيبهم بسوادٍ	ومحا البيض يوم مت الخضابا

---

(١) انظر صفحة ١٥٩ من هذا البحث .

واستهلت سحب البكاء على الوادى فغطت خضراءه واليبابا (١)

وتحدث شوقى عن رفات الفقيد وصور احتضان الراية لجثمان سعد زغلول وفاءً منها للفقيد الذى عاش حياته وهو يحمى حماها :

حضنت نعشك والتفت به   راية كنت من الذل فداها
ضمت الصدر الذى قد ضمها   وتلقى الهم عنها فوقاها
عجبى منها ومن قائدها   كيف يحمى الأعزل الشيخ حماها

وقد استحسن الدكتور زكى مبارك أبيات شوقى هذه وأبدى إعجابه بها لما فيها من تصوير إحساس هذه الراية بالفجيعة وشعورها بفقد القائد الذى كان يحمى حماها(٢)

ونسى حافظ أن يشير إلى هذا المعنى . وكان الأجدر به أن يحدثنا عنه وهو يتحدث عن نعش الفقيد وتشييع جثمانه وحمله على المدافع بدلاً من الرقاب . كما تحدث شوقى فى رثائه لسعد زغلول عن ثورة ١٩١٩م التى أشعل وقودها سعد زغلول . فنوه بهذه الثورة ومجد قائدها وبيّن أن سعداً كان مشعلها وكان أباها الذى لم ينجب غيرها . وهو الذى أيقظ الروح الوطنية فى نفوس المصريين الذين خاضوا غمار هذه الثورة كالأسود المحتشدة لأنهم يعرفون أنهم يدافعون عن حق بلادهم الطبيعى فى الحياة . وذكر من مفاخر سعد أنه غذى هذه الثورة بقلمه ولسانه وكان أول من رمى بنفسه فى بركانها فاكتوى بنارها ونفى من بلاده وأوذى فى سبيل هذه الثورة أشد الإيذاء . وجاء حديث شوقى هذا بعد أن أعطانا صورة عامة عن جهاد الزعيم المرثى فى سبيل الأمة وحريتها وكرامتها :

ولد الثورة سعد حرةً   بحياتىْ ماجدٍ حرّ نماها

---

(١) انظر ماكتب حول هذه الأبيات فى صفحة ١٣٩ من هذا البحث .
(٢) انظر كتاب أحمد شوقى : بقلم زكى مبارك — إعداد وتقديم كريمه زكى مبارك ص ٣٠٢ من مقال نشر بمجلة الرسالة فى ٢٥ من أغسطس ١٩٤١م .

ماتمنى غيرها نسلاً ومن ... يلد الزهراء يزهد فى سواها
سالت الغابة من أشبالها ... بين عينيه وماجت بلباها
بارك الله لها فى فرعها ... وقضى الخير لمصر فى جناها
رقد الثائر إلا ثورةً ... فى سبيل الحق لم تخمد جذاها
قد تولاها صبيًّا فكوت ... راحتيه وفتيًّا فرعاها
جال فيها قلماً مستنهضاً ... ولساناً كلما أعيت حداها
ورمى بالنفس فى بركانها ... فتلقى أول الناس لظاها

وقد تحدث حافظ فى قصيدته طويلاً عن جهاد الزعيم سعد زغلول وكفاحه ضد الاستعمار وفضله فى إثارة الروح الوطنية فى أبناء مصر وتبصيرهم بحقوقهم ولكنه لم يخص ثورة ١٩١٩م التى تحدث عنها شوقى فى الأبيات السابقة بحديث خاص وإن كان قد جاء بصور مماثلة من جهاد الزعيم فى بعض أبياته التى تكلم فيها عن جهاد الزعيم . ومن ذلك قوله :

جزع الشرق كله لعظيم ... ملأ الشرق كله إعجابا
علّم الشام والعراق ونجداً ... كيف يحمى الحمى إذا الخطب نابا
جمع الحق كله فى كتاب ... واستثار الأسود غاباً فغابا
ومشى يحمل اللواء إلى الحق ... ويتلو فى الناس ذاك الكتابا
قد جمعت الأحزاب حولك صفاً ... ونظمت الشيوخ والنوابا
وملكت الزمام واحتطت للغيب ... وأدركت بالأناة الطلابا
ثم خلفت بالكنانة أبطا ... لاً كهولاً أعزة وشبابا
قد مشى جمعهم إلى المقصد الأسمى ... يغزون للوصول الركابا
يبتنون العلا يشيدون مجداً ... يسعدون البنين والأعقابا

ـ كما تحدث شوقى كثيراً عن صفات سعد الخلقية والوطنية . وجاءت أوصافه كلها فى تمجيد الزعيم وماقام به من بطولات وأعمال عظيمة . وكان حديث شوقى فى هذا المجال من أسباب عظمة شوقى فى قصيدته وارتفاع درجة جودتها عن معظم قصائده فى الرثاء .

ورغم هذا فمن يقرأ قصيدة شوقي هذه يدرك أن هول الكارثة لم تنس شوقي – على الرغم مما اتصفت به في قصيدة شوقي – لم تنسه الحديث عن العنصر البارز في مراثيه جميعها تقريباً وهو وقوفه أمام حقيقة الموت والحياة لأخذ العظات والعبر منها ونظم الكثير من الحكم في ذلك . وهذا مما يوهن قوة رثاء شوقي ويجعل ماقاله حافظ في رثاء سعد ظاهر التفوق على ماقال . اقرأ معي قول شوقي :

هذه الأعواد من آدم لم	يَهْدَ خفاها ولم يعر مطاها
نقلت خوفو ومالت بمنا	لم يفت حيًّا نصيب من خطاها
تخلط العمرين : شيباً وصباً	والحياتين : شقاءً ورفاها
زورق في الدمع يطفو أبداً	عرف الضفة إلا ماتلاها
تهلع الثكلى على آثاره	فإذا خف بها يوماً شفاها

فأي مناسبة دعت شوقي لذكر مثل هذه الأبيات غير رؤيته لأعواد نعش سعد فترك صاحب النعش وتحدث عنها حتى فخرج بها عن مجال الرثاء إلى باب المواعظ والقصص الديني .

على أن حافظاً قد تفوق على شوقي في رثائهما لسعد زغلول في ميدان آخر وهو براعة حافظ في استخدام الألفاظ والكلمات والجمل المعبرة عن جو الأسى والحزن وتصوير مظاهر اللوعة والألم . مما أضفى على قصيدته مسحة من الصدق والإجلال بحيث تجبر القارئ لها على مشاركته جو الحزن على المصاب . ولو أردنا مثالاً على ذلك لكفتنا الأبيات التي ذكرها حافظ في مطلع القصيدة . ففي البيت الأول يقول حافظ :

إيه ياليل هل شهدت المصابا	كيف ينصب في النفوس انصبابا

ففي هذا البيت – على مفرده – حشد حافظ العديد من الألفاظ المعبرة عن جو الفاجعة العظيمة والمصيبة الكبرى التي نزلت بمصر وأبنائها بفقد هذا الزعيم : فلفظ «إيه» ومايصحبه من التنهيد المعبر عن الألم ومن الزفرات الحارة نتيجة ما يمتلئ به القلب من حزن . ولفظ «الليل» المعبر عن الوحشة والظلام . ولفظ

«المصاب» الموحى بالجرح والمصيبة . وكلمة «انصبابا» المفعول المطلق المؤكد لفعله وما توحى به من امتلاء النفوس حزناً ولوعة . بجانب استخدام الشاعر لأسلوب الاستفهام المعبر عن جو الحيرة والقلق وعدم القدرة عن استيعاب المصيبة . هذه كلها أشياء ملأت الجو بنغمات الألم والحزن على هذا المصاب .

ومثل تلك الأبيات التى يخاطب فيها تلك الليل طالباً منه أن يجلل الوجود بالسواد . تلك التى يقول فيها حافظ :

قد ياليل من سوادك ثوباً	للدرارى وللضحى جلبابا
انسج الحالكات منك نقابًا	واحب شمس النهار ذاك النقابا
قل لها : غاب كوكب الأرض فى الأر	ض فغيبى عن السماء احتجابا

فنقرأ فى هذه الأبيات كلمات يشيع فيها جو الحزن والأسى الذى خيم على نفس الشاعر فطلب من الوجود حوله أن يشاركه هذا الحزن : فقدّ الليل من السواد ثوباً تلبسه الدرارى بل ويتخذ منه الضحى جلباباً له،ونسجه من الحالكات نقاباً يهديه لشمس النهار لتتوارى وراءه أسفاً وحزناً،وتغيب الشمس واحتجابها عن السماء ..... كل هذه أشياء تصور تلك الجو القاتم الذى يخيم عليه الحزن والأسى . والتى لاتجد لها فى قصيدة شوقى أثراً مما يؤهل قصيدة حافظ للتفوق والبراعة .

هذا عن قصيدة شوقى فى رثاء سعد زغلول وموازنتها بقصيدة حافظ .

ـ أما عن قصيدة الشاعر محمد عبد المطلب فقد جاءت معبرة عن عاطفة الشاعر الحزينة وقلبه الجريح الذى رأى فى موت سعد زغلول كارثة كبرى حلت بالأمة ولكنها رغم هذا لم تبلغ فى جودتها وجمال تصويرها مابلغته قصيدة حافظ فى ذلك .

ـ فقد ملأ محمد عبد المطلب قصيدته بالحديث عن حزنه وحزن مصر وأهلها على الفقيد وتحدث فى قليل من أبياتها عن جهاد الزعيم فى سبيل بلاده حديثاً عاماً . وفى بعضها الآخر عن فضل الزعيم على أبناء مصر وفى غرس الروح الوطنية فى نفوسهم ولم يتحدث عبد المطلب عن جهاد الزعيم حديثاً منظما يوفى بما قام به فى هذا الميدان كما فعل حافظ أو حتى شوقى .

وهذه بعض المعانى التى تحدث عنها عبد المطلب فى قصيدته ومقارنتها بما جاء عند حافظ إبراهيم .

- تحدث عبد المطلب كثيراً عن حزن أبناء مصر على الزعيم المرثى وماألم بهم من أسىً ولوعة بعد رحيل سعد . وهذا بعض ماقال فى هذا الشأن :

نعى الناعى بجنح الليل سعداً	فيا لله مافعل الصباح
جموع بالعراء مدلهات	يموج بها على السعة البراح
وأفئدة خوافق داميات	تفرّىٰ فى جوانبها الجراح
وأفئدة أجفّ الدمع فيها	جوىً بالضلوع له التياح
وأبصار سكرن فلا انطباق	ترف به الغداة ولا انفتاح
ووادٍ ترزم الجلبات فيه	تنوء برزئه رحب وساح
فلا تلم النفوس جرين دمعاً	وراء الظاعنين غداة راحوا
أتلحا أمة ثكلت أباها	أضلهم الحجا فبكوا وناحوا
إذا كتموا الأسى حذراً الحت	عليهم لوعة البلوىٰ فناحوا

ورغم ماتشع به هذه الأبيات من حزن بالغ ولوعة شديدة وبكاء ونواح فإنها لا ترقى - فى رأيى - إلى أبيات حافظ فى هذا المجال من مثل قوله :

قدر شاء أن يزلزل مصراً	فتغالى فزلزل الألبابا
حال لون الأصيل والدمع يجرى	شفقاً سائلاً وضحىً مذابا
وسها النيل عن سراه ذهولاً	حين ألفى الجموع تبكى انتحابا
خضب الشيب شيبهم بسوادٍ	ومحا البيض يوم مت الخضابا
واستهلت سحب البكاء على الـوادى فغطت خضراءه واليبابا	

والسبب فى ذلك أن حزن أبناء مصر فى قصيدة عبد المطلب حزن ظاهرى . حزن من العين وما تذرفه من دموع . ومن الفم وما يخرج منه من نواح ونحيب . ولكنه لم يبين لنا تأثير هذا الحزن على قلوب أبناء الشعب ونفوسهم وعلى معالم الوادى ومظاهر الطبيعة .

- كما تحدث الشاعر محمد عبد المطلب عن الصفات الطيبة التى اتصف بها الزعيم الراحل والتى فقدت بفقد من اتصف بها . وهذه بعض أبياته فى ذلك :

بروحى ملء صدر الدهر لما	ثوى بالرمس ليس له براح
فقدنا فيه عصمة واديه	وللأيام نحوهما طماح
فقدنا أمة فى ذات فرد	يضيق بمثله البلد البداح (١)
فقدنا فيه معدل كل رأى	إذا ماأعوز الرأى الصحاح
فقدنا فيه مأمن كل خوف	إذا ماالحى فزّعه الصباح
فقدنا فيه حكمة ذى أناة	إذا ماالحكم أعوزه النجاح
فقدنا فيه عزة ذى إباء	منيع حيه لا يستباح
فقدنا فيه عزمة ليث غاب	يخاف مضاءها الليث الوقاح

إلى آخر صفات سعد التى عددها عبد المطلب وكلها تدل على حسن الشمائل ورفعة الأخلاق وطيب الصفات .

وقد جاء فى قصيدة حافظ بعض الصفات التى ذكرها عبد المطلب وكان تصويره لها فى أغلب الأحيان يزداد بهاءً وحسناً عما جاء فى أبيات عبد المطلب . فنظير البيت الثالث من أبيات عبد المطلب المذكورة قول حافظ :

خرجت أمة تشيع نعشاً	قد حوى أمةً وبحراً عبابا

والفرق بينهما أن بيت عبد المطلب يبين أن الأمة قد فقدت فرداً يعدل أمةً . حيث يفيد قوله : «فقدنا أمة فى ذات فرد» أنهم فقدوا أمة فى شخص هذا الفرد — أى إنهم فقدوا فرداً ولكن هذا الفرد يعدل فى عظمته ورفعة شأنه أمة بأكملها . وأما حافظ فقد ذكر أن هذا النعش قد حوى أمة . أى أن هذا النعش لم يحو فرداً يعدل أمة كما ذكر عبد المطلب الذى يشم من كلامه رائحة تشبيه شخص سعد بالأمة بينما جاء كلام حافظ على سبيل الادعاء بأن الأمة كلها قد ماتت بموت سعد الذائد عن حماها وأمنها .

---

(١) البداح : المتسع من الأرض .

ثم إننا لانجد فى أبيات عبد المطلب فى الحديث عن صفات سعد زغلول مايعدل قول حافظ واصفاً ماتحلى به سعد من عزيمة وقوة :

عزمة لايصدها عن مداها ... مايصد السيول تغشى الهضابا

فهى تفوق ما شبه به عبد المطلب عزيمة سعد بعزيمة ليث غاب . فعزيمة سعد لايثنيها عن هدفها مايثنى غيرها . فهى كالسيل المندفع فى هضاب من الأرض لا يعوقه عن اندفاعه حينئذٍ أى عائق . أما الليث فمهما بلغت قوته فيمكن لأى إنسان مزود بالعقل والسلاح أن يصده عما اعتزم بل وأن يقضى عليه .

ثم اقرأ معى قول حافظ فى وصف سعد :

تقتل الدس بالصراحة قتلاً ... وتسقى منافق القوم صابا

وترى الصدق والصراحة دينًا ... لايراه المخالفون صوابا

تعشق الجو صافى اللون صحواً ... والمضلون يعشقون الضبابا

وبعد أن فصل حافظ كثيراً من صفات سعد أجمل الحديث عنها فقال :

حرمتنا المنون نيالك الوجه وذاك الحمى وتلك الرحابا

وسجايا لهن فى النفس روح ... يعدل الفوز والدعاء المجابا

وهذه كلها أبيات بلغت من البراعة والدقة مالا نراه فى قصيدة أخرى فى رثاء سعد زغلول .

- وتحدث عبد المطلب فيما تحدث فى قصيدته عن جهاد سعد زغلول وفضله فى إنكاء الروح الوطنية فى نفوس أبناء مصر وإيقاظهم من سباتهم حتى تحولوا إلى نار محرقة فى وجه المستعمرين فقال مبيناً التفاف المصريين حول مبادئه :

فإن أصبحت فى ركب كراع ... بذاك الرفوف الأعلى أراحوا

فما فى القوم بعدك من مريب ... له فى الخلف رائحة تراح

وكلهمُ إذا ماغبت سعد ... تحف به شمائلك الملاح

وكلهمْ لمصر أخٌ نصوح ... لها ثقة به ولها انتصاح

عهودك فى ضمائرهم وفاء ... وعقدك فى متاجرهم رباح

هم اعتصموا به وتوشحوه ... فلله اعتصام واتشاحُ

هذه أبيات رائعة فى تصويرها لأثر سعد فى أبناء مصر . وقد أتى حافظ فى قصيدته بما يشبهها . وله فى هذا المعنى أبيات رائعة يترجم فيها حافظ عما أحدثه سعد زغلول فى نفوس أبناء الشعب وتصوير آثاره فى هذه النفوس إلى حقيقة ملموسة برزت فى وقوفهم صفاً واحداً فى وجه الاستعمار وعدم اكتراثهم بأى عقاب أو تهديد يلجأ إليه المستعمر . يقول حافظ فى هذا المعنى :

فاحجبوا الشمس واحبسوا الروح عنا   وامنعونا طعامنا والشرابا
واستشفوا يقيننا رغم مانلقى فهل تلمحون فيه ارتيابا
قد ملكتم فم السبيل علينا   وفتحتم لكل شعواء بابا
وأتيتم بالحائمات ترامى   تحمل الموت جاثماً والخرابا
وملأتم جوانب النيل وعداً   ووعيداً ورحمة وعذابا
هل ظفرتم منا بقلب أبى   أو رأيتم منا إليكم مثابا
لا تقولوا خلا العرين ففيه   ألف ليث إذا العرين أهابا
فاجمعوا كيدكم وروعوا حماها   إن عند العرين أسداً غضابا

هذه ترجمة واقعية لآثار ذلك الزعيم فى أبناء شعبه وتصوير حىّ لما بثه فيهم من روح وطنية وتبصيرهم بالدفاع عن حق بلادهم ضد الاستعمار .
كانت هذه بعض الموازنات التى تبرز تفوق حافظ على كثير مما عبر به عبد المطلب عن مشاعره ومشاعر المصريين تجاه زعيمهم الفقيد .

- أما عن قصيدة على الجارم فى رثاء سعد فهى بحق صحيفة تمجيد لجهاده ونضاله ضد الاستعمار بل وتلخيص لفترات حياته كلها . وهى قصيدة أثارت انتباهى بما فيها من حديث منظم وتصوير بارع لكل مايتصل بحياة سعد ورثائه . وهى من هذه الناحية تتفوق على قصيدتى عبد المطلب وشوقى وتقترب فى كثير من صورها ومعانيها مما جاء فى قصيدة حافظ بل وتتفوق فى بعض ماجاء فيها على بعض ما جاء فى قصيدة حافظ .
- تحدث على الجارم فى بداية القصيدة عن فداحة المصيبة وعظم المصاب .

ويعجبنى من أبيات هذا الجزء قوله :

ماكان سعد آية فى جيله　　　سعد المخلد آية الأجيال

هذا البيت الذى يثبت خلود سعد زغلول بخلود مصر وبقائه ومزاً للحرية والكفاح الوطنى على مر الأجيال . وقد خلت من هذا المعنى قصيدة حافظ .

ـ وانتقل الجارم من حديثه عن هذا المعنى إلى الحديث عن جهاد مصر تحت قيادة سعد ثم عن جهاد الزعيم وقوة عزيمته فى الدفاع عن حق بلاده فى الحرية والكرامة وعدم اكتراثه بكل ماكان يفعله الاستعمار ضده من سجن ونفى وغير ذلك . ويعجبنى من أبيات هذا الجزء قوله :

ماراعه نفى ولا لعبت به　　　فى حب مصر زعازع الأوجال

ويرى الحتوف وقد ملأن طريقه　　　نار الحباحب أو وميض الآل

يزداد فى عصف الشدائد قوة　　　ويجول حين يضيق كل مجال

فهى أبيات تصور ثبات سعد وشدة تمسكه بمبادئه وتحمله للأهوال فى سبيل استرداد كرامة بلاده . وهى أبيات تقترب كثيراً من أبيات حافظ وهو يقول :

قد تحديت قوة تملأ المعمور من هول بطشها إرهابا

تملك البر والبحار وتمشى　　　فوق هام الورى وتجبى السحابا

لم ينهنه من عزمك السجن والنفى وساجلتها بمصر الضرابا

كلما أحكموا بأرضك فخاً　　　من فخاخ الدهاء خابوا وخابا

أو أطاروا الحمى يوماً لزجل　　　قابلوا منك فى السماء عقابا

وإن كانت أبيات حافظ أقوى تصويراً لما تحمله المرثى من أهوال واستهانته بذلك فى سبيل استقلال مصر وحرية أبنائها .

ـ وانتقل الجارم من حديثه عن جهاد سعد وثبات جأشه فى ميدان الكفاح ضد الاستعمار إلى الحديث عن اعتراف الناس على اختلاف طوائفهم حتى خصومه بجلال الزعيم وعظمته . فخصمه كنصيره فى إجلاله وتمجيده :

خصم شريف نال من خصمائه　　　مانال من إجلال كل موالى

وهو معنى يدل على ماكان يتمتع به سعد زغلول من منزلة عالية فى نفوس كل

المصريين حتى خصومه منهم . وهو معنى لم نجد عند غيره من الشعراء المذكورين منه شيئاً .

- وتحدث الجارم بعد ذلك عن بلاغة الزعيم وقوة ألفاظه في خطابته وشدة تأثير كلمه في السامعين . وقد فصل القول في ذلك وأعطاه حقه من الشرح والتبيين . ويعجبني في ذلك قوله مشبها الزعيم في بلاغته وقوته الخطابية بالإمام عليّ – كرم الله وجهه – في بلاغته وفصاحته .

إن قام يخطب قلت حيدرة انبرى ... للقول في سمت وصدق مقال

إعجاز عارضة ونور بديهة ... وبديع تنسيق وحسن صقال

يختار من آى الكلام جواهراً ... درر البلاغة كاسمهن غوالى

وأشار حافظ إلى بلاغة الزعيم وقوة خطابته إشارة خفيفة مختصرة فقال :

قد بلوناك قاضياً ووزيراً ... ورئيساً ومدرهاً خلابا

فوجدناك من جميع نواحيك عظيماً موفقاً غلابا

وبيتا حافظ لا يفيان بتوضيح المعنى وتصويره كما ينبغى أن يكون . وأفضل منهما أبيات الجارم في ذلك . حيث ذكر أولاً مميزات خطابة سعد وماتتسم به ثم تحدث عن أثر هذه الخطابة في السامعين .

- وخلص الجارم من الحديث عن بلاغة الزعيم وقوة لهجته الخطابية إلى الحديث عن صفاته وحلو شمائله وطيب أخلاقه . ومن قوله في ذلك :

نفس كأنفاس الملائك طهرت ... وشمائل أحلى من السلسال

وخلائق كالزهر سار عبيره ... مابين أمواهٍ وبين ظلال

وحديث الجارم هنا جاء قاصراً عن حديث حافظ وطيب أخلاقه وحسن شمائله في أبيات كثيرة من قصيدته ذكرنا بعضها قبل قليل .

- ولم ينس الجارم أن يتحدث عن سعد زغلول القاضي وتفصيل القول في عدله وإنصافه ونصرته للحق . في حين لم يشر حافظ إلى هذا المعنى إلا بإشارة قصيرة في البيت المذكور آنفا وهو :

قد بلوناك قاضياً ووزيرًا ... ورئيساً ومدرهاً خلابا

وأبيات الجارم أفضل في توضيح المعنى وبيان حنكة المرثي في نصرة الحق وإظهار الحقائق . ومن أبيات الجارم في هذا المعنى قوله :

يزن الكلام كما يوازن صيرف في النقد مثقالاً إلى مثقال
وإذا الحقيقة أظلمت أسدالها صدع الدجى فبدت بلا أسدال
جمع القلوب على الوفاق وصانه من وهن رعديد وطيش مغالي

- وبعد أن تحدث الجارم عن الزعيم في مراحل مختلفة من حياته أبان عن الحلقة الأخيرة من هذه الحياة وهي فترة مرضه الذي مات فيه فوصف ماألم به في هذا المرض من آلام . ووفق الجارم في تصوير وفود الناس إلى دار سعد للاطمئنان على صحته . فصورهم بزمر الحجيج في وفودهم جماعات إلى البيت الحرام . ويعجبني من أبيات هذا الجزء قوله :

والشعب يسأل : كيف سعد؟ ماله؟ والناس في نعر وفي بلبال
يفدون للبيت الكريم كأنهم زمر الحجيج تسير في أرسال

ولم يشر حافظ في قصيدته إلى مرض سعد وماعاناه من آلام غير إشارة خفيفة في قوله حاكياً مانطق به سعد مجيباً على بعض من سأله عن صحته وهو على فراش المرض :

حين قال : انتهيت . قلنا بدأنا نحمل العبء وحدنا والصعابا

وليس في هذه الإشارة الخفيفة مايصور لنا معاناة الزعيم مما أصيب به من آلام أثناء مرضه وأفضل منها أبيات الجارم في ذلك .

- وينتقل الجارم بعد ذلك إلى تصوير حزنه على الزعيم الفقيد ويعترف بقصور شعره في التعبير عن مدى الحزن الذي امتلأ به صدره . ولم ينس في هذا المجال أن يعبر عن تخوفه على الأمة المصرية بعد رحيل زعيمها وباعث نهضتها ومزكي روح النضال في نفوس أبنائها:

ياأيها الناعي ! حنانك ! إنما هي أمة أضحت بغير ثمال
ماذا تقول وللرزيئة روعة تغني بلاغتها عن الأقوال
من كان يرثي أمةً في واحدٍ تكفيه بارقة من الإجمال

ومهما بلغت هذه الأبيات فيما صورته من حزن وكمد فلن تبلغ فى تصويرها ودقة تعبيرها مابلغته أبيات حافظ وماامتلأت به من حزن الشاعر وتدلهه بعد سماع خبر وفاة الزعيم . وهى تلك الأبيات التى سبق ذكرها أكثر من مرة فيما مضى من البحث المبدوءة بقول حافظ :

أين سعد ؟ فذاك أول حفل — غاب عن صدره وعاف الخطابا

- وتحدث الجارم بعد ذلك عن نعش الفقيد ونقل جثمانه إلى قبره . وأبدى اعتراضه على حمله على المدافع وطالب بأن يحمله أولى الناس بحمله فى هذا اليوم وهم جنده الذين طالما حملوه على أكتافهم فى غزواته فما أحراهم بحمله اليوم بعد وفاته :

لا تحملوه على المدافع إنما — فخر الزعيم قيادة الأعزال

أجدر بمن حملوه فى غزواته — أن يحملوه عشية الترحال

وأحسن من ذلك تصوير حافظ الذى جعل من حمل جثمان سعد على المدافع دليلاً على عجز الرقاب عن حمله لعظمته وجلاله . ولاغرو فهذا النعش يحوى أمة بأكملها لا فرداً واحداً :

حملوه على المدافع لما — أعجز الهام حمله والرقابا

ويختم الجارم قصيدته بدعوة أبناء الشعب إلى السير على الطريق الذى بدأه الزعيم الخالد . فلقد رسم طريق الهدى وتحقيق جلائل الأعمال ونصب لهم من أخلاقه ومن جهاده خير مثال يسيرون على هديه ويقتدون به . فهم أبناؤه الذين لم ينسل غيرهم وعليهم أن يتركوا الحزن جانباً ويتخذوا من جهاده قدوة لهم :

سيروا على سنن الزعيم فإنه — سنن الهدى وجلائل الأعمال

قد خط من أخلاقه وجهاده — للفتية السارين خير مثال

إن كان لم ينجل فإن له بكم — عدد النجوم الزهر من أنجال

وقد تخطى حافظ هذه الدعوة فى قصيدته وأخبرنا بأن أبناء الأمة قد اهتدوا بهدى الزعيم وساروا على طريقه فكشفوا بهديه كل خافٍ وحسبوا لكل شىء

حسابه ومشى أبطال الأمة الذين خلفهم سعد إلى مقصدهم الأسمى يبتنون العلا ويشيدون المجد ويسعدون البنين والأعقاب :

ليت سعداً أقام حتى يرانا نعلي على الأساس القبابا
قد كشفنا بهديه كل خافٍ وحسبنا لكل شيءٍ حسابا
ثم خلفت بالكنانة أبطا لاً كهولاً أعزة وشبابا
قد مشى جمعهم إلى المقصد الأسمى يغذون للوصول الركابا
يبتنون العلا يشيدون مجداً يسعدون البنين والأعقابا

ولا شك أن تجاوز حافظ المرحلة التى تحدث عنها الجارم جعل أبياته تتسم بالقوة وحسن الأداء . فلقد أبانت عن أثر الزعيم المباشر فى أبناء شعبه فعرفوا طريقهم إلى الحرية والكرامة . وليست كذلك دعوة الجارم فى أبياته التى تفيد أن مبادىء الزعيم وجهاده لم يثمرا فى شعبه بعد . والشاعر هنا يؤدى دوره فى تنبيههم إلى هذا الطريق حتى يجنوا هذه الثمرة .

وهكذا جاءت قصيدة حافظ فى رثاء سعد زغلول تحمل الكثير من معانى التفوق والبراعة على كثير مما قيل فى رثاء هذا الزعيم الخالد وامتلأت بكثير من الأبيات التى تؤهلها لتكون رائدة القصائد التى قيلت فى رثاء سعد زغلول . وصدق الدكتور حسن الكبير حينما قال عن قصيدة حافظ هذه (١)

«إنها مقالة صدق وتسجيل رائع لجهاد الزعيم الشعبى (سعد زغلول) وبيان لحنكته السياسية ومواقفه البطولية الرائدة . نحسها وهى تتراءى أمامنا فى هذا التجسيم النابض بالشعور الدافق والإحساس الصادق» .

وهكذا يظهر من عرضنا السابق لقصائد بعض الشعراء فى رثاء الشخصيات المختارة والموازنة بينها وبين ما قاله حافظ إبراهيم فى هذا الميدان تفوق حافظ على معظم ما قاله معاصروه فى رثاء هذه الشخصيات .

---

(١) تطور القصيدة الغنائية فى الشعر العربى الحديث /٩٥ .

تعقيب

بعد هذه الموازنات اليسيرة بين شعر حافظ في رثاء بعض الشخصيات الأدبية والعلمية والسياسية وشعر معاصريه في ذلك يمكن لنا أن نحكم ـ مطمئنين — بتفوق حافظ — بصفة عامة على شعراء عصره في مجال الرثاء · وفي هذه الصفحات المتبقية بيان لأهم أسباب تفوق حافظ في رثائه على معاصريه بصفة عامة وعلى رفيقه في مشواره الأدبي شوقي بصفة خاصة ·

وقد فضل حافظ شعراء عصره في فن الرثاء بما تميز به من صدق اللوعة وشدة إحساسه بالألم لفقد من يرثيهم · فقد كان حافظ — كما ذكرت من قبل — سريع التأثر تنطوي نفسه على حزن دفين تظهر آثاره واضحة على مايقوله من شعر في رثاء أحد من ربطتهم به صلة مودة أو علاقة حب وصداقة · فكان يتفجع بكل شعوره وكان الألم الذي يصاب به نتيجة فقد أحد هؤلاء يستولي على نفسه كل الاستيلاء ·

وقد بين الأستاذ مصطفى صادق الرافعي بعض أسباب تفوق حافظ في فن الرثاء وهو يتمثل في «حقيقة الغرض الذي ينظم فيه وتركه الحوشي والزيادات وانصراف قواه إلى دقة الوصف حين يصف وتعويله على إحساسه أكثر من تعويله على فكره · فزاد ذلك في رونق شعره ومائه ونحابه منحى المطبوعين فخرج يتدفق سلاسة وحلاوة ممتلئاً من صواب المعنى وبلاغة الأداء وقوة التأثير.وبهذا نبغ في الرثاء ووصف الفجائع نبوغاً انفرد به حتى لأحسب أن هناك روحاً يمده في هذه المواقف · وأن الحقيقة تتبرج له في هذه المظالم خاصة ليرى منها مالايراه غيره · وهو يتحد بالعظيم الذي يرثيه فيجيد فيمن يعرفه إجادة منقطعة النظير · تتبين الفرق بينها وبين شعره فيمن لايعرفه تلك المعرفة وأحسبه يسأل روح العظيم الذي يصفه أو

يرثيه : أين المعنى الذى فيه حقيقتك ؟ وأين الحقيقة التى فيها معناك ؟». (١)
وقد زاد الدكتور طه حسين هذه الأسباب وضوحاً فقال وهو يتحدث عن إجادة حافظ فى فن الرثاء وتفوقه على شعراء عصره فى هذا الفن : (٢)

« وكانت نفس حافظ – رحمه الله – تمتاز بشيئين أتاحا له إجادة الرثاء وإتقانه والبراعة فيه . كانت قوية الحس كأشد ماتكون النفوس الممتازة قوة حس وصفاء طبع واعتدال مزاج . وكانت إلى ذلك وفيّة راضية لاتستبقى من صلاتها بالناس إلا الخير . ولا تحتفظ إلا بالمعروف ولا ترى للإحسان والبر جزاءً يعدل الإشادة به والثناء عليه ونصبه للناس مثلاً يحتذَى ونموذجاً يتأثر . وكانت إلى هذا وذاك ترى ديناً عليها – لا أقول لنفسها ولا أقول للناس وإنما أقول للفن والحق والتاريخ – ألا ترى خيراً إلا سجلته ولاتحس معروفاً إلا أذاعته . كأنما كان الذين يحسنون إلى أنفسهم أو إلى خاصتهم أو إلى جماعة من الناس قليلة أو كثيرة يحسنون إلى حافظ نفسه . وكأنما كان حافظ يؤمن بأن من الحق عليه أن يشكر للمحسن إحسانه ويسجل لصاحب المعروف معروفه مهما يكن مصدر هذا الإحسان والمعروف ومهما يكن موضوعها . فهذا أحد الأمرين اللذين كانت تمتاز بهما نفس حافظ : حس قوى دقيق وخلق رضى كريم . فأما الأمر الآخر فصلة غريبة متينة بين هذه النفس القوية الكريمة وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه وآماله ومثله العليا .

رحم الله حافظا! لم يكن فرداً يعيش نفسه بنفسه وإنما كانت مصر كلها بل الشرق كله بل الإنسانية كلها فى كثير من الأحيان تعيش فى هذا الرجل : تحس بحسه وتألم بقلبه وتفكر بعقله وتنطق بلسانه . ولا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعراً جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ ـ رحمه الله ـ ..... فليس غريباً أن تقع الكوارث من نفسه أشد وقع وأن تثير فيها عواطف لذاعة من الألم

---

(١) وحى القلم ٣/٢٧٩ .
(٢) ذكرى الشاعرين – تقديم أحمد عبيد / ٣٦ ، حافظ وشوقى / ١٣٤.

والحسرة ومن الحزن واللوعة · وليس غريباً أن ينطق لسانه بالشعر فى تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك ما يريد فى غير مشقة ولا عناء » ·

ويبين الدكتور طه حسين أن تفوق حافظ على شعراء عصره فى فن الرثاء يكمن فى الفرق بينه وبينهم فى صدق القول والشعور والإحساس وصدق الهدف من وراء هذا القول · يقول الدكتور طه موضحا ذلك [١]

« فبين شعرائنا فى هذه الأيام من يرثون فيحسنون الرثاء ويجيدون وصف الفقيد الراحل وتعديد خلاله ومآثره ويتقنون وصف الحزن عليه والأسى لفراقه ويبلغون البراعة فى ضرب الأمثال السائرة وإرسال الحكم البالغة ويجمعون من هذا كله ما يحسن وقعه فى القلوب وما يلذ الأسماع والعقول معاً.ولكنهم لا يثيرون على ذلك كله ما فى النفوس من عواطف الحزن الكامنة ولا يذرفون من العيون هذه الدموع الغزيرة كما كان يفعل حافظ لأن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن عن غير حزن صادق ويندبون ولكن عن غير لوعة محرقة · هم يقصدون من الرثاء على أنه فن من فنون الشعر يجب أن يساهموا فيه على أن مكانتهم الأدبية تضطرهم إلى أن تكون لهم فى الرثاء كلمة مسموعة · أما حافظ فكان يرثى لأنه يحزن وكان يحزن لأنه يحب وكان يحب لأن الله قد وهبه نفساً رضية مؤثرة لم تبرأ من شئ قط كما برئت من الأثرة وكما برئت من الضغينة والحقد ».

وهكذا كان تميز شعر حافظ فى مجال الرثاء بالصدق وبالتعبير عن شعور حقيقى،واتصاف حافظ نفسه بالوفاء وامتزاج نفسه بنفوس أبناء شعبه من أسباب تفوقه على شعراء عصره بصفة عامة فى هذا الفن ·

أما عن الرثاء بين حافظ وشوقى فيتضح من قراءاتنا لشعر كل منهما تفوق حافظ على شوقى فى هذا الفن · ولم يستطع شوقى رغم براعته الشعرية أن يلحق بحافظ فى

---

(١) ذكرى الشاعرين / ٣٧ . حافظ وشوقى / ١٣٦ .

جودة رثائه وبلوغه فيه درجة عالية من السمو والكمال . وقد كان هناك من المؤثرات ماجعلت شوقي يتأخر عن حافظ في هذا الميدان «فقد كان ذا شخصية غامضة يعجز المرء عن الوصول إلى أغوارها ولم يصادف في حياته شيئاً من ضيق العيش وعسر الحال وارتبطت حياته بالقصر مما اضطره إلى أن يرسم لنفسه طريقاً خاصاً لا يجر عليه غضب الحاكم . ولذلك فقد خلت حياته تقريباً من المنغصات التي تجعله يبكي في رثائه ويبكي من يستمع إلى هذا الرثاء . فهو لايذوب أسى وحسرة على الراحلين ولا يتحدث عن نفسه في معرض الحزن والبرحاء كما كان يفعل حافظ . ولكنه كان يجعل من المرثي وسيلة للتحدث في الحياة وفلسفتها وتفاهتها ونهاية الدنيا . ويتخذ من ملابسات المرثي وظروفه ميداناً للإفاضة في الأحداث الإنسانية الخاصة واستخلاص العبر منها . وقلما نحس في مراثيه باللوعة إلا في أحوال قليلة كرثائه لأمه ولمصطفى كامل وعمر لطفي وأمين الرافعي . لأن هؤلاء كانت تربطه بهم وشائج من القرابة أو التعلق الشديد أو التجاوب الفكري » (١)

وكان حافظ أقرب إلى الشعب وألصق بروح الأمة من شوقي . وساعده ذلك على أن يرى بوضوح آلام الناس وأن يشهد بؤسهم ويشاركهم آلامهم وفجائعهم على المرثي . أما شوقي فكان كثيراً ما يلجأ إلى الأقوال العامة أو الحكم التي يستخلصها من الموقف الذي ينشد فيه قصيدته يترجم بها عن انفعاله تجاه حادثة الموت والفناء . بدلاً من تعمقه في نفوس الناس والتعبير عن شعورهم واستبطان مابداخلهم .

وهناك شيء آخر جعل رثاء حافظ أقوى وأبلغ من كثير من رثاء شوقي وهو كثرة اختيار شوقي للأوزان الخفيفة القصيرة التي لاتتناسب مع وقار الرثاء ومواقف الحزن والبكاء . وهذا ما ساعد على تميز رثائه - في كثير من الأحيان - بالخلو من روح الشعور الصادق والإحساس المعبر عن امتلاء قلب قائله بالحسرة والمرارة والألم

---

(١) حافظ إبراهيم شاعر النيل . د/عبد الحميد سند الجندي / ١٤٥.

. وقد أشار الدكتور زكي مبارك إلى هذا المعنى فقال في حديثه عن أهم ماتسم به شعر شوقي وحافظ في فن الرثاء : (١)

« كأن في مصر رجلان يقال لهما حافظ وشوقي . وكان لذينك الرجلين ولوع بالحديث عن الموت وكان حافظ ينعى نفسه في كل مناسبة ويرحب بالراحة الأبدية . أما شوقي فكان يقف دائماً وقفة المتطلع ويتمنى لو حدثه الميت عما بعد الموت حتى كاد حديثه عما بعد الموت يعد من إحدى لوازمه في قصائد الرثاء ». كما أشار الدكتور طه حسين إلى تفوق حافظ على شوقي في ميدان الرثاء وتصوير آلام الشعب المصري وآماله . وإن كان شوقي قد تفوق على حافظ في موضوعات أخرى من شعره فقال : (٢)

« شوقي لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ولم يحسن ماأحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله . ولم يتقن ماأتقن حافظ من إحساس الألم وتصوير هذا الإحساس وشكوى الزمان . لم يبلغ شوقي من هذا ما بلغ حافظ . وهو بعد هذا أخصب من حافظ طبيعة وأغنى منه مادة وأنفذ منه بصيرة وأسبق منه إلى المعاني وأبرع منه في تقليد الشعراء المتقدمين . لأن حافظاً كان يقلد في الألفاظ والصور وكان شوقي يقلد فيها وفي المعاني أيضاً . ولشوقي فنون لم يحسنها حافظ وماكان يستطيع أن يحسنها . شوقي شاعر الغناء غير مدافع ، وشوقي شاعر الوصف غير مدافع ، وشوقي منشيء الشعر التمثيلي في اللغة العربية ».

ولكن شوقي تأخر عن حافظ كثيراً في فن الرثاء بما تميز به شعره في هذا الفن بفتور العاطفة وقلة اللوعة وعدم التعبير عن إحساس صادق بفقد المرثي .

---

(١) أحمد شوقي - بقلم زكي مبارك - إعداد كريمة زكي مبارك - طبعة دار الجيل - بيروت - ١٩٨٨م ص٢٤٧. من مقال نشر بجريدة البلاغ في ٢١ من أكتوبر ١٩٣٢م بعنوان : « شوقي - كلمة صدق في توديع أمير الشعراء ».
(٢) حافظ وشوقي / ١٩١.

وخلاصة القول فى شوقى وحافظ هو أنه - كما يقول الدكتور طه حسين - (١) «يلتقى الرجلان فى كثير ويفترق الرجلان فى كثير ولكنهما على كل حال أعظم المحدثين حظاً فى إمامة مجدنا الحديث».

---

(١) المرجع السابق /١٩٢.

أهـم المراجع

١ - القرآن الكريم .

٢ - أحمد شوقى .

بقلم زكى مبارك - إعداد : كريمة زكى مبارك - طبعة دار الجيل - بيروت ١٩٨٨م .

٣ - أسس النقد الأدبى عند العرب .

د / أحمد أحمد بدوى - دار نهضة مصر - ١٩٧٩م .

٤ - الإسلام فى الأدب العربى المعاصر .

د / إبراهيم عوضين - مطبعة السعادة بمصر - ١٩٨٧م .

٥ - تطور الأدب الحديث فى مصر .

د / أحمد هيكل-دار المعارف - الطبعة الثانية - ١٩٧١م .

٦ - تطور القصيدة الغنائية فى الشعر العربى الحديث .

د / حسن أحمد الكبير - دار الفكر العربى - ١٩٧٨م .

٧ - حافظ إبراهيم .

بقلم زكى مبارك - تقديم : كريمة زكى مبارك - سلسلة المكتبة الثقافية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م .

٨ - حافظ إبراهيم الشاعر السياسى .

روفائيل مسيحة - مطبعة الاعتماد بمصر - الطبعة الأولى ١٩٤٧م .

٩ - حافظ إبراهيم دراسة وتحليل ونقد .

د / حسين المهدى غنام - المطبعة الإسلامية بالإسكندرية - طبعة عام ١٩٤٥م

١٠ - حافظ إبراهيم شاعر النيل .

د / عبد الحميد سند الجندى - دار المعارف - الطبعة الثالثة - ١٩٨١م .

١١ - حافظ إبراهيم ما له وما عليه .

د / كامل جمعة - طبع مكتبة القاهرة الحديثة - الطبعة الثانية ١٩٦٠م .

١٢ - حافظ وشوقى .

حسن كامل الصيرفى - مطبعة المقتطف بالمقطم - طبعة عام ١٩٤٩م .

١٣ - حافظ وشوقي ٠

د / طه حسين ـ طبع الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ـ طبعة ١٩٧٤م ٠

١٤ - حركة البعث في الشعر العربي الحديث ٠

د / ماهر حسن فهمي ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٦١م ٠

١٥ - حياة حافظ إبراهيم ٠

أحمد محفوظ ـ مؤسسة نصار للتوزيع والنشر - القاهرة ـ بدون تأريخ ٠

١٦ - خصائص الشعر الحديث ٠

د / نعمات أحمد فؤاد ـ دار الفكر العربي ـ ١٩٨٠م ٠

١٧ - دراسات في الشعر العربي المعاصر ٠

د / شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر - الطبعة السادسة ٠

١٨ - الديـــوان

عباس العقاد وعبد القادر المازني ـ طبعة يناير ١٩٢١م ٠

١٩ - ديوان ابن الرومي ٠

تحقيق حسين نصار ـ مطبعة دار الكتب ـ ١٩٧٣م ٠

٢٠ - ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ٠

تصحيح : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، طبعة دار المعرفة ـ بيروت ـ بدون تأريخ ٠

٢١ - ديوان اسماعيل صبري باشا ٠

ضبط وشرح وتصحيح، الأستاذ أحمد الزين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٣٨م ٠

٢٢ - ديوان البارودي :

ضبط وشرح، محمود المنصوري ـ طبعة مطبعة الجريدة ـ وطبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة ٠ ضبط وشرح علي الجارم ومحمد شفيق معروف ـ ١٩٤٨م ٠

٢٣ - ديوان البحتري ٠

شرح وتحقيق : حسن كامل الصيرفي ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٧م ٠

٢٤ - ديوان الجارم ٠

علي الجارم بك ـ مطبعة دار المعارف بمصر ـ بدون تأريخ .

٢٥ - ديوان الخليل .

خليل مطران ـ مطبعة دار الهلال ـ ١٩٤٨م .

٢٦ - ديوان الكاشف

أحمد الكاشف ـ مطبعة الجريدة بمصر ـ ١٩١٣م .

٢٧ - ديوان النابغة الزبياني .

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ طبعة دار المعارف ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨٥م

٢٨ - ديوان حافظ إبراهيم .

تحقيق : أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ـ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٨٧م .

٢٩ - ديوان دعبل بن علي الخزاعي .

تحقيق : عبد الصاحب عمران الدجيلي ـ دار الكتاب اللبناني ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٢م .

٣٠ - ديوان سقط الزند .

أبو العلاء المعري ـ شرح وتعليق الدكتور : ن . رضا ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت لبنان .

٣١ - ديوان عبد المطلب .

شرح وتصحيح : إبراهيم الإبياري ـ وعبد الحفيظ شلبي . الطبعة الأولى ـ مطبعة الاعتماد ـ بدون تأريخ .

٣٢ - ديوان مسلم بن الوليد .

طبع مدينة ليدن ـ مطبعة بريل ـ ١٨٧٥م .

٣٣ - ذكرى الشاعرين .

تقديم وترتيب أحمد عبيد ـ طبع : عالم الكتب ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨٥م .

٣٤ - الرثاء .

د / شوقي ضيف ـ سلسلة فنون الأدب العربي ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة

الثالثة - ١٩٧٩م ·

٣٥ - رسالة الشعر فى خدمة الدعوة وحركات الإصلاح ·

د / عبد الرحيم محمود زلط - دار الفكر العربى - ١٩٨٣م ·

٣٦ - شعر الخنساء ·

تحقيق وشرح : كرم البستانى - دار السيرة - بيروت - الطبعة الثانية -١٩٨٢م

٣٧ - الشعر المصرى بعد شوقى :

د / محمد مندور - مكتبة نهضة مصر - ١٩٤٥م ·

٣٨ - شعر شوقى الغنائى والمسرحى ·

د / طه وادى - طبعة دار المعارف - الطبعة الثالثة ·

٣٩ - الشوقيات ·

أحمد شوقى.دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٥م ·

٤٠ - العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ·

ابن رشيق القيروانى - تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد - دار الجيل -

بيروت - الطبعة الرابعة - ١٩٧٢م ·

٤١ - عمرية حافظ بك إبراهيم ·

تقديم محمد بك الخضرى - شرح عبد الحميد حمدى - المطبعة الرحمانية

بمصر - بدون تأريخ ·

٤٢ - الفكاهة فى مصر ·

د / شوقى ضيف - سلسلة اقرأ - طبعة دار المعارف - الطبعة الثالثة -١٩٨٨م

٤٣- فى الأدب الحديث ·

د / عمر الدسوقى - دار الفكر العربى - الطبعة السادسة - ١٩٦٤م ·

٤٤ - لسان العرب

ابن منظور - طبعة دار المعارف ·

٤٥ - ليالى سطيح ·

حافظ إبراهيم - طبع مطبعة الإصلاح بمصر - الطبعة الأولى - ١٩٠٦م ·

٤٦ - مجلة أبولو ·

العدد الحادى عشر ـ المجلد الأول ـ يوليو ١٩٣٣م .

٤٧ – مجلة الثقافة .

العدد ١٠٩ ـ السنة العاشرة ـ أكتوبر ١٩٨٢م .

٤٨ – مجلة العربى الكويتية .

العدد ٢٨٦ ـ سبتمبر ـ ١٩٨٢م .

٤٩ – مرآة الجنان .

اليافعى ـ تحقيق : عبدالله الجبورى ـ مؤسسة الرسالة-الطبعة الأولى ـ ١٩٨٤م .

٥٠ – مقدمة ابن خلدون .

تحقيق الدكتور : على عبد الواحد وافى ـ دار نهضة مصر ـ الطبعة الثالثة ـ بدون تأريخ

٥١ – مقومات الشعر العربى الحديث والمعاصر .

د / محمود شوكت ، د / رجاء عيد ـ دار الفكر العربى.بدون تأريخ .

٥٢ – النجوم الزاهرة .

جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى ـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ـ ١٩٦٣م .

٥٣ – نظرات فى أدبنا المعاصر .

د / زكى المحاسنى ـ المكتبة الثقافية ـ طبعة عام ١٩٦٢م .

٥٤ – نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب .

أحمد بن المقرى التلمسانى ـ تحقيق : إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨م .

٥٥ – وحى القلم .

مصطفى صادق الرافعى ـ طبعة دار المعارف ـ الطبعة الثالثة ـ بدون تأريخ .

٥٦ – وطنية شوقى .

د / أحمد الحوفى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٧٨م

موضوعات الكتاب

وبحمد الله تم الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب

١٥٤٠ / ١٩٩٢م

وبحمد الله تم الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب

١٥٤٠/ ١٩٩٢م